الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الحاج لخضر
_ باتنة _

كلية الآداب و اللغات
قسم اللغة العربية وآدابها

النثر المغربي في القرنيين الرابع والخامس الهجريين

(دراسة تأصيلية فنية)

أطروحـــــــــة مقدمة لنيل درجة دكتـــــوراه العلوم في الأدب المغربي القديم

إعداد الطالب :
عبد المالك مغشيش

إشراف الأستاذ الدكتور:
عبد الرزاق بن السبع

السنة الجامعية
1436/1435هـ
2015/ 2014 م

مقـــدمة

إن الباعث الحقيقي على اختيار هذا البحث – النثر المغربي في القرنين الرابع والخامس الهجريين دراسة تأصيلية فنية– ، هو حسبنا أن نفي الحركة الأدبية بالمنطقة المغربية حقها الحضاري و الثقافي و الأدبي، و محاولة منا إماطة اللثام عن الموروث الأدبي والتيقن من وجود جذور لهدا النوع الأدبي وبعثها من جديد. ولن يتم ذلك إلا من خلال إلقاء الضوء بصفة مباشرة ومركزة على الفنون النثرية ومضامينها لهذه الفترة الهامة التي مرت بها المنطقة، والتي تعتبر فترة ازدهر فيها الأدب ضمن إطاره الزماني عموما– ازدهار النثر في المشرق العربي في القرنين الرابع والخامس الهجريين– والنثر خصوصا و تقدم تقدما كبيرا وسمت معانيه وأساليبه وترقت فنونه واتسعت أشكاله .

وقد ارتأيت أن أخوض في الجانب النثري في القرنين الرابع والخامس الهجريين، لما وجدته من نقص في مثل هذه الدراسة في ظل القرنين الرابع والخامس الهجريين ،و من المؤكد أن هذه الفترة باختلافاتها السياسية والمذهبية كان لها الأثر على النثر المغربي بأشكاله ومضامينه وخصائصه الفنية عبر العصور التي تلت.

ولعل الولوج إلى هذا الموضوع بهذه الصورة المقترحة، يعود أساسا إلى وقوفي على جملة من الدراسات السابقة، والتي اتسم بعضها بطابع التعميم ،من مثل:"مجمل تاريخ الأدب التونسي"، و"ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية "لحسن حسني عبد الوهاب" و"النثر الفني في القرن الرابع" لزكي مبارك و"تاريخ الثقافة والأدب في المشرق والمغرب" لعبد الله شريط، و"المغرب العربي تاريخه و ثقافته" لرابح بونار.أو التي اكتفت بدراسة فترة تاريخية معينة، مثل "الحياة الأدبية بافريقية في عهد بني زيري "للشاذلي بويحيى"،و "الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي"لمحمد اليعلاوي ،و "دولة بني حماد صفحة رائعة من التاريخ الجزائري" لعبد الحليم عويس". أو دراسة فن من الفنون النثرية، من مثل دراسات: محمد زغلول سلام "الأدب في العصر الفاطمي"الكتابة و الكتاب"،و أحمد يزن "النقد الأدبي في القيروان في العهد الصنهاجي"، و معمر حجيج وآخرون"فن الإخبار والسرد في التراث النثري المغربي (من القرن الرابع إلى السادس الهجري)".

وعليه جاءت دراستي لتحاول الجمع والتوفيق بين الدراسات السابقة مستندة إلى الدراسات والكتب القديمة كمصادر عايشت التجربة الأدبية عن قرب، ثم تشد جسور التواصل

بينها وبين الدراسات الحديثة، لتشكل تصورا جامعا للقديم والحديث؛ من خلال عرض البيئة التي أنجبت النص الأدبي وما تحمله من صراعات مذهبية وسياسية وفكرية، ثم الكشف عن الخصائص العامة للنص وجمالياته اللغوية والأسلوبية .

ومن هنا يمكن حصر أهداف هذا البحث، فيما يأتي:

- الكشف عن النثر المغربي في القرنين الرابع والخامس الهجريين من حيث أشكاله ومضامينه وخصائصه الفنية .

- مدى ارتباط أدب هذه الفترة بالدويلات التي حكمت المنطقة خلال القرنين الرابع والخامس هجريين باعتباره سجل للحدث و الفكر السياسي ، وهل كان مجرد ظاهرة طارئة تعلق ازدهارها بالمنح والعطايا التي كان يمنحها أمراء الدويلات للكتاب والأدباء، أم أنه إبداع حقيقي واكب الحركة الفكرية والثقافية في ذلك العصر.

-تسليط الضوء على التاريخ الأدبي لبلاد المغرب الإسلامي بما يحمله من صراع فكري و مذهبي و سياسي كونه القاعدة الأساسية التي انطلق منها الأدب في رحلته نحو الرقي الفني والجمال الأسلوبي .

-نحاول الربط بين الواقع السياسي والواقع الأدبي من خلال مشاركة الأدباء في صنع القرار السياسي وإبراز مكانة النثر وأشكاله الفنية ضمن هذا التداخل.

- البحث عن قراءة جادة للموروث الأدبي المغربي بصورة عامة والنثر وأشكاله الفنية بصورة خاصة.

و موضوع النثر المغربي في القرنين الرابع والخامس الهجريين، يطرح أكثر من تساؤل ويجيب في نفس الوقت عن كثير من التساؤلات،ولعل ابرز الإشكاليات المطروحة للبحث تتمثل في الآتي:

-ما مدى تمكن النص النثري والأنواع الأدبية من نقل وتصوير الواقع الحضاري بكل تداخلاته وتعقيداته المذهبية والسياسية خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين في منطقة المغرب الإسلامي؟ وما مدى تأثير النواحي الاجتماعية والفكرية والسياسية على الأشكال النثرية وما مدى تأثر الأشكال النثرية بها أيضا ؟

-ماهي أهم الأشكال النثرية التي عرفت في القرنين الرابع والخامس الهجريين وماهي أهم مضامينها وخصائصها الفنية؟

-وهل هناك أشكال نثرية جديدة ظهرت وهل هناك أخرى اختفت؟

-ما مدى استغلال الدويلات للأدب في نشر أفكارها وسياساتها ونصرتها ؟

-وهل هذا التنوع في الأشكال النثرية والذي زخرت به الساحة الأدبية هو ذاتي مصدره النص فقط أم هو حالة طارئة فرضها الواقع الخارجي والظروف السياسية والفكرية في ذلك ؟ وهل ارتقت تلك الأشكال النثرية إلى درجة الفنية،أم هي تقليد لمن سبقهم ومحاكاة لهم؟ أم أفقدتها الصراعات المذهبية والسياسية فنياتها ؟.

- ما هي مكانة الأدباء المغاربة في القرنيين الرابع الخامس الهجريين بين نظرائهم في المشرق والأندلس ، وما مقدار ذوقهم الأدبي ؟

والحقيقة أن الإجابة عن هذه الأسئلة والإشكاليات لم يتأتى لي بالسهولة التي كنت أرجوها فقد واجهتني صعوبات جمة تتمثل أساسا في هذا التداخل بين موضوعات الدراسة التي تؤدي إلى تشتيت جهد الباحث من جهة ،ومن جهة أخرى الغزارة التي يحتويها من عناصر وأشكال نعتبرها صالحة لبحوث مستقلة بذاتها من مثل:الخطابة،المناظرات ،النثر التدويني التأليفي ...وغيرها .

أما أكبر الصعوبات التي واجهتني في مراحل إعداد هذا البحث فتكمن أساسا في عدم الحصول على المصادر النادرة والمفقودة من المكتبات ، يضاف إلى ذلك قلة المراجع التي تعنى بالنثر المغربي في العهود الأولى والعناء في جمعها لتنوعها ما بين تاريخية،أدبية، نقدية ،لغوية وفقهية ،ومع ذلك فقد حاولت جهدي أن أحصل على ما تيسر منها.

ومن المصادر التاريخية مثلا:"الكامل في التاريخ" لابن الأثير،و كتاب "العبر" و"المقدمة" لابن خلدون،"أخبار ملوك وأمراء بني عبيد" لابن حماد الصنهاجي ،و"اتعاظ الحنفاء" للمقــريزي ،و"معالم الإيمان" للدباغ كتب الرقيق القيرواني ...وغيرها .

أما كتب الطبقات و تراجم الأعلام فمنها:"سير أعلام النبلاء" و"الكاشف" للذهبي ، "ترتيب المدارك وتقريب السالك لمعرفة أعلام مذهب مالك" للقاضي عياض، و"المجالس والمسايرات" و

"افتتاح الدعوة" للقاضي النعمان "طبقات علماء إفريقية وتونس" لابن العرب رياض النفوس للمالكي وغيرها.

أما الأدبية فكان منها زهر الآداب وثمر الألباب لأبي إسحاق الحصري و أنموذج الزمان في شعراء القيروان والعمدة في محاسن الشعر وقراضة الذهب في نقد أشعار العرب **لابن رشيق** وأعلام الكلام لابن شرف...وغيرها.إلى جانب بعض الأسانيد التي تغلب عليها صبغة دينية منها:"افتتاح الدعوة"و" المجالس و المسايرات" للقاضي النعمان ،"الملل والنحل" للشهرستاني،"متن الرسالة" لأبن أبي زيد القيرواني ...وغيرها.

وعموما فقد أفدت من المصادر القديمة في الحصول على المادة الأولية والكثير من الإشارات التاريخية والحضارية، و من المراجع الحديثة في فنيات الدراسة وتوضيح معالم النص.

وعليه اتبعت الدراسة المنهج التاريخي في تتبع مسار النثر المغربي خلال الفترة الزمنية المدروسة، أما الدراسة الفنية التحليلية للنص فقد أخذت عن الأسلوبية ما يمكن أن يظهر الفنيات والجماليات الأسلوبية الخاصة في هذا النص.

من هنا جاء هيكل الدراسة على النحو الآتي:

- الفصل التمهيدي: كان رسما لأهم الروافد المشكلة للبنية الفكرية و الثقافية و الأدبية في القرنيين الرابع و الخامس الهجريين، من خلال أبرازنا لدور أمراء الدول المتعاقبة على المنطقة في هذا العصر في الإقــبال على المعــارف والاشتغال بالعلوم والآداب و العناية بالأدباء و العلماء، ودور الحواضر العلمية في نهضة الآداب واستقطاب أهل الأدب و العلم ، والرافد المذهبي ودوره في اشتداد التنافس العلمي و الأدبي بين دعاة كل طائفة وتوظيف الدب في خدمة المذهبية.و الرافد الأخير هو تعريب المنطقة مع توافد القبائل الهلالية وأثره في الأدب المغرب .

كما وقفنا عند بعض من جوانب الحياة الفكرية و الثقافية و الأدبية في القرنيين الرابع و الخامس لتشكل لنا رؤية واضحة عن الجو الذي نشأ من خلاله الأدب المغربي.

- الباب الأول (الأشكال النثرية غير السردية): كان مخصصا للنثر وموضوعاته وأغراضه حيث أشرت إلى أهم الفنون غير السردية البارزة في تلك الفترة الزمنية مع التركيز على أهمها وأكثرها شيوعا:الخطابة، المناظرات، الوصايا والتوقيعات، لأضع القارئ ضمن مجال واضح

وواسع للرؤية وذلك بإيراد كل شكل نثري بموضوعاته وأغراضه مع تقديم تاريخي موجز له،ثم ألحقت ذلك بدراسة موضوعاتية تبحث في خصائص محتوى الشكل النثري اعتماد على النصوص التي تمكنت من الوصول إليها،لأصل إلى مجموعة من النتائج التي استخلصتها في هذا الباب.

- الباب الثاني (الأشكال النثرية السردية) : خصصته لدراسة مختلف الفنون السردية وموضوعاتها بحيث ركزت الدراسة على أهم الأشكال التي كان لها الانتشار الواسع ،وهي: الرسائل ،السير و التراجم ،حكايات الكرامات . و أفردت لكل شكل نثري فصلا من الدراسة بموضوعاته وأغراضه ،و ركزت على كل شكل سردي من حيث الخصائص الشكلية و السمات السردية ،لأختم الباب بمجموعة من النتائج .

-الباب الثالث (النثر التأليفي) ، كان بحثا في الأشكال التأليفية التي عرفها المغاربة وأبدعوا في كتابتها في هذه الحقبة الزمنية ،وقد قسمته إلى ثلاثة فصول ،تناولت فيها : الكتابات التاريخية و الفقهية و التعليمية ، و الكتابات النقدية و الكتابات الأدبية العامة .وقمت بتحليل أهم ما أنتجه المغاربة في هذا الميدان مبينا :منهجهم و أسباب و مضامين و قيمة مؤلفاتهم وأبرز المؤلفين ومكانتهم،وأوردت الكثير مما كتبوه ، لأختم الباب بمجموعة من النتائج.

-الباب الرابع(البناء الفني للنثر المغربي):كان عرضا للخصائص والسمات الفنية للأشكال النثرية المختلفة من خلال مستويات تحليل النص:فكان المستوى المعجمي والتركيبي والذي درست فيه القاموس اللفظي،التضمين والاقتباس ،الجمل الاسمية والفعلية،الجمل الخبرية والإنشائية، التقديم والتأخير...ثم المستوى الدلالي والذي عرضت فيه مفهوم الصورة الفنية في النقد العربي وأساليب التصوير ومصادرها و أنماطها (التشبيه ،الاستعارة ،الكناية)،ثم الأبعاد الفنية للصورة في النثر المغربي. أما المستوى الصوتي:فكان في التشكيل الموسيقي للنص النثري و أبعاده الفنية: "السجع، الجناس،التكرار، التضاد... لأصل إلى مجموعة من النتائج التي استخلصتها من كل فصل في آخر الباب .

وخلصت إلى خاتمة أوجزت فيها ما أمكنني الوصول إليه من نتائج و ملاحظات ضمت في طياتها إجابات عن بعض الإشكاليات المطروحة آنفا.

وبعد فإن حقق هذا العمل غايته وبلغ مقاصده فالحمد لله أولا وأخيرا وإن قصر به الجهد عن إدراك هذا الأمل فحسبي أنني بذلت ما استطعت إلى ذلك من عمل و اجتهاد وبحسب ما أسعفتني طاقتي و مقدرتي.

وأخيرا أرجو من الله تعالى أن يثيب إخواني وأساتذتي الذين أعانوني بكافة ما يملكون،من أجل إتمام هذا البحث،و أخص بالذكر أستاذي الفاضل"عبد الرزاق بن السبع"" الذي أشرف على تهذيب هذا العمل ومراجعته ومن قبل توجيهي وتحفيزي على إنجازه كأحسن ما يكون الإشراف والتوجيه.

كما لا أنس بالذكر كل الأساتذة الذين لم يبخلوا علي بنصائحهم واقتراحاتهم، وإلى أعضاء لجنة المناقشة الموقرة.فلهم أوجه شكري الجزيل وتقديري الخالص.

سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا الله ، استغفرك وأتوب إليك .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الفصـــــــــل التمهيـــــدي: الفصل التمهيدي

أولا- الروافد المشكلة للبنية الفكرية و الثقافية و الأدبية في القرنيين الرابع و الخامس

1-أمراء الـــــدولـــة ودورهم في النهضة الفكرية والأدبية

2-الحواضر العلمية ودورها في النهضة الفكرية والأدبية

3- الرافد المذهبي ودوره في النهضة الفكرية والأدبية

4- الرافد اللغوي ودوره في النهضة الفكرية والأدبية

ثانيا- جوانب من الحياة الفكرية و الثقافية و الأدبية في القرنيين الرابع و الخامس

1-في عهد الدولة العبيدية

2-في عهد الدولة الصنهاجية

3-في عهد الدولة الحمادية

توطئـــة:

لعل أول ما يجدر الإشارة إليه هو أن للمغرب الإسلامي مكانته التاريخية المعتبرة منذ فجر التاريخ،مما جعله محط أنظار الغـــــزاة،و مهوى أنفسهم الطامعة في خيراته المتنوعة. إلا أن أهله اشتهروا بشدة مقاومتهم للمحتل عبر مراحل التاريخ.

فلما جاء الإسلام قاومه "الأمازيغ[1]" أول الأمر بشدة لم يعرف لها مثيلا في بقية الأقطار التي فتحوها ،ولكن ما إن استتب الأمر للدين الجديد وفهمه المغاربة على حقيقته حتى تغيرت نظرتهم إليه وشعروا بأن الإسلام أبعد من أن يكون غزوا أو احتلالا ،وكان اعتناقهم وتحمسهم له لا يقل حرارة وصدقا وإخلاصا عن مقاومتهم الأولى له.

كما لعب المغرب الإسلامي دورا هاما في الفتوحات الإسلامية ،فمنه فتحت الأندلس،ومنه شن المسلمون حملات عسكرية ضد "الرومان" في الحوض الغربي للبحر المتوسط، وفتحوا بذلك عدة جزر "كصقلية" و"سردينية" و غيرها من بلاد الغرب.كما مثل قلعة الإسلام الحصينة في صـــــد حملات الصليبين بعد سقوط الأندلس، كما كان مركز إشعاع لبعث نور الإسلام إلى أدغال إفريـــــقيا.

ولما كانت له هذه المكانة التاريخية الإستراتيجية، وتميزه ببيئة جغرافية متمثلة في موقعه الهام وأرضه الواسعة الخصبة والوعرة، التي توفر الحصانة والمناعة للمعارضين السياسيين، كما امتاز بوفرة ثرواته وتنوعها.هذا بالإضافة إلى بعده عن مركز الخلافة الإسلامية زيادة على

---

[1] الأمازيغ : هم من أبناء مازيغ بن كنعان بن حام بن نوح، وجاءت هذه التسمية نسبة لتصريحهم أما الخليفة عمر بن الخطاب – رضي الله تعالى عنه- حينما ذهب إليه وفد بعد فتح مصر وانتسبوا أمامه إلى مازيغ، والأمازغي هو الرجل الحر النبيل، وهم السكان الأصليون لشمال أفريقيا، و بسبب استقلال لغتهم أو اختلافها عن لغة الرومان فقد سموهم بـــ"البربر" التي تعني العجمية . يعيش الأمازيغ في المنطقة الجغرافية الممتدة من غرب مصر إلى جزر الكناري، ومن ساحل البحر الأبيض المتوسط شمالا إلى أعماق الصحراء الكبرى في النيجر و مالي جنوبا. و مع حلول الإسلام في أفريقيا ، استعرب جزء من الأمازيغ بتبنيهم اللغة العربية لغة الدين الجديد. وبقي جزء آخر محتفظ باللغة الأمازيغية، وبسبب ذلك أثرت اللغة الأمازيغية في العربية الوافدة فنشأت اللهجات المغاربية.(عبد الرحمان الجيلالي: تاريخ الجزائر العام،دار الثقافة، بيروت، ج1،ط4، 1980،ص35-47. وينظر أيضا: محمد الطمار:الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983، ص 31).

أن أهله عرفوا بالشجاعة والبأس والصبر في الحروب،فكثيرا ما قصده المعارضون السياسيون من شيعة وخوارج ووجدوا فيه بغيتهم،ونشروا فيه مذاهبهم ،و أقاموا به دولا لهم ،مستغلين في ذلك مختلف الميزات المذكورة.ولذا ظهرت فيه عدة ثورات ، نشأ عنها قيام دول منشقة ذات مذاهب مختلفة .

وكما اختلفت الدول المنشقة في مذاهبها ،فإنها اختلفت أيضا في سياستها الداخلية والخارجية بين الاعتدال والتطرف ، فبعضها اقتصر نفوذها على المنطقة التي ظهرت فيها كالدولة الحمادية[1] بينما بعضها الآخر بسطت نفوذها على كامل بلاد المغرب تقريبا كالدولة الصنهاجية[2] و العبيدية[1].

---

[1] بدأت بوادر الدولة الحمادية (405-547هـ) في التشكل على خارطة المغرب الأوسط بظهور شخصية "حماد بن بلكين" على مسرح الأحداث السياسية بعد موت والده بلكين وتسلم أخيه المنصور السلطة بعده عام 373هـ، فساند أخاه المنصور في المحافظة على وحدة الأســـــرة المالكة وإخماد الثورات.ظل حماد يتمتع بثقة أخيه المنصور، حتى أقطعه إقليم أشير .وعندما نشب خلاف داخل الأسرة المالكة كلف باديس حمادا بمحاربة أعمامه من بني زيري، فهزمهم، وأصبح في هذه الفترة أقوى شخصية في الزاب والمغرب الأوسط إلى الحد الذي جعل باديس يتخوف على مستقبل الدولة الزيرية من حماد. وقعت مناوشات بين المعز وحماد قبل الوصول إلى صلح خسر فيها حماد أيضا، ولم يجد بدا من أن يتقدم إلى حفيد أخيه المنصور طالبا منه العفو والصلح.وتم ذلك عام 408هـ، تقرر بموجبه لحماد الانفراد بالمسيلة وطبنة والزاب وتاهرت وما يفتح على يديه من بلاد المغرب الأوسط. وزوج المعز أخته لعبد الله ابن حماد، وافترق ملك صنهاجة إلى دولتين. وبذلك وصل حماد إلى أهدافه على الرغم من هزائمه المتكررة على يدي باديس والمعز.(ينظر:ابن الأثير: الكامل في التاريخ،دار صادر، بيروت، ج8، د ط،1979 ،ص172.وينظر أيضا: محمد الطمار : تاريخ الأدب الجزائري ،ش.و.ن.ت ،الجزائر،1981،ص105. وينظر أيضا: عبد الفتاح مقلد الغنيمي: موسوعة تاريخ المغرب العربي، مكتبة مدبولي، القاهرة ج2، ط2، 1994، ص268).

[2] ينتسب الصنهاجيون إلى قبيلة صنهاجة وهي من كبرى قبائل البربر، وقيل صنهاجة فخذ من ولد عبد شمس بن وائل بن حمرون الملك افر يقش بن وائل بن حمير وقيل افر يقش بن أبرهة بن ذي القرنيين لما ملك حمير و غزا المغرب خلف فيها من قبائل حمير وزعمها صنهاجة وقدمهم على البربر ليدبروا أمرهم و يأخذوا خراجهم. تأسست دولة الصنهاجيين(362هـ -543 هـ) على يد أمير من أصل أمازيغي يدعى "بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي". و قد وقعت في عهده الفتن الكبيرة التي عمل جاهدا على القضاء عليها، و استطاع بحزمه ودهائه القضاء على معظم الفتن والثورات القبائلية المجاورة على حدود البلاد مما مكنه من تعزيز حكمه والاحتفاظ بالأراضي الشاسعة التي ورثها عن العبيديين، لكن الموت عاجله قبل أن يخدمها تماما. فخلفه ابنه " المنصور " الذي تعامل مع الثائرين ضده بالملاطفة و اللين ،إلى أن استتب الأمن و الاستقرار ربوع الدولة الفتيه. وخلفه ابنه الأكبر " باديس " الذي لقبه العبيديون "بنصير الدولة" ،تقلد الحكم عام 386 هـ ، استهل

وفي ظل هذه الدول نشأت حركة ثقافية وفكرية وأدبية عاكسة للأوضاع السائدة ،أسهمت في النهوض بأدب المنطقة وازدهاره حتى نافس أدب بلاد المشرق والأندلس، ولهذا اعتبر الكثير من الدارسين هذه الفترة الممتدة بين القرنين الرابع والخامس الهجريين، مرحلة مهمة في تاريخ الأدب المغربي القديم عرفت بعصر الازدهار الثقافي والأدبي . ولهذا الازدهار روافد يمكن حصرها في الآتي :

- الروافد المشكلة للبنية الفكرية والثقافية و الأدبية في القرنين الرابع والخامس:

1-أمراء الـــــدول ودورهم في النهضة الفكرية و الأدبية:

من أبرز العوامل التي أسهمت في رفعة الأدب و الفكر، وقامت على تنشيط الحركة العلمية و الثقافية في هذا العصر، حكام الدول وحرصهم الشديد على الاهتمام الشخصي بالعلماء و

حياته السياسية بمحاربة الثائرين , الذين كان على رأسهم " زيري بن عطية "فهزمهم "باديس , "ثم ثار عليه " فلفل الزناتي " و من معه , لكن "باديس" انتصر عليهم بالقوة.كان التشيع عقيدة البلاد إلى أن فحمل" المعز بن باديس" أهل إفريقية على مذهب " الإمام مالك بن أنس " .(ينظر:ابن الأثير:الكامل في التاريخ ، ج7 ،ص124 .وينظرأيضا:الهادي روجي إدريس:الدولة الصنهاجية- تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن10إلى القرن12م-دار الغرب الإسلامي،بيروت ،ج1، ط1، 1992 ،ص76- 77. وينظر أيضا:ابن أبي الدينار : المؤنس في أخبار إفريقيا و تونس، تحقيق محمد شمام ، المكتبة العتيقة ،ط3 ، 1387 هــ،ص73).

[1] قامت هذه الدولة في المغرب الإسلامي (296هــ-362هــ) بزعامة "عبيد الله المهدي"مدعيا أنه صاحب الحق في الخلافة وأنه حفيد"محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق الذي ينتهي نسبه إلى الحسين بن علي رضي الله عنه"(1).وقد مهد لقيام الدولة العبيدية إسماعيلي يدعى"أبو عبد الله الشيعي"وهو داعية إسماعيلي ، يعود له الفضل الأكبر في تأسيس هذه الدولة ، وحشد لنصرتها قبيلة كتامة.التي بفضلها نجح "أبو عبد الله" في الثورة على الأغالبة وإسقاط حكمهم.وبعد فتح مصر سنة(258هــ) انتقل إليها آخر أمرائهم المعز لدين الله العبيدي.وقد نفى المؤرخون القدامى انتسابهم إلى فاطمة بنت النبي(صل الله عليه وسلم) إذ يقفون عند مؤسس الدولة عبيد الله المهدي، ويطلقون عليها اسم "الدولة العبيدية"، ولم تعرف بالدولة الفاطمية إلا بعد انتقالها إلى مصر في عهد "المعز لدين الله "(ينظر:ابن حماد:أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم،تحقيق وتعليق،جلول أحمد البدوي،المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر،د ط،1984م،ص19.المقريزي:اتعاظ الحنفاء،تح:جمال الدين الشيال، طبعة دار التحرير ،القاهرة،ج1،د ط،1963م، ص16.الشهرستاني:الملل والنحل،تح:أحمد فهمي، دار المعارف ،لقاهرة،ج1،دط،1967م،ص1272. مصطفى غالب:تاريخ الدعوة الإسماعيلية،دار الأندلس، بيروت،ط3، 1979 م،ص6-10. القاضي النعمان:افتتاح الدعوة،تح: فرحات الدشراوي،الشركة التونسية للتوزيع، تونس ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ،ط2،1986م، ص64 . الإدريسي: المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق ، تح: محمد حاج صادق ،المكتبة الجامعية،الجزائر، د ط ، 1983م، ص126).

الأدباء وتقريبهم لهم ومنحهم العطايا، وبذل الغالي و النفيس في جلب أمهات الكتب،كما كان الكثير منهم من منتجي الأدب ،فعرف منهم الشعراء و الخطباء، و النقاد ... والكثير من الأعمال الجليلة التي قام بها حكام هذه الدول التي قامت في هذه الفترة الزمنية.

1-أ- أمراء الدولة العبيدية:

ما إن سلم "أبا عبد الله الشيعي[1]" مقاليد الحكم لمولاه "عبيد الله "حتى أعلن عن قيام الدولة العبيدية بالمغرب الإسلامي ،هذه الدولة التي لم يكتب لها البقاء في المنطقة أكثر من نصف قرن(297-362هـ)،حيث تعاقب عليها أربعة أمراء من السلالة العبيدية كلهم تعاطوا الأدب و تذوقوه ،فكانوا الرافد الأول في النهضة الأدبية للمنطقة ،وهم:

-عبيد الله المهدي (سعيد بن محمد بن عبد الله بن ميمون القداح)(297-322هـ):

وهو أول من تسلم قيادة دولة العبيديين،واسمه الأصلي سعيد،ولد "عبيد الله بـ"سلمية" الواقعة قرب مدينة حماة بسورية ، وقيل ببغداد سنة ستين ومائتين" [2].وقد دعي إلى إفريقية بعد أن لقيت الدعوة الإسماعيلية نجاحا بفضل دعاته.

لاقى "عبيد الله " صعوبات كبيرة في طريقه إلى "رقاده" عام (296هـ)."فلقد وصل إلى مصر في زي التجار وهو يطلب تأسيس مملكة شيعية عبيدية سنة تسع وثمانين ومائتين والطلب عليه من بني العباس حثيث وأمر القبض عليه متى ثقف ،فلم يزل يتخف عن العيون ويخلص من

---

[1] أبو عبد الله الشيعي (ت298 هـ): هو الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا الصنعاني. أبو عبد الله المعروف بالشيعي ويلقب بالمعلم، من أهل صنعاء باليمن وإليها نسبته. كان الممهد للدولة العبيدية الشيعية الإسماعيلية، وكان ناشر دعوتهم في المغرب، من الدهاة الشجعان ومن أعيان الباطنية وأعلامهم. أرسله (الحسين بن حوشب) لبث الدعوة في المغرب، فخرج من صنعاء مع أخيه أبي العباس محمد، وعرج على مكة في موسم الحج فتعرف على جماعة من قبيلة كتامة البربرية، فتقبلت دعوته وأمروه عليهم، وعاد معهم إلى المغرب وجمع منهم جيشا وقاتل بني الأغلب سنة 297هـ، وهزم آخر ملوكهم (زيادة الله الثالث) واستولى على القيروان وأنهى حكم الأغالبة وتولى زمام الحكم، ثم أرسل يدعو عبيد الله فغادر مدينة (سلمية) بسوريا ومعه ابنه أبو القاسم وجاء إلى القيروان فبويع بيعة عامة سنة 297م. ولم يلبث أن استثقل وطأة أبي عبد الله فقتله وقتل أخاه أبا العباس سنة298 هـ .لما رأى من تحكم أبي عبد الله وطاعة قبيلة كتامة وانقيادهم له، وبذلك انتهت حياة الرجل الذي مهد لقيام دولة العبيديين.(ينظر: القاضي النعمان: افتتاح الدعوة ،ص9 وما بعدها.المقريزي: اتعاظ الحنفاء، ص 19و ما بعدها.ابن حماد :المصدر السابق،ص19).

[2] ابن حماد: المصدر السابق ، ص18.

أيدي الحكام وولاة الأمصار إلى أن وصل "سجلماسة" فظهر بها في سنة(296هـ).فاعتقل هو ابنه "محمد" بعد أن وشي به،و سجنه"اليسع بن مدارا" أمير"سلجلماسة".

وظل في سجنه حتى أطلق سراحه على يد" أبي عبد الله الشيعي" الذي فل جموع بني الأغلب برقاده"[1].وواصل زحفه يملأ الأرض من الخيل والرجال حتى وصل"سلجلماسة "سنة(296هـ) وحازها وافتتحها، فاستنقذ عبيد الله وابنه، وألبسه ثيابا نفيسة فاخرة، وقاد له فرسا عتيقا وسلم عليه بالإمامة وكان ذلك في شهر ربيع الثاني سنة(297هـ) " [2].

وتوجه إلى رقاده،" وعندما وصل عبيد الله إلى القيروان تلقاه أهلها بسلام الخلافة اعتقادا منهم بأنه علوي فاطمي، ولم يلبث أن قسم رؤساء كتامة، الذين ساعدوه على إقامة دولته أعمال هذه الدولة، ثم دون الدواوين وجبى الأموال واستقرت قدمه في تلك البلاد" [3].

وقد أنشده الشعراء في بيعته بالخلافة ومنهم" سعدون الورجيني "[4] بقوله:

هذا أمير المؤمنين تضعضعت * لقدومـــه أركان كل أميـــر
هذا الإمام الفاطمـــي ، ومن به * أمنت مغاربها من المحـــذور [5].

كما كان، فيما مدح به المهدي من الكفر فاستجازه،شعر "لمحمد البديل"[6] :

حـــل برقـادة المسيـــح * حـــل بها آدم ونـــوح
حـــل بها أحمد المصـــفى * حـــل بها الكبش والذبيـــح

---

1 نفسه ،ص20.

2ابن الأثير:الكامل في التاريخ،ج8،ص48.(ينظر تفاصيل استنقاذ المهدي:القاضي النعمان:افتتاح الدعوة، ص329).

3 المقريزي:اتعاظ الحنفاء،ج1،ص42.(ينظر:المزيد حول دخوله رقادة واستلامه زمام الحكم في: القاضي النعمـــان: المصدر السابق،ص301 –303 ،ابن الأثير: المصدر السابق،ص 48– 54.أبو زكرياء: كتاب سير الأئمة وأخبارهم ،تح: إسماعيل العربي،د م ج، ط3،1984،ص 164–167).

4 الشاعر نسبه إلى ورقلة كان سنـــي مالكي وانقلب في ولائه واعتنق الدعوة الشيعية.(ينظر القصيدة في المالكي: رياض النفوس ،ج1،ص501 .لقبال موسى: دور كتامة في تاريخ الدولة الفاطمية ،المؤسسة الوطنية للكتاب ،الجزائر، د ط ، 1979 م، ص230.القاضي النعمان: المصدر السابق ،ص300–302).

5 محمد اليعلاوي : الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي،دار الغرب الإسلامي،بيروت، ط1،1986،ص36.

6 محمد البديل:هو كاتب مغربي لا يعرف عنه أي شيء و الأبيات تنسب إلى عدد من الشعراء منهم ابن هانئ الأندلسي لكنها لا توجد في ديوانه (ينظر: محمد اليعلاوي : الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي ،ص34).

حـــــل بها الله ذو المعــــــــالي * وكـــل شيء سواه ريـــــــح[1]

أقام عبيد الله المهدي بالقيروان–حاضرة لدولته–لغاية سنة(304هــ)، حيث اختط مدينة "المهدية" جنوب القيروان، وقد ظل بها.

مات "عبيد الله" يوم الاثنين الرابع عشر من ربيع الأول سنة(322هــ) .ولقد دام عهده أكثر من أربع وعشرين سنة،منذ أن دخل رقاده في شهر ربيع الآخر سنة(297هــ) إلى أن توفي سنة (322هــ) [2].وكانت وفاته من دواء سقاه إياه الطبيب "ابن الجزار"[3] .لنقرس أصابه " [4].وهنا يحتمل أن يكون موته بسبب سم، وخلفه ابنه القاسم وتلقب بالقائم.وقال يرثيه الشاعر" ابن الصقيل"[5]:

إمامي الذي اخترمته المنــــو * ن، لو قد ترى أنه ، استحيت

فليت الحوادث لم تخترمـــه[6] * وليت يـــد الدهـــر قد شلت[7].

---

1 محمد اليعلاوي : المرجع نفسه،ص34.

2 ابن حماد: المصدر السابق ، ص26.

3 ابن الجزار القيرواني (ت 400هــ):طبيب بارع ومؤلف مكثر في موضوعات مختلفة. من كتبه في الطب " زاد المسافر" (في علاج الأمراض)–الاعتماد (في الأدوية المفردة) –البغية (في الأدوية المركبة) –العدة لطول المدة'كتاب كبير في الطب –قوت المقيم (عشرين مجلدا) طب الفقراء –البلغة في حفظ الصحة–كتاب في المعدة وأمراضها ومداواتها –كتاب في الفرق بين العلل إلى تشتبه أسبابها وتختلف أعراضها –. وكان ينزه نفسه عن أن يأخذ أجرا من المريض أخذا بيده.فعل على باب داره سقيفة وأقعد فيها غلاما له اسمه رشيق ووضع بين يديه جميع الأدوية.فكان إذا فحص مريضا أرسله إلى رشيق ليأخذ منه الدواء ويدفع إليه المال.فكان بذلك قد أسس نظام الصيدلة بالفصل بين الطبيب والصيدلي.(ينظر:عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي في المغرب والأندلس، دار العلم للملاين، بيروت لبنان، ج4، ط 4 ، 1997م ، ص 192–193).

4 ابن حماد: المصدر السابق ،ص26.

5 هو عثمان بن سعيد (أو سعد) الصيقل: كان أبوه مولى للأغالبة .نشأ في عمل السيوف مع أبيه،ثم صحب أهل العلم والأدب ويبدو أن تشيعه كان ظرفيا كما ير ى صاحب رياض النفوس، استقدمه الحكم الثاني إلى الأندلس ومات بها سنة366 هــ.(ينظر:المالكي :رياض النفوس في طبقات علماء أفريقية ، نشر البشير البكوش ، بيروت ،د ط، ج2، 1981م ،ص477.هامش: محمد اليعلاوي: الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي ،ص77).

6 التركيب يعني به: لو ترى أنه المهدي لاستحييت منه وتراجعت.

7 محمد اليعلاوي: الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي ،ص76.

وامتاز عهده بالتسامح، وأخذ الناس بالرفق و اللين ، وانتشرت في عهده المناظرات التي كان يشرف عليها في بلاطه ، خاصة التي كانت بين علماء السنة ودعاة الشيعة .وقد عرف عنه أنه كان ينظم الشعر، ومما قاله رادا على كتاب ورده من ابنه القائم:

يا وحشتي للغريب في البلد الــ*ـــنازح ماذا بنفسه صنعا

فارق أحبابه فما انتفعوا * بالعيش من بعده ولا انتفعا[1].

-القــائم (بأمر الله) (322-334هـ):

كنيته أبو القاسم بن عبيد الله، "ولد بسلمية وبويع يوم مات أبوه عبيد الله، وعمره إذ ذاك اثنتان و أربعون سنة " [2]، عهد إليه والده في حياته، وسماه ولي عهد المسلمين.وكان يظهر السرور به إذ رآه ويتمثل كثيرا إذا طلع عليه، فيقول شعرا:

مبارك الطلعــة ميمونــها * يصلــح للدنــيا والديــن[3].

اتصف عهد القائم في مجال السياسة الداخلية بالشدة والصرامة،وقد أثار غضب المغاربة،وخاصة "الخوارج"منهم الذين ثاروا على العبيدين وكانت أشد هذه الثورات خطرا وأشدها بلاء تلك الثورة التي أشعل نارها"أبو يزيد مخلد بن كيداد"[4]في سنة(322هـ)"[1] والتي

---

[1] نفسه ،ص31.

[2] ابن حماد: المصدر السابق،ص29. (ينظر التفاصيل: القاضي النعمان:المصدر السابق ،ص331-335).

[3] القاضي النعمان،المصدر السابق، ص324.

[4] مخلد بن كيداد الخارجي (صاحب الحمار)(ت336):ولد بالسودان كانت أمه جارية تنسب إلى قبيلة "هوارة" انتقل إلى مدينة "توزر" بالقطر التونسي ،مات والده وتركه فقيرا لا يملك شيئا وعاش زمنا على إحسان الناس وصدقاتهم ، وكان يقتصر على ركوب حمار أشهب أهدى إليه ولذلك كان يدعى صاحب الحمار.كان على مذهب الخوارج ، قام ثائرا في وجه العبيديين واجتمع عليه الناس و تبعه في بادئ الأمر كثير من البربر، وجعل مخلد أهل السنة في المقدمة لغلبة الخارجية عليه ،وانضم إليه ثلة من علماء القيروان ،سمى ابن كيداد نفسه شيخ المؤمنين .وهزم بني عبيد وحاصرهم في المهدية ومات القائم والمدينة محاصرة،ولما رأى القدرة من نفسه على ابن المهدي غدر بأهل السنة ،وخلى بينهم وبين العبيديين ، يقتلونهم ويستبيحون حرماتهم وانسحب عنهم فحلت الهزيمة ؛ لأنه كان يخفي أمره عليهم . وافتضح أمره بعد أن تحقق البربر من كذبه ؛فانفضوا من حوله،وقتل عدد من العلماء،و الصلحاء والعباد، وقتل قادته ثم قبض عليه"المنصور"،وقام بقتله وسلخه وكان هذا سنة(336 هـ). (ينظر:القاضي النعمان:المجالس والمسايرات ،تح: محمد اليعلاوي،إبراهيم شبوح،الحبيب الفقي،المطبعة الرسمية التونسية، د ط، 1978 م ،ص 162.و ابن حماد : المرجع السابق ، ص 25-44.والمقريزي : اتعاظ الحنفاء ، تحقيق :جمال الدين الشيال ، طبع دار التحرير، القاهرة ،ج1، ،د ط،1963، ص 137).

استمرت طوال عهد القائم ولم تخمد إلا في عهد ابنه "المنصور"،ومما قام به في مجال السياسة الخارجية شنه حملات عسكرية ضد الروم"ففي سنة 323هــ سير حملة بحرية فتحت مدينة جنوه-على الساحل الجنوبي لإيطاليا-،وافتتح مدائن الروم،وغزاهم بناحية الأندلس" [2] .

وفي شهر رمضان من سنة(334هــ).ولى القائم ابنه اسماعيل ولاية عهده.وفوض إليه أمره وأدخل جماعة من وجهاء "كتامة" وقال لهم:" مولاكم وهو ولي عهدي، والخليفة من بعدي، وهو صاحب هذا الفاسق وقاتله يعني -أبا يزيد-" [3]. ويتضح من هذا الأمر أن القائم لقي صعوبات في سياسته ولم يستطع التغلب على المعارضين.

توفي "محمد القائم" يوم الأحد الثالث عشر من شوال سنة(334هــ)، حيث كانت مدة خلافته اثنا عشر سنة وسبعة أشهر، وعمره خمس وخمسون سنة وسترت وفاته خوفا من ضعف عزائم جنده في قتال صاحب الحمار "[4].

وقد اشتهر"القائم" بالشجاعة ورباطة الجأش وباستطاعته التأثير على سامعيه بفصاحته وبلاغته وقدرته على ارتجال الخطب، كما كان يقرض الشعر مبادرة، ويجيد فيه، فمن ذلك ما قاله وهو مقيم بأرض مصر:

طربت،ولم أطرب إلى الخرد العرب * وما الهزل من شأني،ولا اللهو لي أرب

فيا معرضا عني، وليـــــس بمنصــفي* وقد ظهر الحق المبين لمـــن رغـــب[5]

كما أنشأ "بوادي صلاف" قرب "تاهرت" في شهر ربيع الأول سنة(316هــ) قصيدته التي يقول في مطلعها:

سلام على آل النبي ورهطه * وشيعته أهل النهى والفضائل

تحية من أمسى بتاهرت قائما* بحقهم بين الملا و القبـــائل[6]

---

1 ابن حماد: المصدر السابق ،ص29-32.

2 ابن الأثير: المصدر السابق ،ص249. (ينظر أيضا :القاضي النعمان: المصدر السابق ،ص333) .

3 محمد الصالح مرمول: السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية في بلاد المغرب الإسلامي ،ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر، د ط ،1983،ص90.

4 ابن حماد: المصدر السابق ،ص32. (ينظر أيضا:القاضي النعمان: المصدر السابق ،ص334-335) .

5 محمد اليعلاوي: الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي،ص81. (ينظر التفاصيل:محمد اليعلاوي: نفسه،ص85).

6 نفسه، ص95. (ينظر: القصيدة محمد اليعلاوي: نفسه، ص95).

و يمكن القول أن عهده كان مليئا بالفتن الداخلية ، نتيجة سوء سياسته من جهة وتلك الرواسب المستفحلة منذ عهد المهدي ،لكنه تمكن بكل صرامة أن يخمدها بكل ما أوتي من قوة غير أنها تركت طابعها السيئ من الناحية السياسية و الاجتماعية، لكن من الناحية الأدبية و الفكرية و الثقافية استطاع أن يرسي دعائم النهضة الأدبية بحبه للشعر و الشعراء و تقريبهم إليه وجلب الكتب وإنشاء المكتبات .

-المنصور (بالله) إسماعيل (343/334هـ):

ولد "بالمهدية" سنة(299هـ) وقيل سنة (302هـ) ،"وولي وله اثنتان وثلاثون سنة على الأرجح "[1]، وقد اشتهر المنصور بالشجاعة ورباطة الجأش وباستطاعته التأثير على سامعيه بفصاحته وبلاغته وقدرته على ارتجال الخطب.قال عنه "الذهبي":" كان بطلا شجاعا، رابط الجأش فصيحا مفوها يرتجل الخطب..." [2].

كما كان يقرض الشعر، ويجيده كما هو الحال مع أبيه وجده، إلا أن ما وصل إلينا منه من خلال المصادر لا يعدو عن خمسة عشر بيتا، وهذا قليل بما عرف عنه.ومن شعره إلى ابنه وولي عهده ،المعز لدين الله :

كتابي إليك من اقصى الغـــروب * وشوقي إليك طويل طويـــل
أجوب القفـــار واطـــوي الرمـــال* وأحمل نفسي لهول مهـــول[3].

وعندما مات أبوه "القائم "أخفى نبأ موته عن جيشه حتى لا يؤثر على حماسته في إخماد ثورة" أبي يزيد مخلد بن كيداد".وفي عهده انقطعت العلاقات بين مصر وبلاد المغرب طوال عهده، لأن همه كان القضاء على ثورة أبي يزيد،" ثم قدر له أن يهزم جيش "أبي يزيد" وطارده إلى أن نزل في قلعة "بجبال المعاضيد" شمال الحضنة، وقبض عليه، ثم ساقه إلى المهدية حيث

---

[1] محمد الصالح مرمول: المرجع السابق،ص90.
[2] الذهبي: سير أعلام النبلاء، تح: شعيب الأرناؤوط، محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط9، 1413هـ،ج15،ص157.
[3] محمد اليعلاوي: المرجع السابق، ص161.

مات أبو يزيد متأثرا بجراحه في محرم سنة(336هـ).فأمر بسلخه وحشو جلده قطنا،و خيطت جثته،و قدد لحمه وملح وأمر بحمل جميع ذلك" [1] .

قضى "المنصور" البقية الباقية من خلافته في إعادة تنظيم بلاده، فأنشأ أسطولا كبيرا وأسس مدينة "صبرة" وسماها باسمه " المنصورية" سنة(337هـ) واتخذها حاضرة لدولته. ومنذ ذلك الحين أصبحت حاضرة العبيديين.ورغم كثرة مشاكل المنصور الداخلية، فإنها لم تثنه عن القيام بنشاطات أخرى.من ذلك أنه لعب دورا هاما في إعادة "الحجر الأسود" [2]إلى مكانه.فنال بذلك شرفا وسمعة طيبة على صعيد العالم الإسلامي. " وقال القرامطة أنهم اخذوا الحجر الأسود بأمر، فأعادوه بأمر " [3].

و المنصور حكم في فترة حساسة وصعبة جدا خاصة على الجبهة الداخلية، ومع ذلك استطاع أن يرسي سفينة دولته إلى بر الأمان بل وأعاد بعثها وتقويتها وتعزيز مكاسبها وهيبتها.حيث يعتبر المؤسس الثاني للدولة فهيأ بذلك جوا مناسبا لخلفه وولي نعمته ابنه المعز، حكم المنصور سبع سنين وسبعة عشر يوما،وتوفي في يوم الجمعة من شوال سنة(341هـ) وقبر بالمهدية " [4] .

-المعز لدين الله (341-365هـ):

هو أبو تميم معد ابن المنصور أبي الطاهر بن القائم أبي القاسم محمد ابن عبيد الله المهدي، " ولد بالمهدية في رمضان سنة319هـ" [5].و قيل:"ولى الأمر بعد أبيه وذلك يوم الجمعة التاسع والعشرين من شهر شوال وقيل يوم الجمعة سابع عشر شوال سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة" [6].

---

[1]ابن حماد:المصدر السابق،ص45. (ينظر:القاضي النعمان:المصدر السابق، ص334.المقريزي:المصدر السابق،ج1، ص34).

[2]هجم القرامطة على مكة المكرمة ،وقاموا باقتلاع الحجر الأسود ونقلوه إلى الأحساء بالبحرين سنة(318 هـ)،ولم يعيدوه إلا سنة 339 هـ بأمر من المنصور العبيدي. (ينظر: المقريزي:اتعاظ الحنفاء،ج1، ص35).

[3] المقريزي: المصدر السابق، ص35.

[4]ابن الأثير: المصدر السابق،ص33. (ينظر أيضا:القاضي النعمان:المصدر السابق، ص335. المقريزي :المصدر السابق، ص37).

[5] ابن حماد: المصدر السابق، ص48.

[6] نفسه ،ص48.

وقيل أنه أقام في تدبير الأمور، كاتما وفاة والده المنصور شهرا وبعض الشهر ولم يعلن عنها إلا في خطبة عيد الأضحى، وفي القسم الثاني منها.وكان عمره عند تولي الحكم ثلاث وعشرون سنة وخمسة أشهر وسبع عشر يوما.

وقد نال نصيبا وافرا من مدح الشعراء .وكان "ابن هانئ الأندلسي"[1].أكثرهم في ذلك، ومما قال فيه:

صغائر أفعال الملوك عظائـــــــم* وأعراسها في الناكثين مآتم

هو الملك ما أدراك ما الملك،دونه * تمر حلاوات وتحلو علاقم [2]

في عهده دانت له قبائل البربر كافة والمغرب كله. فلما رأى الأمر كذلك فكر بفتح مصر، فبعث بين يديه "جوهرا الصقلي" حتى أخذها من "الإخشيدي" بعد حروب جرت بينهما، وذلك في سنة(362هــ) وهو أول من ملك الديار المصرية من الملوك العبيديين.

وقد أورد "ابن كثير": " أن المعز أحضر بين يديه الزاهد العابد الورع الناسك التقي "أبو بكر النابلسي"[3]، فقال له المعز: بلغني أنك قلت لو أن معي عشرة أسهم لرميت الروم بتسعة ورميت المصريين–أي العبيديين– بسهم. فقال: ما قلت هذا. فظن أنه رجع عن قوله، فقال: كيف

---

[1] ابن هانئ المسيلي القيرواني:شاعر ابن شاعر ولد باشبيلية سنة(320هــ)قضى الشاعر صدرا من شبابه بالأندلس أيام الخليفة الأموي عبد الرحمان الناصر وابنه الحكم ، واتهم بميوله الفلسفية وبتحبيذه للمذهب الشيعي الإسماعيلي فاضطر التوجه نحو المغرب واستقر فترة عند "علي بن حمدون" حاكم المسيلة ومن بعد ه ابنه جعفر حتى استدعي إلى بلاط المعز آخر أمراء بني عبيد بالمغرب وهناك أخذ يمدح المعز بقصائده الرائعة التي سجل في معظمها نظريات الطائفة الإسماعيلية في العقيدة والمذهب وتوفي مغتالا حسب الكثير من الروايات ببرقة وهو متوجها إلى مصر ليلتحق بالمعز هناك ،وكان ذلك سنة(362هــ). (ينظر:محمد اليعلاوي: ابن هانئ المغربي الأندلسي –شاعر الدولة الفاطمية–،دار الغرب الإسلامي ،بيروت، د ط،1985 م، ص83 و ما بعدها.وأيضا:محمد اليعلاوي:الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي ،ص267-335. وابن هانئ الأندلسي: الديوان ، تحقيق: محمد اليعلاوي: دار الغرب الإسلامي،بيروت، ط1، 1994م ،ص12.و ابن حماد : المصدر السابق،ص26) .

[2] محمد اليعلاوي: الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي،ص323.

[3] محمد بن علي النابلسي:كبير أهل مدينة الرملة. وفقيه مطيع في بلده.وكان فقيها زاهدا.مالكي المذهب ذا رئاسة وظهور.وكان شديدا على بني عبيد ،قتل سنة 363.(ينظر:الذهبي:المصدر السابق،ج7، ص148. القاضي عياض: ترتيب المدارك وترتيب المسالك،ج2،مكتبة المشكاة،وزارة الأوقاف المغربية، المغرب،د ط،د ت،ص477–479).

قلت؟ قال: قلت ينبغي أن نرميكم بتسعة ثم نرميهم بالعاشر.قال: ولم ؟ قال: لأنكم غيرتم دين الأمة وقتلتم الصالحين وأطفأتم نور الإلهية وادعيتم ما ليس لكم. فأمر بإشهاره في أول يوم ثم ضرب في اليوم الثاني بالسياط ضربا شديدا مبرحا، ثم أمر بسلخه في اليوم الثالث، فجيء بيهودي فجعل يسلخه وهو يقرأ القرآن، قال اليهودي: فأخذتني رقة عليه، فلما بلغت تلقاء قلبه طعنته بالسكين فمات، رحمه الله. "(1) .

والمعز إلى جانب ظلمه وبطشه ورفضه فقد "كان مثقفا يجيد عدة لغات منها الإيطالية والصقلية والبربرية، كما عرف اللغة السودانية.وكان ذا ولع بالعلوم ودراية بالأدب يناظر العلماء ويكرمهم، فضلا عما عرف به من حسن التدبير وإحكام الأمور "(2).وكان فصيحا مفوها بطلا شجاعا يرتجل الخطب.وينسب إليه من الشعر الكثير ومنه:

أطلع الحسن من جبينك شمسا * فوق ورد في وجنتيك أطلا

وكأن الجمال خاف على الور * د جفافا ،فمد بالشعر ظــلا(3)

كما عرف بالتأني والحزم وقوة الشخصية والاعتزاز بالنفس، حتى أن البعض ذكر أنه آمر المؤذن أن يقول في آذانه: (أشهد أن لا إله إلا الله وأن معدا رسول الله).ويحتمل أن يكون هذا صحيحا لأن شاعره "ابن هانئ" مدحه وبالغ في مدحه، وكما قال:

هذا الذي ترجى النجاة بحبه* وبه يحط الإصر والأوزار

هذا الذي تجدي شفاعته غدا* حقا وتخمد أن تراه النـــار (4)

وذكر " أن المعز ألف كتابا بعنوان تأويل الشريعة،كما أن "النعمان" أكد أنه فيما كتب ،قد تأثر به وتلقى العلم منه وصدر عن وحيه "(5).

وقد رفع الدعاة شأن المعز وعظموه ، وقالوا إنه أمر بتجديد الشريعة لأنه سابع إمام من أئمة دور الستر،أي ابتداء من أول إمام بعد "محمد بن اسماعيل" ،وعندهم أن الإمام السابع يمتاز

---

[1] ابن كثير: البداية والنهاية، مكتبة المعارف،بيروت، ج11،د ط، د ت ،ص84.

[2] القاضي النعمان: المجالس والمسايرات، ص215.

[3] محمد اليعلاوي: ابن هانئ المغربي الأندلسي –شاعر الدولة الفاطمية– ، ص255.

[4] ابن هانئ الأندلسي:الديوان ، ص181(أي يشفع للمؤمنين ويقيهم عذاب النار و جهنم تخمد بأمره).

[5] القاضي النعمان: المصدر السابق،ص،27.

بقوة كبيرة لأنه خاتم دور الستر.وبالرغم من قيام عدة ثورات ضده،في مختلف المناطق إلا أنه تمكن من إخمادها والسيطرة عليها بوسائل سياسية وعسكرية،حتى أتاه المخالفين طائعين. فدانت له بذلك البلاد والعباد على العموم.

ولذلك اعتبر عهده أزهى عهود الخلافة العبيدية، نظرا للهدوء الذي ساد عهده ،والمنجزات الكثيرة التي حققها للدولة،في جميع المناحي الاقتصادية والسياسية والثقافية وامتد نفوذه على كامل بلاد المغرب ثم امتد إلى مصر والشام فالحجاز،وهدد العباسيين في عقر دارهم، " وأجبر الروم على طلب الهدنة "[1].

وبالرغم من كل النجاحات التي حققها "المعز" إلا أن الشيء الذي كان يحز في نفسه، ويقض مضجعه هو عدم اطمئنانه من أهل المغرب من جهة،ومن جهة أخرى خلافه مع أفراد العائلة العبيدية،هذه العوامل حفزته على فتح مصر، كي ينتقل إليها ويستبدل أهل المغرب بإتباع آخرين أكثر طاعة وأسلس انقيادا.

وذكرنا أن عهد الدولة العبيدية كان مليئا بالثورات أكثر من عهد أي دولة أخرى،ولعل أبرز إنجازاته على الإطلاق وأعظمها تتمثل في انتقالها إلى مصـــــر،" وقد بدأ يخطط لذلك ويتحين الفرص منذ سنة (355هـ) "[2]، فجهز الجيوش ،"وأمر بحفر آبار الماء في الطريق إليها ،وأغدق الأموال ، حتى دانت له بفتحها علي يد قائد جيشه جوهـــــر،وكان ذلك يوم الثلاثاء لسبع عشرة ليلة خلت من شعبان سنة(358هـ).وبعد أن استتب الأمن فيها والنظام شد الرحال إليها وكان مسيره وخروجه في أواخر شهر شوال سنة (361هـ)، حاملا معه أموالا ومتاعا هائلا، كما أخذ معه توابيت آبائه وأجداده، وواصل سيره حتى دخل الإسكندرية في آخر شهر شعبان من سنة(362هـ) "[3].وبذلك يسدل الستار عن عهد دولة بني عبيد في بلاد المغرب العربي الإسلامي.

---

[1] ينظر تفاصيل الهدنة :(القاضي النعمان: المجالس والمسايرات،ص323.)

[2] ابن الأثير:المصدر السابق،ص337. (ينظر أيضا :ابن حماد:المصدر السابق، ص48- 54).

[3] ابن الأثير:المصدر نفسه،ص620-625. (ينظر أيضا: ابن حماد:المصدر السابق،ص48- 54،المقريزي: المصدر السابق ، ص42-44).

قضى المعز الشطر الأكبر من خلافته في بلاد المغرب، ولم يبق في مصر أكثر من أربع سنين إلا قليلا وذكر أنه أصيب "بمرض نفسي،فحم منه وتوفي في القاهرة يوم الجمعة الحادي عشر من شهر ربيع الآخر سنة(365هـ)، وكانت ولايته ثلاثا وعشرين سنة وخمسة أشهر وأربعة أيام أما ولايته بمصر فهي أربع سنين وسبعة عشرة يوما" [1].

1-ب-أمراء الدولة الصنهاجية:

عرف المغرب في هذا العهد ثلة من الأمراء اعتنوا بالعلم و أهله ، ونهضوا بالثقافة و الآداب ، وكل مناحي الحياة العامة نهضة كبيرة ،لم يشهد المغرب مثيلا لها طيلة أربعة قرون خلت ، وأحرز أهل المغربي على تمدن إسلامي باذخ وحضارة فائقة ، بلغت الرعية أوج أيام سعادتها ، وأدركت منتهى العز الشامخ ،ونبغ في هذا العهد عدد كبير من الأفذاذ القادرون في كل علم وفن ، وجنحوا إلى الآداب الرفيعة، فزها الأدب و سار الشعر في مدارج الارتقاء و راجت سوق الأفكار، وأصبح المغرب قبلة للعلماء و مهوى أفئدة الطلاب.كل هذا بفضل إقبال الأمراء على العلم و الأدب ، وأخذهم بأيدي أهله رغبة منهم في بث المعارف و تقديرا لأصحاب الفضائل.

- بلكين بن زيري بن مناد(362هـ -374هـ):

هو زعيم قبيلة صنهاجة الأمازيغية بعد أبيه "زيري [2] " اختاره "المعز" خليفة له على المغرب-بالقيروان- عندما أراد نقل ملكه إلى مصر وقد حضي "بلكين" بمكانة مرموقة عند "المعز" لما قدمه للعبيديين من خدمات هو وأبوه وسماه "يوسف" وكناه" أبا الفتوح "ولقبه "سيف

---

[1] ابن حماد: المصدر السابق، ص54. (ينظر تفاصيل المرض النفسي الذي أصاب المعز في:هامش ابن حماد: نفسه ص54).

[2] زيري بن مناد الصنهاجي (ت 360 هـ) :زعيم صنهاجة ساهم في توطيد الصلة بين قبيلته والعبيد بين على اعتبار أنهم من نسل علي بن أبي طالب فكان من أعظم أوليائهم واستطال بهم على خصومهم من زناته الذين والوا من جهتهم الأمويين بالأندلس ،كما لعبوا دورا هاما في حرب صاحب الحمار حيث قدم زيري للمنصور عونا عسكريا هاما تغلب بفضله المنصور على صاحب الحمار ،وساهم مساهمة فعالة إلى جانب المعز في قمع الكثير من الثورات إلى أن قتل في تمرد لقبيلة زناتة سنة 360 هـ .(ينظر: ابن الأثير ، ج6، ص354 ، ابن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر... ،دار الكتاب اللبناني،مكتبة المدرسة،بيروت ،د ط،1983، ج 6،ص 313) .

الله العزيز"على أن" بلكين" لم يلبث أن أعلن الاستقلال عن تبعية العبيديين سنة(362 هـ) فأسس الدولة الزيرية "الصنهاجية" ،وأهتم بازدهار البلاد والعمران فبنى كلا من مدينة "الجزائر" و "مليانة" تنفيذا لرغب أبيه الذي بنى مدينة "أشير" ،وكانت وفاة بلكين سنة(373 هـ) [(1)] .

وكان من قصة توليته على افريقية أنه لما عزم المعز على الانتقال إلى مصر استدعى إليه "جعفر بن علي بن حمدون"[(2)] أمير المسيلة ليستخلفه على المغرب، لما قدمه هو وأبوه من أعمال جليلة للخلافة العبيدية منذ نشأتها الأولى، لكن جعفرا وضع شروطا لهذا الاستخلاف مما جعل المعز يستغني عنه.ويستخلف "يوسف بن زيرى الصنهاجي" بقوله: "تأهب لخلافة المغرب فأكبر ذلك وقال: يا مولانا: أنت وآباؤك الأئمة من ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ما صفا لكم المغرب فكيف يصفوا لي وأنا صنهاجي بربري قتلتني يا مولاي بلا سيف ولا رمح "[(3)].

ولم يزل به حتى أجاب وقال: " يا مولانا: بشريطة أن تولي القضاء والخراج لمن تراه وتختاره والخبر لمن تثق به وتجعلني أنا قائما بين أيديهم فمن استعصى عليهم أمروني به حتى أعمل فيه ما يجب ويكون الأمر لهم وأنا خادم بين ذلك "[(4)].

فحسن هذا من المعز وشكره فلما انصرف قال له عم أبيه "أبو طالب أحمد بن المهدي عبيد الله" يا مولانا:" وتثق بهذا القول من يوسف أنه يفي بما ذكره فقال المعز:يا عمنا:كم بين قول يوسف وقول جعفر واعلم يا عم أن الأمر الذي طلبه جعفر ابتداء هو آخر ما يصير إليه أمر

---

[1] المقريزي:المصدر السابق،ص67.(ينظر:ابن حماد:المصدر السابق،ص49 وعبد الرحمن الجيلالي: المرجع السابق ، ص239 . هادي روجر إدريس:المرجع السابق،ج1،ص75).

[2] جعفر بن علي بن حمدون: أمير "المسيلة" وإقليم الزاب أبوه "علي بن حمدون الأندلسي" الذي قصده "ابن هانئ" إثر نزوحه من "إشبيلية" فاحتفيا به وبالغا في إكرامه شأنهما مع باقي الأدباء والشعراء ، مات "جعفر" مقتولا بالأندلس حين فراره إليها من خصمه "زيري بن مناد " وكان ذلك سنة (364هـ). (ينظر: محمد اليعلاوي:الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي ،ص275).

[3] ابن الأثير:المصدر السابق،ج8 ،ص620. (ينظر:المقريزي:المصدر السابق ،ج1،ص42).

[4] المقريزي:نفسه،ج1ص43.(ينظر أيضا:حسن حسني عبد الوهاب: خلاصة تاريخ تونس،تحقيق:حمادي الساحلي ، دار الجنوب للنشر، تونس، 2001،ص105).

يوسف فإذا تطاولت المدة سينفرد بالأمر ولكن هذا أولى وأحسن وأجود عند ذوي العقل وهو نهاية ما يفعله من يترك دياره "[1].

وفارق "المعز" "يوسف" متوجها إلى "مصر" ،فيما انصرف بلكين عائدا إلى المنصورية فدخلها ،و نزل بقصر السلطان بصبرة و خرج إليه أهل القيروان فهناؤه و اظهروا السرور بقدومه و أقام هنالك شهرين و بعث العمال و الولاة إلى جميع البلاد و نفذت أوامره في إفريقية والمغرب [2].

و تعتبر مرحلة حكم بلكين من أصعب المراحل في العهد الصنهاجي من الناحية العسكرية ، حيث ما إن تولى الإمارة حتى بدأ في حروبه على المتمردين في المغرب الأوسط من قبائل كتامة ، وفي المغرب الأقصى ضد زناتة التي تتبعها في حروب طاحنة حتى أدركه الموت في سنة" (373 هـ) "، وقد حكم ثلاث عشرة سنة وبضعة أشهر، وترك من بعده عددا كبير من الأولاد [3].ولقد وضع أسس دولته القائمة على إكرام العلماء وتقريبهم إليه،وأجرا الأرزاق عليهم ،وعول على آرائهم فقصده العلماء من كل حدب وصوب، " وقام بجمع المغارم من كل فئات المجتمع ماعدا الفقهاء و الصلحاء و الأدباء [4].

-المنصور بن بلكين بن زيري(374هـ -386هـ):

ما إن مات "بلكين" حتى خلفه و لده "المنصور" ، وكان مقيما بولاية "أشير" وقد عهد إليه أبوه بالولاية ، وبويع بعده سنة" (374هـ)[5].وجاء في وصف المنصور:"كان أبو الفتح المنصور كريما، سمحا، صارما،جوادا ،عازما ، وكان رجلا عاقلا عفيفا ، يحب الرفق بالأمر"[6]. ومما يعرف عن سياسته ما جاء عنه في قوله:"إن أبي وجدي كانا يأخذان الناس بالقهر، و أنا لا آخذ أحدا إلا بالإحسان. وما أنا في هذا الملك ممن يولى بكتاب و يعزل بكتاب ،

---

1 ابن حماد: المصدر السابق،ص53.
2 ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص76.
3 نفسه ،ص 77. (ينظر أيضا: الهادي روجي:المرجع السابق،ج 1،ص96).
4 الهادي روجي:المرجع السابق،ج 1،ص 87-96.
5 محمد الطمار المرجع السابق،ص69.
6 الهادي روجي: نفسه،ج 1،ص100. (ينظر: ابن أبي الدينار، المصدر السابق، ص78.)

و لا أشكر على هذا الملك إلا سبحانه و تعالى ، لأني ورثته عن آبائي و أجدادي وورثوه عن آبائهم و أجدادهم حمير "[1].

ومما جاء عن طبيعة عقيدته ،و إن كان يوالي الفاطميين في مصر إلا أنه قام بقتل الداعي الذي عينه الفاطميون في إفريقية وهو "عبد الله بن محمد الكاتب"بعد وشايات متتالية من قبل مقربيه وكان ذلك سنة(377هـ)"،كما عمل على تهدئة خواطر أهل المالكية ،وهذا من خلال حادثة تمثلت في "لما رفع له في عبد من عبيده أنه قذف بعض الصحابة ، فأمر بقتله و صلب جثته ،ونودي على رأسه بمدينة القيروان"[2]. وكانت وفاته سنة(386هـ)، ودفن بقصره الجديد خارج المنصورية ،وكانت أيامه أحسن أيام[3].

-باديس بن المنصور(386هـ -406هـ):

كانت ولادته سنة(374هـ) [4]،وبعد وفاة المنصور بويع باديس و كنيته أبو مناد ،وكان عمره لا يتجاوز اثنتي عشرة سنة .تولى ملك افريقية في ربيع الأول سنة "386هـ"و رحل إلى قصره في رجاله و عبيده و أتته الوفود بتهنئته بالملك، وفي سنة "387هـ"عقد لعمه "حماد بن بلكين" على أشير و المغرب وجعله عاملا في تلك البلاد[5]. ورغم صغر سنه ، إلا أنه اتصف بصفات كبيرة كما جاءت عن" ابن خلكان " ،ومفاده أنه كان ملكا عظيما ، موطد العزم ، شديد المراس ، لا يستطيع رمح دون كسره، كان مقداما جوادا، يعطي العطاء الضخم، وكان محسنا لأصحابه و يعفو عن إساءاتهم" [6].كما كان محبا للعلم و العلماء فقربهم إليه ، وأجزل العطاء لهم.

---

[1] ابن أبي الدينار :نفسه،ص77-79. (ينظر : الهادي روجي:نفسه ،ج 1،ص99.)

[2] الهادي روجي:نفسه ،ج 1،ص107.

[3] نفسه،ج 1،ص119.

[4] نفسه ،ج 1،ص109.

[5] ابن أبي الدينار ،نفسه،ص81. (ينظر أيضا: الهادي روجي:نفسه، ج 1، ص121.)

[6]ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس،دار صادر،بيروت، د ط ،1972،ج 1، ص86 .(ينظر أيضا: الهادي روجي:المرجع السابق،ج 1،ص122.)

وقد كان باديس يكرم أهل العلم ،فكان يعفي التلاميذ من الرسوم ، كما أقر امتيازات هامة للشيوخ من مثل :إقراره لامتيازات مسندة إلى الشيخ "محرز بن خلف"[1].و أفراد عائلته ، وهذا بما يسمى اليوم مرسوم مؤرخ في سنة (407هـ).

توفي "باديس" سنة(406هـ)، وهو يبلغ من العمر أقل من33 سنة[2]، وقد قضاها كلها في تحصين دولته ،من خلال الحروب الكبيرة و الطويلة التي خاضها ضد الزناتيين وأعمامه الصنهاجيين ،خاصة حماد، وقد أنقذت وفاته حمادا من الهلاك ، ولولها لما تمكن من تأسيس دولة بني حماد.

-المعز بن باديس(406هـ -454هـ):

لقد بلغ المغرب الإسلامي في عهد "المعز بن باديس" أوج الازدهار ،حتى اعتقد معظم الناس أن تلك الحالة ستدوم لقرون عديدة،و كان مولده بالمنصورية سنة (398 هـ)، فكان عمره حين بويع بالإمارة سنة (406هـ) بالمهدية لم يتجاوز تسع سنوات [3].

كان أكرم أهل بيته بالمال وكان متدينا يجتنب سفك الدماء إلا في الحق وكان رقيق القلب حاد الذهن عارفا بعدد من الصنائع من الألحان و التوقيعات و علم الأحجار، كما وصفه الذهبي بقوله: "وكان ملكا مهيبا، و سريا شجاعا ، عالي الهمة ، محبا للعلم ، كثير البذل مدحه الشعراء و له شعر جيد"[4]. اظهر الدعوة للعباسين وورد عليه العهد من "القائم بأمر الله العباسي" في سنة(440هـ) قطع خطبة بني عبيد و قطع بنودهم و أحرقها ، فاستشاط الخليفة العبيدي غضبا و أشار عليه وزيره بإرسال القبائل العربية الموجودة في الصعيد فتم ذلك و أباح لهم من برقة إلى ما بعد ها و أعانهم على ذلك بمال وهم رياح وزغبة و عدي بطون بني عامر بن

---

[1]محرز بن خلف هو أبو محفوظ محرز بن خلف بن زين، ويتصل نسبه بالخليفة أبي بكر الصديق،ولد (340 هـ- 413هـ) من علماء القيروان نبغ واشتهر في فن المناظرة وخاصة في مسائل الخلاف. كان له دور في نشر المذهب المالكي بالمغرب الإسلامي .(ينظر:الدباغ:معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تكملة أبي القاسم بن عيسى بن ناجي:تحقيق: محمد ماضور ،مكتبة الخانجي ،مصر-المكتبة العتيقة تونس،د ط،د ت، ج3،ص229).

[2] ابن أبي الدينار ،المصدر السابق،ص82.(الهادي روجي:المرجع السابق، ج 1، ص154.)

[3]نفسه،ص102. (الهادي روجي:المرجع السابق،ج 1،ص167.)

[4] الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج18، ص140. (ينظر أيضا: الهادي روجي:المرجع السابق، ج 1، ص170).

صعصعة[1] ، و لما وصلوا إفريقيا عاثوا فيها فسادا وملئت أيديهم من النهب و كثر ضررهم والتقوا مع المعز و كانت بينهم مواقع عديدة انهزم فيها المعز بعد أن خذلته زناته حتى لم يبقى معه إلا عبيده .

و لما رأى المعز ما حل به ركن إلى الصلح و رفع الحرب بين العرب و بينه لكنهم لم يتوقفوا بل ملكا البلاد بأسرها و اقتسموا براريها و افسدوا حواضرها ، كان الخطب جليلا خاصة فيما فعلوه بالقيروان و لما رأى المعز ذلك رحل إلى المهدية التي كان بها ولده تميم واليا عليها وكان هذا في رمضان من سنة تسع و أربعين و أربعمائة و نهبت القيروان ، وسلم المعز الأمر لولده تميم في حياته فقام بأمور الدولة أحسن قيام و توفي المعز سنة ثلاث وخمسين و أربعمائة كانت أيام ولايته تسعا و أربعين سنة[2] .

و عرف عنه أنه لا يدخر جهدا في تجميل بلاطه بأوفر عدد من رجال الأقلام و النقاد الكبار و كبار الشعراء ، بحيث كلما سمع بعالم أو أديب طار صيته استدعاه لقصره و أغدق عليه ألوان الحظوة و التشجيع ، حتى قيل أن بلاط المعز جمع أكبر من مائة شاعر منهم "ابن رشيق" و "ابن شرف" ،ومن المواقف التي جمعته مع هذين الشاعرين ،عندما خاطبهما قائلا:"أريد أن تصنعا شعرا تمدحان به الشعر الرقيق الخفيف الذي يكون على سوق بعض النساء، فإني استحسنه ، وقد عاب بعض الضرائر بعضا به ، وكلهن قارئات كاتبات ،فأحب أن أريهن هذا و ادعي أنه قديم ، لأحتج به على من عابه و آسي به من عيب عليه" [3] .فاستجاب الشاعران في الحين لهذا الطلب .

كما كان على درجة عالية من الثقافة الأدبية و الذوق الفني بما أهله لنقد آثار كبار الشعراء نقدا صائبا[4].فانتقد " ابن رشيق" على قوله يعيبون " وقال: أوجدت لخصمها حجة بأن بعض

---

[1] ابن أبي الدينار ،المصدر السابق ،ص82.

[2] نفسه ،ص85.

[3] الهادي روجي:المرجع السابق،ج 1،ص170.

[4] محمد الطمار : المرجع السابق،ص78.

الناس عابه"[1] .و كان لا يتفرد بقرار في الظروف الطارئة ،بل يقوم بجمع الناس في الجامع الكبير، وبعد استشارة العلماء و كبار رجال الدولة يعلن عن القرار المتخذ بعد المداولة.

-تميم بن المعز(453هـ -501هـ):

ولد بالمنصورية سنة(422هـ)، و ولاه أبوه على المهدية سنة(445 هـ)، ثم أسندت إليه ولاية إفريقية من والده المعز[2] ، كان ذكيا مفرطا في الذكاء،شجاع القلب ، ذا همة عالية و سياسة ، ودهاء ،سار في الناس بسيرة حسنة، استمال زعماء العرب بالمال و العطايا ، وصاهرهم و امتزج معهم ، وجعل منهم جنودا لدولته بكياسة وفطانة و سياسة حكيمة .ينظم الشعر و يجيز من يمدحه و يحب المنادمة و الاستماع من ندمائه ابن رشيق، ابن شرف و لهم فيه مدائح، و كان احلم بني مناد و أعفاهم عن الأمور العظام و انقدهم للشعر[3].

وقد قيل في إكرامه للعلماء و الأدباء أنه " كان محبا للعلماء معظما لأرباب الفضائل حتى قصدته الشعراء من الأفاق على بعد الدار ، وكان يجيز الجوائز و يعطي العطاء الكبير"[4] وبذلك يعتبر عصره أزهى من عصر والده فيما بعد دخول القبائل العربية، كما كان يضرب به المثل في الجود و الكرم قال عنه ابن كثير: "من خيار الملوك حلما و كرما، و إحسانا "[5]. ملك ستا و أربعين سنة و عمر تسعا و ثمانون سنة ،ترك من البنين أزيد من مائة ، ومن البنات ستين بنتا [6].ومن شعره :

فإما الملك في شرف و عز * علي التاج في أعلى السرير
وإما الموت بين ظبا العوالي * فلست بخـــــــالد أبد الدهور[7].

---

[1] الهادي روجي:نفسه،ج 1، ص170.

[2]ابن أبي الدينار:المصدر السابق، ص86.(ينظر أيضا :محمد الصلابي: الدولة الفاطمية،مكتبة الإيمان، المنصورة ، ط1 ،2005،ص111) .

[3] ابن أبي الدينار:المصدر نفسه، ص87-88.

[4]حسن حسني عبد الوهاب:مجمل تاريخ الأدب التونسي(من فجر التح العربي لافريقية إلى العصر الحاضر)،مكتبة المنار ،تونس،1968،ص103.

[5]ابن الأثير: الكامل في التاريخ ،ج8 ،ص188.

[6]ابن أبي الدينار:المصدر السابق، ص90.

[7]محمد الصلابي: المرجع نفسه،ص112.

ومن مدح "ابن رشيق" للأمير تميم، قوله:

أصح و أقوي ما سمعناه في الندى * من الخبر المأثور منذ قديم

أحاديث ترويها السيول عن الحيا *عن البحر عن كف الأمير تميم(1).

-يحيى بن تميم بن المعز(501هـ -509هـ):

عهد إليه أبوه بالولاية في حياته في سنة (497هـ)(2) واستقل بالأمر بعد وفاة والده ، كان مهتما بعلم الأخبار و أيام الناس و الطب ، وكان مغرما بالكيمياء ، كما كان كثير لمطالعة محبا للجهاد ، رحيما بالضعفاء شفيقا بالفقراء يطعمهم و يرفق بهم ، ويقرب أهل العلم و العقل من نفسه، وساس العرب في بلاده فهابوه و انكفت أطماعهم ،كما كان ينظم الشعر الجيد (3). قرب الكثير من الشعراء في بلاطه على سيرة أسلافه فقصده الشعراء و مدحوه و من جملة شعرائه" أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت"(4)الشاعر الذي عاش في كنفه بعد أن جاب البلدان ، و له في يحي مدائح كثيرة أجاد فيه ،و مما قاله فيه:

فارغب بنفسك إلا عن ندى ووغى * فالمجد أجمع بين البأس و الجود

كدأب يحيى الذي أحيت مواهبــه* ميت الرجاء بانجاز المواعــــيد

إذا بــدا بسريــر الملك محتبيا * رأيت يوسف في محــراب داود(5) .

---

[1] ابن رشيق القيرواني: الديوان،جمع و ترتيب : عبد الرحمن ياغي، دار الثقافة ،بيروت،دط،دت،ص170-171 (ينظر أيضا:حسن حسني عبد الوهاب: خلاصة تاريخ تونس ،ص86).

[2] ابن أبي الدينار:المصدر السابق، ص91.

[3] نفسه ،ص91.

[4] أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت :كنيته أبو الصلت، كان عالما في الفلك والرياضيات والموسيقي,وطبيبا ولد في بلدة دانية بالأندلس عام(460 هـ)، ونشأ فيها وأخذ علوم اللغة والنحو عن قاضيها أبي الوليد الوقشي (ت 488 هـ) .ثم انتقل إلى إشبيلية فنسب إليها واستقر فيها إلى حين سقوط طليطلة بيد ألفونسو السادس، ملك قشتالة سنة(478هـ) .فهاجر منها متجها إلى المهدية بتونس .حيث دخل في خدمة صاحبها تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي، الذي أرسله في سفارة يحمل منه رسالة إلى الملك الأفضل بن بدر الجمالي أمير الجيوش في زمن المستعلي بالله أحمد بن معد الفاطمي. سجن في مصر ثم أفرج عنه فغادر إلى المهدية حيث توفي فيها عام(529 هـ).(ينظر: المقري : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. تح: يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر، بيروت،ج2،ط1، 1986 ،ص 312).

[5] أمية بن عبد العزيز أبو الصلت : الديوان،تحقيق : محمد المرزوقي، دار بوسلامة ،تونس، 1979، ص 122.(ينظر أيضا: محمد الصلابي: المرجع السابق،ص114).

وكانت أيامه أيام عدل ،توفي الأمير" يحيى" سنة(509 هـ) متأثرا بمرض أصابه ، وكانت ولايته ثماني سنين و خمسة وعشرين يوما، وممن رثاه "ابن حمديس الصقلي[1]" في قوله:

ما أغمد العضب حتى جرد الذكر *و لا اختفى قمر حتى بدا قمر

قد مات يحيى فمات الناس كلهم * حتى إذا ما علي جاءهم نشروا

إن يبعثوا بسرور من تملكه * فمن منية يحيى بالأسى قبروا [2] .

-علي بن يحي بن تميم بن المعز(509هـ -515هـ):

كان مولده سنة(499هـ) ولاه والده على "صفاقس" ،و تولى الحكم بعد وفاة والده، تميزت فترة حكمه بحروب بينه وبين "النورمانديين" في حروب بحرية عنيفة، و ابتدأ دولته بتجهيز أسطولا كبيرا أرسله إلى "جربة" التي لم تكن تخضع لطاعة أسلافه ،و في أيامه عظمة شوكة " روجار" حاكم صقلية[3].وفي أيامه دخل "محمد بن تومرت" المهدية وغير بها المنكر.

و كانت أعماله و حروبه تدل على همته العالية، كما قرب العلماء و الأدباء و أجزل العطايا إليهم إلى أن توفي سنة خمس عشرة وخمسمائة من مرض أصابه [4].

-الحسن بن علي بن يحي بن تميم(515هـ -543هـ):

ولد بسوسة سنة(502هـ) ، و تولى بعد وفاة أبيه الولاية و جرت في أيامه وقائع عديدة ضعفت الدولة وأصبحت هدفا للنصارى الذين رأو أن الفرصة مواتية لاحتلال سواحل المغرب ، فخرج "الحسن بن علي" من المهدية و هو يقول : "سلامة المسلمين أحب إلي من الملك و القصر"[5] .و بخروجه سنة(542هـ) انته عهد الدولة الصنهاجية بعد أن دام ملكهم أرض

---

[1]عبد الجبار بن أبي بكر بن محمد بن حمديس الأزدي الصقلي أبو محمد (447 - 527 هـ) شاعر مبدع، ولد وتعلم في جزيرة صقلية، اضطر للهجرة إلى الأندلس سنة(471 هـ) بعد أن استولى عليها النورمان ، اتصل ابن حمديس بـ (بني علناس) و(بني زيري).و استقر في (بجاية) بالجزائر وأقام فيها حتى توفي عن ثمانين عاما (ابن حمديس: الديوان ،ضبط وعنون قصائده وعلق عليها: يوسف عيد ،دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2005 ،ص5-19).

[2] ابن حمديس: الديوان،ص220-221.

[3] ابن الأثير : الكامل في التاريخ،ج6، ص524 . (ينظر أيضا:ابن أبي الدينار:المصدر السابق، ص92).

[4]ابن أبي الدينار:المصدر السابق،ص92.(ينظر:حسن حسني عبد الوهاب: خلاصة تاريخ تونس ،ص84).

[5] محمد الصلابي: المرجع السابق،ص117.

المغرب نحو مائة وثمانين سنة، وكانت و فاته بعد سنة(555هـ) [1]"وهو في طريقه إلى عاصمة الموحدين.

و الحسن آخر أمراء الدولة الصنهاجية ،كان قوى النفس مجتمع الفكر لا يتزحزح لعظام الأمور و لا يتضعضع لنوائب الدهور ، متقد الذهن شجاع القلب كريم النفس حسن الفروسية ينظم الشعر، ويقرب العلماء.

1-ج- أمراء الدولة الحمادية:

لعل العامل الأساسي المشجع و الراعي لانبعاث الحركة الثقافية و الفكرية في عهد الدولة الحمادية، والذي هو الرابط بين الواقع الحضاري و التطلعات الشعبية، خاصة وأن في نفس السياق الزمني وصلت الحضارة العربية الإسلامية إلى قمتها في المشرق والأندلس، هو أمراء الدولة الذين كانوا أهل علم وثقافة ،فأولوا اهتماما كبيرا برجالات العلم والفكر والأدب.،وكانوا يستدعون العلماء والأدباء إلى بلاطهم في المناسبات المختلفة ، وعملوا على تأسيس صروح مغاربية علمية توازي بغداد و قرطبة ،وهي :قلعة بني حماد وبجاية التي ازدانت بها الحياة الفكرية بنهضة كبيرة في مجال العلوم النقلية والعقلية،ووفد إليها عدد من العلماء و الأدباء و الشعراء،ومن أهم أمراء الدولة الذين ساهموا في رفعت الثقافة والفكر و الأدب:

-حماد ابن بلكين(353هـ-419هـ):

هو حماد بن بلكين بن زيري بن منقوش الصنهاجي، كان الرابع في ترتيب أبناء بلكين الصنهاجي وهو أول أمراء هذه الأسرة، لقد انفرد حماد بحكم معظم أجزاء المغرب الأوسط.وبذلك فهو مؤسس الدولة الحمادية بالجزائر. نشأ حماد في بيت الخلافة الفاطمية العبيدية[2] بسبب كون أسلافه هم اليد اليمنى للدولة العبيدية، وهناك توضحت ملامح شخصيته وهو طفل صغير. و في جل الكتب التي تتحدث عن حماد لا تتطرق إلى تاريخ مولده بشكل دقيق ولكن أحد الباحثين يذهب إلى القول أن:" ولادته كانت قبل استقلال أبيه بلكين بحكم المغرب سنة (362هـ) بعد سنوات ربما في أعوام (353هـ) أو(354هـ)" [3].

---

[1] ابن أبي الدينار :نفسه، ص93.

[2] عبد الفتاح مقلد الغنيمي: المرجع السابق، ص،268 .

[3] نفسه ، ص268.

ولقد تلقى جميع مقومات الشخصية الإسلامية، فقرأ الفقه في القيروان ونظر في كتب الجدل و لذلك لم يكن ميالا لتعلم المذهب الإسماعيلي الشيعي(1)، هذا ما جعله يقوم بقطع الدعوة عن العبيدين وإعلان طاعته للعباسيين عام (405هـ) (2)،و التحول عن المذهب الشيعي وإظهار السنة والمذهب المالكي، إضافة لتعلمه فنون القتال والفروسية هذا ما جعله متميزا بين أخوته.كما تميز بالشجاعة والدهاء، كما عمل حماد على توطيد دعائم الدولة بتقريبه لرجال الفكر والعلم والدولة من مجلسه، إضافة إلى أنه كان يزيد من التوسع العمراني والزراعي للدولة،(3) ويشجع على الهجرة إليها حيث نقل إليها أهل المسيلة وأولاد حمزة. ولعل أحسن من وصفه هو "لسان الدين بن الخطيب"، في قوله: " أن حماد كان نسيج وحده وفريد دهره وفحل قومه، ملكا كبيرا وشجاعا، قد قرأ الفقه بالقيروان وناظر في كتب الجدل وأخباره المشهورة وهو الذي بنى القلعة المنسوبة إليه فاتخذ بها القصور العالية والقصاب المنيعة والمساجد الجامعة والبساتين الأنيقة ونقل إليها الناس من سائر البلاد"و كانت وفاته في(419هـ) بتازمرت في القلعة،عن عمر ناهز(100عام)(4).وعرف عليه أنه كان خطيبا موهوبا استطاع أن يؤثر في نفوس سامعيه بفصاحته وبلاغته وقدرته على ارتجال الخطب ،وقرب العلماء و الأدباء و أجزل العطايا لهم.

- **القائد بن حماد بن بلكين (419-446هـ):**

تميزت فترة حكم القائد بالاستقرار وهذا بسبب انشغال "المعز بن باديس" عنه وهذا لمداهمته من طرف القبائل الهلالية.وكان القائد سديد الرأي، عظيم القدر، وتحرك إلى محاربة "حمامة بن زيري المعز المغراوي" أمير مدينة فاس وكانت بينهما حروب أسفرت على موادعة وخلع القائد

1عبد الفتاح مقلد الغنيمي: المرجع السابق ، ص268.

2 نفسه، ص270.

3 نفسه، ص273.

4ابن الخطيب: أعمال الأعلام، تحقيق و تعليق: أحمد مختار العبادي و إبراهيم الكتابي، نشر و توزيع دار الكتاب ، الدار البيضاء، 1964، ج3، ص86. (ينظر أيضا:الهادي روجي:المرجع السابق،ج 1،ص194).

بني عبيد كما فعل ابن عمه وأدى ولائه إلى بني العباس إلى أن هلك سنة(446هــ) فكان ملكه 27 سنة وولي بعده ولده المحسن[1].

تولى القائد الحكم بعد وفاة أبيه، وعين أخوه يوسف على المغرب وريغلان على حمزة، وزحف إليه حمامة بن زيري بن عطية ملك فاس من مغراوة سنة ثلاثين، فخرج إليه القائد، وأحس بذلك حمامة فصالحه[2].

وقد ساعدت عدة عوامل في استقامة أمر الدولة في الحقبة الأولى من عصر القائد بن حماد (419هــ-430هــ) إلى جانب جهود أبيه ومن أبرز هذه العوامل: أن القائد بن حماد قد لعب دورا فعالا في توطيد أسس الصفاء بين أبيه وبين "المعز بن باديس"، إذ كان السفير والرهينة التي بواسطتها تم الصلح، كما أن العلاقة بين المعز والفاطميين في القاهرة كانت تمر بفترة قلق واضطراب وكان هذا في مصلحة القائد[3] .

- المحسن بن القائد (446-447هــ):

بعد وفاة القائد تولى من بعده ابنه المحسن، فحسب "ابن خلدون" فإن محسن كان جبارا وخرج على عمه يوسف ولحق بالمغرب فقتل سائر أولاد حماد وبعث محسن في طلب بلكين ابن عمه محمد بن حماد وأصحابه من العرب، خليفة بن بكير وعطية الشرف، وأمرهما بقتل بلكين في طريقهما فأخبر بلكين بذلك وتعهدوا جميعا على قتل محسن، وفر إلى القلعة وأمسكوه وقتله بلكين لتسعة أشهر من ولايته وهذا راجع إلى محسن الذي لم يأخذ بوصية أبيه، حيث أوصاه بالإحسان إلى عمومته، فلما مات أبوه خالف ما أمره به، وأراد عزل جمعا عظيما وبنى قلعة في جبل منيع وسماها الطيارة، وإن محسن قتل من عمومته أربعة،وإن هذا الأمير الحمادي لم يعمل[4]. على نصيحة أبيه، أي ألا يخرج من القلعة إلا بتمام ثلاث سنين، لكن محسن لم يكد يتولى الأمور حتى خالف الوصيتين معا فقد عزم على عزل جميع أعمامه فلما ثار عليه يوسف (عمه) عندما سمع على أمر عزله خرج من القلعة لمحاربته، وأن محسن امتاز إلى جانب

---

[1] عبد الفتاح مقلد الغنيمي: المرجع السابق، ص274.

[2] عبد الفتاح مقلد الغنيمي: المرجع السابق ،ص86-87.

[3] ابن خلدون: المصدر السابق، ص172.

[4] نفسه، ص172.

استبداده برأيه، بالقسوة الشديدة[1]. ونتيجة لأعماله اغتاله ابن عمه بلكين بن محمد بن حماد، وعاد إلى القلعة فدخلها ليلا وملكها.وكانت ولاية محسن ثمانية شهور وثلاثة وعشرون يوم[2].

- بلكين بن محمد بن حماد بن بلكين(446-454هـ):

كان بلكين شهما وحازما شجاعا، جريئا على العظائم، سفاكا للدماء، ابتدأ بسفك دم وزير محسن، وكان كثير الغارة على المغرب[3]. وعنه قال "لسان الدين بن الخطيب": "....كان بلكين أحد جبابرة الإسلام...." [4].وبلغ بلكين من الغلظة والجفاء من قومه وإخافة أقرانه وأقربائه وعلا في الغدر منهم فقتل وسفك دماء الكثير ممن حامت حولهم الشكوك والظنون، وكانت من بين هؤلاء القتلى زوجته (تاضميرت) ابنة عمه وأخت "الناصر بن علناس"، الذي حقد عليه وأراد الانتقام منه" [5] وكان بلكين كثيرا ما يردد الغزو على المغرب وبلغه استيلاء "يوسف بن تاشفين" والمرابطين على "المصامدة "فنهض نحوهم سنة(454هـ) ففر المرابطين إلى الصحراء وتوغل بلكين في ديار المغرب ونزل بفاس فاحتمى بأكابر أهلها وأشرافهم فانتهز منهم الناصر بن عمه الفرصة في الثأر لأخته وقتله في تساله [6].

- الناصر بن علناس(454-481 هـ): أشهر حكام الدولة عرف باستقدامه العلماء و الأدباء وإغداق الصلات و العطايا عليهم ، ووفد عليه الكثير من العلماء و الأدباء، خاصة بعد نكبة القيروان، من أمثال "ابن النحوي" ،و" ابن الكفاه القيرواني" [7] ،الذي قال فيه:

قالت سعاد وقد زمت ركائبنا * مهلا عليك فأنت الرائح الغادي

---

[1] ابن الأثير:الكامل في التاريخ ،ص 601.

[2] عبد الحليم عويس: دولة بني حماد صفحة رائعة من التاريخ الجزائري، دار الشروق، بيروت ، ط1،1980، ص 118.

[3] مبارك الميلي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،1976،ج2،ص 613.

[4] ابن الخطيب:المصدر السابق، ص 87.

[5] نفسه، ص69.

[6] عبد الحليم عويس: المرجع السابق،ص114.

[7] محمد الطمار : المرجع السابق،ص95. (ينظر: رابح بونار :المرجع السابق،106) .

فقلت تالله لا أنفك ذا سفــر * تجري بي الفلك أو يحدو بي الحادي

حتى أقبل ترب العز منتصــرا * بالناصر بن علناس بن حمــاد[1]

- **المنصور بن الناصر بن علناس(481-498هـ):**كان كاتبا شاعرا كما يقول ابن الخطيب ، و قد حفل بلاطه بالكثير من الأدباء ، كما قصده العديد من الشعراء و الأدباء ببجاية ، من مثل: "ابن حمديس الصقلي" ،و مدحه بقصائد رائعة منها قوله:

يا ملك الأرض الذي أضحى له * ملك السماء على العداة نصيرا

كــم من قصور للملوك تقدمت * و استوجبت لقصورك التأخيــرا

فــعمرتها و ملكت كل رئاســة * منها ودمرت العدا تدميــرا[2]

- **العزيز بن المنصور(498-515هـ):**عرف عنه أنه يتعاطى الأدب و يستقدم العلماء و الأدباء للمناظرة في حضرته، ومن الأدباء الذين وجدوا في عهده "ابن حمديس" [3] وقد عاش معززا مكرما من طرفه ، و الشاعر" يوسف بن مبارك "الذي قال فيه، و في آل حماد:

هناكم النصر و نيل النجاح * في يومكم هذا بسمر الرماح

فانتم الصيد الكرام الألى * شادوا العلا بالنائل المستماح

مــــا منكم إلا همام حوى * مناقبا جلى و مجدا صراح[4]

ومن الشعراء الذي عاشوا أيضا في عهده ،علي بن الزيتوني ،وابن أبي المليح، علي بن مكوك الطيبي، و حماد بن علي ...وغيرهم.

---

[1] رابح بونار :المرجع السابق،ص146.
[2] ابن حمديس: الديوان،ص251.
[3] محمد الطمار:المرجع السابق،ص99.
[4] رابح بونار :نفسه،196 .

-**يحي بن العزيز بن المنصور(515-547هـ):** آخر حكام بني حماد ،كان فصيح اللسان بليغ القيم مليح العبارة بديع الإشارة كما يقول مترجموه [1] ، عرف عصره العديد من الأدباء من مثل "أبي حفص بن فلفول" و هو كاتبه الخاص، بالإضافة إلى كاتبه الآخر" ابن دفرير " كان كاتبا جلي يلتزم السجع في رسائله و يهتم بالزخرف الفني في أسلوبه الأدبي، يقول في مطلع إحدى رسائله التي كتبها عن أميره: "كتابنا و نحن نحمد الله على ما شاء و سر، رضى بالقسم و تسليما للقدر...."[2].

2-الحواضر العلمية ودورها في النهضة الثقافية والأدبية:

استطاع الأمراء المتعاقبون على المغرب الإسلامي طيلة قرنين من الزمن في الارتقاء بالمدن المغربية إلى مصاف الحواضر العلمية الكبرى وتكريس مكانتها كوجهة علمية وثقافية متميزة ضمن أفضل الحواضر العلمية في ذلك العصر في المشرق و المغرب.

وتعكس مشاريع المدن الجديدة التي اختطوها على اختلافها، رؤية تتوخى مواكبة التنمية الحضرية والنمو الديموغرافي بالمغرب الإسلامي وتعزيز جاذبيتها على المستوى الاقتصادي وتقوية مكانتها كأقطاب وحواضر متعددة النشاطات، فضلا عن تعزيز البنيات التحتية السوسيو ثقافية والنهوض بمؤشرات التنمية البشرية، والتطلع بذلك إلى مستقبل واعد في خدمة النهضة الفكرية و الأدبية و الثقافية للدول المتعاقبة كما طوروا المدن القديمة. و من خلالها ينشرون دعوتهم وأفكارهم ويلبون رغباتهم العلمية والثقافية وهذا كله لخدمة مصالح دولهم وتمكينها وتقوية نفوذها ،ومن أهم هذه الحواضر التي ساهمت في هذه النهضة ،نجد:

2- 1-المهـــدية (300هـ-914م):

بادر الأمير الأول العبيدي "عبيد الله المهدي" بإنشاء مدينة "المهدية"، وذلك في مطلع القرن الرابع الهجري،واختار بنفسه مكانا يمتاز بالحصانة والمناعة ،وذلك بشبـــه جزيرة "جمة"[3] بين

---

[1] نفسه،ص199.

[2] محمد الطمار،المرجع السابق،ص100.

[3]وهي الآن إحدى بلديات ولاية سوسة بالجمهورية التونسية وهي عاصمة لحوالي خمسين ألف نسمة أما سكان المدينة نفسها فحوالي ثمانية وعشرين ألفا نسمة. (ينظر: محمد الصالح مرمول:المرجع السابق، ص 284).

سوسة و صفاقس ،وجاء اختياره للموقع لأنه لم يكن يطمئن إلى أهل المغرب عامة،وأهل السنة خاصة،بل وكان يتوقع الخطر حتى من بعض أتباعه لأنه شاهد بأن البعض منهم بادر وشق عصا الطاعة في وجهه إثر قتله "لأبي عبد الله الشيعي"[1].ولذا قال "البكري" بهذا الصدد:"وكان سبب بنيان "عبيد الله "للمهدية قيام "أبي عبد الله" وجماعة "كتامة" عليه وما حاولوه من خلعه"[2]. وعلى هذا فإنه خشي البقاء في القيروان وسط عناصر من السكان تعاديه وتتربص به من حين لآخر. فبنى المهدية لتكون ملجأ له في وقت الشدة.ولذلك قال "المهدي"لما أتم بناءها:" لقد بنيتها للفواطم ليعتصموا بها ولو ساعة من نهار،اليوم آمنت على الفاطميات"[3].لقد شرع المهدي في إنشاء في عاصمته الجديدة سنة(300هـ)[4].وأمعن المهدي في إتقانها وإحكام بناءها حتى أن "القاضي النعمان"،يقول عنها:" وكانت من أعجب الآثار بناها بالحجارة وبوبها بأبواب الحديد المحض"[5].

وكان اتساع المهدية في أول بنائها،من الجوف إلى القبلة قدر غلوة سهم فاستصغرها المهدي عند ذلك فردم من البحر مقدارها وأدخله في المدينة فاتسعت.والجامع الأعظم الآن على عهد التيجاني في القرن السابع ،والدار المعروفة في القديم بدار المحاسبات من جملة ما ردم من البحر وابتنى سائر الناس مدينة أخرى تسمى(زويلة)،وهي إحدى المهديتين ،وبينهما قدرة علوت سهم ،وجعل الأسواق والفنادق فيها...فكانت كالربض لمدينة المهدية،و كان بخارجها الحمى المعروف بحمى زويلة،وكله جنات وبساتين بسائر الثمار وأنواع الفواكه"[6].

---

[1] ابن حماد:المصدر السابق،ص20-22. (للمزيد حول قتل المهدي لعبيد الله الشيعي وأخيه ينظر:المقريزي: المصدر السابق ، ص26 . القاضي النعمان: افتتاح الدعوة،ص 306-307 .ابن الأثير:المصدر السابق، ص 50-53).

[2] البكري : المسالك و الممالك،دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج2 ،1992 ،ص30.

[3] المقريزي : المصدر السابق ،ص 27. (ينظر أيضا:القاضي النعمان: افتتاح الدعوة ،ص 327-328).

[4] يرى ابن الأثير أن عبيد الله بدأ في بناءها سنة 302هـ،ولكن الرأي القائل بأنه شرع في بناءها سنة(300 هـ) أرجح لأنه رأي جمهور الباحثين، (ينظر:البكري : المصدر السابق،ص30-31.ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب،د تحقيق: كوليج الآداب، مكتبة صادر، مطبعة المناهل ،بيروت،د ط،،د ت ، ج1،ص169-207).

[5] القاضي النعمان:افتتاح الدعوة ، ص275.

[6] رابح بونار : المرجع السابق، ص130.

وبعد ما تم بناء المهدية أصبحت مركز النشاط السياسي والتجاري والثقافي، كما تركزت فيها وسائل الحضارة المختلفة ويدل على ذلك"ما بها من الحمامات والحانات، ووسائل اللهو والترف والأناقة وحسن المظهر حتى وجدت بها طبقات مذهبة "[1].

ولا يفوتنا أن نورد تهنئة "ابن البديل الكاتب"للمهدي عندما أنهى بناء المهدية، يقول في ذلك:

بنيت لدى أقصى المغارب دار * قطنت بها الأحرار و الأبرار

لاذت ببـــــرد لمـــا أن درت * أن القلوب على الحسين حرار[2].

وقد استغرق بناؤها ثماني سنوات، وتمت الأشغال سنة(308 هـ-922م)[3]وما إن أتم بناءها وتحصينها حتى أسماها "المهدية" باسمه، ونقل إليها حكومته سنة(308هـ)[4] واتخذها عاصمة لدولته وفي بلاطاتها كانت تعقد تلك المناظرات الشهيرة بين السنة و الشيعة، إلى أن تولى الأمر من بعده "المنصور" فبنى عاصمة جديدة في المنصورية.وانتقل إليها وبذلك قل شأن المهدي.

2-2-المسيلة (المحمدية) (315 هـ- 929 م) :

وقع اختلاف بين المؤرخين في تحديد تاريخ إنشاء مدينة المسيلة فهناك من ذكر بأن الشروع في إنشائها كان سنة(313هـ- 927 م)[5] ومن قال بهذا الرأي لم يذكر المناسبة التي أنشئت فيها.ولكن ذهب البعض الآخر إلى القول بأن تاريخ إنشائها " يعود إلى سنة(315هـ- 929 م) ، وذلك حينما توجه "القائم" على رأس حملة عسكرية لإخماد ثورة بالمغرب الأقصى. وأثناء رجوعه أمر بإنشائها، حيث خط برمحه في الأرض صفة بنائها وهو راكب على فرسه وسماها المحمدية نسبة إليه، لأن اسمه محمد، مثل ما نسب "عبيد الله المهدي" مدينة المهدية

---

1 الإدريسي:المصدر السابق،ص79.

2 محمد اليعلاوي : الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي ، ص35. في البيت الثاني -حرقة الأكباد على شهيد كر بلاء "الحسين" سنة 63هـ -وهو معنى معتاد عند الشيعة عامة وشعرائهم وأدبائهم خاصة).(ينظر وصفها الدقيق عند: الإدريسي:المصدر السابق،ص142-143).

3 القاضي النعمان:نفسه ،ص275.

4ابن حماد:المصدر السابق، ص23.

5 نفسه ،ص30.

إليه"[1].وإذا ما اختلفت الآراء بين الباحثين في تاريخ إنشاء "المسيلة" فإنها اتفقت على أن الذي تولى بناءها ""علي بن حمدون المعروف بابن الأندلسي"[2]،الذي خرج مع "القائم" في حملته العسكرية المذكورة إلى المغرب فكلفه ببناءها.ولما انتهت الأشغال منها سنة(317هـ931م) جعله واليا عليها فبقي وفيا مخلصا للعبيديين ،إلى أن هلك في ثورة "صاحب الحمار"،سنة(334 هـ - 948 م) فتولها بعده ابنه "جعفر" واليا عليها »[3].

لقد بنيت المسيلة للأغراض استراتيجية عسكرية بالدرجة الأولى ، وكان الحافز الذي حفز" أبا القاسم "على إنشائها هو أنه لمس أثناء قتاله لزناته مدى قوتها و صلابتها ، قد نوهت كثير من المصادر بحصانة المسيلة " -ارتفاعها عن سطح البحر بـ (470مترا) شمال شط الحضنة – كما امتازت بخصوبة أراضيها وبوجود واد يجري فيه نهر كثير الماء ولذا كثرت غلتها وتنوعت وزادت على كفاية أهلها ،وعلى هذا فإن "أبا القاسم" اختار مكان بناءها لسببين لموقعها الجغرافي الهام من جهة ولخصوبتها من جهة أخرى.ولما تم بناءها انتقل مركز الثقل إليها من مـدينة"طبنـة"[4]عاصمة الزاب وأصبحـت هي العاصمة السياسيـة والإداريـة والمركز الحضاري للمنطقة الممتدة ما بين "باغاية" شرقا ،و" تيهرت" غربا.وازدهرت أوضاعها من مختلف الجوانب"[5].

وقصدها العلماء والأدباء و الشعراء من مختلف أنحاء المغرب وخارجه ،منهم " ابن هانئ الأندلسي المسيلي" الذي مدح كلا من "جعفر بن علي بن الأندلسي" ،و"جعفر بن فلاح الكتامي[6]"،

---

[1] نفسه ، ص30.

2أبا الحسن علي بن حمدون :من بني برزال القبيلة الأمازيغية وهي فرع من زناته أمير المسيلة والذي توارث ملكها من بعده أبناؤه قتل لما خلع البيعة عن العبيديين.(ينظر:ابن عذارى: المصدر السابق، ص268).

[3] محمد اليعلاوي:الأدب بافريقية في العصر الفاطمي، ص86-87.

[4]طبنة:مدينة اندثرت تبدو خرائبها للرائي على ثلاثة أميال جنوبي "بريكة" وشرقي الحضنــة بين "وادي بريكة" في الشمال ووادي "بيشم" في الجنوب وكانت مقر حكم الولاة بنيت على أنقاض مدينة قديمة تدعى "تبوني" يعلــو ممر مرتفع عليه من بعيد استغله" أبو عبد الله الشيعي" عندما صمم في احتلال المدينة وكان ذلك سنة 293 هـــ وقد كانت مدينة كبيرة وعاصمة لإقليم الزاب. (ينظر هامش :ابن حماد: المصدر السابق،ص36).

[5] الإدريسي : المصدر السابق ، ص108.

[6] جعفر بن فلاح الكتامي :أحد أبرز قواد "المعز" من قبيلة كتامة الأمازيغية اشتهر بقوة البأس وشدة الشكيمة والبطولة في الحرب ،وقد بعث به مع "جوهر" لغزو مصر ثم سار لمحاربة القرمطي بالشام وحقق عدة

و"المعز لدين الله العبيدي" ، وبذلك ساهمت هذه الحاضرة في إنعاش مختلف وسائل الحضارة بالمغرب الأوسط في هذا العهد، ولقد شهد "ابن هانئ" ازدهار المدينة وكل إقليم الزاب وشبهها ببغداد عاصمة الخلافة في قوله:

ورأيت حـــولي وفـــــد كل قبيلة * حتى توهمت العراق الزابـــــا

أرضا وطئت الدر رضراضا بها * والمسك تربا والرياض جنابــا

وسمعت فيها كل خطبة فيصل * حتى ظننت ملوكــها أعرابـــــا [1].

ويصور ازدحام الزائرين على باب الأمير بصورة تشبيهية رائعة حيث يقول:

أرى الناس أفواجا إليك كأنما * من الزاب بعث أو من الزاب محشر [2].

ولما تم بناء المسيلة انتقل مركز الثقل إليها من مدينة "طبنة "،و أصبحت هي العاصمة السياسية ،والإدارية والمركز التجاري والحضاري و الثقافي للمنطقة الممتدة ما بين باغاية شرقا ، و تيهرت غربا فانتقل إليها كثير من سكان المناطق المجاورة إليها واتسع عمرانها وراجت تجارتها وتنوعت وازدهرت .وتمتعت بذلك بقسط وافر من وسائل الحضارة والمدنية ، وبذلك ساهمت في إنعاش مختلف وسائل الحضارة بالمغرب الأوسط ، وبقيت تتمتع بمكانة مرموقة بين مختلف مدن المغرب الهامة.

انتصارات منها احتلال "طبرية" ثم "دمشق" ، إلا أنه وقع أسيرا في يد القرمطي فقتله ،وكان ذلك سنة(360 هـــ).وقد مدحه "ابن هانئ" بعدة قصائد وفيها يقول:

ما زلت أسمع والركبان تخبرني * عن جعفر بن فلاح أطيب الخير

حتى رأيتك لا والله ما سمعت * أذني ببعض الذي عاينت بالنظر

(ينظر:عبد الرحمن الجيلالي: المرجع السابق ،ج1،ص241.محمد اليعلاوي: ابن هانئ المغربي الأندلسي شاعر الدولة الفاطمية، ص92.ابن هانئ الأندلسي:ديوان ، ص180.محمد اليعلاوي:الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي ،ص350.ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، مصر،د ط د ت،ج4، ص59.المقريزي :المصدر السابق ،ج1،ص48).

[1] ابن هانئ الأندلسي:الديوان ،ص50.

[2] نفسه،ص 177.(ينظر أيضا: محمد اليعلاوي: ابن هانئ المغربي الأندلسي، ص181–182).

2 -3-المنصورية (صبـــــرة) (336هــ-941م) :

إذا كان "عبيد الله المهدي" بنى عاصمة جديدة في شبه جزيرة "جمة"، فإن حفيده "اسماعيل المنصور" بنى هو الآخر مدينة جديدة جنوب غرب مدينة "القيروان" على بعد نصف ميل. وسماها "المنصورية" نسبة إليه. كما أطلق عليها أيضا اسم "صبرة "،وهو أشهر الاسمين حسب رأي "ابن حماد"[1].

ولقد عمد "المنصور" إلى إنشائها في مكان الوقعة العسكرية الفاصلة بينه و بين "صاحب الحمار" بعدما فك الحصار عن "المهدية"،وقد صبر جيشه في المعركة حتى انتصر ولذا أطلق عليها اسم "صبرة" و ذلك لصبر وثبات جيشه في ساحة الوغى وعلى هذا فان بناءها كان تخليدا لهذا الانتصار العسكري الساحق الذي شتت فيه المنصور شمل خصمه ومزق صفوفه... ومن هنا فإن الغرض الأساسي من بنائها يختلف عن الغرض الذي بنيت من أجله مدينة المهدية.

بدأ "المنصور" بإنشاء "صبرة" في سنة(336هــ-941م) على ماذكره جمهور الباحثين[2]. واستقر بها في السنة الموالية وبذلك أنجز بناءها في وقت قصير ولاشك أن ذلك راجع الى توفر الامكانيات اللازمة، بالقياس الى جده "المهدي".أو ربما "المنصورية" كانت أقل عمرانا وهذا الاحتمال هو الراجح لأنه يمكن القول بأن"المنصورية" لا تشكل مدينة منفصلة عن مدينة "القيروان" بل هي جزء منها.يقول"الادريسي"بهذا الصدد:"...والقيروان كانت مدينتين إحداهما القيروان والثانية صبرة، حيث كانت القيروان لعامة الناس، وصبرة مقرا للدولة..."[3].

وحاضرة "صبرة" لا تشتمل على كثير من المرافق المختلفة التي اشتملت عليها المهدية كما أن المكان الذي اختاره المهدي لبناء عاصمته أكثر أهمية من المكان الذي بنيت فيه المهدية من عدة جوانب،ولكن قدر لكل منهما أن تكون عاصمة لخليفتين. فالمهدية كانت عاصمة للمهدي وأبى القاسم، والمنصورية كانت عاصمة للمنصور وابنه المعز.

---

[1] ابن حماد:المصدر السابق،ص34.

[2] نفسه ،ص23. (ابن عذارى:المصدر السابق، ج1، ص219).

[3] الإدريسي:المصدر السابق ،ص146.

وبعد انتقال "المنصور" إلى "صبرة" سنة(337هـ- 949م)[1]أصبحت هي العاصمة السياسية و الإدارية ومركز التجارة والصناعة ، وتمتعت بهذه المكانة في عهد "المعز" الذي بنى بها عدة منشآت عمرانية ، وبالتالي قل شأن "المهدية " التي بدأ الضعف يتطرق إليها منذ حصار "صاحب الحمار".

يصف "البكري" "صبرة" بقوله:" ومدينة صبرة متصلة بالقيروان... وهي منزل الولاة إلى حين خرابها، ونقل إليها معد بن اسماعيل الأسواق كلها وجميع الصناعات ولها خمسة أبواب الباب القبلي ،والباب الشرقي وباب زويلة ، وباب كتامة، وهو جوفي وباب الفتوح ومنه كان يخرج لها بالجيوش "[2]. ولكن هناك من قال " بأن لها أربعة أبواب فقط وبأن "المنصور" جعلها مدينة مستديرة مثل "بغداد" "[3].

لقد اقتدى "المنصور" في تحصين عاصمته وإنشاء مختلف المرافق والمصانع "بعبيد الله المهدي" حينما بنى "المهدية"، وذلك أنه أدخر فيها محل المؤن وحفر فيها آبار الماء. كما أنشأ بها القصور الشامخة ولبس أبوابها بالحديد وغرس الأشجار. ولما جاء "المعز" أقام بها عدة منشات أخرى من قصور ومصانع... ومن جهة أخرى فإن "صبرة" كثر عمرانها حتى أن "الإدريسي" ذكر أنه: " يوجد بها ثلاثمائة حمام ...وعدة بناءات عمرانية امتزجت فيها عدة فنون فاطمية وطولونية وفارسية وأندلسية "[4]. وهذا يدل على أن هناك تبادلا حضاريا في شتى المجالات بين مختلف مناطق العالم الإسلامي.

2- 4 -القيروان :

هي أولى المدن التي تأسست في بلاد المغرب تحت راية الإسلام و العروبة ، أسسها "عقبة بن نافع الفهري" (ت69هـ)"[5] سنة(50 هـ)، وهي التي سيكون لها ذكر لامع ،وشهرة واسعة ،وصيت بعيد في الحياة السياسية و الأدبية و العلمية لقرون مديدة،وهي مدينة كبيرة

---

1 ابن حماد: نفسه،ص24. (ينظر أيضا :ابن عذارى :المصدر السابق،ص219).

2 البكري : المصدر السابق،ص24.

3 ابن حماد : نفسه،ص23.

4 الإدريسي: المصدر السابق،ص154.

5 حسن حسني عبد الوهاب :مجمل تاريخ الأدب التونسي،ص24 .(ينظر:رابح بونار :المرجع السابق،ص13)

المساحة ، بعيدة عن البحر ، تقع وسط تونس (1) الحالية، يحدد موقعها" البكري" فيقول: "مدينة القيروان في بساط من الأرض مديد، من الجوف منها بحر تونس، و في الشرق بحر سوسة و المهدية، و في القبلة بحر صفاقس وقابس، و أقربها منها البحر الشرقي ، بينها و بينه مسيرة يوم، و بينها و بين الجبل مسيرة يوم، و بينها و بين سواد الزيتون المعروف بالساحل مسيرة يوم، و شرقها سبخة ملح عظيم طيب نظيف، و سائر جوانبها أراضي طيبة كريمة، و أحسنها الجانب الغرب، و هو المعروف بفحص الدرارة، يصاب فيه في السنة الخصبة للحبة مائة،وهواء هذا الجانب طيب صحيح ... " (2) .

و القيروان حسب هذا الوصف تمتاز بموقع استراتيجي ، و بأرض خصبة و مناخ معتدل مما سمح لها بإنتاج الفواكه المتنوعة ، و المحاصيل الزراعية المختلفة ، يصف المقدسي ذلك في قوله: .."كانت مصر بهيا عظيما ، قد جمع أضداده الفواكه و السهل و الجبل ",... (3) فعلى غرار بلاد المغرب الأخرى، فإن القيروان كانت تتمتع بطبيعة ساحرة،ألهمت الشعراء، و بثت فيهم من الروح الفنية التي جعلتهم يبدعون في نظم أجود الأشعار و أملحها، فقد كانت أم الأمصار و قاعدة الأقطار .

و يتحدث" الإدريسي" عن خصائصها فيقول:"...أعظم مدن الغرب قطرا و أكثرها بشرا و أيسرها أموالا ,و أوسعها أحوالا، و أتقنها بنـــــاءا و أنفسها همما، و اربحها تجارة و أكثرها جباية و أنفقها سلعة و أنماها ربحا" (4).أما أهلها، فيقول عنهم: "...الغالب على فضلائهم التمسك بالخير و الوفاء بالعهد، و التخلي عن الشبهات،و اجتناب المحارم، و التفنن في محاسن العلم...". (5).و بتلك الخصائص التي ميزت القيروان، لفتت النظار و اجتذبت الأسماع فهاجر إليها الناس من مختلف الأقطار، فأصبحت منارة الحضارة وقبلة لطلاب العلوم و الآداب، مما جعلها تنافس أشهر العواصم العربية في المشرق و الأندلس على السواء.وفي هذا يقول المراكشي":وكانت

[1] موسى لقبال: دور كتامة في تاريخ الدولة الفاطمية ،ص34 .

[2] البكري: المصدر السابق،108.

[3] أبو القاسم محمد كرو وعبد الله شريط: شخصيات أدبية من المشرق و المغرب،منشورات دار الحياة، لبنان، 1966،ص121 .

[4] الإدريسي:المصدر السابق،ص 146.

[5] نفسه ، ص146 .

القيروان هذه في قديم الزمان منذ الفتح إلى أن خربها الأعراب دار العلم بالمغرب إليها ينسب أكابر علمائه، وإليها كانت رحلة أهله في طلب العلم" [1]، وازدهرت فيها العلوم، ونشطت فيها الحركة العلمية والأدبية، كما زادها مهاجروا الأندلس تبادلا ثقافيا ومعرفيا شمل كل الميادين،" وكان لجامعها الفضل الكبير في ازدهار الحركة الفكرية باعتباره مركزا علميا شهيرا ظل قائما ثلاثة عشر قرنا"[2].

ولقد عاشت القيروان قمة الازدهار في شتى المجالات الثقافية، وذلك ابتداء من أواخر القرن الثاني الهجري إلى منتصف القرن الخامس منها، و تعد مرحلة الحكم الصنهاجي فترة العصر الذهبي في الثقافة و الفكر و الأدب المغربي، زاد في بريقها حكم "المعز بن باديس" ، الذي استقطب العلماء والأدباء و المفكرين، و كانوا يتباهون بالانتساب إلى هذه البلاد [3] .

و كانت القيروان تتدفق حضارة و تموج حركة علمية متنوعة بتقاطر الناس عليها أفواجا لطلب العلم أو الأدب، فكان لها الحظ الوافر من المدنية الإسلامية و مشاركة كبيرة في الحركة الفكرية و العلمية و الأدبية الأولى بالمغرب الإسلامي.

واستمرت القيروان حاضرة العلم والعلماء لأهل السنة، مساهمة في حمل لواء المقاومة السنية ضد المد العبيدي الشيعي منذ بدايته في القرن الرابع الهجري ،" لكونها كانت ومنذ إنشائها عاصمة الآراء السنية ،لما كان من جهود أصحاب المذاهب الكبرى المالكية و الحنفية في ترسيخ العقيدة السليمة لأهل المغرب عموما" [4] .

---

[1] المراكشي :المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عهد الموحدين، تحقيق: صلاح الدين الهواري،المكتبة العصرية صيدا ، بيروت، ط1،2006 ،ص255.

[2] عبد الرحمن ياغي: حياة القيروان و موقف ابن رشيق منها، دار الثقافة ، بيروت،دط،دت،ص64.

[3] بشير خلدون: الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،الجزائر، 1981،ص21 .

[4] حسن حسني عبد الوهاب : مجمل تاريخ الأدب التونسي، ص76.

وقد نظم فيها الكثير من القصائد خاصة في القرنيين الرابع و الخامس للهجرة .و هنا نورد مقطوعة شعرية للشاعر القيرواني "أبو القاسم بن إبراهيم الفزاري"[1]الذي يشيد بالقيروان مركزا للعلم، وبأهلها مثالا للتقوى.ويفضلها على بغداد حيث يقول:

فهل للقيروان و ساكنيـــــها * عديل حين يفتخر الفخـــــــور

عراق الشرق بغداد و هــذي* عراق الغرب بيتهما كثيــــــر

ولست أقيس بغدادا إليـــــها* وكيف تقاس بالسنة الشـــــهور

بلاد تقصف العظماء قصــفا* إذا ما رامها منهم غـــــــدور

بلاد خطها أصحاب بـــــدر* وتلك اختط ساحتها أمـــــــير [2]

لكن هذه المدينة الزاهرة العريقة لم يدم عزها وانطفأ سراجها وذبل نورها بيد الأعراب الذين نزلوا بها تدميرا وتخريبا، فزعزع أمنها ودكت معالمها وطمست آثارها ومحيت محاسنها،وقلبت حياة ساكنيها من الرغد في العيش ومن عرى الحضارة و الرقي إلى لجى الفتن والهلاك،وقد وصف ذلك "ابن خلدون"قائلا:"...وجاء الأعراب فدخلوا البلد واستباحوه، واكتسحوا المكاسب وخربوا المباني وعاثوا في مساكنها وطمسوا من الحسن والرونق معالمها... فعظمت الرزية واستشرى الداء وأعضل الخطب واضطرب أمر إفريقيا وخرب عمرانها..." [3].وفي هذا يقول ابن رشيق راثيا:

كم كان فيها من كرام سادة * بيض الوجوه شوامخ الإيمان

متعاونين على الديانة و التقى * لله في الإسرار و الإعلان

---

[1] أبو القاسم بن عامر بن إبراهيم الفزاري: هو أبو القاسم محمد بن عامر أو عمر بن ابراهيم الفزاري: شاعر سني ناهض بشعره الحكام العبيديين ولد بالقيروان ولعله مات في خلافة المعز سنة345 .وينتسب إلى قبيلة فزارة ،وهي قبيلة ذبيانية تجتمع مع غطفان وعبس ، كما ذكر أن أسرة الشاعر إفريقية بربرية ،كان أبوه شاعرا نحويا من أهل القيروان،كما كان جده من أهل الجدل والمناظرة. (ينظر هامش:محمد اليعلاوي: الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي، ص207).

[2] محمد اليعلاوي: الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي، ص211.(ينظر:عبد العزيز المجدوب :الصراع المذهبي بإفريقية إلى قيام الدولة الزيرية،الدار التونسية للنشر، تونس ،ط2، 1985،ص 20 –57).

[3]ابن خلدون : المقدمة ،ج1 ،ص20 وما بعدها.(حسن حسني عبد الوهاب: شهيرات تونسيات، مكتبة المنار ، تونس ، ط2 ،1965،ص90).

كانت تعد القيروان بهم إذا * عد المنابر زهرة البلدان

حتى إذا الأقدار حم وقوعها* ودنا القضاء لمدة وأوان

والمسجد المعمور جامع عقبة * خرب المعاطن مظلم الأركان(1)

كما كان للحماديين بعد استقلالهم عن الصنهاجيين منشآتهم العمرانية كانت متأثرة بسياستهم العامة ،حيث أنشئوها لخدمة أغراضهم السياسية والعسكرية بالدرجة الأولى،ولكن لم تكن مقتصرة على هذه الجوانب فقط بل تعدت إلى الجانب الثقافي ،الذي من خلاله ينشرون دعوتهم وأفكارهم ويلبون رغباتهم العلمية والثقافية وهذا كله لخدمة مصالح دولتهم وتمكينها وتقوية نفوذها .

ولقد عرف المغرب الإسلامي عموما و الأوسط نهضته الكبرى تحت حكم الحمادين الذين دام حكمهم قرنا ونصف قرن من الزمن،من خلال المركزين الحضاريين،" قلعة بني حماد" وبجاية، مخلدين آثارا حضارية جعلت الحضارة الحمادية من أرقى الحضارات المغربية في القرن الخامس الهجري وما تلاها،"والتي تركت أثرا واضحا في الحضارات المتعاقبة على المغرب الأوسط حتى القرن السادس عشر ميلادي"(2). التي عكست مستوى ثقافيا يكشف عن أصالة هذه الدولة وما قدمته، والتي استطاعت أن تجذب إليها مفكري إفريقيا والأندلس وبالتالي إلى ولادة مجتمع ثقافي مزدهر في جميع النواحي، وأهم هذه المدن:

2-5-أشير:

أسسها "زيري بن مناد" سنة (324هـ)و سورها ولده "بلكين" سنة(367هـ) عمرها الناس في عهد بلكين، و في السنين الموالية أدركها الخراب و شملها الدثور، أشهر من أنجبت من العلماء "أبو محمد عبد الله الأشيري" المحدث الفقيه(3).

ويمكننا أن نتساءل لماذا لم تتخذ أشير كعاصمة للدولة الحمادية رغم ما عرفت به من إستراتيجية الموقع وحصانتها الطبيعية وكونها نقطة وصل بين الشرق والغرب،من افريقية إلى تيهرت وعلى الطريق التي تصل تلمسان بالأوراس. فيمكن أن يكون إبعادها كعاصمة

---

1 ابن رشيق: الديوان، ص204-212.

2 عبد الحليم عويس : المرجع السابق،ص 283.

3 رابح بونار :المرجع السابق،ص197.

إستراتيجية يعود لكونها منطقة آهلة بالحركة ثم أن القبائل الرحل الآتية من الشرق تهددها باستمرار، والمدينة تطل على أراضي زناته إلى جانب أن أشير كانت عاصمة الزيرين، كل هذا جعل حماد في اعتقادنا يبادر بإنشاء عاصمة جديدة ليبرهن في ذلك على استقلاله التام.

2-6-حاضرة القلعة(قلعة بني حماد):

كان أول ما فكر فيه حماد وقبل تأسيس دولته ،هو بناء مدينة لتصبح بعدئذ عاصمة له في المغرب الأوسط فأختار لها موقعا استراتيجيا هاما بجبل منيع يعرف بجبل كيانة و على مقربة من ميناء بجاية و على مسافة 36كلم من المسيلة (1) ،و التي كانت وقتئذ ملتقى طرقات القوافل الآتية من مالي و السودان و الذاهبة إلى تيهرت و القيروان من جهة و إلى الجزائر و تونس ووهران من جهة أخرى و سمى عاصمته بالقلعة و أخذ في تعميرها.وكان هذا سنة(398هـ)، وهي من أكبر البلاد قطرا و أغزرها خيرا و أوسعها أموالا و أحسنها قصورا و مساكن (2).

تميزت القلعة بمزايا إستراتيجية كبيرة لأن حماد سارع لتحصينها وعمرها بسكان المسيلة وأولاد حمزة إضافة أنها ازدهرت ازدهارا جعل منها قبلة لطلبة العلم، خاصة بعد زحف بني هلال على افريقية و تخريبهم مدينة القيروان ،فاضطر أهلها للتوجه إلى القلعة، ويرجع الفضل في تطويرها إلى هؤلاء. ويذكر الإدريسي أن: "....مدينة القلعة من أكبر البلاد قطرا وأكثرها خلقا وأغزرها خيرا وأوسعها أموالا وأحسنها قصورا ومساكن....وهي في سند جبل سامي العلو صعب الارتفاع وقد استدار صورها بجميع الجبل ويسمى تكربوست وأعلى هذا الجبل متصل بسيط من الأرض"(3).

وفي مجال التعليم.كانت القلعة عامرة بكتاتيب تعليم الصبيان، ، كما عرفت بمكتباتها العامرة بشتى أنواع الكتب، فبجامع "المنار" بالقلعة مكتبة مليئة بالكتب المجلوبة من أقطار المغرب، ولكن "قدوم بني هلال" سرعان ما وضع حدا لبناء القلعة التي ظلت مدة من الزمن

---

[1] محمد الطمار:المرجع السابق،ص69 .

[2] إسماعيل العربي:المدن المغربية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،1984،ص168.

[3] الإدريسي: المصدر السابق،ص9.

نقطة الارتكاز الوحيدة بالنسبة للدولة الحمادية وبعد بناء بجاية بقيت المدينة باستمرار في مظهر العاصمة ولكن دورها أصبح ثانويا [1].

2-7-حاضرة بجاية:

تم تأسيس مدينة بجاية في عام(460هـ) على يد الأمير "الناصر بن علناس" ، وسماها الناصرية ، و لكن الناس كانوا يسمونها أبقايث ،وهو اسم أمازيغي لإحدى القبائل الأمازيغية التي كانت تعيش فيها حسب رواية "ابن خلدون" ، وهي نفس التسمية التي صحفت بالعربية ، وأصبحت بجاية في المصادر العربية [2] ، انتقل إليها الناصر عام(461هـ)، وقيل أن الناصر اختط بجاية فرارا من الزحف الهلالي [3].و فيها عمل على تهيئتها لتكون عاصمة لدولته مما جعله يقوم بتعميرها و توسعتها و بناء مرافئ لصناعة السفن وقصور و حمامات و كتاتيب و وورش لصناعة الخشب و الأدوات الطينية و النحاسية و الحلي و الفضة و الذهب ،كما توسع عمرانها و أصبح بها واحد وعشرون حيا واثنان و سبعون مسجدا و مئة وخمسون ألف ساكن، كما نشطت بها صناعة الأدوات الحربية، و الذخائر،و النسيج و الفخار، وصناعة الورق ،و الجلود، و نسخ الكتب[4].

كما تميزت بقصورها الرائعة منها :قصر "بلارة" التي هي بنت "تميم بن المعز الصنهاجي"،قصر أميمون، والكوكب،وقصرالرياض البديع، وقصر "اللؤلؤة" الذي وصفه الكثير من الشعراء و الأدباء و الرحالة، و قد وصفه أحدهم بقوله: "لم يرى الراءون أحسن منه بناء، و لا أنزه منه موضعا، فيه طاقات مشرفة عل البحر عليها شبابيك الحديد، و الأبواب المخرمة المنحنية، والمجالس المقرضة المبنية بالرخام الأبيض، من أعلاها إلى أسفلها ، قد نقشت أحسن نقش، و أنزلت بالذهب و اللازورد، وقد كتبت عليها الكتابات الحسنة، وزينت بالذهب، وصورت فيها، الصور الحسنة فجاءت من أحسن القصور منزها وجمالا" [5].و يقول "جورج

---

1 الهادي روجي إدريس: المرجع السابق، ج2، ص100.

2 يحي بوعزيز أعلام الفكر و الثقافة في الجزائر المحروسة،دار الغرب الإسلامي،ج1،ط1،1995، ص12.

3 مبارك الميلي: المرجع السابق، ج2 ، ص621.

4 رابح بونار ،المرجع السابق،ص 150-151.

5 يحي بوعزيز :المرجع السابق،ص13.

مايسي"المستشرق الفرنسي مشيدا بحضارة بني حماد ، ومشيرا إلى تأثير الحضارية الحمادية الجزائرية في النرماندين بصقلية :" إن الحضارة الحمادية تظهر تحت تأثير المشرق، و آثارها لا نظير لها، ببقية و طن البرب، كان النرمان مغرمين بالحضارة الحمادية فوضعوا قصور "بلرم" على شكل قصور بجاية، وكان قصر زيزة و كوبة ببلرم شديدي الشبه بقصور اللؤلؤة و الكوكب و أميمون"[1] . وفي ظل هذه النهضة في جميع الميادين –الصناعية، الزراعية ، التجارية...– شهدت المدينة و بها الدولة الحمادية في جميع أقاليمها نهضة علمية و فكرية و ثقافية ،لم تشهد لها المنطقة مثيل في العصور السابقة والقرون التالية إلى مطلع القرن السادس عشر الميلادي" [2] .

فقامت بها مدارس و معاهد علمية ذات شهرة ، ومساجد جامعة ، وزوايا صوفية عريقة، و نبغ فيها علماء كثر، وشعراء فحول، وحكماء متضلعون في الفلسفة و الحكمة، ولغويون مبرزون، ومحدثون أمناء ، ومدققون و محققون في الرواية و السند، و متصوفة في القمة، و علماء مبتكرون في شتى التخصصات، وطلاب علم من جميع أنحاء العالم الإسلامي من المشرق والمغرب والأندلس و بلاد فارس ومن أروبا خاصة من صقلية و إيطاليا وفرنسا...خاصة بعد الهجرات المتتالية التي حدثت في أواسط القرن الخامس من القيروان بعد النكبة التي حلت بها إثر الغزو الهلالي سنة(449هـ)[3] ،و صقلية و القلعة و غيرها من مدن المغرب، وحتى من الأندلس، فتقاطر الكثير من أعلام الفقه و الأدب و طلبة العلم لما سمعوه عن أمراء الدولة من تقريبهم للعلماء و رعايته للعلم و أهله، وهذا ما ترك أثره في الحياة العلمية و الفكرية و الثقافية بالدولة و ساهم في تطويرها و نقل الخبرات العلمية إليها، ومن بين من وفد إليها نجد:"ابن النحوي" ،و"ابن حمديس الصقلي"، و" الأمير الصمادحي[4]"... وغيرهم ممن انتقل إلى الجزائر

---

[1] رابح بونار : المرجع السابق ،ص 150.

[2] يحي بوعزيز: المرجع السابق ،ص15.

[3] محمد الطمار:المرجع السابق،ص71.

[4]عز الدين بن صمادح :كان من أمراء الأندلس و ملوك الطوائف في القرن الخامس الهجري ولما خلعه يوسف بن تشفين لجأ إلى بجاية سنة (448هـ) في كنف المنصور الحمادي، فأكرمه واسند إليه منطقة دلس فعاش بها إلى وفاته (ينظر :رابح بونار :المرجع السابق،ص22).

وساهموا في الازدهار الثقافي بها[1]. و مما يرويه أبو حامد الصغير المسيلي "،فإن بجاية و حدها كان بها تسعون مفتيا ممن أدركهم[2].و ذكر الحموي من أنه حتى العمي و العوام كانوا يحفظون كتب البخاري، و المدونة، والموطأ و التلقين ،ويشرحونهم للناس من ذاكرتهم[3]. .كما ترجم الغبريني في كتابه "عنوان الدراية في من عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية"لأكثر من مائة وعشرة من العلماء في شتى التخصصات ممن أنجبتهم بجاية أو إقليم الدولة الحمادية، أو ممن وفد إليها من المشرق و المغرب و الأندلس، ثم اعتذر بقوله:وقد بقي خلق كثير من أهل المائة السادسة ممن لهم جلال وكمال. ومن هنا جاءت تسميتها بمكة الصغيرة"[4]. كما وصفت بجاية بأنها دار هجرة العلماء ،وذلك راجع إلى هجرتين أساسيتين. أما الأولى فهي هجرة رجال الفكر والأدب من قلعة بني حماد التي كانت دار علم وأدب ومعهدا لتحفيظ القرآن والحديث، وتعليم العربية ... أما الهجرة الثانية فهي هجرة العلماء والمحدثين والأدباء من الأندلس فارين بدينهم من محاكم التفتيش ، والاضطهاد الإسباني بعد سقوط دولة المسلمين هناك.يضاف إلى ذلك هجرات العلماء من القيروان والقرويين وغيرهما من الحواضر الفكرية. فشهدت بذلك مرحلة من التلاقح الفكري والامتزاج الثقافي، جعلت منها مركز الإشعاع الفكري في وسط الجزائر،إلى جانب تلمسان في الغرب وقسنطينة في الشرق.

لقد استطاعت بجاية أن تكون لأكثر من أربعة قرون قبلة العلماء، ومهوى أفئدة طالبي العلم، وساحة لتبادل الأفكار والآراء، وميدانا للإبداع العلمي، حيث راجت حركة نشطة للتأليف في الفقه والتاريخ والرياضة والفنون والنحو وغير ذلك ... ويذكر المؤرخون أن الفرنسيين عندما غزوا بجاية استولوا على حمولة اثنتي عشرة سفينة من الكتب القيمة جمعت من مدارس بجاية ومساجدها ويقال إن هذه الكتب غرقت جميعها في البحر... و فيها يقول "ابن فكون" الشاعر:

---

[1] رابح بونار :المرجع السابق،ص149.

[2] عبد الرحمان الجيلالي: المرجع السابق،ص320.

[3] ياقوت الحموي:معجم البلدان، دار الفكر، بيروت،د ط ،د ت، ج3 ،ص113.

[4] عبد الرحمن الجيلالي: المرجع السابق ، ص72.

دع العراق و بغداد و شامهما * فالناصرية ما إن مثلها بلـــد[1]

3- الرافد المذهبي ودوره في النهضة الفكرية والأدبية:

ظهر تيار فكري جديدة على المجتمع المغربي مع بداية القرن الرابع الهجري ،تمثل في التشيع والدعوة للفكر المهدوي ، وتم تدعيمه بالرؤى الفلسفية اليونانية التي بدأت تدخل إلى العالم الإسلامي مع حركة الترجمة الكبيرة التي شهدها العصر ، وتسخير الأدب شعرا و نثرا لنصرة هذه الأفكار و تدعيمها من قبل الحكام الذين عملوا جاهدين على السهر لتمرير أفكارهم وتعزيزها بالدعايات السياسية و الخطابات الجماهيرية .

و مع مجيء دعاة الدولة العبيدية الذين ضاقت بهم وبدعواهم أرض المشرق ولم يجدوا ملجأ سوى أرض المغرب التي تستقبل كل مطرود وكل تائه ، لما عهدوا عندهم من طيبة وكرم وشدة في الحق،فوجد دعاة العبيديين تربة خصبة لزرع بذرهم وكما قال أحد زعماء دعوتهم "لعبيد الله الشيعي":" إن أرض كتامة من المغرب قد حرثها الحلواني وأبو سفيان وقد ماتا وليس لها غيرك فبادر فإنها موطأة ممهدة لك "[2].فوجدت دعوتهم آذانا صاغية في الأوساط الشعبية لما تحمله من مظاهر الإيمان ومبادئ العدل وروح المساواة التي في مجملها كانت إخفاء للنوايا الحقيقية التي تنطوي على أهداف سياسية و من ورائها السيطرة على مقاليد الملك وبسط يد الحكم على جميع الأقطار الإسلامية.

وما إن قامت الدولة العبيدية ببلاد المغرب وبسطت نفوذها على البلاد ،حتى سعت في توطيد ملكها وترسيخ دعوتها المذهبية الشيعية الإسماعيلية بأساليب القوة حينا وطورا بالحكمة وبرزت من خلال ذلك إشراف حكامها الشخصي على المناظرات و اللقاءات العلمية بين دعاتهم و علماء المذاهب الأخرى خاصة السنة منهم ، كما عملوا على استحداث مناصب هامة لمتابعة نشر فكرهم كداعي الدعاة و أعوانه ، وتعزيز ذلك ببيت الحكمة ، ومحاولة بسط نفوذهم بأي طريقة ممكنة ومتاحة . وقد حمل هؤلاء الدعاة عقائد غريبة عن المجتمع المغربي، تقدس الأئمة، وتغالي في حب آل بيت رسول الله(ص)، كما اعتمدوا على فكرة المهدي المنتظر، واستخدموا

---

[1]محمد الطمار :المرجع السابق، ص 126.

[2]المقريزي: المصدر السابق ، ص21.

الأدب بشقيه لنصرة مذهبهم، فظهر الكثير من الأدباء و الخطباء الذين ساهموا بأدبهم في نشر الفكر الشيعي و المعتقدات الإسماعيلية، المتعلقة بالإمامة، وإمرة المؤمنين، و الخلافة...وغيرها،فهذا شاعرهم "ابن هانئ" "المتطوع لخدمة العبيدين ، المتحزب لعقيدتهم، يعلي بشعره كلمتهم و يدحض احتجاج خصومهم" [(1)]،ومما قاله في مدح المعز عند فتح القاهرة:

يقول بنو العباس هل فتحت مصر * فقل لبني العباس قد قضي الأمر

وقد طالع الإسكندرية جوهـــــــر * تطالعه البشرى ويقدمثه النصـــر

وذا ابن نبي الله يطلب وتره * وكان حر أن لا يضيع له وتر

أطيعوا إماما للأئمة فاضلا * كما كانت الأعمال يفضلها البر [(2)]

ففي هذه الأبيات ورغم أن مناسبتها هو فتح مصر على يد القائد العبيدي "جوهر الصقلي" إلا أن الشاعر ضمن فيها عقيدة الشيعة عند ذكره لأخذ ثارهم من بني العباس غاصبي الخلافة من آل بيت النبي ،وأخذ مصر التي كانت تحت سلطتهم.

وقد جاء العبيديون بآراء لإصباغ صفة خاصة على الإمام، فالعقل الكلي في العالم العلوي أي (الله) يقابله الإمام في العالم الجسماني، وهذا يعني عندهم أن كل الأسماء والصفات التي خلعت على العقل الكلي هي أيضا صفات وأسماء للإمام، لأن الإمام مثل للعقل الكلي،فأسماء الله الحسنى التي قالوا عنها أنها أسماء العقل الكلي هي أسماء للإمام فالإمام عندهم هو الواحد الأحد، الفرد، الصمد، المنتقم، الجبار، القهار...إلى آخر أسماء الله الحسنى،ولذلك نرى "ابن هانئ" الشاعر يؤكد هذه العقيدة في مطلع قصيدته التي مدح بها المعز لدين الله العبيدي :

ما شئت لا ما شاءت الأقــدار * فاحكم فأنــت الــواحد القهــار

وكأنما أنت النبي محمـــــــد * وكأنما أنصـــــارك الأنصـــــار

هذا الذي تجدي شفاعتــه غدا * حقا وتخمـــــد أن تراه النـــــار [(3)]

ويعبر عن هذه العقيدة شاعر آخر يمدح المعز لدين الله فيقول[(1)]:

---

[1]محمد اليعلاوي: ابن هانئ المغربي الأندلسي– شاعر الدولة الفاطمة –، ص06.

[2] نفسه، ص136–137.

[3] ابن هانئ الأندلسي:الديوان ،ص181.(ينظر محمد اليعلاوي:ابن هانئ المغربي الأندلسي، ص146)

هــذا أمير المؤمنين بمجلس * أبصرت فيــه الوحي و التــنزيلا

وإذا تمثــل راكبــا في موكب * عــاينت تحت ركابــه جــبريلا

وهذا الكاتب" محمد البديل" يعبر عن قمة العقيدة الإسماعيلية التي يؤله فيها عبيد الله وقد استجازها، يقول :

حــل برقـــــادة المسيـــح * حــل بها آدم ونـــــــــوح

حــل بها أحمد المصفـــــى * حـــــــل بها الكبش والذبيــح

حــل بها الله ذو المعالــــي * وكـــــــل شيء سواه ريح [(2)]

وبابتداع العبيديين لأفكار جديدة ما عهد المغاربة بها، كان من الطبيعي أن يجد مذهبهم الصد والإعراض الشديد في كل ربوع المغرب،خاصة وأن المذهب السني هو السائد في بلاد المغرب منذ أن أنعم الله عليها و أكرمها بالإسلام، واختار أهل المغرب هذا الدين عن قناعة من بين الأديان التي تعاقبت عليه لحقب عديدة مديدة ، ولما ارتضوا هذا المنهاج الرباني عاشوا في انسجام وتلاحم ديني قل نظيره وانحلت كل العصبيات العرقية وتلاشت الصراعات السابقة .

فكان المذهب المالكي هو المذهب الغالب عند عامة المغاربة، وهو من عناصر التكوين الثقافي التي لا يمكن تجاهل أثرها في النهضة الثقافية والفكرية و الأدبية للمنطقة، خاصة في القرنيين الرابع و الخامس للهجرة ،مع تمدد الفكر الشيعي الاسماعيلي،مما ولد قطبا سنيا مدافعا عن المذهب المالكي باللسان وسعوا إلى الإبقاء على مذهبهم السني خالدا في عقول الأجيال من خلال أشعارهم فهذا الشاعر القيرواني "أبو القسم الفزاري"[(3)] يهجو بني عبيد في عديد أشعاره منها،قوله:

عبدوا ملوكهم وظنوا أنهــم * نالوا بهم سبب النجاة عموما

---

[1] لم يذكر ابن حماد الشاعر الذي قال هذه الأبيات التي تشير إلى عقيدتهم في الحلول.(ينظر:ابن حماد:المصدر السابق ص86).

[2] محمد اليعلاوي: الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي ،ص34.

3 أبو القاسم محمد بن عامر بن إبراهيم الفزاري: ولد هذا الشاعر بالقيروان وعاش بها ولعله مات بها في خلافة المعز سنة 345 هــ. (ينظر: محمد اليعلاوي : الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي،ص 219).

وتمكن الشيطان من خطواتهم * فأراهم عوج الضلال قويما[1]

و الشاعر "سهل الوراق" له عدد من القصائد التي يذم فيها العبيديين ويهجوهم بأقذع ما نظمه ، ومما قاله في ادعائهم النبوة :

غضب الإله على نبي لم يزل * حيران مغرورا أخا سكرات

متهمكا في خمره و سماعه * مترددا في الغي و الشبهات

يابن الأراذل و المجوس ويا ابن من * هتك الفروج وضيع الصلوات[2]

كما كان أثر الصراع المذهبي على شتى الفنون النثرية من مناظرات و خطب...وغيرها كما هو الحال في خطب "أحمد ابن أبي الوليد"[3] ومناظرات ابن الحداد...وغيرهم.فكان توظيف الأدب في خدمة المعتقد و المذهب رافدا مهما في تطويره و نهضته وسمو معانيه ورواج سوق الأفكار ، وارتقاء الشعراء في مدارج الارتقاء.

فكان أثر هذا الصراع الفكري الأدبي سببا في زوال مذهب التشيع من منطقة المغرب إلى يومنا هذا .وما إن انتقل أمراء الدولة العبيدية إلى مصر حتى تهاوت معتقداتهم، والعجيب في هذا أن سقوط مذهبهم جاء على يد رعاته وحماته والأوصياء عليه الذين أوكلت لهم مهمة رعايته وحفظه وهم" بنو زيري الصنهاجين"الذين اختارهم العبيدين ليحلوا مكانهم[4].كان هذا كله نتيجة صمود العلماء و الأدباء وعامة الناس في الدفاع عن المالكية، والذين لم يتقبلوا أبدا عقائد العبيدين،وعاد المذهب السني هو السائد وبرغبة شديدة.

على أن ما يجب الإشارة إليه أن أثر العبيديين في تطور الفكر وتحريره وتنويعه من خلال الثنائية المتصارعة التي تتعدى في عديد المرات إلى عدة أطراف، والتي تركت آثارا جيدة في الناحية الأدبية والفكرية.

4- الرافد اللغوي ودور الحملة الهلالية في تعريب المنطقة:

---

1 محمد اليعلاوي: الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي،ص219.

[2] المالكي:المصدر السابق،ج2،ص496-497.(ينظر أيضا:محمد اليعلاوي:الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي، ص62).

[3] هو ابراهيمأاحمد بن محمد بن أبي الوليد تولى الخطابة بالجامع الكبير بالقيروان ،واشتهر بفصاحته وبلاغته ،كما كان صالحا عادلا في احكامه ،توفي سنة 345 هـ(ينظر :الدباغ :المصدر السابق ،ج3،ص61).

[4] المقريزي: المصدر السابق ، ص21.

إن أية بداية لابد أن يكتنفها الغموض ولا يمكن أن تتجلى فيها الحقيقة الدقيقة ،فما بالك في بدايات الأدب في مجتمع لا يزال في عهد التعريب والتعلم والفوضى السياسية والاجتماعية.

ولعل هذا ما جعل الكثير من مؤرخي الأدب المغربي القديم يقرون بهذا الغموض في بدء الحركة الأدبية وتعريب المجتمع المغربي الأمازيغي ، الذي لا عهد له باللغة العربية فما بالك بالإبداع بها . وعموما فإن مرحلة نشوء الأدب المغربي القديم يميزها الغموض، لأن المصادر الأدبية لهذه الفترة لا تتكلم في معظمها إلا على الفتوحات و الفتن والحروب خاصة في القرنين الأول و الثاني للهجرة وأهملت الجانب الأدبي ويمكن تسجيل ملاحظة عن الحركة الأدبية في المغرب الإسلامي ،وهي تكمن في أن الأدب المغربي القديم ظهر بصورة جليت مع قيام الدويلات (الرستمية الإدريسية و الأغلبية) ، فهو بذلك أدب دويلات سادت ثم بادت.ولكنه بدأ محدود المجالات ، ضيق الأنحاء ،محصور الأغراض ، في القرون الثلاثة الأولى لاعتبارات لغوية و اجتماعية و ثقافية ، ومع بداية القرن الرابع الهجري بدأ في التوسع، وما إن حل القرن الخامس الهجري حتى اكتمل فيه النضج الحضاري وأثمرت فيه بعدد من نوابغ العلم والأدب وهذا لاعتبارات مرتبطة بتعريب المنطقة المرتبط بالصراع المذهبي بين حكام مصر و حكام المغرب في القرن الخامس .

حاول العبيديون ومنذ أن وطأت أقدامهم أرض المغرب نشر مذهب الشيعة الإسماعيلية ،و إحداثهم التغير الجذري في المنظومة الفكرية و المذهبية للمنطقة انطلاقا من الدعم الذي وجدوه من قبل قبائل كتامة و صنهاجة ،وبالرغم من الترغيب و الترهيب الذي مورس على أهل المنطقة من أجل التغير و مسايرة النظام الجديد الذي حل بالمنطقة منذ سنة(296هـ) وقضائه على الدولة الأغلبية السنية العباسية الولاء ، لكن استقرارهم بالمنطقة لم يعمر طويلا جراء المقاومة الكبيرة والرفض القاطع لممارساتهم الغريبة عن تقاليدهم الدينية التي اكتسبوها مع الفاتحين الأوائل ومع البعثات العلمية الفقهية الأولى التي وفدت على المنطقة منها بعثة

"عمر بن عبد العزيز سنة(100هـ)"[1].و التي من خلالها وغيرها اكتسب سكان المنطقة لغتهم ودينهم الذي ارتضوه لأنفسهم ،ثم اتخذوا مذهب الإمام مالك إمام أهل المدينة لهم مذهبا ومنهجا، هذا ما جعل العبيديين يغادرون المنطقة على وقع الثورات المتواصلة و المتواترة ن فلم يهنأ لهم المقام بالرغم من سعيهم الحثيث في ذلك بشتى الطرق،لكنهم في الأخير قرروا المغادرة إلى مصر بعد أن استولوا عليها سنة(358هـ) "[2]. فكان خروج أميرهم "المعز لدين الله الفاطمي" أخر أمرائهم بالمغرب سنة(362هـ) [3].ليتركوا المغرب بأكمله لحلفائهم الصنهاجين الأمازيغ الذين بدورهم ساروا على منوال سابقيهم بادئ الأمر إلى أنهم خلعوا الدعوة العبيدية لما سنحت الفرصة لذلك وانقلبت الموازين ليعود مذهب الإمام مالك إلى ربوع المغرب الإسلامي، فكان أول من قطع الدعوة للعبيديين هو "حماد" أمير الدولة الحمادية سنة تأسيسه لدولته (405هـ)[4] ،ثم تبعه "المعز بن باديس الصنهاجي" الذي قضى على المذهب الإسماعيلي نهائيا بالمغرب الإسلامي.

كان هذا التحول المذهبي و السياسي هو نقطة تحول جذرية في المنطقة بأكملها في عديد الجوانب-ومنها تعريب المنطقة-،وكان له الأثر العام و الايجابي على المغرب الإسلامي ليومنا هذا، بالرغم من الروح الانتقامية التي بدرت من حكام الدولة الفاطمية بمصر،الذين حاولوا جهدهم رد الاعتبار لمذهبهم ومكانتهم ، لكن لم يكن بوسعهم محاربة المغرب الإسلامي

---

[1] في عهد الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز (99-101هـ / 717 -720م) أراد تثقيف أهل المغرب وتعليمهم أمر دينهم فجعل من مدينة القيروان مركزا للبعثة العلمية المكونة من عشرة أشخاص من التابعين فأرسلهم إلى إفريقيا سنة 100هـ حيث انقطعوا إلى تعليم السكان أمور الدين، ومات غالبية أفراد البعثة في مدينة القيروان نفسها.(ينظر: رابح بونار:المغرب العربي تاريخه و ثقافته،دار الهدى ،عين مليلة،الجزائر،ط3 ،سنة2000،ص22).

[2] ابن حماد:المصدر السابق،ص50-52.

[3] المقريزي:اتعاظ الحنفاء،ج1،ص42.

[4] عبد الرحمان الجيلالي :المرجع السابق،ص275.

بالسيف لذلك قرروا إرسال قبائل "بني سليم وبني هلال، و زغبة ورياح ومعقل"[1]، لتتخلص منها لما سببته لهم من إزعاج كبير، فإن انتصرت الدولة الصنهاجية تكون الدولة العبيدية قد تخلصت من هذه، وإن انتصر بنو سليم وبنو هلال يكونوا بذلك انتقموا من عدوهم اللدود" المعز بن باديس" و"حماد بن بلكين"، وكان الذي تبنى هذه الفكرة الوزير العبيدي "أبو محمد بن علي اليازوري" الذي شرع في إغراء القبائل المقيمة على ضفاف النيل وأمدهم بالمال والسلاح، وأباح لهم برقة والقيروان، وكل ما يكون تحت أيديهم.واتصل العبيديون بالمعارضين وأمدوهم بما يملكون من مال وسلاح وعتاد. وقال لهم الأمير العبيدي "المستنصر العلوي" "لقد أعطيناكم إفريقية وملك ابن باديس فلا تفتقرون بعدها"[2].

زحفت القبائل الهلالية على المغرب الإسلامي واستولت على كثير من المناطق بسهولة وتقدموا حتى دخلوا القيروان [3]عاصمة الدولة الصنهاجية وخربوها ثم واصلوا زحفهم اتجاه المغرب الأوسط حيث الدولة الحمادية ودخلوها سنة(460هـ)،ولكنهم لم يقتربوا من السواحل لذلك بقيت الحياة مزدهرة في بجاية وطابت الحياة فيها"[4]،وقد صالح حماد هذه القبائل فخفت وطأتهم ، وبدأت بطون وفروع هذه القبائل في الاندماج و الاستقرار و المصاهرة مع أهل البلاد ،وساعدوا في تعريب المنطقة،بل كانوا من أهم العوامل المساعدة في المحافظة على هذه المكانة والقيمة الحقيقة للغة و الثقافة العربية، فقد "أثرت لغة تخاطب قبائل بني هلال في اللسان البربري الذي كان طاغيا على اللسان العربي في الأرياف والمدن أيضا،وسارت عملية الاستعراب بسير

---

[1]هي قبائل عربية كانت تقيم في المنطقة الممتدة بين الطائف ومكة، وبين المدينة ونجد،شاركت في الفتوحات العربية الإسلامية، إلا أنهم احتفظوا بطابعهم البدوي في الجزيرة العربية حتى تاريخ هجرتهم إلى مصر، ومن ثم استقرت هذه القبائل في شمال أفريقيا بعد هجرتها التاريخي،وكان لها الأثر الحاسم في تعريب شمال أفريقيا.من أبرز آثارهم السيرة الهلالية و هي واحدة من السير الشعبية العربية تبلغ نحو مليون بيت شعر.(ينظر:ابن حزم الأندلسي: جمهرة أنساب العرب، تحقيق:عبد السلام هارون،ج 1،دار المعارف، القاهرة ، 1962، ص384. ابن خلدون، كتاب العبر،ص 48. عبد الحميد يونس: الهلالية في التاريخ والأدب الشعبي، مركز الدراسات الشعبية، القاهرة ،2003.)

[2] الطاهر الزاوي :تاريخ الفتح العربي في ليبيا،دار المدار الإسلامي،ط3، 2004 ، ص294.

[3]عبد الرحمان الجيلالي :المرجع السابق،ص260 ،

[4] محمد الطمار:المرجع السابق،ص17 . (ينظر أيضا:رابح بونار: المرجع السابق، 196-197).

عملية المزج والاحتكاك[1].و تأثر الأدب فسما وتطور فلم يعد النثر يقنع بمجرد منافسة الشعر ، ومضايقته في الأغراض التي كانت قبل مقصور عليه ، بل أنه رمى إلى نوع من احتكار التعبير في معظم ميادين الشعر ،حتى أن الأديب أصبح يورد المقطوعة القصيرة من الشعر ضمن الرسالة النثرية التي تتناول التهنئة ، أو التعزية ، أو المدح،أو التودد ، أو الاعتذار ... وهذه الموضوعات التي ما كان النثر ليرقى إلى التعبير عنها بحال من الأحوال. وامتزجت الثقافة المغربية بثقافة القبائل العربية مولدة أدبا معبرا عن الحالة الجديدة التي يعيشها التواشج الحضاري بينهم ،فنتج عن ذلك أدب القبائل الهلالية من شعر ونثر و قصص...والحال نفسه مع المغاربة في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري.

وبالرغم من أن هذا الزحف قد أثر في عديد من الجوانب تأثيرا سلبيا خاصة من الناحية الاقتصادية إلا أنه عد من أكبر العوامل المؤثرة و المساهمة في تعريب الثقافة المغربية،وساعد على احترام أهل المغرب للغة العربية و اعتبروها لسان الأدب ولغة العلم وعنوان الثقافة، فغدت الدولة الحمادية في عهدها الراعية الرسمية للغة العربية التي صارت لغة الدولة الوحيدة.

ثانيا- جوانب من الحيـــــــاة الثقافيـــة و الفكرية و الأدبية:

1-في عهد الدولة العبيدية:

تعددت صور الحياة الثقافية و الفكرية و الأدبية في هذا العهد وارتبطت بواقعهم الحضاري الذي حدثت فيه طفرة نوعية كبيرة حين عد عصرهم بداية لازدهار ثقافي و علمي و أدبي لم يشهد له المغرب مثيلا من قبل، وهذا يعود أساسا إلى أن أمراء بني عبيد كانوا أهل علم وثقافة فكانوا يولون كبير الاهتمام برجالات الأدب والشعر والفقه و جميع علوم عصرهم... فكانوا يدعون الشعراء والأدباء إلى بلاطهم في المناسبات المختلفة ،فنجد "القائم" اقتفى آثار والده واستطاع أن يؤثر في نفوس سامعيه بفصاحته وبلاغته وقدرته على ارتجال الخطب، وكان "المنصور" أيضا فصيحا بليغا حاد الذهن سريع الجواب جيد الحدس.أما "المعز" فهو أعظم أمراء

[1] رابح بونار :،المرجع السابق، 283.

العبيديين قدرا وأجلهم أمرا، بعيد الصيت عظيم الجبروت،يجيد عدة لغات ،مولع بالعلوم وذا دراية بالآداب يناظر العلماء ويكرمهم[1].

و الحال نفسه لدى ولاة الأقاليم فنجدهم لا يقلون ذوقا فنيا عن أمرائهم ، ومنهم والي وصاحب المسيلة"جعفر بن علي" المعروف بابن الأندلسي وأمير "الزاب" وقد قال عنه "ابن خلكان" :"كان سمحا كثير العطاء مؤثرا لأهل العلم» [2].وقد مدحه الكثير من الأدباء والشعراء وكان أبرزهم الشاعر الكبير" ابن هانئ" فمدحه بقصائد بليغة منها، قوله :

خليلي أين الزاب منا وجعفر * وجنة عدن بنت عنها وكوثـــــــــر

فقبلي نأى عن جنة الخلد آدم * فما راقه من جانب الأرض منظـــر

خليلي مـــــا الأيام إلا بجعفر * وما الناس إلا جعفر، دام جعفـــــر [3]

وما إن بسطت الدولة العبيدية سيطرتها على أرض المغرب حتى قامت بفتح المدارس فكانت منبرا دعائيا لمذهبهم ، ونظموها تنظيما منهجيا لم يعهده المغرب قبل ذلك ، وجعلوا لها مسئولا عاما هو "القاضي النعمان" لمتابعتها و السهر على نظامها و برامجها العلمية ، كما نشط أتباع المذهب المالكي بدورهم في حركة التعليم و التدريس، خاصة في المساجد و الحلقات العلمية التي كانت تعقد فيها، خاصة مع البدايات الأولى للدولة التي أظهرت نوعا من التسامح الديني و المذهبي ، وكان لهذا النشاط التعليمي أثره الكبير على بلاد المغرب كلها و في جميع حواضرها ، فنبغ الكثير من العلماء الذين وضعوا بصماتهم كان العبيديون أصحاب دعوة ومذهب يريدون نشره بين جميع طبقات الشعب، راحوا يستخدمون أشكال النثر لبث دعوتهم ،وهم في مكانتهم لاشك أنهم استخدموا طاقتهم القصوى للوصول إلى مبتغاهم ولولا هذا لما استطاعوا أن يخلفوا لنا خطبا بليغة ،ولما ناظروا كبار العلماء والفقهاء في شتى المواضيع، وما استطاع "المعز"أن يدلى بملاحظاته القيمة ومراجعته لكل ما يؤلف ويكتب "القاضي النعمان" .

كما ولع أمراء بني عبيد بجمع الكتب والاعتناء بها ولعل ما ذكر عن "المهدي" وحمله الكتب وعدم تخليه عنها حتى في أقسى الظروف أثناء توجهه إلى المغرب،حيث اعترضت طريقه

---

[1] محمد اليعلاوي:الأدب بإفريقة في العهد الفاطمي، ص81-149-255.

[2] عبد الرحمان الجيلالي:المرجع السابق، ص240.

[3] محمد بن هانئ الأندلسي: الديوان ،ص 172.

عصابة لصوص فاستولت على ما معه ومن بينها كتبه فكان أسفه عليها أشد من أسفه على غيرها مما ضاع له ،قال "القاضي النعمان":" وكان أعظم ما ذهب له كتب كانت فيها علم من علوم الأئمة فلما خرج "القائم بأمر الله" إلى مصـــر في الغزاة الأولـــــى التي غزاها أخذ يقول :لو لم تكن هذه الغزاة إلا لرد هذه الكتب .لكان ذلك فتحا عظيما وسر باسترجاعها سرورا عجيبا" [1].

وما أخذه "المعز" بعد رحيله إلى مصر من كتب قيمة ونادرة إنما يدل على اهتمامه الكبير بالعلم والعلماء ، كما اهتم العبيديون بالفنون الجميلة ، فاعتنوا بالزخرفة و صناعة الأواني و تجميلها ،وقد أمر المعز بصناعة بساط من الحرير مزركش بالذهب عليه صورة جغرافية للأرض[2].

ومن المآثر الثقافية التي خلفها العهد العبيدي في تلك الفترة والتي تنبئ بدعمهم للعلم والفكر، ما أورده "القاضي النعمان" في"كتاب المجالس والمسايرات" نصا قيما مفاده أن الخليفة العبيدي "المعز لدين الله" أمر بأن يصنع له قلم مداد،فكان ذلك وبصورة أثارت إعجاب "القاضي النعمان" وجعلته يسرد تفاصيل ما حدث. كان ذلك قبل انتقال المعز لدين الله من المغرب إلى مصر سنة(358 هـ)[3].كما كان "المنصور" شغوفا بالكتب إلى حد بعيد وما يدل على ذلك فقرة من

---

[1] القاضي النعمان: افتتاح الدعوة ، ص151. (ينظر أيضا :ابن حماد: المصر السابق،ص115).

[2] حسن حسني عبد الوهاب : بساط العقيق في حارة القيروان و شاعرها ابن رشيق،المجمع التونسي للعلوم و الآداب و الفنون بيت الحكمة،تونس،2009، ص 34 .

[3] القاضي النعمان: المجالس والمسايرات ،ص526.

رسالة بعثها إلى "جوذر الصقلي"[1] يقول فيها :" بعثت إليك كتبي وكتب الأئمة آبائي ،وقد ميزتها ،فأقرها عندك مصونة من كل شيء.وما من الذخائر شيء هو أنفس عندي منها... "[2].

كما استمال العبيديون إليهم الأدباء والشعراء لمدحهم ،وإلى الإشادة بمآثرهم ،ومن هؤلاء الشعراء "ابن هانئ الأندلسي" ،و"علي الأيادي" الذي كان شاعر "بني الأغلب" ثم مدح العبيديين،ومنهم أيضا الشاعر"أبو القاسم الفزاري" الذي كان من أشد خصومهم في البداية حيث ذكر عيوبهم ،وذم مذهبهم .ولكنه بعد فشل ثورة صاحب الحمار مال إليهم ،وأصبح من شعراء "المنصور"،وقال يمدحه في قصيدته الفزارية:

بأمنـــع منـــي فـــي جوار خليـــلفة* عطـــوف عـــلى أهـــل البيوتات راحم

كريم الأيادي و المساعـــي نمت له *أبوة صـــدق مـــن ذؤابـــة هاشـــــــم[3]

ومما يلفت الأنظار هو صورة خصومهم من سنة وخوارج الذين اضطهدوا بعد أن رسخت دولة بني عبيد،فهم قارعوا أمراء وأدباء البلاط العبيدي وتسلحوا بسلاح العلم والأدب وانكبوا على مناهل العلم والأدب، فتراهم في ساحات الوغى حين ينادي منادي القتال.

كما تراهم–أهل السنة– حين يطلق اللسان وهم يذودون عن حياض الدين والشرف، وفي هذا نذكر أبياتا "لابن الحداد"[4] الذي كان فقيها وما كان يقرض الشعر إلا نادرا إلا أنه يجيده ،يقول في انتصاب الدولة العبيدية وما تبعه من تغيير في الطقوس الدينية:

---

[1] جـــوذر (ت362 هــ/973م):لمع في بلاط العبيدين بالمغرب وعاصر كل خلفاء العهد العبيدي ،وأول اتصاله كان في عهد عبيد الله المهدي ولكن المصادر لا تذكر كيفية وصوله إلى المغرب بوسطة الشراء أو السبي ،والراجح أنه صقلبي.وقد بلغت منزلته في عهد "القائم بأمر الله" درجة كبيرة ، حتى نظر في بيت المال وخزائن البز والكساء ، وجعله سفيرا بينه وبين أوليائه وسائر عبيده ،وارتفع شأنه على عهد المنصور حتى أصبح المسئول عن المهدية وسائر بلاد إفريقية ،فكان أشبه بالوزير الأول .فاستخلفه "المنصور" عندما خرج للقضاء على فتنة" أبي يزيد مخلد بن كيداد"على دار الملك وسائر البلاد ولقب بمولى أمير المؤمنين (ينظر:المقريزي:المصدر السابق،ج132 .)

[2] ابن حماد: المصدر السابق، ص115.

[3] محمد اليعلاوي : الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي، ص230.

[4] أبو عثمان سعيد بن محمد المعروف بابن الحداد (219 –302هــ): من أشهر فقهاء المالكية في الجدل والمناظرة، كان واسع الثقافة كثير الحفظ للشعر العربي مشهورا ببراعته في الحوار ، والظفر بخصومه ، يستخدم هذه الطاقة الجدلية لإبطال عقيدة الإسماعيلية. أخذ عن سحنون ثم مال إلى المذهب الشافعي ، كان عالما

مازلت من حادثات الدهر معتجبا * حتى انقضى عجبي بعد الثلاثمائة

لا بارك الله في عام وفـــي سنـــة * كـــانت لشر زمـــان مختبئـــــة

عـــادت أســـافله طـــــرا أعالـــيه * و لا أعـــالـــي إلا وهي منـــكفئة[1]

كما سعت الدولة العبيدية إلى توسيع الأدب بصنفيه نثرا و شعرا ، خاصة النثر الذي يخدم أغراض دعوتها ونحلتها الوافدة ،و عملت إلى توسع أغراضه لتشمل كل مناحي التعبير لعلمهم أن النثر هو اللغة الطبيعية للعقل والأداة المناسبة والضرورية في نفس الوقت ،وهذا للتعبير عن أفكارهم ومعتقداتهم ،في ظل بيئة جديدة .

لم يكن النثر في هذا العهد، في الحقيقة إلا استجابتا لدواعي تنظيم الدولة التي بدأت ترسم معالمها وتخطو خطواتها الأولى في طريق التشكل، ومسايرة ضرورات الاتصال والتبليغ المعقدة .

والحقيقة أن هذه الطفرة أو الوثبة في هذا القرن هي نتيجة لجهود سابقة أتاحت لهذا الفن أن يزدهر ولعل مرد ذلك –فيما نحسب– إلى عوامل تتمثل أساسا في:أن الدولة العبيدية و ما إن بسطت أمرها على أرض المغرب حتى قامت بفتح المدارس فكانت منبرا دعائيا لمذهبهم ، ونظموها تنظيما منهجيا لم يعهده المغرب من قبل ، وجعلوا لها مسئولا عاما هو "القاضي النعمان" لمتابعتها و السهر على نظامها و برامجها العلمية ، كما نشط أتباع المذهب المالكي بدورهم في حركة التعليم و التدريس، خاصة في المساجد و الحلقات العلمية التي كانت تعقد فيها، خاصة مع البدايات الأولى للدولة التي أظهرت نوعا من التسامح الديني و المذهبي ، وكان لهذا النشاط التعليمي أثره الكبير على بلاد المغرب كلها و في جميع حواضرها ، فنبغ الكثير من

بالعربية واللغة وكان الجدل أغلب الفنون عليه ، وقال عنه أبو العرب :كان عالما باللغة نافذا في النحو وكان يقول الشعر ويجيده ،فمن ذلك (بسيط):

مازلت من حادثات الدهر معتجبا* حتى انقضى عجبي بعد الثلاثمائة

لا بارك اله في عام وفي سنـــة* كانت لشر زمان كان مختبئـــــــة

وله تآليف كثيرة واشتهر بمناظرته للشيعة ومواقفه منهم معروفة.وتوفي سنة 302هـــ. (ينظر:أبو العرب : طبقات علماء إفريقية وتونس ،تحقيق علي الشابي و نعيم حسن اليافي،الدار التونسية للنشر،تونس،المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر ،ط2 ،1985م، ص 249.والقاضي عياض:المصدر السابق ،ص 484).

[1] محمد اليعلاوي : المرجع السابق ،ص40.

العلماء الذين وضعوا بصماتهم و سجلوا لنا آراء تربوية كبيرة في تعليم النشء و تربيتهم ، وفق مناهج علمية واضحة ، كما هو الحال عند "القابسي"[1] ت (403 هـ) صاحب كتاب " الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين و أحكام المتعلمين .

كما انكبت الحركة الأدبية بالمغرب ، على دراسة الأدب وفنونه المتنوعة وتدريسه و التأليف فيه وظهر عدد كبير من العلماء و الأدباء و الفقهاء خاصة منهم السنة، الذين عملوا جاهدين على رد محاولات الطمس التي انتهجها أمراء الدولة و أدعيائهم ، والرامية إلى محو المذهب المالكي، بالرغم من الاضطهاد الكبير الذي لحقهم جراء الذود عن عقيدة أهل السنة ومذهبهم ، فظهر عدد كبير من أعلام الأدب أحرار ، مع العلم أن منتصف هذا القرن يعد الحد الفاصل بين دور الأدباء الفقهاء و الأدباء المستقلين بصنعتهم الأدبية وتخصصهم المحدد.

وهناك عوامل عديدة أدت إلى ظهور جيل من الأدباء و الشعراء ، الذين جادت قرائحهم وتبحروا في الأشكال الأدبية المختلفة في المغرب الإسلامي في هذه الفترة الزمنية. ومن هذه العوامل الصراع المذهبي بين العبيديين دعاة الإسماعيلية و أهل السنة أتباع المذهب المالكي ، ومحاولة الانتصار لكل فكرة من خلال الشعر و الخطب و المناظرات ...و التأليف وغيره من الأشكال الأدبية الأخرى،محاولة منهم لصون المذهب المالكي من خلال التأليف لكي لا تأتي عليه الدعوات المغرضة من قبل الدعوة الإسماعيلية ،و حركة الهجرة من المغرب إلى المشرق و الأندلس و الاستزادة في العلم ، دخول بعض العلماء المشارقة و الأندلسيين حاملين معهم تجارب فكرية و ثقافية و علمية معفرة بعبق المشرق و الأندلس ، هذه العوامل و أخرى هي التي ساهمت و أوصلت الأدب المغربي إلى مرحلة النضج في النصف الأول من القرن الرابع الهجري وما بعده ، بعد أن مر بمراحل اتسمت ببدايات محتشمة ممزوجة ومرتبطة بالدعوة

1 القابسي :ولد أبو الحسن لي بن محمد بن خلف المعافري القابسي الفقيه القيرواني سنة 324 هـ ، تولى خطة الإفتاء بالقيروان ، على مضض لكنها فرضت عليه ، وأصبح بعد وفاة "ابن أبي زيد القيرواني" رئيسا للمدرسة المالكية بالمغرب الإسلامي ،وقد عاش في ضل حكم العبيدين الشيعي ، فكان مخاصما لهم و لمذهبهم طوال حياته مدافعا عن المذهب المالكي ، توفي سنة 403 هـ، في سن تناهز السابعة و السبعين ،ورثاه الشعراء بنحو المائة مرثية ،من آثاره بالإضافة للرسالة المفصلة ،الملخص لمسند موطأ مالك ،وكتاب الممهد في الفقه، وأحكام الديانة وغيرها.(ينظر: أبو الحسن علي القابسي : الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين و أحكام المتعلمين، دراسة وتحقيق :أحمد خالد ، الشركة التونسية للتوزيع، ط 1 ، 1986 ،ص7-16).

الإسلامية ولغتها في بداياته الأولى، إلى أدب متخصص على يد ثلة من الأدباء الكبار أمثال : "ابن هانئ"الشاعر ،وابن الربيب الكاتب" و "جعفر الكتامي" القائد الشاعر وغيرهم.

2- في عهد الدولة الصنهاجية:

تداولت على حكم بلاد المغرب منذ الفتح الإسلامي دول شتى و كانت ذات عناية بترقية البلاد و توسيع نطاق العمران و النهوض بالفرد المغربي نحو الرقي و الازدهار، إلا أن نتائج أعمالها لم تبلغ مرتبة الإخصاب إلا بعد قطع مسافة أربعة قرون ، أي على يد أمراء الدولة الصنهاجية، فلقد أحرز أهل المغربي على تمدن إسلامي باذخ و حضارة عربية إسلامية فائقة.

وعدت مرحلة الحكم الصنهاجي فترة العصر الذهبي في العلم و الأدب وبلغت شأوا عظيما في التمدن الإسلامي، و أدركت منتهى العز الشامخ و السؤدد الرفيع ،ونبغ في ذلك العهد أفذاذ في كل علم و فن ،" وانتشرت على عهدهم مختلف الصناعات و أحييت الأرض الموات و أنشئت الجنات المعروشات ، ودرت الخيرات ، وكثرت الأرزاق ، وتعددت و سائل المكاسب ، فعمت الثروة ، وتبسطت الرفاهية ، وفشي التهذيب ، والتأم الجمع ، وانتظم الشمل ، فأصبحت المغرب محطا لرجال الأعمال ، وكعبة من قصاد الآمال ، ناهيك عن مساكنها و قصورها و عمرانها الذي أسس على العلم الصحيح و المدنية الحق "[1].

وبهذه النهضة العامة في شتى المجالات، ساد الغنى و عمت الرفاهية معظم السكان، فاستقل الكثير منهم في دراسة العلوم المختلفة وتدوينها، وازدهر سوق الأدب وظهرت حركة فكرية لم ير المغرب مثلها من قبل و لا بعد.و خاصة إذا علمنا أن الأمراء كانوا يقبلون على المعارف ويبذلون النفس و النفيس في الوصول إليها و معاضدة أهلها.

كما زاد حكم "المعز بن باديس" ومن جاء من بعده من أمراء في نهضة وازدهار الساحة الفكرية و الثقافية و الأدبية الذين عملوا جاهدين في استقطاب العلماء والأدباء و المفكرين ،الذين كانوا يتباهون بالانتساب إلى هذه البلاد"[2] ،فسما بهذا الاهتمام المنقطع النظير الأدب في هذا العصر ، وعلا شأوه "و في هذا العصر خطا الأدب من نثر ونظم ، في حلة التفنن و الرقة و

[1] حسن حسني عبد الوهاب : شهيرات التونسيات ،ص68.(ينظر أيضا: حسن حسني عبد الوهاب :خلاصة تاريخ تونس الإفريقية،ص80.)

[2] بشير خلدون: المرجع السابق ، ص21 .

ظهر فيه الاختراع الجيد ، ,وتوليد المعاني الرقيقة نظير ما حصل للآداب بالعراق في مبدأ الدولة العباسية ... و تولد الإبداع العجيب لتأثير المدينة على الخيال الشعري ... "[1].

فتقدمت الآداب و العلوم تقدما كبيرا ن ونبغ فيها أعلام كثيرون في الشعر و النثر و الدراسات العلمية و الفقهية...وغيرها .وقد كان بلاط المعز مجلسا علميا رفيعا ضم نخبة من كبار العلماء و الأدباء و المفكرين المغاربة عبر العصور ،من مثل: النهشلي ، ابن رشيق ، ابن شرف ، ابن أبي الرجال ....

كما وضع في هذا العصر فن نقد الشعر ،"وكان لأدباء المغرب الحظ الأوفر في توسيع هذا الباب ،من خلال النهشلي في كتابه "الممتع" ، وابن رشيق في "العمدة" ،وابن شرف في "مسائل الانتقاد"و بفضل هذه المؤلفات أصبح الشعراء مقيدين بقوانين مضبوطة و أساليب معلومة يجهد الأديب نفسه للإجادة فيها و يجتنب الخروج عن قواعدها"[2].

ويذكر ""حسن حسني عبد الوهاب " خصائص أدب العصر الصنهاجي، حيث يقول": في هذا العصر خطر الأدب من نثر ونظم , في حلة التفنن و الرقة و ظهر فيه الاختراع الجيد , وتوليد المعاني الرقيقة نظير ما حصل للآداب بالعراق في مبدأ الدولة العباسية , حينما امتزج الشعر العربي بالآداب الفارسية. و الفرس أهل رقة و خيال متسع ,فتفتقت القرائح, و تولد الإبداع العجيب لتأثير المدينة على الخيال الشعري" ... [3] .

كما فسح المجال نسبيا أمام علماء السنة لنشر مذهب "الإمام مالك"،لعدم تشدد أمرائهم بمطالبة الناس بالتشيع ، وبدأت الحياة العلمية تعود إلى المساجد و الكتاتيب شيئا فشيئا.

غير أن تلك المظاهر الرسمية من التبعية لحكام مصر و الدعوة لهـم على المنابر كانت تقلق العلماء و أسهمت في استمرار الصراع بينهم وبين الأمراء لكن ليس كسابقه لكون الأمراء لم يكونوا متحمسين للدعوة الإسماعيلية، و التف أهل المغرب حول علمائهم عازمين على التغيير و قطع الدعوة للعبيدين لكن الحكام لاعتبارات سياسية لم يستطيعوا موافقة العلماء و أهل البلاد خوفا على سلطانهم ، مما فتح المجال أمام العلماء إلى العمل جاهدين على نشر السنة و آراء

[1] حسن حسني عبد الوهاب :مجمل تاريخ الأدب التونسي ، ص105.

[2] نفسه، ص105.

[3] حسن حسني عبد الوهاب: مجمل تاريخ الأدب التونسي ، ص105.

السلف ، فعجت حلقات العلماء بطلاب العلم في القيروان من جديد ، وكثرت المؤلفات في بيان الدين الإسلامي الصحيح ، و تمكن بعض علماء السنة من الوصول إلى ديوان الحكم في الدولة[1]. و أثروا في بعض الوزراء و الأمراء الذين خففوا من الضغط على أهل السنة .فكان كل هذا بداية للتخلص التدريجي من أتباع العبيدين وانتصار أهل السنة على الشيعة في الشمال الإفريقي على عهد الأمير "المعز بن باديس" [2].الذي حقق آمال أهل المغرب.

و بينت كل المصادر أن "المعز" تدرج في عدائه للإسماعيلية ، و لحكام مصر و ظهر ذلك منذ عام (435 هــ) عندما وسع قاعدة أهل السنة في جيشه و ديوانه ، وقرب العلماء و أصدر أوامر بقتل كل من يشتم و يسب الصحابة ، فأشاد العلماء و الفقهاء بهذا العمل الجليل الذي أشرف على تنفيذه المعز بنفسه ، و قام الشعراء بنظم قصائد في مدحه ، ويقول أحد الشعراء في ذلك:

يا معز الدين عش في رفعة * وسرو و اغتباط و جذل

أنت أرضيت النبي المصطفى* وعتيقا في الملاعين السفل

و جعلت القتل فيهم سنـــة * بأقاصى الأرض في كل الدول[3].

لكن الاستقرار الذي نعمت به بلاد صنهاجة لم يدم إلا قرنا أو بعض قرن [4].ثم أنطفأ سراجها و ذبل نورها بيد القبائل العربية الهلالية التي نزلت بالبلاد فزعزعت أمنها و دكت معالمها و طمست آثارها و محت محاسنها و قلبت حياة أهل المغرب من الرغد في العيش و من قمة الحضارة و الرقي إلى لجى الفتن و الهلاك، وفي هذا يقول ابن خلدون: "...و جاء الأعراب فدخلوا البلد و استباحوه،و اكتسحوا المكاسب و خربوا المباني و عاثوا في مساكنها و

---

[1] منهم الشيخ الورع ابن أبي الرجال(ت 426هــ) الذي "حرض"المعز ابن باديس" و أدبه ودله على مذهب مالك وعلى السنة و الجماعة ، والشيعة لا يعلمون ذلك و لا أهل القيروان،فخرج المعز في بعض الأعياد إلى المصلى في زينته وحشوده ، وهو غلام ، فكبا فرسه، فقال عند ذلك "أبو بكر وعمر" رضي الله عنهما" فسمعته الشيعة التي كانت في عسكره، فبادروا إليه لقتله،فجاء عبيده و رجاله ومن كان يكتم السنة من أهل القيروان، ووضع السيف في الشيعة(ينظر:الهادي روجي:المرجع السابق،ج 1،ص182-183.)

[2] محمد الصلابي : الدولة الفاطمية،ص98.

[3]الهادي روجي:المرجع السابق،ج 1،ص189.(ينظر أيضا:محمد الصلابي: المرجع السابق ،ص101).

[4] حسن حسني عبد الوهاب :شهيرات التونسيات ،ص90.

طمسوا من الحسن و الرونق معالمها،و استصفوا ما كـــان لآل بلكين الصنهاجين في قصوها، وشملوا بالعبث و النهب سائر من فيها و تفرق أهلها في الأقطار ن فعظمت الرزية و استشرى الداء و أعضل الخطب و أضطرب أمر إفريقيا خرب عمرانها وسارت قبائل دياب و عوف و الزغب و جميع بطون هلال إلى إفريقيا كالجراد المنتشر لا يمرون على شيء إلا أتوا عليه حتى و صلوا إلى القيروان سنة(442هــ)"[1].فخربوها وعاثوا فيها فسادا و بهذه الرزية التي لحقت بأرض المغرب و ملك صنهاجة ، هاجر العلماء و الفقهاء أرض المغرب باتجاه صقلية و الأندلس، و أفل نجم القيروان و بقية حواضر العلم في المنطقة بعد سنين من العطاء.

لكننا لا ننكر أن دخول القبائل الهلالية قد خدم تعريب المنطقة ، فكان لهذا الزحف الأثر الكبير على الناحية الأدبية، وعد من أكبر العوامل المؤثرة في تعريب الثقافة المغربية. حيث من خلاله حظيت اللغة العربية باحترام أهل المغرب على وجه العموم ، و اعتبروها لسان الأدب ولغة العلم وعنوان الثقافة، فانبلج بالتالي في القرنين الرابع و الخامس الهجريين عصر جديد أصبحت فيه اللغة العربية اللغة الرسمية للحاكم و المحكوم.

وقد انتشرت في هذا العصر ظاهرة التنافس الأدبي، وكان السباق قائما بين بلدان المشرق والمغرب والأندلس وعواصمها المختلفة: المهدية و بجاية وفاس، وتلمسان، و سبتة، وبغداد والقاهرة ... وغيرها،و برزت كل مدينة من هذه المدن بلون خاص من العلوم والآداب واشتهرت به. بالإضافة للحركة الانتقالية للعلماء وطلبة العلم بين هذه الحواضر والتي غلب عليها طابع البعثات والرحلات العلمية، وهذا كله لأجل النهوض بالدولة فكانت كل هذه العوامل سببا في إذكاء روح النشاط الثقافي و العلمي.

- في عهد الدولة الحمادية:

تميز هذا العهد بنهضة ثقافية علمية أدبية لم تشهد لها المنطقة مثيلا من قبل ، وكانت على يد ثلة من الأمراء الذين تعاقبوا على حكم هذه الدولة ،فأسسوا المساجد و المدارس و المعاهد العلمية ،فتوافد عليها الكثير من العلماء و الأدباء وأغدقوا عليهم الأمراء الصلات و العطايا حتى

---

[1] ابن خلدون : المقدمة ،ج1،ص20.(ينظر أيضا: حسن حسني عبد الوهاب:خلاصة تاريخ تـــونس،ص81-82. و رابح بونار : المرجع السابق،ص134-135).

امتلأت بلاطاتهم بالكثير من علماء المغرب ووفد إليها الكثير من علماء و أدباء المشرق و صقلية و الأندلس فتقاطروا على حواضرها العلمية ،خاصة بجاية التي كانت قبلة العلماء والمفكرين و غاية طلاب العلم ، يشدون إليها الرحال من كل حدب وصوب، قاصدين علماءها ومعاهدها التي بلغت شهرتها الآفاق"[1] ... كما لم يكن العلم وقفا على الرجال دون النساء. ومما يؤكد أهمية بجاية والمكانة العلمية التي بلغتها في عهودها الزاهرة اتجاه غير المسلمين إليها وطلبهم العلم في معاهدها ،" فقد تعلم أهل بيزا الإيطاليون صنع الشمع من مصانعها ، ونقلوه إلى بلادهم ، ومنها إلى أوروبا ، ولا يزال يسمى الشمع عندهم "بوجي" مأخوذا عن اسم بجاية " [2].

كما عرف هذا العهد حركة علمية أدبية فكرية أنتجت عددا كبيرا من العلماء و الأدباء ذوي عارضة في الأدب كما أنه تقدم تقدما كبيرا ، ولا عجب في هذا لكون هذا العهد هو عهد الازدهار الثقافي و العلمي و الفكري ، وهذا ما أثبتته كل المصادر [3]. التي أرخت لهذا العهد ،و ما أوردته عن الحركة العلمية المزدهرة التي نتج عنها عددا من الكتاب الذين جادت أقلامهم بالمقالات الأدبية العلمية ، كما نطقوا بأجود الخطب و أفصحها و أبلغها باختلاف أنواعها ، وكان الإنشاء في صدر هذا العهد يسير على نظام الكلام المرسل ثم ما لبث أن ارتقى فتأنق الكتاب في إنشائهم شأن المشارقة فمالوا إلى السجع و التنميق ، و تقليب الجمل على المعنى الواحد ، ولكن على غير إفساد في الذوق و بدون أن تتغلب الصناعة على الفن و ازدهار الكتابة على الخصوص يرجع إلى عناية أمراء و حكام الدولة الحمادية بالأدب و الأدباء.فكانت للكتابة عندهم منزلة لا يفوقها سوى منزلة أمراء الجيش ، إذ كانوا هم عمدة الدولة في تناول رسائلهم في تقليد الوظائف ، ومكاتبات العمال و الأمراء .و كانت الإدارة المركزية في عهد الدولة الحمادية تشتمل على ديوان الإنشاء وكان على رأسه كاتب وديوان البريد [4]. ومن كتاب العهد

---

[1] محمد الطمار :المرجع السابق،ص71.

[2] عبد الرحمن الجيلالي :المرجع السابق،ص291 .

[3](ينظر:عبد الرحمن الجيلالي :المرجع السابق،ص291 ،أيضا: رابح بونار: المرجع السابق،ص257).

[4] حاجيات عبد الحميد : تاريخ الجزائر في العصر الوسيط منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954،طبعة خاصة بوزارة المجاهدين،د ت ،ص142.

الحمادي نجد: "عمر بن فلفول"[1]،"وابن أبي المليح الطبيب[2]، وبجانب ديوان الإنشاء كان للحمادين ديوان البريد و استعملوا الحمام الزاجل مثلما استعملوا الإشارات بالمرايا للمراسلة مع بروج وأبنية مشيدة في المدن الأخرى[3].

ولعل أهم أسباب هذا الازدهار هو مما لاشك فيه حكامها الذين عملوا على تأسيس المساجد و وعلى رأس هذه المساجد نجد الجامع الأعظم الذي كان يؤدي دورا تعليما في مختلف العلوم لاسيما علم القراءات[4]..كما كانت هناك الكتاتيب التي تكمل ما كانت تقوم به المساجد خاصة ما تعلق بحفظ القرآن الكريم للصغار[5] .

كما أسسوا أمراء الدولة المعاهد العلمية التي ازدحم عليها الكثير من طلبة العلم و بريادة ثلة من العلماء و الفقهاء و الأدباء وحتى الأطباء و أهل الفنون الهندسية و الرياضية، و أغدقوا عليهم الصلات و المنح و العطايا ، بل قربوهم و اسندوا عليهم مناصب رفيعة في الدولة كمنصب رئيس الديوان، فهذه الوفرة لم تشهدها الجزائر حتى في أيام "بني رستم" التي اتضحت معها معالم الشخصية العلمية الجزائرية ، وشهرة الحمادين في تقريبهم للعلماء و الأدباء جلبت الكثير من علماء و أدباء القيروان بعد تخريبها، والأندلس و الشام و صقلية وغيرها من الأمصار. فتقاطروا على القلعة ، وبجاية و الحواضر العلمية الأخرى ، فاستفاد طلبة العلم منهم بل حتى العامة من الشعب استفادوا وسمة ثقافتهم، و ظهر علماء بارزون ، ومؤلفون متعمقون في مختلف العلوم .

كما أن اللغة الرسمية كانت العربية برغم أن حكام الدولة وشعبها أمازيغ ، وهذا لكونها لغة القرآن و الدين.فاجتهدوا في نشرها بين أوساط الشعب ، لما جاءت القبائل العربية و

---

1 عمر بن فلفول: أبو حفص كان كاتبا ليحيى بن عبد العزيز الحمادي ،وشاعرا (رابح بونار: المرجع السابق،ص200).

2 ابن أبي المليح كان طبيبا مشهورا،حاذقا في صناعة الطب كما أنه كان شاعرا وكاتبا في بلاط بني حماد(ينظر: رابح بونار:المرجع السابق،ص193.)

3 حاجيات عبد الحميد :المرجع السابق،ص143.

4 الطاهر بونابي: التصوف في الجزائر خلال القرنين(6 هـ و7هـ12 / م و13م) ، دار الهدى للطباعة و النشر و التوزيع ، الجزائر ،2007 ،ص 237.

5 عبد الفتاح مقلد الغنيمي :المرجع السابق،ص 341.

امتزجت بينها و بين سكان البلاد زادت اللغة العربية انتشارا، وانحصرت الأمازيغية في الجبال و المناطق المعزولة، وأصبحت الدروس تلقى بالعربية و التآليف تكتب بها .

أما من ناحية الأدب فعرف هذا العهد الكثير من الأعلام في صنفي الأدب شعرا و نثرا، و شهد تقدما كبيرا من ناحية الكم ، كما اتسم بسيمات الأدب المشرقي مع إسباغه بسبغة و خصوصية المغربي فجاء في حلة بهية و زخر بشتى الأشكال خاصة النثرية منها ،من خطب دينية و سياسية و رسائل ديوانية و إخوانية و مقالات علمية و أدبية و تآليف متنوعة.و ليس من شك أن التقدم في جميع الجوانب و الأسماء التي وصلتنا عن أدباء العهد دالا على و جود نماذج عديدة و ممتازة، ولكن الفتن التي وقعت في آخر حكمهم قد أضاع الكثير منها. و الأدب المغربي عموما و الحمادي خصوصا يتميز بأصالته وبتأثره الكبير بالمعاني القرآنية والحديثية التي نجدها في كثير من أشعار الشعراء ورسائل الكتاب، مضيفا أن الروح الإسلامية طبعت هذا الأدب نظرا لما عاشه المغاربة من جهاد طويل سواء في الدفاع عن حوزة الأندلس أو في الدفاع عن شواطئ المغرب.

كما تعددت أغراض الشعر من توسلات وابتهالات ومدح ورثاء وزهد،حيث اتسم بالطابع المغربي المحافظ الذي يميل إلى الاحتشام والوقار و الزهد في نبذ شهوات النفس والتعفف عن ملاهي الدنيا وزخرفها ،ومن أجمل قصائد التوسل والابتهال إلى الله قصيدة "المنفرجة لابن النحوي"[1]. والتي منها هذه الأبيات:

اشتدي أزمة تنفرجي * قد آذن ليلك بالبلج

وظلام الليل له سرج * حتي يغشاه أبو السرج

وسحاب الخير لها مطر * فإذا جاء الإبان تجي

وفي الرثاء،نجد غرض "رثاء المدن والمماليك" وهو فن استحدثه المغاربة و الأندلسيون بعد سقوط وخراب مدنهم بسبب الحروب والفتن ، وهو يقوم على ذكر ما كان فيها من عمران وحياة ومتعة،ثم يروي كيف أصبحت أثرا بعد عين، ومنها رثاء "ابن حماد الصنهاجي" لمدينة القلعة بعد خرابها،وفيها يقول:

---

[1] رابح بونار:المرجع السابق ،186.(ينظر أيضا : عبد الحليم عويس : المرجع السابق ، ص266).

إن العروسين لا رسم ولا طلل *فانظر ترى ليس إلا السهل والجبل

وقصر بلارة أودى الزمان به * فأين ما شاد منها السادة الأول [(1)].

وعموما فإن البلاط الحمادي حفل بعديد من الأدباء والشعراء الذين كانوا يشاركون الأمراء أفراحهم وأتراحهم ،وأبرز شاعر وفد إليهم هو "ابن حمديس الصقلي" الذي مدحهم بقصائد رائعة.

أما أهم ما يميز الأدب المغربي عموما و الحمادي على الأخص عن نظيره المشرقي، فأن ذلك يظهر في بعض الاستعمالات اللغوية والصور الشعرية، إضافة إلى تأثره ببيئته المحلية وبتطرقه لمواضيع لم يتناولها المشارقة. وهذا لا يعني عدم تأثر المغاربة بالمشارقة في عدد من الأنماط الأدبية إلا أن المغاربة حافظوا على خصوصياتهم الإقليمية ، ولذلك عد تكاملا معرفيا بين قطبي الحضارة العربية الإسلامية .

هذه أهم الروافد المشكلة للبنية الفكرية و الثقافية و الأدبية في القرنيين الرابع و الخامس الهجريين في بلاد المغرب الإسلامي ،وهي المظاهر التي نشأت في ظلها الدويلات الثلاث – ومن خلالها أنتج الأدب المغربي في أبهى صوره–، هذه الدويلات التي ترامت أطرافها لتسيطر على بلاد المغرب الإسلامي لفترة زمنية طويلة دامت ما يقرب القرنيين من الزمن ،ابتدأت بعهد الدولة العبيدية التي سادت ثم بادت بعد أن مرت من قوة إلى قوة حتى أوصلتها درجة قوتها إلى مصر لتطوى بذلك صفحة حكمها للمغرب، وتفتح أخرى بالمشرق، وتترك الحكم لحلفائها الصنهاجين الذين واصلوا المسيرة المشرقة من عهد الازدهار الأدبي والثقافي إلى حين انقسامها إلى قطرين شكلا ثنائية ثقافية متميزة تنافسا خلالها تنافسا علميا ثقافيا زاد من بريق هذه البلاد ، واتسع أفقها الأدبي الذي استنارت به كل الحواضر التي عدت لذلك .

لكن هذه الفترة التي أمضتها هذه الدويلات في حكم بلاد المغرب،و على الرغم من اتسامها بالتقلب وعدم الاستقرار في الكثير من الأحيان خاصة في القرن الرابع الهجري،إلا أنها بزغت من خلالها فترات صفاء وهدوء تفتقت عنها حياة فكرية وأدبية نمت على وجه متكدر، من شتى صنوف الصراعات السياسية التي كانت تختفي وراء الصراع الديني المذهبي،الذي

---

[1] عبد الرحمن الجيلالي، المصدر السابق،ص296.

اشتد أتونه ضمنها لتكشف عن حروب وفتن ذهب ضحيتها خلق كثير ولم يسلم منها علماء الأمة وفقهاؤها.

والتركيز على الجانب السياسي مع بداية القرن الرابع الهجري وما طبعه من صراع من أجل تثبيت أقدام بني عبيد ومذهبهم ودولتهم ، واستخدامهم الأدب كوسيلة جميلة و ناجحة في نشر دعوتهم،والذي رافقه هامش من الحرية الفكرية ،تمتع بها كل الأفراد لفترة محدودة ،تبعها سيل من الفتن والصراعات السياسية المطبوعة بالصراع المتعدد الأطراف،والذي تركز في الصراع المذهبي،من أجل سيطرة وانتصار فكرة واحدة ،إلا أن هذا الصراع ولد وأفرز الإبداع المغربي في الأدب العربي،ترعرع في عهد الدولة العبيدية و نمى و ازدهر في عهد الدولتين الصنهاجية و الحمادية.

كما أني حاولت أن أبين بعض صور وجوانب من الحياة الفكرية والثقافية و الأدبية للمنطقة. لتشكل لنا رؤية واضحة عن الجو الذي نشأ من خلاله الأدب المغربي. ولعل بذكرنا لبعض الحقائق التاريخية ووقوفنا عندها بالتفصيل هذا إدراكا منا أننا سنجدها ضمن بحثنا وفي جميع مراحله ،و هذه الخلفية التاريخية بما حملته من حقائق مهمة جدا تزودنا بمفاتيح نفتح بها ما استغلق من أشكال نثرية ، كما تزودنا بإضاءات توجهنا لسلك طريق الظاهرة التي عاشها أهل المغرب طيلة فترة القرنيين من الزمن الذي حكمة فيه الدويلات الثلاث منطقة المغرب وتعود الأسباب الرئيسة لهذا الازدهار الثقافي الفكري الأدبي في منطقة المغرب إلى جملة من الأسباب يمكن حصرها في الآتي :

-إقبال الحكام على المساهمة في الإنتاج الأدبي والفكري، وكان جل أمراء الدولة العبيدية وولاة الأقاليم ،من الأدباء أو المتذوقين له، وهو نفس الحال عند أمراء الدولتين الصنهاجية و الحمادية حين كانوا أدباء متذوقين للأدب وفنونه ومنتجي له.

-بذل حكام الدول المتعاقبة العطايا والهبات لرجال الفكر والأدب وتقريبهم إليهم.

-انتشار روح التنافس المذهبي الذي أدى إلى تحرير الأدباء والعلماء من الخمول ،واتجاه كل واحد منهم إلى الدفاع عن مذهبه وفكره والذود عنه بما أمكن .

-تعدد الحواضر الثقافية بالمغرب الإسلامي، ويكفي ذكر التفاف أبناء الأندلس والمغرب وطرابلس وصقلية وبرقة وغيرها حول القيروان التي أصبحت مركز إشعاع علمي ينافس

نظرائها بالمشرق ،كما ظهرت عدة حواضر علمية ساهمت في الرقي الفكري و الثقافي اجتمع فيها عدد كبير من العلماء و طلبة العلم ،فكانت مراكز إشعاع علمي و أدبي نافست نظيراتها في المشرق و الأندلس.

-استحواذ الدولة العبيدية على الإرث الفكري والأدبي لعدة دول في المنطقة (الأغلبية ، الرستمية ،والإدريسية) ، ومن ثم بقاء ذلك الإرث بالرغم من نقل جزء مهم منه إلى مصر بأيدي الصنهاجين و الحمادين.

-تعريب المنطقة و تأثير ذلك في الأدب و الفكر المغربي.

كما بينا مظاهر الحركة الفكرية والأدبية التي ظهرت بالمنطــقة في القرنيين الرابع و الخامس الهجريين، وأبرزنا دور الأمراء في الإقــبال على المعــارف والاشتغال بالعلوم والآداب، وإغداقهم العطايا على الأدباء والشعراء والعلماء.وتشييد مدن لتكون حواضر علمية،واقتفائهم في ذلك أثر النهضة العربية الظاهرة إذ ذاك بالمشرق.فبحق كان القرن الرابع الهجري ومنه العهد العبيدي نقطة انطلاق ونهضة في جميع الميادين بالرغم من الفتن وأسلوب القمع الذي مورس في كثير من المرات على الخصوم وما انجر عنه من قتل وتشريد للعلماء والأدباء الذين قاوموا هذا الطغيان بالأسنة والألسنة. لكن هذه المجهودات لم تثمر في حينها – بالصورة التي أرادوها–بل اعتنت بالثمار و لنراها قد نضجت نتائج تلك النهضة وحان أوان قطافها مع النصف الثاني من القرن الرابع الهجري ، أي مع قيام الدولة الصنهاجية ومن بعدها الحمادية فكانتا المجتنية لثمارها ،وعد عهدهما عهد ازدهار ثقافي و أدبي في منطقة المغرب.

ولكن لن نستطيع التفاعل مع الحدث بمجرد الوقوف عند أحداث التاريخ، لأن هذه الحوادث غالبا ما تكون وصفية، وإنما نستطيع التفاعل مع الأحداث بدراسة آثار الأدباء الذين عاينوا وعايشوا هذه الأحداث، بحلوها ومرها.

البـاب الأول

الأشكال النثرية غير السردية في القرنين الرابع و الخامس الهجريين

- **الفصل الأول** :الخطابـــــة
- **الفصل الثاني** :المناظرات
- **الفصل الثالث** : الوصـــــايا
- **الفصل الرابع** : التوقيعــات

-النثر المغربي وإشكالية الدراسة:

لم يصلنا النثر المغربي كاملا ولا جاء واضحا مشروحا ، لذلك وجدنا صعوبات كثيرة في أن نتتبع بدقة مساره و تطوره ،ولو وصلنا بصفة واضحة لأمكننا الوقوف عند شتى صنوفه وفنونه، والظروف التي قيل ونظم فيها ،ومنه تتبدد الغيوم التي تحول دون فهم قسم وافر من أدب المنطقة .

ولما لم يكن هناك مصادر ومؤلفات خاصة بالنثر المغربي، فسبيلنا في ذلك الاستعانة بكتب التاريخ والتراجم، والفقه ...وغيرها، وبالخصوص الأقسام المتعلقة بالفترة العبيدية والصنهاجية و الحمادية، بالمنطقة المحصورة بين (296-500هـ) وأن ننظر إلى مؤلفات الفكر، والأدب،وأن نستقرىء أيضا كتب الأدب لعلها تبلغنا ما نصبو إليه في بحثنا ولو كان نزرا يسيرا منها. إضافة إلى الاستعانة ببعض الأحكام التقيمية المبثوثة بين الكتب بصفة عامة حول النثر المغربي في القرنين الرابع و الخامس الهجريين، والتي قد تفيدنا ببعض المعلومات أو التعليقات التي تساعدنا على سد الفراغ في الكشف عن أنواع الأشكال النثرية المغربية غير السردية في هذين القرنين ،من خطابة ومناظرات ،ووصايا و توقيعات... و غيرها.

وقد استعنا كذلك بما قد ورد من تعاليق و توطيئات في هوامش الكتب قد تتضمن شيئا أو شكلا من أشكال هذه الأنواع ، وتمهد لأي لون أو شكل ، ولعل هذه الإشارات تساعدنا على فهم النثر المغربي عموما، و إعطاء نظرة وتعريف لهذا النوع الأدبي محاولين الكشف عنه على أننا كلما تقدمنا ننبه للنقائص التي قد توجد في بحثنا ويمكننا أن نشير إلى بعض النقاط التي قد تكون السبب المباشر في الشح المشار إليه في البداية ،وتتجلى في:

-التعصب المذهبي العقائدي الذي أدى إلى خصومات فكرية مما انجر عنه التضييق الفكري والكلامي وحتى الإبداعي ،وهذا كان من قبل الأمراء العبيديين خلال حكمهم للمنطقة، مما أرهق أهل السنة والمذاهب الأخرى بالخصوص وشتت أعمالهم وتوبعت بالمحاصرة حينا وبالتحريق حينا آخر ،كما أتلفوا مصنفات أهل السنة،ومنعوا الناس من تداولها كما فعلوا بكتب "أبي محمد

بن أبي هاشم التجيبي"(ت 346 هـ) " توفي وترك سبعة قناطير كتب ، كلها بخط يده ، فرفعت إلى سلطان بني عبيد فأخذها، ومنع الناس منها كيدا للإسلام وبغضا فيه "[1] .

-كما أن "النعمان" يذكر إحراق الأمير العبيدي "المنصور" لعدد هائل من الكتب بإيعاز من أحد المغرضين حيث يقول:"وسمعته يقول فيما كان قد أحرق من الكتب في أيام المنصور وفيما أحرق منها ما فيه أموال عظيمة من أشرية اشتراها الناس من الفيء والخزائن"[2]....ويقر "النعمان" أن هذا العمل لم يكن من صنيع المنصور بل من مغرض أراد وصم الأمير وأسرته بالجهل ، ومحاربة العلم " والله ما دعا المنصور إلى ما فعله من ذلك وزينه عنده إلا من أراد بذلك البغي والأذى لغيره "[3].

وفي الحقيقة أن إتلاف هذه الكتب يعود ربما إلى ما تحتويه من أخبار ومعلومات تتعارض مع مبادئ الدولة ومذهبها، أوهي كتب لخصومهم،وبذلك أمست الكلمة العليا للعبيديين ومن ولاهم ورفع شعارهم ونصر مذهبهم وقضيتهم ،ولا صوت يعلو فوق صوت أدعيائهـم.

وما إن انقطع الولاء للعبيديين بالمغرب الإسلامي حتى انقلبت موازين التضييق ورجحت كفة السنة على الشيعة وهذا بدءا من عهد "المعز بن باديس" ، مما ولد روح الانتقام بقدر ما صبروا على التعذيب والإرهاق لسنوات وأجيال ، « وانفجرت نقمة أهل المغرب لتولد أقسى أنواع المعاملات بل وصلت إلى حد التقتيل والإبادة لكل من يشم فيه رائحة التشيع ، وقضي على كل ما يرمز إليهم خاصة الكتب التي بقيت بالمنطقة والمؤلفات والمكتبات ... »[4].

بالإضافة إلى الهجمة الهلالية مع منتصف القرن الخامس الهجري ، حين تدفقت جموع الأعراب ، آتيا على الأخضر و اليابس ،مدمرة لحواضر العلم و الثقافة بالمغرب الإسلامي ولعل مأساة القيروان كانت أعظمها حين رثاها جل شعراء هذا العصر بقصائد تقطر دما ومنها نونية"ابن رشيق المسيلي" التي صور لنا فيها نكبة القيروان تصويرا دقيقا ، واصفا حالها وحال

---

[1] المالكي: رياض النفوس ، ص422.

[2] القاضي النعمان: المجالس والمسايرات، ص290.

[3] نفسه ، ص291.

[4] حسن حسني عبد الوهاب:خلاصة تاريخ تونس، ص169.

أهلها أيام العز والمجد وما حدث لها بعد اقتحام عرب هلال وسليم لأحيائها وساحاتها الذين شردوا وخربوا واحرقوا وقتلوا دون أي وازع أخلاقي ولا ديني،ومنها هذه الأبيات:

فتكوا بأمة أحمد أتراهـــــم * أمنوا عقاب الله في رمضان؟

نقضوا العهود المبرمات وأخفروا * ذمم الإله، ولم يفوا بضمان

فاستحسنوا غدر الجوار وأثروا * سبي الحريم وكشفة النسوان

ساموهم سوء العذاب وأظهروا * متعسفين كوامـــن الأضعان[1]

لكن المؤسف حقا الذي تعرض له العبيديون بمصر -بعد أن قهرهم الأيوبيون- ،لم يقتصر على الأرواح والأموال فحسب ، بل إلى المباني والمكتبات حيث أتلفت ومزقت أسفارها لتصنع من جلودها النعال للعساكر، حيث يقول "المقريزي" راثيا مستنكرا: " ...وأحرق ورقها تأويلا منهم أنها خرجت من قصر السلطان...وأن فيها كلام المشارقة (الشيعة) الذي يخالف مذهبهم، سوى ما حمل إلى سائر الأقطار.وبقي منها ما لم يحرق وسفت عليه الريح والتراب،فصار تلالا باقية إلى اليوم في نواحي تعرف بتلال الكتب "[2].

ويصف "المقريزي" أيضا حجم وضخامة المكتبة العبيديية بمصر التي أتلفت فيقول: " ووجد من الكتب النفيسة ما لا يعد ويقال إنها كانت ألف ألف وستمائة ألف كتاب منها مائة ألف مجلد بخط منسوب وألف ومائتان وعشرون نسخة من تاريخ الطبري فباع السلطان جميع ذلك وقام البيع فيها عشر سنين "[3].

وهكذا فلو قدر لهذا التراث أن يسلم من الإبادة والضياع لتوافر أمام الباحث اليوم ما يعينه على إبراز المعالم الغامضة لهذا الأدب فيوفر عليه بالتالي كثيرا من الجهد والمشقة سعيا لتوضيح الصورة الحقيقية لهذه الفترة التي اعتبرت من قبل الكثير من المؤرخين أنها مرحلة ازدهار أدبي فكري ثقافي في منطقة المغرب الإسلامي لم تشهده من قبل ومن بعد.

-البنيات المشكلة للنثر المغربي في القرنيين الرابع و الخامس الهجريين:

---

[1] ابن رشيق : الديوان، ص208 .

[2] القاضي النعمان: افتتاح الدعوة، ج3 ، ص269.

[3] القاضي النعمان: افتتاح الدعوة، ج3 ، ص254.

وصل النثر المغربي في القرنين الرابع و الخامس الهجريين قمة الازدهار الأدبي ،وهو ما أشار إليه الكثير من مؤرخي الأدب ، و هو بحق عصر عمالقة الأدب المغربي، في شتى أشكاله ،وفي جميع عصوره ، هو عهد: (ابن أبي الرجال ،و ابن الربيب ، و ابن دفرير ، وعبد الكريم النهشلي ، وابن رشيق ،و إبراهيم الحصري...). هو قمة الإبداع و النبوغ المغربي في الأدب العربي ،وفيه تجاوزت الحركة الأدبية المغربية المتلقي السلبي،إلى خطاب أدبى شامل منتج للمعرفة الأدبية تفسيرا،وتنظيرا،وحوارا ،ومنهجا ،واستقطابا لكل المعارف الإنسانية، و أصبح الأدب، فعلا نتاجا حضاريا شاملا بأنظمة سميائية متحاورة ،ومتناصة مع التراث والواقع والفكر والوجدان، وفي هذه المرحلة أصبحت"إشكالية أي نص هي إشكالية الإنسان نفسه، ولا يمكن فصل أحدهما عن الأخر، وحين الكلام عن أحدهما نجد أنفسنا نتكلم عن الآخر، بل كثير ما يتبادلان الأدوار لأن خصائص النصوص هي امتداد لطبيعة ذات الإنسان،و في هذه الحالة تسمح بإيجاد علاقات بين الناس، وتصبح بمقتضى ذلك تجربة اجتماعية من الطراز الأول،وبهذا يتمكن الإنسان من بناء أي معنى ،كما يستقبل كل المعاني ويرسل أخرى ،كما يمكن تحويلها،وكل المعاني تتشكل في النصوص، وكل الحقائق يمكن البحث عنها فيها .

وقد حقق الأدب المغربي في هذه المرحلة تراكما معرفيا لم يسبق له مثيل في تاريخه سواء قبل الإسلام أم بعده، وفي هذا العصر انتقل المغرب من مرحلة المعرفة الشفوية إلى مرحلة المعرفة المكتوبة.

كما ظهر في هذا القرن كتاب ونقاد تجاوزت شهرتهم المغرب، ومنهم: (أبو إسحاق الحصري، وعبد الكريم النهشلي، وابن رشيق، وابن شرف،وأبو الحسن الحصرى...).

وقد سمت الحياة الثقافية و الأدبية ،في البلاط العبيدي و الصنهاجي والحمادي ووصل قمة الرقي الفكري و الثقافي و الأدبي في عهد الصنهاجيين و الحماديين،و الذي عني حكامهم بالعلم و العلماء. والمطلع على كتاب الأنموذج " لابن رشيق" و كتاب "طبقات علماء إفريقيا" لأبي العرب " وغيرهما ،يقف عند تميز و غنى هذا العصر و ازدهار الأدب و الفكر في القرنيين الرابع و الخامس للهجرة خلال استقرار حكمها .

وتعد مرحلة الحكم الصنهاجي والحمادي فترة العصر الذهبي للعلم و الأدب، و يعود السبب في الازدهار الحياة الثقافية في هذا إلى الاستقرار النسبي الذي شهدته الحياة على أيام بني زيري الصنهاجين حيث ظهر وبرز الكثير من الأدباء و العلماء و الشعراء و الكتاب و النقاد.

وزاد في بريق هذا العصر حكم أسرة المعز الصنهاجي وأبنائه "فالمعز بن باديس" هو رائد التحول المعرفي و الثقافي و المذهبي للمنطقة ،و الذي عمل جاهدا على استقطاب أبرز العلماء والأدباء و الفقهاء في هذا العصر ، فقد كانوا يتباهون بالانتساب إلى هذه البلاد ، وكان لكل واحد منهم حظ وافر في مجاله ، و قد أهلهم ذلك لأن يزينوا سماء الأدب المغربي ويثروا مكتباته بشتى أصناف التأليف أدبا و تاريخا ولغة و علوما وفلسفة. ويذكر في هذا " حسن حسني عبد الوهاب " خصائص أدب العصر الصنهاجي حيث يقول : " في هذا العصر خطر الأدب من نثر ونظم , في حلة التفنن و الرقة و ظهر فيه الاختراع الجيد ، و توليد المعاني الرقيقة نظير ما حصل للآداب بالعراق في مبدأ الدولة العباسية ، حينما امتزج الشعر العربي بالآداب الفارسية ، و الفرس أهل رقة و خيال متسع ,فتفتقت القرائح, و تولد الإبداع العجيب لتأثير المدينة على الخيال الشعري..." [(1)].

ومما ساعد على إذكاء شعلة العلم في البلاط الصنهاجي ، تشجيع أمرائها على العلم, وتذوقهم وحتى ممارستهم للأدب و بخاصة باديس و ابنه المعز وتميم الشاعر،ولقد فتحوا قصورهم وجملوا مجالسهم بجلسات أدبية بوجود أبرز شعراء المغرب عبر العصورنمن مثل "ابن شرف" و "ابن رشيق"، اللذين كانا متقدمين في بلاط المعز وفي هذا يقول " ياقوت الحموي :" ... وكان ابن شرف وابن رشيق صاحب العمدة متقدمين عنده –المعز–على سائر من في حضرته من أ فضل الأدباء، فكان يقرب هذا تارة، و يدني ذاك تارة ، فتنافسا و تنافرا ثم تهاجيا , ولكن لم يتغير أحدهما على الآخر بما جرى بينهما من المناقصات "[(2)].

فاستقبلهم الحكام و الأمراء بالهدايا و مجزلين لهم العطايا والمنح ،وأصبحت مجالسهم محج الأدباء و الشعراء و العلماء من كل مكان، فكثر الإبداع في البلاد، و انتشرت العلوم فيها ,

---

[1] حسن حسني عبد الوهاب:مجمل تاريخ الأدب التونسي ، ص 105.

[2] ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، معجم الأدباء إرشاد الأديب إلى معرفة الأديب، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت،دط ، دت، ج1 ،ص28.

فارتقى المستوى الثقافي و الأدبي بالقيروان خاصة و المغرب عامة ،ويشهد" ياقوت الحموي" على هذه الأجواء العلمية والأدبية السائدة في القيروان أيام المعز، حيث قال "...وكانت القيروان في عهده،وجهة العلماء و الأدباء ، تشد إليها الرحال من كل فج لما يرونه من إقبال المعز على أهل العلم و الأدب و عنايته بهم... "[1].

وقد ساعد على ذلك تلك المكانة العالية التي نالها العلماء في المجتمع المغربي ، بسبب التنافس بين الحكم في اجتذابهم إلى بلاطاتهم ، وبخاصة الشعراء منهم كي يمدحوهم و يتغنوا بفضائلهم ،بالإضافة لحرية التعليم و حرية التنقل ،وفي ظل هذه الأجواء الثقافية السائدة في المغرب خلال القرنين الرابع و الخامس الهجري انتعشت الساحة الأدبية و العلمية و تطورت ،و تمكن الأدباء و الشعراء و العلماء من الاحتكاك ببعضهم البعض، فارتقت أساليبهم ،وتنوع إبداعهم،وبرعوا في فنون القول، وحظوا بالمكانة الرفيعة عند أمرائهم.

و يمكن القول أن النثر المغربي في هذه المرحلة قد تجاوز مرحلة التأسيس الأدبي، كما عرف تحولا في عقيدته من السنة إلى الشيعة ومن الشيعة إلى السنة.وعلى الرغم من هذا التحول العميق للبنيات الفكرية، والفنية فإن النص الأدبي بقي مهيكلا في عدة جبهات ، سايرت الحركية السياسية للكيانات المشكلة لهرم السلطة .

ففي بدايات القرن الرابع ساد الساحة الأدبية و الفكرية صراع مذهبي بدأ صراعا فكريا سمحا سلسا ، تجلى في المناظرات التي يشرف عليها أمراء العبيدية ، وخطب على المنابر كل يدعو إلى فرقته بالحجج و البراهين مستميلا المتلقين بفنون القول المتنوعة ، فامتاز أدب هذه المرحلة بالهدوء و الموضوعية و الدقة في التعبير .

ومع تمكن السلطة الجديدة من السيطرة على كل المغرب،وبداية نشر أفكارهم وعقيدتهم الدخيلة على سكان المغرب ،بدأت حركات التمرد تموج في ربوع المغرب ،مع عدم انصياع كثير من الفرق و المناطق، فتغيرت السياسة المنتهجة من اللين و التسامح إلى القمع ،و التضييق على كل صوت مناوئ لهم ، فكمموا الأفواه ،وقتلوا العلماء و الفقهاء و الأدباء، فجاء أدب هذه الفترة حادا متمردا مناوئا لكل ما هو موال للسلطة ، وأصبح الذم و الهجاء غالبا على كل

---

[1] ياقوت الحموي :المصدر السابق ، ج7، ص28.

المواضيع المطروقة في شتى الأنواع النثرية ، مع توظيف الموروث الـديني وتأويلـه حسـب أهوائهم، فيما ظهر أدب السلطة و أدباؤها مواليا منافحا مدافعا عن كل مـا يـأتي مـن الجهـة المناوئة ، بالحجج و الأدلة .

ومن ثم الجبهة التي تبنت العقيدة السنية، ومن هؤلاء: ابن الربيب ، و ابن دفرير الكاتـب... و الكثير من العلماء والفقهاء.و هؤلاء مهدوا للتحول المذهبي خاصة بعد أن دخلوا في بلاطـات الصنهاجيين،"كابن الرجال" مربي "المعز بن باديس الصنهاجي" ،الحاكم الذي كان التغيـر علـى يديه، ثم كان التحول الجذري ، و الصدح بالرأي و المعتقد علانية بدعم مـن السـلطة المؤيـدة للتغير.

أما الفئة التي كانت معارضة بأدبها ولم تعرف الثبات في مواقفها ،حيث كانت في مد وجـزر في علاقتها مع السـلطة ، خاصة في البدايات الأولى للتحول المذهبي ،وشارك الأدبـاء فـي مباركتهم أو معارضتهم للسلطة القائمة وتمثلت في الشعراء و الأدباء ، أما الأدباء القفهاء فكـانوا أكثر ثباتا في رفضهم تأويل النص النقلي بما يخدم العقيدة الشيعية التي بدأت في التضعضع فـي عهد الدولة الصنهاجية و الحمادية .

أما الفئة الثالثة فقد كانت محايدة في تعاملها مع الوضع حيث اتخذت لنفسها دربا خاصا بها

وهذه الفئات تكشف عن البنية الفكرية للمغرب في القرنين الرابع و الخامس الهجريين المولدة لسائر البنيات الأخرى الثقافية، والحضارية التي أثرت في النصوص النثرية ،هذه الأخيرة ذات توجهين: توجه تحريضي بأسلوب مباشر لقتال المخالفين للمذهب، وهذا التوجه تمثله بعض النصوص الأدبية في بداية القرن الرابع الهجري مع استيلاء العبيدين على المغرب.وتوجه أدبي فني خالص محايد مبدأه الفن للفن ظهر بقوة مع نهاية القرن الرابع الهجري و بداية القرن الخامس الهجري وكان نتيجة تحول مذهبي وفكري وحضاري واجتماعي في المغرب بعد التخلي عن المذهب الشيعي والعودة للمذهب السني ،فتحولت بهذا التغيير الحياة الأدبية، والفكرية والثقافية، والحضارية، التي ألقت بضلالها على ازدهار النص الأدبي وظهور النقد الأدبي، والنثر التأليفي،و أصبح النص السني هو الغالب في الحياة الأدبية بينما تراجع النص الشيعي إلى حد الندرة ،لتخفت نهائيا مع منتصف القرن الخامس الهجري النصوص ذات الطبيعة المذهبية و تحل محلها النصوص الأدبية الخالصة.

ويبدو أن البنية الأدبية بقدر ما تتعدد أنواعها، وتتشابك علاقاتها تزيد من حيويتها، وبخاصة إذا كانت هذه البنية متضمنة لمدرج نوعي، وتقويمي، وأسلوبي، وثابت في قمته، ومتباين في أسفله، وهذا المدرج بهذا التصور خاص بالأدب العربي لأنه يضم في قمته القرآن والحديث، ثم يأتي بعد ذلك الشعر، والنثر، ومظهر آخر من مظاهر تغير البنية الأدبية، وحساسية الأدباء نتيجة تغير روح العصر ومقوماته التي تلت العهد الشيعي، وتبدو في انزياح الأدب المغربي في بنيته الدلالية نحو موضوعات جديدة لم تكن رائجة من قبل، ومن هذه الموضوعات وصف الأشياء، والكائنات ، بمنهج فني وصفي جمالي ،وأحيانا يكون ساخرا تهكميا قصد إشباع النهم الفني أو الفكري المذهبي .

كما أننا يجب أن نشير إلى أن التقسيم الزمني للظاهرة الأدبية يمزق وحدتها وكيانها، لأن الانطلاق من المنهج التاريخي في دراسة الأدب الواحد في الدول المختلفة لا يسلم من الزلل العلمي المنهجي، وهذا يعود من الوجهة الإجرائية إلى صعوبة فرز المادة الأدبية المغربية بين القرنيين الرابع و الخامس لتداخل الدول و الأزمنة المتعلقة بحياة الأدباء.

و إذا كان أمر فرز المادة الأدبية المغربية من غيرها يمثل إشكالية منهجية حقيقية فإن فرز المادة الأدبية نفسها من غيرها، –وإن اشترك الكل في اصطناع الكلام– يمثل إشكالية أخرى تدخل في صميم النظريات الأدبية وعلومها بدءا بنظرية الأنواع الأدبية الثلاثة، وانتهاء بنظريات الانزياح على المستوى الأسلوبي الصوتي والنحوي والبلاغي .

ولعل الإشكالية الأخيرة يمكن التغلب عليها بالتسليم بقوالب الأدب العربي القديمة المشهورة التي اعتمدها النقاد القدامى للتمييز بين النص الأدبي وغير الأدبي، أو النصوص التي لا تخضع لأي شكل من أشكال قولبة إطارها العام، ولكنها في مقابل ذلك تحقق قالبها من خلال تضمنها لقدر من الجدارة الأدبية في شكلها وخصائصها العامة والخاصة. ويمكن حصر الشكلين فيما يأتي:

–الأشكال الأدبية ذات القالب الصافي: وهي الفنون النثرية ذات الشكل الأدبي الواضح فيمكن لنا إدراج الخطابة بجميع أنواعها وأغراضها وأساليبها، والرسائل بجميع أشكالها سواء كانت سلطانية أم ديوانية أم إخوانية، أم علمية، والقصص والحكايات بجميع أساليبها وبنياتها السردية وشخوصها.

– الأدب المتحرر من القوالب الصارمة :ويشمل هذا النوع من الأدب والأخبار و التراجم العامة والسير العامة والذاتية، وقد شاع هذا النوع من النثر وازدهر في القرن الرابع وما بعده، ويـــدور حول سير الفقهاء والعلماء والشعراء، والمتصوفة والكتاب، والنقـــاد، كمـــا يشـــمل أيضـــا أدب الرحلات الذي شاع في القرن السادس والسابع وما بعدهما وهي فترة تتجاوز إطار بحثنا.

ويمكن تصنيف النثر المغربي لا بحسب شكل قالبه وبنيته الفنية العامة ،ولكن بالنظر إلى نظـــام تداوله ،ووظيفته الإبلاغية ،وعلى هذا الأساس يمكن حصر أنماطه في ثلاث مجموعات كبـــرى هي :

أولا :مجموعة الخطابات ذات الوظيفة الإقناعية الانفعالية الوصفية غير الســـردية وتضـــم مـــا يعرف بالنصوص الأدبية النثرية التي تتجه في نظام تواصله إلى المتلقي الخاص أو العـــام فـــي العالم المنظور وتضم الخطب والوصايا والمناظرات، الأدعية... الخ. فطبع أدبهم بطابع القوميـــة والأصالة وصار أدبا معبرا عن المشاعر المغربية، ومترجما للصفات المغربية الأصلية كالمجـــد، والصرامة، والشجاعة، وحب الدين، وقد عبر أدبهم عن الخصوصية المغربية المعفرة بأريج الدين الإسلامي الحنيف.

ثانيا :مجموعة الخطابات ذات الوظيفة الوجدانية التعبيرية السردية وتضم الخطابات الأدبية التـــي تركز في نظام تواصلها على المتلقي الخاص وتضم الرسائل، والســـير والتـــراجم والحكايـــات القصصية ...الخ، وقد لاقت اهتماما كبيرا من أمراء الدول التي سادت المنطقة وكتابهم حتى أنهم صاروا ينافسون أدباء الأندلس كما هو حال "ابن الربيب "الكاتب الحمادي الذي بعث برسالة إلى ابن حزم الأندلسي يصف فيها تقصير أدباء الأندلس و تفريطهم في حق آثـــارهم و فضـــائلهم و مآثر بلدانهم وهي شاهد على تفوقه في النثر الفني ، ووصفه ابن رشيق بقولـــه: " بلـــغ نهايـــة الأدب" (1).

ثالثا :مجموعة الخطابات ذات البنية السردية وتضم كل ما انتج من نثر تأليفي،وحيث بدأت مـــع بدايات القرن الرابع الهجري لتتطور وتنمو في القرن الخامس وتتعدد من كتابات تاريخية وفقهية وفكرية إلى الكتابات الأدبية الخالصة.

---

[1]محمد الطمار :تاريخ الأدب الجزائري،ص92.

هذه أهم أنماط النثر الأدبي التي تمثل واقع الأدب المغربي في القرنين الرابـــع و الخـــامس وسنعرض لها في هذا الباب .

الفصـــــــــــــل الأول

الخــــــــــطابة

-الخطابة لغة و اصطلاحا

-الخطابة في المــغـــرب

-الخطابة البناء و الشكـــل

توطئة:

إن الحديث عن الأشكال غير السردية للنثر المغربي ودراستها يقتضي منا التعرض لمضامين النثر، وما تحمله من دلالات، ونحاول إبراز العناصر التي تمثله، رغم أن التمازج الفعلي هو الخاصية الأساسية للعمل الفني ذلك أن الانصهار بين المكونات وتفاعلها هو الذي يخرج الروائع الأدبية للحياة الفنية، وما التجزئة إلا محاولة منا لفهم مكامن الجمال، وأسرار الإعجاب .

ولابد أن نشير إلى ضياع الكثير من الخطب المغربية في هذا العصر، ولو لم تحفظ لنا بعض المصادر طائفة منها لعمى علينا أمرها، ولقد دلنا هذا القليل المروي على الكثير المغمور والضائع والتي سجلها التاريخ ، واهتم بها الزمن . والذي لاشك فيه أن التنافس الذي كان قائما بين المذاهب كان الرافد الأساس في نهضة فن الخطابة وهذا التنافس كان امتدادا لحركة النهضة الأدبية، وبداية لعصر الازدهار الأدبــــــــــي.وهو ما يذهب إليه "رابح بونار":" أن هذا العهد – العبيـــدي – هو بداية لعصر الازدهار الأدبي ،الذي يبتدئ بقيام الدولة العبيدية وينتهي بسقوط دولة بني حماد على يد الموحدين(296– 547هــ) " [1].

ويمكن القول أن الخطابة قبل هذا العصر لم تكن إلا جسما فارقته روحه، والذي يحسن الظن بها، لا يمكن أن يتصورها خطابة بمعنى الكلمة ، وأنها خطابة لا تجاري الخطابة في عهد بني أمية أو صدر الإسلام حيث كان اللسان والبيان على أتم ما تكون الملكة العربية.

أما إذا جئنا إلى موازنتها بنفس الفترة بالمشرق العربي في عهد الدولة العباسية فإننا نجدها أحسن حالا لما تمتع به المغرب من صراع فكري مذهبي ساهم في رفعة هذا الشكل النثري.

ولعل من العوامل التي تحمل على الخطابة، الدعوة على العقيدة أو الترويج لها ، أو الدفاع عنها ، وهذه الأمور كانت موجودة بشكل كبير في المغرب في بداية القرن الرابع ومع الدولة الصنهاجية و من بعدهم الحماديين. خاصة بعد التحول التاريخي إلى المذهب المالكي، الذي قطع الطريق على بقية المذاهب بإيعاز من الحكام وأن يطمسا معالمها، وأن تسكت صوتها ،

---

[1] رابح بونار: المرجع السابق،ص9.

فاحتاج الحال إلى خطباء يذودون عن حياض العقيدة والمذهب السائد المتبع من قبل أهل المغرب.

فالخطابة تحتاج من الخطيب اكتمال الأسلوب، وتقدير المنطق والاختيار الأنسب للمعاني والأغراض.وكل هذا كان متوفرا عند خطباء هذا العصر كما بيناه في منتجي هذا الادب من أمراء و أدباء تحدثنا عنهم سابقا .

1- تعريف الخـــطابـــة :

-**لغــة:** « مصدر خطب يخطب الخطبة بضم الخاء مصدر(خطب).أي ألقى الكلام إلى الغير لإفهامه أي باشر الخطبة كما في اللسان » [1].

والخطبة مصدر الخطيب، و خطب الخاطب على المنبر، واختطب يخطب خطابة، واسم الكلام :الخطبة؛ وقيل" :إن الخطبة مصدر الخطيب، لا يجوز إلا على وجه واحد، وهو أن الخطبة اسم للكلام، الذي يتكلم به الخطيب، فيوضع موضع المصدر [2].

أما "الزمخشري" فعرفها، كما يلي :"خطب أي خاطبه وأحسن الخطاب، وهو المواجهة بالكلام، و خطب الخطيب خطبة حسنة، وكان يقوم الرجل في النادي في الجاهلية فيقول :خطب فمن أراد انكاحه قال :نكح، واختطب القوم فلانا، دعوه إلى أن يخطب إليهم، يقال :اختطبوه فما خطب إليهم[3].

أما الخطابة عند" قدامة بن جعفر" فمأخوذة من خطبت أخطب خطابة، كما يقال كتبت أكتب كتابة ، واشتق ذلك من(الخطب) وهو الأمر الجليل، لأنه إنما يقام بالخطب في الأمور التي تجل وتعظم والاسم منها خاطب مثل راحم، إذا جعل وصفا لازما قيل خطيب كما قيل في راحم ورحيم عليه وعلى وصفه، وصار صناعة له، والخطبة الواحدة من المصدر كالقومة من القيام، والضربة من الضرب، وإذا جمعتها قلت خطب مثل جمعة وجمع، والخطبة اسم المخطوب به

---

[1]ابن منظور: لسان العرب ،دار صادر، بيروت، ط3،د ت، م1 ،ص360، مادة خطب.

[2]نفسه، م1 ، مادة خطب .

[3]الزمخشري :أساس البلاغة،تحقيق:محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية ،بيروت،ط1، 1998،ج1، ص278 .مادة خطب.

وجمعها خطب مثل كسرة وكسر، فأما الخطابة فيقال :منها :خاطبت أخاطب مخاطبة، والاسم منها الخطاب، مثل قاتلته أقاتله مقاتلة، والاسم القتال[1].

وبهذا فالخطابة لغة ،تؤدي إلى معنيين أولهما ذلك الكلام المنثور المسجع في غالبه، والذي يلقى على الجماهير من السامعين لاستمالتهم، وإقناعهم، والذي يكون صادرا عن صاحب الأمر الذي يسمى"الخطيب" والذي يهدف من وراء خطبته إلى تأكيد حجته مستخدما مختلف الأدلة، والبراهين، والتي لها وقعها الخاص، وأثرها البالغ في نفوس الجماهير. وثانيها هو الدعوة للزواج لأن الخطبة هي دعوة المرأة للزواج وتسمى الخطيبة، أو طلب الاقتران بها، وبهذا فالخطابة يمكن أن تكون مشافهة أو كتابة.

-**اصطلاحا**:الخطبة تطلق على معنيين: أحدهما:الكلام المنثور سجعا كان أو مرسلا. وثانيهما:« إلقاء الكلام المنثور مسجوعا كان أو مرسلا لاستمالة المخاطبين إلى رأي أو ترغيبهم في عمل »[2].وقد عرفت بتعريفات كثيرة منها تعريف "أرسطو" بأنها: « القدرة على النظر في كل ما يوصل إلى الإقناع في أي مسألة من المسائل »[3]. وعرفها "ابن رشد" بأنها:« قوة تتكلف الإقناع الممكن في كل واحد من الأشياء المفردة »[4].

وعرفها بعض المحدثين بأنها:« نوع من فنون الكلام غايته إقناع السامعين واستمالتهم والتأثير فيهم بصواب قضية أو بخطأ أخرى »[5].وعرفت بأنها: «علم يقتدر بقواعده على مشافهة الجماهير بفنون القول المختلفة لإقناعهم واستمالتهم»[6].وهي علم يقتدر بقواعده مشافهة الجماهير بفنون القول المختلفة لإقناعهم واستمالتهم[7]

---

[1]قدامة بن جعفر : نقد النثر، دار الكتب العلمية،بيروت،د ط، 1982،ص94 -95.

[2]علي محفوظ : فن الخطابة وإعداد الخطيب،دار الاعتصام،القاهرة ، د ط ، د ت ، ص 96.

[3]أرسطو: الخطابة ،تعريب:إبراهيم سلامة ،طبعة القاهرة،القاهرة، د ط، 1986 م،ص90.

[4]يوسف محمد يوسف:الخطابة ، مطبعة الفجر الجديد ،بيروت، ط1،1992 م،ص21.

[5]نفسه،ص45.

[6]نفسه،ص46.

[7]نفسه، ص46 .

والخطابة ضرورة اجتماعية تفرضها الظروف، وتعبر عن المجتمع بوجه عام، وكل الأمم في حاجة إليها، بل إن المواقف المجيدة في تاريخ الأمم مدينة للخطباء الذين عبروا عن قضاياها أصدق تعبير، وأثروا في مجتمعاتهم أعظم التأثيـــــــر.

وللخطابة طرق للتحصيل وعوامل للرقي، فمن طرق تحصيلها: « الموهبة والاستعداد الفطري، ودراسة أصول الخطابة، ودراسة كثير من كلام البلغاء، وحفظ الكثير من الألفاظ والأساليب ، وكثرة الاطلاع على العلوم المختلفة، والتدريب والممارسة »[1].

أما عوامل رقيها فمنها: الحرية، وطموح الأمة إلى حياة أرقى وذلك –مثلا– إذا ما تفشى في أمة من الأمم سخط على نظام قائم ووجدت إرادة في التغيير إلى الأفضل، والتاريخ القديم والمعاصر يشهدان لهذا، والتغيرات الدينية والسياسية والاجتماعية، والحروب والثورات، وكثرة الأحزاب والتكتلات مع تنازعها ،والرغبة في إصلاح ذات البين.

وفن الخطابة له أصول يتعلق بعضها بالخطيب وبعضها بالخطبة.فأما ما يتعلق بالخطيب فأهمه:الموهبة ورباطة الجأش ،وسلامة الصوت من العيوب ،وطول النفس ،وحسن الوقفة وحسن استخدام الإشارة في موضعها المناسب، والسمت الذي يستميل سامعيه.

وأما ما يتعلق بالخطبة فأهمها:براعة الاستهلال،ووفرة المحصول من مختلــف أساليب البيان، والتنقل بين الإنشائية والخبرية، ووضوح المعاني من خلال قصر الجمل ، وملاحظة تقسيم الخطبة، ثم موضوع الخطبة ، ثم الختام الذي يجب أن يشتمل على جمل يسهل ترددادها وتذكرها بعد انتهاء الخطيب من خطبته وخاصة في النوعين السياسي والديني من الخطابة. ومن أسماء الخطباء الذين خلد التاريخ ذكرهم مثل: «"سحبان وائل" و"قس بن ساعدة" و"واصل بن عطاء" في القديم ، ومثل "غاندي" و"مصطفى كامل" و"سعد زغلول" في الحديث »[2].

وللخطابة علاقة وثيقة بغيرها من العلوم، فبالنسبة للعلوم الإنسانية: " لها علاقة وثيقـــــة بعلم المنطق، وعلم النفس وخاصة علم نفس الجماعة، وعلم الاجتماع.وبالنسبة للعلوم الإسلامية

---

[1] علي محفوظ : المرجع السابق، ص 113.

[2] إبراهيم علي أبو الخشب:تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني،الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية ، د ط، د ت، ص414.

فهي تتصل بكل هذه العلوم، والعلوم الإسلامية تفيد علـم الخطابة بصفة عامة والخطابة الدينية بصفة خاصة.ومن أهم ما يحتاجه الخطيب من العلوم الإسلامية ومصادرها: القرآن الكريم، والسنة النبوية، ومقارنة الأديان، ومعرفة الأحكام الفقهية ومصادر التشريع ،والعلم بالتاريخ الإسلامي –ولا تخف علاقتها–أيضا بالشعر والأدب والكتابة، والأخلاق والسياسة "[1].

والخطابة أنواع كثيرة منها:" الخطابة العلمية،والخطابة السياسية،والخطابة العسكرية، والخطابة الدينية، والخطابة الاجتماعية، والخطابة القضائية، والخطابة الحفلية "[2].

2–الخطابة في المغرب :

كانت الخطابة في المغرب وليدة الفتح، فهي العامل الذي دعم الغزوات التي قام بها العـرب الفاتحون، وهذا بقيام الخطباء باستنهاض الهمم، وإذكاء روح الحماسة للجهاد في سبيل الله.ولمـا تمزقت البلاد، واستحالت إلى دويلات كثيرة، واستعان بعض أصحابها بالأعداء، كـان الخطبـاء يقفون في المحافل العامة للدعوة إلى لم الشمل وترك التناحر.

و تحتاج الأمم إلى الخطابة حاجة ملحة، وتضطرها الظروف السياسية والاجتماعية إلى الاعتماد عليها، ولا سيما إن كانت ترجو منها أن يطمئن الناس إلى دعوتها، ويؤمنوا بجدارة خطيبها. وكلما زاد الإنسان حاجة إليها، وازدادت الرغبة فيها، والإقبال عليها، كان رقيها وازدهارها. والخطابـة في البلاد المغربية لا تختلف عن واقعها في بلاد المشرق، حتى وإن كان لهـذه الـبلاد طابعهـا البربري الذي غلبت عليه البداوة، واللغة الأمازيغية، فبعد الفتح الإسلامي وجد المغربي نفسه أمام لغة غير لغته الأصلية،واستدعته الظروف إلى اعتناق الدين الإسلامي، والعمل بما جاء فيه، فانكب على تعلم اللغة العربية، وقواعدها، فأصبح فصيح اللسان، إذ تعلم لغة جديـدة إلـى جانـب لغتـه الأصلية، وتوالت الحضارات على البلاد المغربية، ودبت الحمية في صدور أهلها لارتشاف مناهل العلم، والمعرفة، وامتاز الأدب بحلاوته وبساطته، وأول ما يلقانا من فن الخطابة في بلاد المغرب خطبة طارق بن زياد الذي خطب خطبة لا يجاريه فيها أحد في عصره لوقعها في نفوس جيشـه، لشدة فصاحتها، وقوة تركيبها وسبكها الجيد والمتين.

[1]اشرف محمد موسى:الخطابة وفن الإلقاء ،مطبعة الخانجي ،القاهرة، د ط، 1978،ص27.

[2]محمد عبد الغني الشيخ:النثر الفني في العصر العباسي الأول، د–م– ج ،الجزائر،د ط،1983،ج1،ص36–37.

وتوالت على بلاد المغرب حضارات وإمارات ساهمت في رقي الحياة الاجتماعية، وازدهار الحركة الثقافية والأدبية، وقد نافست كل دولة الأخرى في التربع على عرش العلم والمعرفة،حتى كان القرن الرابع الهجري ومن ثم القرن الخامس الهجري حين اكتملت الحركة الأدبية في أعلى مستوياتها المعرفية و الفنية فكانت الدولة العبيدية و الصنهاجية و الحمادية التي أكرمت الأدباء والعلماء، وأجزلت لهم العطاء، وقربتهم من بلاطهم، وقد كان حكامها على قدر كبير من العلم والمعرفة حيث كان المعز لدين الله العبيدي ومن ثم "المعز بن باديس الصنهاجي " و "تميم بن المعز" ...وغيرهم من أمراء هذه الفترة الزمنية، من كبار المتذوقين للأدب و الممارسين له.

وقد امتاز الأدب عموما و الخطابة خصوصا ،بقوته، وتشبعه من الزخرف والصنعة، ومن الشوائب الشائعة في الأدب العربي، كما اصطبغ بالصبغة الدينية التي هي من الخصوصية المغربية. ومع الازدهار الثقافي الذي عرفته نشطت فنونه الأدبية نشاطا كبيرا، لعل أهمها الخطابة التي كانت دواعيها متعددة بالمغرب نتيجة الخصومات القومية،و الصراع السياسي، وطبيعي أن تكثر الخطب، والمواعظ في المغرب كثرتها في بلدان العالم الإسلامي جميعا،" إذ كانت تكرر في كل مسجد أسبوعيا في صلاة لجمعة وبالمثل في صلاة العيدين،وفي الحرب و السلم و الصلح... وربما كانت كثرة تكرارها هو السبب في أنه لم يجرأ أحد من القدماء لتدوينها تدوينا عاما، ومع ذلك فقد دونت بعض الخطب التي قالها بعض الأمراء أو الولاة أو بعض كبار الوعاظ خاصة في القرن الرابع الهجري.

-**الخطابة الدينية:** منذ بداية القرن الرابع الهجري أخذت الخطابة الدينية الريادة بين الفنون النثرية الأخرى لدواعي مذهبية سياسية نشأت مع قيام الدولة العبيدية ومن بعدها بقية الدويلات التي سادت بلاد المغرب في القرنيين الرابع و الخامس للهجرة،فكانت دعواتهم مذهبية كل يريد الانتصار لمذهبه و فكره، فالعبيديون كان منطلقهم الانتصار لآل البيت وإعادة الخلافة لهم بعد أن اغتصبت لسنين عديدة ،وبذلك فمؤسس الدولة هو من نسلهم، وحرصوا في خطبهم لتوضيح مكانة إمامهم و التأكيد على نسبه الطاهر و عصمته، وتكفير سائر المذاهب واستمرت هذه الدعوات على المنابر و في المساجد وفي كل مرة تسنح فيها الفرصة لذلك ،وهو نفس الحال بالنسبة لبقية الدول حتى حدث التغيير الجذري في الحكم السياسي الذي انتهج التسنن ومذهب الإمام مالك طريقا واحدا ،وحاربوا سائر المذاهب بالألسنة وبالأسنة ،فكانت الخطابة هي الوسيلة

الناجعة و الناجحة في تمرير أفكارهم و العودة إلى المذهب المالكي والدعوة له .وهي لون من ألوان الخطابة عموما وتقام على المنابر في الجمعة والأعياد أو في مجالس الوعظ و الإرشاد، من جماعة السنة، أو رجال الشيعة، أو الخوارج... أو رجال الدعوة إلى الله تحث على فضيلة من الفضائل، وتحمل على اكتساب خلق من الأخلاق، في أسلوب من الترغيب و الترهيب، تدمع له الأعين، وتهلع له النفوس.

والخطابة الدينية التي كانت تلقى من على منابر المساجد وهي أكثر ما وصل إلينا ، و في مجملها تشبه بعضها بعضا، حيث تشتمل على السجع المنمق والجمل المرصعة ، والأساليب التي تثير في النفس الخوف والمهابة والارتعاد والزجر ، والدعوة إلى الرجوع إلى الله ، والأمل فيه،والثقة به،والتفويض إليه ،ونثرهم يشبه مقامات الحريري، ونجد الكثير من الشواهد بهذا الشكل من النثر .

والخطابة الدينية عرفت ازدهارا كبيرا خاصة في القرن الرابع الهجري مع العهد العبيدي لتوفر العوامل الداعية إلى وجودها وانتشارها ،وتفوقها على باقي الأشكال،وسنحاول أن نعطي نماذج لها و لخصائصها الموضوعية ،و سنقتصر على نماذج نبين من خلالها المكانة الهامة التي بلغها هذا الشكل النثري في المغرب في هذا العصر .

وأول نص نختاره كنموذج للخطابة في هذا العصر يعود للعهد العبيدي ، وهي: « خطبة "المنـــــصور" ولي للــعهد وقد ألقاها في عيد الفطر سنة(334 هــ- 954م)بالمهدية حين عين" القائم" ابنه "المنصور" وليا للعهد في رمضان 334هــ »[1]. كان الحصار على أشده وهجمات "أبو يزيد" على المهدية لا تفتر ولا تنقص ،وإن في انصراف "المنصور" في خطبته هذه عن شؤون الحرب إلى شؤون الدين بتعظيمه ليوم العيد ، لدليل على رباطة الجأش التي ستقوده من نصر إلى نصر حتى يقهر نهائيا "صاحب الحمار".

ومن التقاليد المتعارف عليها عند الخلفاء والأمراء وولاة المسلمين عموما أنهم يحددون برنامج عملهم ومخطط ولايتهم في أول خطاب أو أول خطبة يلقونها حين يتسلمون زمام الحكم ،غير أن "المنصور" قد حاد عن هذا المنهج، منهج تقويم أمور الدولة والرعية وتوجيه أعمالها

[1]محمد اليعلاوي: الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي ، ص149.

،لتزامن هذا مع مناسبة دينية فقد استهل الخطبة بالتذكير بالعيد ومنزلته عند الله وفضله ، يقول: « ..عباد الله إن يومكم هذا يوم عيد ،شرفه الله وعظمه وفضله وكرمه،، ختم به شهر رمضان ،وافتتح به حج بيته الحرام ،فأخلصوا فيه نياتكـــــم وارفعوا إلى الله فيه طلباتكم ، واستغفروا لسيئاتكم ، فإنه يقول جل ثناؤه ، وتقدست أسماؤه: ﴿ استغفروا ربكم إنه كان غفارا﴾ [1].اتقوا الله عباد الله . فبتقواه نجح الطالبون وفاز الفائزون وهي وصية الله في الأولين والآخرين، وتمسكوا بطاعته ،وحافظوا على ما استحفظكم الله تعالى من دينه وكتابه ، واسترعاكم من حقوقه وحدوده . فلمثل ما رغبكم الله من جزيل ثوابه وكريم مآبه، وخوفكم من عقابه وأليم عذابه، فليعمل العاملون ... »[2].

وعمد "المنصور" في خطبته هذه إلى الأسلوب العربي المعهود في الخطابة، وإلى المنهج المتبع من طرف الخطب، فكان هذا الإيجاز البليغ، وكانت هذه الدقة المتناهية، وهذه الفواصل السجعية والمحدودة التي زاوجت بين الجمل، ووازنت فيها فأعطت جرسا موسيقيا يشنف الآذان، ويشد الألباب، ويملأ الأذهان، فعباراته جزلة وأسلوبه سلسا جمع الإنشائية الإبداعية، و المنطقية المقنعة .

فخاطب بذلك الوجدان النفسي والعقلي معا وهذا ما يؤكد بالضرورة اختمار القضية أو الموضوع في صميم الأمير من جهة، ومن جهة أخرى دليل على يقينه بالنصر المظفر على صاحب الحمار. " وهي قضية النصر التي وعد بها جده المهدي عند بنائه المهدية "[3]، فهي إذا بشارة لقرب النصر مع توليه الحكم.

ولذلك تتبدى من خلال كل ذلك، حرارة عاطفته، وصدق عزمه، وحسن نيته في كل عبارة حدثنا بها، وضروري أن تكون الفصاحة العربية –التي كانت ومازالت نموذجا يحتذي به – مساعدة تمكنه من إصابة المعنى، وإثرائه في ألفاظ قليلة، وأسلوب بسيط.

كما أن للمعز خطب دينية كثيرة ،ومنها خطبته التي ألقاها في عيد الأضحى سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة ، وهذه الخطبة التي نجد فيها ذلك النمط من الفن الخطابي الذي يتهيأ له

---

[1]نوح، الآية 10.

[2]محمد اليعلاوي: الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي ، ص149 – 150.

[3]ابن حماد :المصدر السابق،ص26.

الخطيب من قبل هي أول خطبة له بعد توليه الخلافة . نعى فيها أبـــاه "المنصور"، وكان قد توفي قبل ذلك بشهر ، وظل خبر وفاته، لأمر ما مكتوما إلى أن أعلنه ذلك اليوم أو قبله بقليل. وفيها من مظاهر الصنعة أكثر مما تعبر عنه من الحزن واللوعة وهي ــ كما هو الشأن في خطبة العيد ــ مؤلفة من جزأين.

أما الجزء الأول أو الخطبة الأولى، فقد التزم فيها موضوعات بعينها، و هي لموضوع المناسبة التي قيلت فيها، وهي عيد الأضحى، وما يتم فيه من حج بيت الله الحرام.ومما جاء فيها: «...أيها الناس إن الله لم يخلقكم عبثا، ولم يمهلكم سدى ، ولم يجعل عليكم في الدين حرجا، ولم يضرب الذكر صفحا، بل للعبادة خلقكم، وبطاعته وطاعة رسوله أمركم، وجعل للطاعة أعلاما منصوبة وفروضا مكتوبة، ومن أفضل أعلامها وأكرم أيامها يوم الحج الأكبر إلى بيت الله العتيق ،مبوأ إبراهيم خليل الله ،وقبلة محمد رسول الله (ص)،فتقربوا إلى الله بما أمركم به ورزقكم إياه ، من بهيمة الأنعام ، مقتدين بسنة محمد نبي الرحمة والهدى ومستشعرين لله التقوى ... فبالتقوى تقبل الأعمال وتدرك الآمال، وكبروا الله على ما هداكم واشكروه على ما أولاكم.

ألا وإن خير الهدي الإبل، وخير الإبل إناثها، وكذلك من البقر، ثم الفحول من الضان وسلامة الضحايا سلامة الأعين والآذان، وأن تكون من حلال الأموال...نسأل الله لنا ولكم قبول العمل بامتنانه وبلوغ الأمل من رضوانه، ورحمته وإحسانه»[1].

أما الجزء الثاني من الخطبة فقد جعلها في الحديث عن الأئمة الذين أتاحوا له هذا المكان الذي يتبوؤه ، والموقف الذي يقفه، منذ أفضل الوصيين إلى أميري المؤمنين : "المهدي بالله" و"القائم بأمر الله ". ثم ينتقل بعد ذلك إلى ذكر أبيه بقوله، مما نؤثر أن نورده بنصه ، ليكون مثالا من أمثلة هذا اللون من ألوان الفن الخطابي عنده: « اللهم أخصص الإمام الفاضل والوصي العادل، والبر الفاضل، والغيث الوابل، ذا الآيات المعجزات، والعزائم النافذات الباذل نفسه الكريمة في حين الأزل والكربات، الصابر في البأساء والضراء، حتى طهر الأرض من جبابرة الأعداء، عبدك ووليك، ونجيك ووصيك، أبا الطاهر المنصور بك الذي فجعتنا بفقده،

---

[1]محمد اليعلاوي: الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي ،ص257.

وأوحدتنا من بعده، وأفردتنا منه وأوحشتنا، فقبلت دعاءه، وأجبت نداءه ، وجمعت بينه وبين أحبته في مستقر جنتك ، وسعة رحمتك »[1] .

فإذا فرغ من ذلك توجه بالحديث إلى جمهور الأولياء يدعوهم إلى الطاعة ، " وقد قرن الله طاعة أئمة الهدى بطاعة الرسل، وطاعة الرسل بطاعته "، يقول: « النور، أيها الناس فينا مصون، وعطاء ربك لنا غير منون، فأين تذهبون، وفي أي أرض تتيهون، هيهات هيهات لما توعدون . فأطيعونا تهتدوا، وتمسكوا بحبلنا ترشدوا، واعملوا بما تفوزون به في أخراكم تسعدوا »[2]،ثم يختم الخطبة بالتوجه إلى الله بالدعاء، في مثل تلك الصياغة التي تحرص على السجع في غير تكلف ظاهر،ومنه ما تهيئ له الخطيب ويروي فيه، و يحضره في نفسه قبل أن يؤديه .

وفي كلتا الحالتين تنفرد الخطابة عن الحديث بما يجتمع لها من جمهور يستمع إليها. وفي ذلك، أي في روح الجماعة، ما يضاعف انفعال الخطيب بموضوع خطبته، ويمنحه من الحرارة ما يتردد أثره في معانيها وصياغتها وعباراتها وأسلوب أدائها.

وهناك من الخطابة الدينية ما هو مرتجل، يصدر عفو الخاطر، بمعنى المشافهة ومخاطبة الإنسان للإنسان من غير أن يستعين على ذلك بالقراءة من مكتوب يكتبه، أو وسيلة أخرى من وسائل البيان على إنهاء المعنى إلى ذهن السامع.فهي أقرب بأدب الحديث صلة وأقرب نسبا .ولكثير من الوزراء والقواد و الأمراء خطب في مواقف عديدة ،ونعتبرها من صميم الخطابة التي تقال على اللسان الخطباء من دون تحضير ولا استعداد مسبق انطلاقا امن سجاياهم العالمة المثقفة ،ويسترسلوا فيها من غير تكلف، وهذا ما وجدناه عند أمراء العهد العبيدي ،ومن النصوص التي تبين ذلك خطبة "المعز" المرتجلة والتي عرضها "القاضي النعمان" ،و أفاض فيها "المعز" القول في الإمامة في قديمها وحديثها ، منذ الإمام "محمد الباقر" والإمام "جعفر الصادق" إلى "القائم" و"المنصور" وقد جعل يعبر عما كان لكل منهما في صدره من هيبة وجلالة .ومما قال فيه "القاضي النعمان" وهو يصف "المعز" وهو يرتقي المنبر:« ثم حضر وقت الصلاة ، فقام

---

[1]نفسه ، ص259. (ينظر:محمد طه الحاجري :مرحلة التشيع في المغرب العربي وأثرها في الحياة الأدبية، دار النهضة العربية ،بيروت، ط1، 1983م،ص76).

[2]محمد اليعلاوي : نفسه ، ص262.

وصار إلى المسجد، ورقي المنبر ، فخطب بخطبة بليغة ، جاء فيها بفصول ما سمعنا قبلها مثلها ، واحتجاج في الإمامة ، وإبانة لظلم الظالمين المتغلبين »[1] .

كما أشار بعد ذلك إلى أن استحسان الناس لهذه الخطبة التي ظلت موضع حديثهم ومثار تلذذهم واستمتاعهم .وكأنما ضاعف من قوتها وبلاغة عبارتها ،وما تضمنته من فصول مبتكرة في الإمامة ما كان يغمر الجو العقلي والوجداني الذي سبقها من استغراق في الحديث عنها واستحضار لصور ماضيها و حاضرها، وما كان يجد لدى مستمعيه، ومنهم النعمان من إقبال عليه ، وتشوق له ، وإصغاء إليه ، مما جعله يفيض في الحديث ويتدفق به فكان من ذلك أن جاءت الخطبة التي ألقاها على تلك الصفة التي وصفها بها "النعمان" ، وكان لها ذلك التأثير الذي ظل حديث الناس ،لكن للأسف لم يوردها القاضي النعمان لنقف عند جوانبها .

-الخطابة السياسية

وهي تلك الخطب التي تقف عند قضايا سياسية تهم المجتمع برمته،في مجالات الحرب و السلم،وفي تنظيم شئون الدولة و العلاقة بين الرعية و الراعي،وتستوجب الخطاب المباشر بين الراعي أو أحد أعوانه ،وبقية الشعب، وتصدر عن الخليفة أو الأمير أو القائد العام للجيش في الحث على الزحف والدفع إلى لقاء العدو ، والرغبة في الاستشهاد في سبيل الله ، أو ما شبه ذلك مما يرمي إلى توطيد ملك أو تحرير وطن،وحماية ثغر ، وحراسة حدود ...ونجد منها نماذج عديدة في العهد العبيدي و الصنهاجي.

وقد ازدهرت مع بداية القرن الرابع الهجري، بصورة ملحوظة وتواصلت في رقيها وفي تنوع مواضيعها مع نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس الهجري،وهي متعددة ومتنوعة ،وقد اخترنا منها خطبة "القائم" أثناء حصار المهدية من قبل الخارجي ابن كيداد-صاحب الحمار-التي قرأها "المروزي" قاضي العبيديين بالمهدية وهذا في سنة (رجب 333هـ- مارس945م)[2] والتي صدرت من الأمير العبيدي "القائم" ضمنها الحث على الصمود والدفاع

---

[1] القاضي النعمان : المجالس والمسايرات، ص123-126.

[2] جوذر (ت362 هـ/973م):لمع في بلاط العبيدين بالمغرب وعاصر كل خلفاء العهد العبيدي ،وأول اتصاله كان في عهد عبيد الله المهدي ولكن المصادر لا تذكر كيفية وصوله إلى المغرب بواسطة الشراء أو السبي

عن المهدية مركز الدولة ،والحث على لقاء العدو ، والرغبة في الاستشهاد في سبيل الله ، ونصرة آل بيت رسول الله (ص) والمتمثلين في العبيديين، و يرمي من خلال هذه الخطبة إلى توطيد ملكه وحماية ثغره ، وحراسة حدود عاصمة خلافته .

وقد مهد "جو ذر"[1] لهذه الخطبة ،بقوله:« وأنشأ الإمام القائم بأمر الله أمير المؤمنين – صلى الله عليه– خطبة يحرض فيها المؤمنين.وأمر "المروزي"[2]. قاضيه بالمهدية أن يقرأها عليهم. ويقول فيها:بعد حمد الله تعالى والثناء عليه والصلاة على النبي محمد، صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين » [3].

استهل خطبته بحمد الله والصلاة على رسول الله وآله والصلاة على أئمتهم وهي استهلالات تتميز بها خطب العبيديين ويلتزم بها خطبائهم في جميع خطبهم. ثم ينتقل إلى صلب الموضوع،والغرض الأساسي من خطبته والمتمثل في المشكلة العويصة التي تواجهه وتواجه أتباعه المتمثلة في "صاحب الحمار"وحصاره للمهدية،وقربه من تحقيق ما يصبو إليه فيقول: « أيها الناس.إن هذا اللعين النكاري قد استشرى شره ،و استوبأ مرتعه ، وحملته الأماني الغرارة ،والنفس التي هي بالسوء أمارة ، على أن غمط نعمة الله تعالى عليه ، وسول له الشيطان الذي هو قرينه أن لا غالب له .و إنما أرخى له أمير المؤمنين في زمامه . ليعثر في (

،والراجح أنه صقلي.وقد بلغت منزلته في عهد "القائم بأمر الله" درجة كبيرة ، حتى نظر في بيت المال وجعله سفيرا بينه وبين أوليائه وسائر عبيده ،وارتفع شأنه على عهد المنصور حتى أصبح المسئول عن المهدية وسائر بلاد إفريقية ،فكان أشبه بالوزير الأول .فاستخلفه "المنصور" عندما خرج للقضاء على فتنة" أبي يزيد مخلد بن كيداد" على دار الملك وسائر البلاد ولقب بمولى أمير المؤمنين .(ينظر:المقريزي:المصدر السابق،ج1،ص132).

[1]أبو جعفر المروزي : هو محمد بن عمر من جند خرسان ، ولاه أبو عبد الله الشيعي القضاء سنة(296 هــ) وأقره المهدي عليه ،وكان مغاليا في التشيع،توفي بالعذاب في رقادة،ودفن بها سنة(303هــ) (ينظر:القاضي النعمان:افتتاح الدعوة ،ص215.وأيضا: ابن عذارى:المصدر السابق،ج1 ،ص171 .و ينظر أيضا:محمد اليعلاوي:الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي ،ص247.)

[2]القاضي النعمان : المجالس والمسايرات ،ص102.

[3]محمد اليعلاوي : الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي ، ص103.

فضل) خطامه[1] فلعنه الله لعنا وبيلا ،وأخزاه خزيا طويلا ،وصيره إلى نار تلظى ﴿ لا يصلاها إلا الأشقى ﴾[2].

فهذا المقتطف من الخطبة ،ذكر فيها مساوئ "مخلد بن كيداد " الثائر على العبيديين وذكر تجرؤه على الأمراء السابقين ، وأن كل هذا التمرد منه ما هو إلا من عمل الشيطان ومن لطف "القائم" وإرخائه في تعامله معه.لينتقل إلى تذكير أتباعه—قبيلة كتامة– بولائهم التاريخي لأوليائهم العبيديين ،واستماتتهم في التمكين لدولة أجداده السالفين.طالبا منهم مواصلة الدعم والمضي قدما في الوفاء بالعهد ، الذي قطعه أجدادهم للدفاع على مكتسبات أجداده فيقول: « وقد علمتم يا معشر كتامة ما مضى عليه آباؤكم وقدماء أسلافكم من لزوم الطاعة و الاعتصام بحبلها و التفيىء بظلها ، والمجاهدة في الله حق جهاده ، وأنكم خبيئة الله لهذا الحق المحمدي الفاطمي المهدي حتى أظهره أعلاه ، وجعل لكم فخره وسناه ، فأنتم كحواريي عيسى وأنصار محمد صلى الله عليهما.

يا أبناء المهاجرين والأنصار، والسابقين الأولين المقربين أليس بكم أزال الله دول الظالمين ، التي مضت لها أحقاب السنين ، حتى جعلهم حصيدا خامدين ؟ وأورثكم أرضهم وديارهم ، فصرتم تغزون بعد أن كنتم تغزون ؟.

نزل بإزائكم دجال لعين في شرذمة ضالة مضلة لم يستضيئوا بنور هداية : فهم كالأنعام المجفلة ، والصور الممثلة ،والخشب المسندة،والحمر المستنفرة.إن أقاموا هلكوا ، وإن طولبوا أدركوا فلا تنكصوا بعد الإقدام .وأنتم حزب الله وهم حزب الشيطان، وقتيلكم في الجنة، وقتيلهم في النار، فأي حق بعد هذا الحق تطلبون، ومع أي إمام بعد إمامكم تقاتلون ؟ فقاتلوا رحمكم الله ، أحزاب الضلال ،وذئاب الطمع ، وفراش النار، واطلبوهم في نواحي الأرض وأقاصي البلدان ،وجميع الآفاق ،حتى يحق الله الحق ويبطل الباطل ولو كره المشركون »[3].

فإذا أمعنا التدقيق في هذه المقتطفات من الخطبة.نرى فيها أن الأمير العبيدي أحسن استخدام الأسلوب الذي يجري فيه أغراض تبليغ أوامر الدولة بالموعظة الحسنة والتحذيـــــر

---

[1]خطامه:الحبل يثنى على أنف البعير ويقاد به (ينظر هامش:محمد اليعلاوي:المرجع السابق، ص102).

[2]الليل ،الآية 15.

[3]محمد اليعلاوي : الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي ، ص103.

الشديد اللهجة ليكون الموضوع قريبا من السامع .كما يظهر من عباراتها ولهجة التوسل فيها إلى الأنصار ،أنها ألقيت في ظروف عصيبة يوم كان لا يجد القائم سندا إلا من عبيده وبعض رجالات كتامة المحاصرين مثله وراء سور المهدية ، وقد أنفد "أبو يزيد" حيل الأمير العبيدي فشل حركته وكاد يتملكه اليأس ، ولهذا وجدنا لهجتها بعيدة عن الطمأنينة والوثوق بالنصر والشعور بالنخوة التي طفحت به أشعاره وهو بمصر.

كما أن هناك خطابة مرتبطة بالصراع المذهبي في المنطقة ناتجة عن المعاناة التي لقيها أهل المغرب في ظل الدولة العبيدية وطيلة القرن الرابع الهجري ، حملتهم بدورهم على انتظار الفرصة السانحة للانقضاض على مذهب الدولة الحاكمة التي بدلت الشرائع وأذاقت العلماء و العامة العلقم . فعندما أراد "أبو يزيد مخلد بن كيداد الخارجي" حرب بني عبيد سنة(333هـ-944م) [1]. لم يتردد العلماء في المسير معه لكن "ابن كيداد" غدر بهم وطلب من جنده في المعركة أن يتركوا علماء القيروان للأعداء فاستشهد منهم خمسة وثمانون،من بينهم "أبو العرب" العالم والمؤرخ السني(260هـ- 333هـ)[2].فتسارع الفقهاء والعباد في أهبة كاملة للقتال. أملا في الإطاحة بالحكم العبيدي الجائر « وحتى من تخلف منهم لعذر "كأبي ميسرة" الذي صده عماه مشى بالقيروان شاهرا سلاحه مع جموع الثائرين ،واجتمعوا للخروج ونادوا في الناس أن اخرجوا للجهاد »[3] .

ولعل أبرز الخطب المذهبية هي "لأحمد بن محمد بن أبي الوليد"[4]والذي قام في الجند خطيبا قبل خروجهم لقتال "بني عبيد". فحرض الناس على الجهاد وأعلمهم بما فيه من الثواب العظيم، وتلا الآية: ﴿ لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما [*]درجات منه ومغفرة ورحمة

---

[1]ابن حماد : المصدر السابق، ص36.

[2]أبو العرب:المصدر السابق،ص20-26 .(ينظر:القاضي عياض: المصدر السابق،ج4،ص453-455).

[3]نفسه، ص 19-20. (ينظر: القاضي عياض: نفسه، ج2، ص225).

[4]الذهبي : المصدر السابق،ج15 ،ص155.

وكان الله غفورا رحيما(*) ﴾ [1]. وشتم بني عبيد، ولعنهم وأغرى بهم. وقال: « يا أيها الناس.جاهدوا من كفر بالله وزعم أنه رب من دون الله، وغير أحكام الله، وسب نبيه، وأصحاب نبيه، وأزواج نبيه... اللهم إن هذا القرمطي الكافر المعروف بابن عبيد الله، المدعي الربوبية جاحد لنعمتك، كافرا بربوبيتك، طاعن على أنبيائك و رسلك،مكذبا بمحمد نبيك وخيرتك من خلقك،سابا لأصحاب نبيك وأزواج نبيك أمهات المؤمنين سافك لدماء أمته، منتهكا محارم أهل ملته اجتراء عليك واغترارا بحلمك اللهم فالعنه لعنا وبيلا،وأخزه خزيا طويلا ،واغضب عليه بكرة وأصيلا،وأصله جهنم وساءت مصيرا،بعد أن تجعله في دنياه عبرة للسائلين ،وأحاديث للغابرين.وأهلك اللهم متبعه، وشتت كلمته ، وفرق جماعته، واكسر شوكته ، واشف صدور قوم مؤمنين .ثم نزل فصلى بهم الجمعة »[2].

فإذا أمعنا التدقيق في هذه الفقرة التي بقيت من خطبة" ابن أبي الوليد" التي تمثل لنا كثيرا من العناصر الخطابية عامة، والخطابة المعارضة للسلطة العبيدية خاصة.وفي هذه كلها يحسن أن يكون الموضوع قريبا من السامع وأن يكون الأسلوب الذي يجري فيه ذلك يشبه ما خطب به القاضي " أحمد بن بقي بن مخلد " (ت332هـ) حين قال في نفس السياق السابق :« اللهم ، وقد دعاك هذا النفر من عبادك الساعون لثوابك المجتمعون ببابك، فزعا من عقابك وطمعا في ثوابك ، وقبلهم من الذنوب ما أحاط به علمك وأحصاه حفظك .فعد عليهم فبموقفهم هذا برحمة توجب لهم جنتك وتجيرهم من عذابك... »[3].

وكان موضوعها الحث على الجهاد ،فشرع الخطيب في تلاوة آيات من القرآن الكريم تدعو إلى الجهاد وفضل المجاهدين ومنزلتهم العظيمة عند الله ،و نبه إلى خطورة الوضع وصعوبته وبعد الاستطراد الوصفي للحوادث المتعاقبة التي حدثت مع دخول العبيدين الشيعة إلى أرض المغرب وما غيروه في المجتمع المغربي و دينهم، يصل إلى الدعوة للتغير المنشود عن طريق قتالهم ،والذي أصبغه بالحجة والدليل الواضح واستخدم البيان وأسلوب التأثير بعرض

---

[1] النساء: الآيتين 94-95.

[2] الدباغ : المصدر السابق،ج2، ص39-40.

[3] نفسه،ج2 ، ص62.

صور لمناظر رهيبة ومواقف عظيمة يدعو من خلالها إلى الجهاد ، وتلتقي هذه الخطبة مع سابقاتها من حيث معانيها المذهبية ، واستخدام أسلوب الاستنهاض للجهاد والحث عليه .

و من أبرز الخطب المذهبية في القرن الخامس الهجري تلك الخطبة التي ألقيت في سنة (440 هـ)، حين قطعت الخطبة لأمراء الدولة الفاطمية بمصر، وأحرقت بنودهم. ويقول "ابن جعفر"[1]: أمر "المعز بن باديس" بأن يدعى على منابر أفريقية للعباس بن عبد المطلب ويقطع دعوة الشيعة العبيديين، فدعا الخطيب للخلفاء الأربعة وللعباس، ولبقية العشرة المبشرين بالجنة- رضي الله عنهم - .

ويعود السبب الرئيس في قطع الدعوة العبيدية في العهد الصنهاجي .لما رحل بنو عبيد إلى مصر لم تزل ملوك صنهاجة يخطبون لهم بأفريقية ويذكرون أسمائهم على المنابر. وتمادى الأمر على ذلك حتى قطع أهل القيروان صلاة الجمعة فرارا من دعوتهم، وتبديعا لإقامتها بأسمائهم، فكان بعضهم، إذا بلغ المسجد قال سرا: اللهم أشهد! اللهم أشهد! ثم ينصرف فيصلي ظهرا أربعة، إلى أن تتناهى الحال حتى لم يحضر الجمعة من أهل القيروان أحد فتعطلت الجمعة دهراً. وأقام ذلك مدة إلى أن رأى" المعز بن باديس" قطع دعوتهم، فكان بالقيروان لذلك سرور عظيم[2].

وعليه فقد أمر المعز بالتصريح بلعنهم في الخطب وخلعهم من جميع مناطق نفوذه .فلما كان عيد الفطر من سنة أربعين و أربعمائة أمر الخطيب وكان العالم "الفقيه ابن جعفر" أن يسب بني عبيد، فقال : " اللهم! والعن الفسقة الكفار المارقين الفجار أعداء الدين وأنصار الشيطان، المخالفين لأمرك والناقضين لعهدك، المتبعين غير سبيلك، المبدلين لكتابك! اللهم! والعنهم لعنا وبيلا، واخزهم خزيا عريضا طويلا! اللهم وإن سيدنا أبا تميم المعز ابن باديس" بن المنصور القائم لدينك، والناصر لسنة نبيك، والرافع للواء أوليائك، يقول مصدقا لكتابك، وتابعا لأمرك،

---

[1]هو أبو عبد الله محمد بن جعفر الفقيه الأديب القيرواني من بيت علم و صلاح وأدب ،كان قاضيا لمدينة صبرة وخطيبها وأمام الجامع الأعظم ،كان فصيحا مباينا لأهل البدع شديد عليهم توفي بالشام بعد السبعين و أربعمائة(ينظر:الدباغ:المصدر السابق، ص243).

[2]الدباغ : المصدر السابق،ص241 .

مدافعا لمن غير الدين وسلك غير سبيل الراشدين المؤمنين: يا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ! هكذا ذكر بإسقاط (قل)من أول السورة وترك لكم دينكم ولي دين لتعلق الأمر بالمراد"[1]. وأمر الأمير الخطيب أن يشتمهم على منبر القيروان بأشنع من هذا الشتم على المنبر في الجمع وفي كل خطبة. فلما كان في الجمعة الأخرى أبلغ في ذلك.ومما خطب به الخطيب يوم الجمعة على جامع القيروان، دعائه "للمعز بن باديس" ولولده أبي الطاهر ولى عهده ثم قال: اللهم! أصلح عبدك ووليك أبا الطاهر تميم بن المعز الطاهر من كفر معد بن الظاهر، ويقصد بذلك الأمير الفاطمي بمصر في ذاك الوقت.وهذا دليل على مباينته لأهل البدع ومحبته لأهل السنة، ومسايرته للقرار السياسي السلطوي ، بالرغم من أننا ذكرنا سابقا أن معلمي "المعز بن باديس" لما كان صبيا هم السبب في تكوين شخصيته السنية و على رأسهم مأدبه الجزائري "ابن أبي الرجال".

-الخطابة الاجتماعية:

و هي تلك الخطب التي تعالج القضايا الإنسانية ذات الطابع الاجتماعي، التي تحكم العلاقة بين أفراد المجتمع بعضهم البعض، أو مع السلطة الحاكمة في قضايا تهتم بتحليل بعض الحوادث التي تمس المجتمعات بصفة مباشرة.وتحقق غرضا ما لدى الحكام ،ولنا فيها نماذج في هذا العصر.

وقد اخترنا خطبة الأمير العبيدي "المنصور" قرأها"جعفر بن علي الحاجب"[2]،وقد ذكر تاريخها بدقة وذلك (يوم الجمعة 14 محرم 335 هـ–16 أوت 946 م)[3]أما المكان فهو جامع القيروان، يقول في مستهلها:« معاشر الناس.مولانا وسيدنا "الأمير إسماعيل المنصور بالله" ، أطال الله بقاءه (وأدام عزه ، وعظم ملكه) يقرأ عليكم السلام ويقول لكم:قد علم الله سبحانه

---

[1]شوقي ضيف:الأدب العربي –عصر الدول و الإمارات–ليبيا تونس صقلية –دار المعارف، مصر، 1992، ص712.(ينظر أيضا: الراجكوتي : ابن رشيق :المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة،1343هـ ،ص15).

[2]جعفر بن علي الحاجب: هو مولى الأمير العبيدي الأول عبيد الله المهدي المختص به منذ خروجه من سلمية بسوريا (ينظر:محمد اليعلاوي: الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي ، ص156).

[3]محمد اليعلاوي: المرجع السابق، ص154.

حسن نيتي فيكم ،وما أضمره من الخير لكم ،وما أحبه من صلاح أموركم وما أجد في نفسي من الغم لما حل بكم من البلاء،وما نزل بكم من الفقر وذهاب الأنفس والأموال »[1].

في هذه الخطبة لم يستهلها بالصلاة على النبي(ص)، بل قام بنقل تحيات الأمير إلى الحاضرين ،وإلى كل الأتباع ، ليصف حالة الأمير وما يحسه اتجاه رعاياه الذين يصارعون ويلات الفقر، وأن عدم مساعدته لرعاياه الذين لحق بهم أذى كبير من ثورة "صاحب الحمار"جاء نتيجة تصوراته التي يوضحها في قوله:« وأن لي آمالا كثيرة حسنة أؤملها فيكم ما منعني عن إظهارها إلا كون هذا العدو بحذائي ، ومحاربتي له ، وما كان من هذه الوقائع بيني وبينه.فلو كنا أظهرنا ما كنا نؤمله من الإحسان إليكم قبل الظفر ، لقال الجهال :إنما فعل ذلك استمالة لقلوب الرعية وخوفا من العدو .فلما كان من الله علينا ما علمتموه ، ومن نصره لنا ما رأيتموه ، وفتح لنا على عدوه بمنه وطوله ،أردنا أن نقابل منة الله ، جل وعلا ،علينا بالشكر له والإحسان إلى عباده ، والرفق بخلقه ،وأن نظهر بعض ما نويناه فيكم ،إذ كان إظهاره في وقت الفتح أولى وأشبه منه قبل ذلك ،للوجه الذي ذكرناه »[2].

فمن خلال هذه الخطبة وضح الأسباب الحقيقية التي منعته من الإسراع في تقديم يد المساعدة للأهالي وإنقاذهم من براثن الفقر والعوز، في تحليل منطقي حسب اعتقاده ،لكن ما هي الإجراءات التي اتخذها من أجل رفع الغبن عن المتضررين ؟ و الإجابة تمثلت في قوله :« فقد ترك الأمير أعزه الله ، ما يجب عليكم في هذه السنة الآتية، وهي سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة ، من العشر ، والصدقات ، وجميع اللوازم .وفعل ذلك بجميع الناس مسلمهم وذميهم رفقا بهم ، وعونا لهم على عمارة أرضهم وبواديهم . فليبلغ الشاهد الغائب ، وليرجع كل بدوي منكم إلى باديته بلا مرزئة عليه ولا كلفة . ثم أنه لا يؤخذ منكم في إقبال السنين ، إلا العشر و الصدقة ، الطعام من الطعام ، والشاة من الغنم ، والثور من البقر ، والبعير من الإبل على فرائض الله سبحانه ،وسنة جدي رسول الله (ص).ثم بعد ذلك يساق إليكم من الإحسان ، وإظهار العدل ، و

---

[1]نفسه ،ص 156.

[2]نفسه ،ص154.

إحياء الحق ، وإماتة الباطل ما تعظم به منة الله عليكم ،وتعرفون (به) بركة أيامي ويمن دولتي إن شاء الله » [1] .

إن قرار "المنصور" هذا ، والمتعلق بإسقاط الضرائب –بصرف النظر عن مغزاه السياسي– يسعى إلى تأليف قلوب الرعية وإرضائها– وقد كان هذا الرجوع إلى الشرع مطلب "أبي يزيد" –حين قام بزعمه محتسبا – كما أنه يخفف من تهمة التعسف في جمع الضرائب من المواطنين التي اتهموا بها، هذا القرار لأهميته في إعادة الثقة في الحكم العبيدي ، وإذا كان الجزء الثاني من الخطبة مدحا خاصا خالصا، ينتمي إلى الوعظ والإرشاد ، الذي لا يخرج عن غيره من الأغراض الأخرى ،التي أنشئت للتقرب من الرعية .

كما أن هذا الوعظ يبدو مرتبطا بمصلحة الأمير العبيدي ، يخدم أهدافه ، ويقضي حاجته ولكن الخطيب من موقعه المسئول ،يوجه هذا الخطاب الوعظي لحاجة في نفسه أراد من ورائه تمرير سياسته في مثل هذه الفترة الحرجة ، كما أن وعظه ينهج منهجا واضح مباشرا دون إيحاء ، فهو يأمر وينهي ، ويعد ويحذر ، كما أنه يصف حال الخارجين عن طاعته ويصفهم بأقسى العبارات .

وهناك نوع آخر من الخطب تتمثل في خطب الوعظ و الإرشاد وخطب التأبين التي تقام في الجنائز للعلماء و الأمراء و الولاة تعدد فيها مناقب الهالك ،يقوم فيها الخطباء مرشدين ناصحين لعامة الحضور بمآل الإنسان ومصيره الحتمي ،وقد عرفت عند المغاربة بكثرة ومنها خطبة "إبراهيم بن محمد القصري" المؤدب ت(334 هـ) في جنازة الشيخ" أبو سوادة المتعبد"،وهي تأبينية بليغة، مما قال فيها:"...واعزهم في سواد الليل إذا قاموا من مضاجعهم إلى محاربهم وأعزهم إذا انصدع الفجر فرحين بما وهب لهم من المناجات و قد أشرق نوره في وجوه القوم يحبون الله وهو يحبهم وأعزهم إذا أشرقت الشمس وهم صائمون متبتلون ،وأعزهم إذا توفتهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة و أعزهم إذا ألحدوا وصارت تلك

[1] محمد اليعلاوي: المرجع السابق، ص156.

اللحود رياضا وأعزهم إذا انشقت الأرض عنهم قاموا من قبورهم وقالت لهم الملائكة ادخلوها بسلام آمنيين..." [1].

-الخطابة الأدبية(الفنية):

وهذه الخطب انتشرت مع بداية القرن الخامس الهجري على الخصوص بين الأدباء والمثقفين،وهي تلك الخطب التي يلقيها الأديب أو الناثر ،في مجمع أدبي علمي لأناس مثقفين أو في تأبينية لأديب، أو في حفلة علمية ... ،ومنها:

خطبة "للحصري الضرير" [2] له عاطلة (أي غير معجمة) [3].((الحمد لله الملك و لا أمد، و ممسك السماء و لا عمد ، سمكها و أطلع مهلها [4] و علم آدم الأسماء كلها...لا أمر إلا أحكمه ، ولا مراء إلا حكمه ، لا إله إلا هو إله واحد لا و لد و لا والد احمده لألاء أولاها ، وادعوه ملك الأملاك ومولاها ، أول العلم وأولاه وأحله للسمع و أحلاه ، لا إله إلا الله ،محمد رسول الله... و مما جاء أيضا فيها:صلاح العادة ،أصل السعادة، الود مع الملل أسوأ الملل، إعطاء المعسر، أسس علاء الموسر معط مطعم، لعلاه مدعم، ما وأل [5] ،حارم معدم سأل ،اللؤم واصم[6]،

---

[1] الدباغ :المصدر السابق،ج2،ص49 .

[2] الحصري: هو أبو الحسن علي بن عبد الغني الحصري الفهري الضرير، ولد بالقيروان ،ولقب بالحصري نسبة لصناعة الحصير وهو ابن خالة أبو إسحاق إبراهيم الحصري ولد سنة 420ه، حسب حسن حسني عبد الوهاب ،وقد قيل أنه ولد كفيفا حفظ القرآن و تلقى علوم العربية ونبغ فيها شغل مهنة التدريس في القيروان ، وقد ترك العديد من المؤلفات ، في علوم القرآن و الفقه و العقيدة و علوم الحديث و التفسير إضافة إلى علوم الأدب شعرا و نثرا،توفي بطنجة سنة 488ه، (ينظر: محمد المرزوقي ، الجيلاني بن الحاج يحي:أبو الحسن الحصري القيرواني(عصره- حياته- رسائله- ديوان المتفرقات - ياليل الصب)مكتبة المنار ،تونس، 1963،ص19-70).

[3] محمد المرزوقي،الجيلاني بن الحاج يحي:نفسه، ص256 -257 .(الخطبة العاطلة هي نوع من الخطب المتكلفة التي يقوم الخطيب فيها بعدم استعمال حركة معينة وهي أنواع :العاطل عن النقط ويسمى المهمل وتستخدم فيها الحروف التالية فقط(ا ح د ر س ص ط ع ك ل م ه و)والعاطل عن التنوين : وقد يقال له المعرف لأنه ليس فيه أية تنوينات العاطل عن الهمز : وهو ما لا همزة فيه).

[4] المهل :تطلق على عدة معان،منها:ذوب المعادن،وبقايا الجمر في الرماد، ولعل المقصود النجوم في السماء تشبيها لها بالجمر

[5] أي مانحا.

[6] واصم:معيب.

والكرم عاصم، الأمل مهدوم ،والعمل معدوم،لمع الصارم و السرد[1]،ورد الأسد الورد،لإكمال كمال ممدود، ولا لواء لواء محدود سالم عدوا عارك، وسلم للدهر ما أعارك، الأرواح رواحل ،والأعمار مراحل،السؤال معرة.لله أخمد المعرة، مدح أحرارا كراما ، وعد السؤال حراما ، لو صحا صحيح،أسراره، لمحى الله إصراره، ولعله موحد، لا كما سموه ملحد ، الله أكرم مسئول، ومأمول لسول، سله ورح مملوء الراحة، وصل وسبح مكلوء الساحة، أسماء الله دروع، ما أحد منها مروع، لو سعد عاص لا طاع، وعمل ما استطاع ، الله حرم، وحل وحرم، هما المراد، رحم صرورة، خرم سروره، لولا الهرم، و الورم ، لسار أوطار، وأدرك الأوطار، سوطك وعصاك لمملوك عصاك ، و الله أمرك، اسواء أمرك ، الرد لكسلها، و السود لا سلها، أمردها، أروعها ، أروعها ، أحماها، أحماها، كم صاد وساد،ولو واصل الوساد ملك سد صلاحه لهاه، ومد سماحه لهاه ، وسواه ورع لا كرم ولا ورع..." [2].

ويمضي الحصري في هذا السجع، واعظا مرشدا جاريا على رسم المعري في زهدياته بما لا طائل تحته ، وختم خطبته هذه بقوله :"نثرت فأبلغت، ونظمت فمنعت، وهذه الخطبة على بلاغتها، وإبداع صياغتها حليتها بدر من بحري ملقوط ، وأخيلتها من كل حرف منقوط ، وأردت أن أشفعها بأخرى منقوطة الحروف، فوجدتنني أخرج فيها عن الرسم المعروف، إذا استفتاح الخطب بحمد الله و الثناء عليه، وذلك في المنقوطة لا سبيل إليه ، غير أني اختصرت فألمعت منها بملح في لمح ، ورب دليل في قليل، ورب عثار في إكثار، وما قللت إذ قلت[3].والقارئ لخطب" الحصري" يدرك جليا متانة أسلوبه ، وإشراق ديباجه ، وحرارة عاطفته ، بالرغم من القيود التي قيد بها نفسه ، مما يزيد تفوقه في معرفة اللغة و أسرار بلاغتها ، وقدرته على التصرف فيها،.

و من أمثلتها كذلك خطبة "لابن شرف"القيرواني، و التي قيل عن مناسبتها عند وسمه لكتابه "أبكار الأفكار" باسم "باديس بن حبوس"، في خطبة طويلة و التي رسم فيها الخريطة السياسية

---

1 الدرع.

2 شوقي ضيف:المرجع السابق، ص712.

3 محمد المرزوقي : المرجع السابق ،ص 257 .

التي كانت سائدة في تلك الفترة ، ومما جاء فيها ":ما ظننت الابتداع إلا بلغ ، و لا حسبت الاختراع إلا فرغ حتى إذا استأثرت بنيات صدري ، و لطائف فكري ، ببيت واحد الجنسية ، ومعنى غريب الأبنية ، قلت لنفسي ، هيهات ! لا شك أنك سبقت إلى هذه الغاية ، وعلتك قلة الرواية،وكثر سباق الرواد و الفراط الوراد ، فما تركوا للمتأخرين من الرياض زهرة ، ولا من الحياض قطرة،كما أن جيش الكرم قد انهزم و زائر الشرق قد انصرف ، و مركوب المجد قد ند،فعشت أظن هذا الظن ، حتى سافرت إلينا رفاق الأخبار بشهادات زكاها مرور الأيام ودؤوب الدوام، تشهد بسؤدد بان عن السؤدد العصامي ، وحزم فاق الحزم الهاشمي و جود جاوز الجود الكعبى ، وبأس أنسى البأس المصعبي ، ثم سفر لي الدهر عن سفر إلى مغرب الدنيا و مشرق العليا والبقعة المباركة الباديسية و الدولة المظفرية والمملكة الشامخة الحميرية، و الحضرة الشريفة المنيعة الغرناطية، فعاينت عالما في عالم قد شركوه في النسبة إلى آدم و انفرد من مناسبته، و شذ عن مجانستهم بجميل طرائق ووحيد خلائق (1).

فقد طبع هذه الخطبة الطول مع عدم الوقوف على تسجيل بدايتها فقد اكتفى" ابن بسام " بإيراد مقاطع منها متحججا بطولها، إلا أنها بديعة في أسلوبها، شجية في ألفاظها ،مليئة بتناصاتها و توظيفها للتاريخ الإسلامي و لسير شخصيات بصمة أسماءها بماء الذهب.

وعلى الرغم من كثرة الأسباب الدافعة لخطابة زاخرة على حسب اختلاف المناسبات الداعية لها، ولاسيما السياسية منها خاصة في الفترة الصنهاجية، والتي تقضي إلى وجودها وكثرتها ،و مع العلم أن التدوين قد قطع شوطا كبيرا في القرن الخامس الهجري، إلى أن ما روته لنا المصادر من خطب و نقلته لنا من نصوص، لا يعكس لنا البتة الواقع المعاش آنذاك .و إن كانت أسباب ذلك لن تخرج عن نطاق أحد هذين العاملين:

-إما إهمال من أصحابها آنذاك في تسجيلها و بالتالي سقط حفظها من أيدي الزمن.

---

[1] ابن بسام :الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تح :إحسان عباس ،دار الغرب الإسلامي، القسم4 ، ج7، ط2000،1 ، ص 124 - 125.

-أو كتبت و سجلت ، لكنها ضاعت أو أتلفت نتيجة الفتن و الحروب المتعاقبة على المنطقة

من الدوافع و العوامل البارزة في ازدهار الخطابة في هذا العصر، الصراعات بأنواعها ، ومنها العصبية القبلية والمذهبية، وقد عمل الإسلام على القضاء عليها والتخفيف من حدتها لكنها عادت مع بداية القرن الرابع الهجري وفي ظل الدولة العبيدية،التي وجدت في المذهبية ما ساعدها على توطيد حكمها والبقاء فيه .

ولعل وجود هذه الصراعات الفكرية المذهبية هي السبيل الأوحد لدغدغة نفوس العامة من أجل تحقيق الأطماع السياسية ،فكانت الصبغة الدينية المرتبطة بالعاطفة القوية اتجاه آل بيت رسول الله،هي أيسر طريق سلكه العبيديون لتحقيق الأطماع الشخصية،والأهداف البعيدة التي وضعها الدعاة العبيديون، والتي خفيت على العامة بل وحتى على أشياعهم ، فانساق العامة وراء هذه الادعاءات ، فكان أكثر من حمل لواء هذه الدعوة يعتقد جازما أنه في سبيل الدفاع عن الدين الصحيح .لذلك جاءت جل مواضيع خطبهم سياسية مصبوغة بصبغة دينية مذهبية مبنية على جملة من الادعاءات في سبيل الخلافة والإمارة والاستحواذ على السلطة واستباح الخصوم الوضع كله ، فوضعوا النصوص التي تخدم أهدافهم ، وأولوا لها كبير الاهتمام ، فرأينا أن الشيعة ، وجدوا أنهم أحق أهل الأرض بالخلافة، لقربهم من رسول الله (ص) ومن هنا أقاموا دعوتهم وخطبهم على حق الوراثة والخلافة، وهذا هو بؤرة الخلاف.

إن بيان المغاربة كانت تدب فيه الحياة وتسوده البلاغة، لتمكن ملكة القول في نفوس أهله، فكانت كفيلة أن تخلق منهم خطباء مصاقع يتلاعبون بالمنطق، ويتبارون في القول ويملكون ناصية الكلام، وأن المدارس التي كانت تنشر العلم، وتذيع المعرفة، وتعلي منار الثقافة و تجمعهم.

كما تميز خطباء هذا العصر برباطة الجأش وفصاحة اللسان وقوة الكلمة، فإذا ارتجلوا بها القول أجادوا، لتمكنهم من ناصية اللغة التي حذقوها منذ نعومة أظافرهم، ولتمكنهم من قواعد اللغة وتمرنهم على استعمالها.

كما أن الذي كان يمارس الخطابة من هؤلاء الخطباء كان ينطق بها عربية البيان صحيحة الإعراب، سليمة النطق، مستقيمة الأسلوب، فظهرت جودة خطبهم وبراعتهم فيها، وتميل إليه الهوادي وتمتد الأبصار الساكنة فلا تتردد،فأخرجت صناعة استوفت شروطها واستكمل أسبابها.

وهذا يعود أساسا لكون خطباء هذا العصر من حيث المبدأ أغلبهم من العلماء أو الفقهاء عرفوا بالعلم والمعرفة، أو الكتاب الذين ينقطعون إلى الكتابة الإنشائية في الدواوين.

والخطابة في القرنيين الرابع و الخامس الهجريين، لم تخرج عن المجالات السياسية والعسكرية، بالإضافة إلى الميدان التقليدي الديني ،ولا شك أن المناسبات الدينية كثيرة ودورية ، وعلى رأسها خطب الجمعة، وخطب العيدين والتي من خلالها تعرض أغراضا سياسية أو عسكرية أو اجتماعية، بالإضافة إليها الخطب الأدبية الحافلة بزخرفها،والتي انتشرت في مجالس العلم و الأدب مع الازدهار الأدبي في القرن الخامس الهجري.

أما رقيها في هذه الحقبة الزمنية فهو نتيجة :توظيف هذا الشكل النثري في الصراع المذهبي وما أنجرى عنه، ومن خلالها وجدت إرادة في التغيير إلى الأفضل،كما أن التغيرات الدينية المذهبية والسياسية وحتى الاجتماعية، والثورات،وكثرة الأحزاب والتكتلات مع تنازعها ،قد أسهمت في رقيها والرغبة الجامحة في السيطرة وبسط النفوذ من قبل العبيديين هي من ضمن عوامل الرقي أيضا و التحول السياسي و المذهبي مع بداية القرن الخامس الهجري ساعد في تحولات مواضيع الخطب و أهدافها وأسلوبها .

3-الخطابة البناء و الشكل:

جاءت الخطب في هذا العصر كما عهدناها خطب ذات براعة استهلال،و تقسيم ممنهج ،وموضوع محدد ،ثم ختام اشتمل على جمل يسهل تردادها وتذكرها بعد انتهاء الخطيب من خطبته وخاصة في النوعين السياسي والديني .

وما يخص براعة الاستهلال نأخذ خطبة "المنصور" وليا للعهد في عيد الفطر(334هـ- ماي 946 م) بالمهدية حين استهلها ،بقوله:« باسم الله الرحمان الرحيم .الحمد لله الذي أحسن إلينا في قضائه ، وأصفى الجزيل من عطائه ، أحمده حمد من شكر حسناه ، وآثر في الأمور كلها رضاه ، و أستعينه استعانة من لا يرجو غيره ولا يثق بسواه ، ولا يتوكل إلا عليه في أولاه وأخراه .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، اصطفاه لوحيه واختاره لتبليغ رسالاته ، فابتعثه داعيا إلى الحق ، وشاهدا على الخلق ، فبلغ رسالة ربه ،

ونصح لعباده ، وجاهد في سبيله ، صلاة الله عليه نبيا مصطفى ، ورسولا مرتضى وعلى اله وسلامه ورحمته وبركاته »[1].

وهذه خطبة "المنصور" بقلعة "كيانة" في عيد الأضحى سنة(335هـ/ 974م) وهو يحاصر "أبا يزيد يستهلها ،بقوله:« باسم الله الرحمان الرحيم .الحمد لله المتوحد بالربوبية ، المتفرد بالوحدانية، المتعزز بالقدرة والبقاء ، المتجبر بالعضمة والكبرياء ، الأول بلا غاية ، والآخر بلا نهاية، المتعالي عن تشبيه الجاهلين وتحديد الواصفين وتكييف الناعتين ودرك أبصار الناظرين .وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، أكرمه بالنبوة، واصطفاه بالرسالة، وحباه بالفضيلة، و ابتعثه بالنور ساطعا، وبالحق صادعا ، وبالهدى آمرا، وعن الكفر زاجرا، وعلى الأنبياء مهيمنا، ولما جاؤوا به مصدقا . فبلغ الرسالة وهدى من الضلالة، وأنقذ من الهلكة، وأنهج معالم الدين وفرائضه، وبين حدوده وشرائعه وجاهد في سبيل الله حق جهاده حتى أتاه اليقين ، صلى الله عليه في الأولين والآخرين، وعلى آله الطيبين الطاهرين الأكرمين، الأئمة المهديين الكرام الأبرين »[2].

وعموما جاءت افتتاحية الخطبة الدينية وسائر خطبهم على الشكل:بالنسبة للأمراء العبيدين وخطبائهم :«اللهم صل على محمد النبي المصطفى وعلى علي المرتضى وعلى فاطمة البتول وعلى الحسن والحسين سبطي الرسول الذين أذهبت عنهم الرجس وطهرتهم تطهيرا اللهم صل على الأئمة » بمثل ما جاءت عليه خطب "المعز"وفي هذا نذكر افتتاحية خطبته في عيد الأضحى سنة (342هـ/953م)،يقول: « ...باسم الله الرحمان الرحيم ، وبه نستعين...فصلى الله عليهم أجمعين، وعلى محمد سيد المرسلين الذي رفع ذكره، وأعلى ذكره...صلوات الله عليه وعلى آله المهديين، الأخيار الطيبين...وعلى الأئمة المهديين من عترته الكرام الأبرين الذين اختارهم للخلافة ، وارتضاهم للإمامة ، وأكد بوصي الرسول حجتهم، وأنزل في التنزيل طاعتهم ن بعد تفضيلهم في العالمين بأبوة محمد سيد المرسلين، وعلي أفضل الوصيين،من أمهم سيدة

---

[1]محمد اليعلاوي: الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي، ص149.

[2]نفسه، ص168.

النساء، خامسة أصحاب الكساء، صلوات الله عليهم أجمعين، وعلى أميري المؤمنين المهدي بالله، والقائم بأمر الله ،سيدي الورى وإمامي الهدى ... »[1].

أما أهل السنة فجاءت افتتاحية خطبهم على الشكل:« اللهم صل على محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين ، وعلى صحابته الغر المحجلين » [2].

أما ختام الخطب فقد اشتمل على جمل قصيرة،وفي أغلب الخطب يأتي على شكل دعاء مختصر ،ونذكر في هذا ختام خطبة "المنصور" بقلعة "كيانة" التي جاءت على شكل دعاء قصير« اللهم اغفر لي وللمؤمنين والمؤمنات،والمسلمين والمسلمات،الأحياء منهم والأموات ، وتقبل أعمالهم وزك سعيهم ،و أهداهم وارأف بهم ،إنك أنت الرؤوف الرحيم » [3].

أما من حيث تقسيم الخطب فهو ممنهج، والمواضيع المعالجة محددة حسب طبيعة ونوع الخطبة ، دينية سياسية ، عسكرية ، إلا أننا قد نجد في بعضه تداخلا بين المواضيع ، وهذا خاصة أثناء قتال "صاحب الحمار" وهذا ما لاحظناه عند كل من "القائم" و"المنصور" .

والخطابة خصوصا بطبيعتها مقرونة بالفضائل، مقتصرة على المظاهر الجمالية، وهي تقوم بوظيفة استعراض المشاعر والمواقف الناتجة عن حالات الصراع الفكري، ومن ناحية استعراض مواقف الناس إزاء المحن التي تتعرض لها بلاد المغرب الإسلامي. لذلك حاول الخطباء أن ينهضوا بحقيقة الحوادث وطبيعتها و الآثار التي ترتبت عنه لهذا العصر.

وبذلك فالخطابة في هذا العصر ضرورة اجتماعية فرضتها الظروف ،وعبرت عن المجتمع بوجه عام ،وعن الوقائع التاريخية فدونتها بصورة رائعة، كما أن كل الفرق المذهبية كانت في حاجة إليها، بل إن المواقف المجيدة في تاريخ الدولة العبيدية خاصة مدينة للخطباء الذين عبروا عن قضاياهم ،أصدق تعبير، وأثروا في مجتمعاتهم، أعظم التأثيــر.

إن المتتبع للخطابة في القرنيين الرابع و الخامس الهجريين ،يجدها مرتبطة ارتباطــا وثيقــا وتاما بالإسلام عقيدة وعملا ، إذ أن قيام مجموعة من الدويلات في هذه الفترة الزمنية على أسس دينية اتخذت الخطابة بأنواعها مصدرا لنقل أفكارهم و رؤاهم، و أوضــحت خطــبهم التــزامهم

---

[1] محمد اليعلاوي: المرجع السابق، ص256-258.

[2] نفسه، ص252.

[3] نفسه ، ص172.

بالإسلام منهجا وبكل مصادر تشريعه من قرآن وسنة وإجماع وقياس بتوظيفهم لذلك...وهم في خطبهم يسردون العيوب التي عاشها المجتمع و المتناقضات التي شغلته ،و الصراع الفكري المذهبي الذي ماج به المجتمع المغربي ،وكل فريق متبعا وسائل الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر تارة، وبالتهديد و الوعيد لمن عصى تارة أخرى ، وهم في ذلك يخاطبون العقل ويدلون بالأدلة و الحجج و البراهين على صدق ما يقولون مقارنيين ما عليه أعداؤهم ومخالفيهم من زيغ وتيه واستبداد وظلم ،ونلحظ هذا في حطب أمراء الدول.كما استثمرت الخطابة طوال هذه الفترة ألفاظها في دعم سلطان الدول القائمة، و مقارعة أعدائهم في الداخل و الخارج.

وفي أسلوب خطبهم تحس شاعرية اللغة ،فهي تقوم على كلام أشبه بالمنظوم فيها من الحكم المرتجلة و الأمثال المرسلة ،ومن تضمين لآي الذكر الحكيم و الحديث النبوي لشريف، والتمثل بما صدق من شعر العرب تزكية واستشهادا أو تأكيدا على صحة أقوالهم، وضرب الأمثلة مع البلاغة و الفصاحة و الإيجاز .

كما امتازت بارتباط أفكارها، مطبوعة بالروح الإسلامية، متطلعة للأسلوب ألقراني و الحديث النبوي متضمنة للحكم و الأمثال و الأشعار العربية ،مراعية للجرس الموسيقي في انتقاء الألفاظ وتراكيبها ، فضلا عن كونها ناقلة لأخبارهم و أحوالهم ،ومصورة للأحداث و المواقع ،كما أنها تحكي أخلاقهم و صفاتهم ،وتصور طبائعهم ،متناولة لجميع ما كان يجري في دواليب الحكم و في شؤون الحرب و السلم و الحياة الاجتماعية لهم في المناسبات الدينية و العامة،واتصلت معانيها بأغراضها المستهدفة بناء على اتصالها بحياتهم السياسية و نظمهم الاجتماعية و العلمية و الأدبية...

واعتمد الخطباء على ملكاتهم وذخائر محفوظا تهم و تواصلهم مع الشعوب و اطلاعهم على آدابهم ، وامتازت بالفكر المهذب الذي صقلته العلوم و المعارف ، وهذبته روح الإسلام ، وزادت من خصوبته حوادث التاريخ فعمقت معانيها و رقت أساليبها.

فالنصوص التي استعرضتها تجمع بين خاصية فريدة تتمثل في تواصل الخطيب مع المتلقي، ومعايشته لآلامه، وواقعه المعيش فهي تجمع بينهما، مع اختلاف شديد، وهي أنها تنأى عن التعرض لوصف أحاسيس النفس، وذكر ما نجد في غمرة الأحداث التي تقع في محيطها، بطريقة يكون الكلام فيها بثا متصاعدا مع شغاف القلب، وحديث النفس للنفس حين تسقط

الأغشية، وترتفع الحواجز المصطنعة الوهمية، ويواجه الإنسان حقيقة الإنسان في أجمل صورها، أو في أبشعها، وأحقرها، كما أنها أكثر صنعة وأكثر استعمالا للسجع والتزاما به من كل ما مر بنا من النصوص التي تناولناها، كما أنها مكتملة للأدوات البلاغية، مع نضوج للأساليب البيانية، وهذا ليس غريبا على المغاربة خاصة خطباء هذا العصر في القرن الخامس الهجري، كما كان لاحتكاكهم بالأندلسيين الأثر الكبير، والظاهرة التي نلاحظها هي تلك الموضوعات الدينية التي نالت نصيبها من هذه النصوص، حيث كثر الاقتباس فيها من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف الذي خدم هذه الموضوعات دينيا واجتماعيا، وسياسيا، فكان "المعز لدين الله " أعظم خطيب وأشهرهم في دولته، وأسلوبه يجمع بين فصاحة العبارة وعلى الإيتاء بالحجج والبراهين لإقناع أتباعه و مريديه وهو صاحب فكر عميق، ونظر بعيد، وصاحب بلاغة قائمة على الحذق في خطبه،كما أنه واسع الثقافات متعدد الاهتمامات ،و التي ساعدته على احتلاله مكانة مرموقة لدى أهله من المصامدة ، أما الحصري الشاعر و الأديب فهو صاحب صبغة لفظية رائعة، وصاحب سجع متسلسل، وما اعتماده على الخطبة المعجمة إلا دليل على تمكنه من ناصية اللغة ،وهو صاحب رائعة "يا ليل الصب"، مع أنه لا يريد لها ردا ولا دعما ببرهان، فإننا نشعر في لفظه من الانسياب و التدفق ما يعمل في النفوس ويحركها، فيساعد على التفاف السامعين عليه.

وأما خطب أهل السنة و قضاتها فقد ظهرت نزعتهم الزهدية واتجاههم المالكي في خطبهم ، التي كلها شحن للنفوس، وإلهاب لها، فتشتعل تلك الحمية الدينية، فيتفاعل القارئ معها ، فالخطيب القادر والمتمكن هو الذي يدرك خصائص الأسلوب الخطابي الذي يتنوع بين الخبر والإنشاء، والسهولة والوضوح، مع استخدام للخطابات الغيبية وضمائر المتكلم، لإبعاد الملل وبعث للحيوية والنشاط، والإطناب بالتكرار والتأكيد بوسائله المختلفة، والتشويق بالاستطراد، والإقناع بالقرآن والحديث لدفع الملل خاصة الطويلة منه،وكل هذا وقفنا عنده في نماذج خطب القرنيين الرابع و الخامس للهجرة .

- توطئة:

تعتبر المناظرات من أهم الأشكال النثرية في الأدب العربي ، و من أبرز الفنون النثرية التي ازدهرت في القرن الثاني الهجري، ويعود الفضل في نموها وازدهارها إلى المتكلمين المعتزلة ،حيث اتخذوا الجدل والمناظرة وسيلة اعتمدوها في نشر مبادئهم ، وفي أداء مهمتهم بصفة عامة، وانتشر هذا اللون في مختلف المجالس، حتى غدت قبلة للمثقفين والأمراء والمتكلمين، ومن خلال هذه القيمة المهمة والخطيرة أصبحت المناظرات ظاهرة أدبية وفنا محببا إلى العلماء ، يلجئون إليه عند الخصومة أو لشرح آرائهم.

و تزامنت نشأة المناظرة في مرحلة مترادفة مع نشوء علم الكلام وكانت أداته الرئيسية للنقاش ، ثم ظهرت فئة من العلماء لم تؤيد المناظرات الكلامية لما تولده من العصبيات وفتح باب النقاش في مسائل لا طائل منها ، ولكنهم وجدوها وسيلة ملائمة للنقاش في علم الفقه [(1)]لاسيما في مسائل الخلاف بين المذاهب الفقهية [(2)] حتى عدها البعض ضرورة لازمة لعلم الفقه فبواسطتها يتم التوصل إلى الكثير من الأحكام الفقهية[(3)] وتكون المناظرة في أصول الفقه[(4)] وهي الكتاب والسنة والاجتهاد [(5)] .

-المناظرات لغة واصطلاحا:

-المناظرة لغة : يقال : ناظر فلانا : صار نظيرا له، وناظر فلانا : باحثه وباراه في المجادلة وناظر الشيء بالشيء : جعله نظيرا له .فالمناظرة مأخوذة من النظير أو من النظر بالبصيرة و نظر في الشئ أي أبصره.

---

[1]الغزالي: إحياء علوم الدين ، مكتبة عبد الوكيل الدروبي ،دمشق،ج1،دط ،دت،ص37.

[2]نفسه،ج1،ص37.

[3]ابن عبد البر: جامع بيان العلم وفضله،تحقيق: أبو الأشبال الزهيري،دار ابن الجوزي، الدمام، السعودية، ط1، 1994، ج2،ص113.

[4]الغزالي: نفسه، ص37.

[5]الخطيب البغدادي: الفقيه والمتفقه،تحقيق:عادل بن يوسف العزازي،دار ابن الجوزي، ط1، 1996، ج 1، ص54.

وقيل :نظير الشيء مثله، و حكى أبو عبيدة، النظر والنظير بمعنى مثل الند والنديد[1].وقال الفراء :"يقال نظيره قومه .نظورة قومه الذي ينظر إليه منهم، ويجمعان على نظائر، وجمع النظير نظراء ، والأنثى نظيرة، والجمع النظائر في الكلام والأشياء كلها"[2].

-**المناظرة اصطلاحا:** "علم يتعلق بقواعد نظرية وأخلاقية تضبط المباحثات والمناظرات لاستبعاد الخطأ والشك من النتائج التي يتوصل إليها المتناظران " [3].أوهي:" حوار بين شخصين أو فريقين يسعى كل منهما إلى إعلاء وجهة نظره حول موضوع معين والدفاع عنها بشتى الوسائل العلمية والمنطقية واستخدام الأدلة والبراهين علـــى تنوعها محاولا تفنيد رأي الطرف الآخر وبيان الحجج الداعية للمحافظة عليها أو عدم قبولها" [4]" وقد يعبر عنه بعلم "الجدل" لأن المجادل مناظر أيضا وربما يفصل بينهما بأن الجدل لا يكون إلا بين اثنين متحاورين،والنظر قد يكون من جانب شخص واحد يتأمل ويستنبط لنفسه "[5].

وعلم المناظرة أو الجدل أو المجادلة هو قول يقصد به إقامة الحجة فيما اختلف فيه اعتقاد المتجادلين، ويستعمل في المذاهب، و الديانات ... وغيرها. و يدخل في الشعر و النثر، وينقسم إلى قسمين محمود ومذموم [6].

وهي علم إسلامي خالص ،من العسير تعيين بدايته الزمنية على وجه التحديد،« وأغلب الظن أنه نشأ على يد المتكلمين الأوائل من المعتزلة وغيرهم،في النصف الأول من القرن الثالث الهجري على أقل تقدير »[7] .

---

[1]ابن منظور :لسان العرب، م5 ، مادة نظر.

[2]نفسه، مادة نظر.

[3]نجم الدين الطوخي: تحكم الجدل في علم الجدل.تح: فولفهارت هاينريشس،المكتبة الشرفية،بيروت،د ط،1978 ص56.

[4]ابن فورك: مقالات الشيخ أبي الحسن الأشعرى، تح:دانيال جيماريه، المكتبة الشرفية،بيروت،د ط،1987م، ص251.

[5]نفسه، ص250.

[6]قدامة ابن جعفر: نقد النثر ،ص 102.

[7]محمد عبد الغني الشيخ: المرجع السابق، ص63-64.

ويرجع ابن خلدون بعلماء هذا الفن إلى عصر متأخر ، وذلك أثناء تقسيمه لآداب المناظرة وقواعدها إلى طريقين: « طريقة "البزدوى" (ت 493هـ) المطبقة في الفقه والأحكام الشرعية ، وطريقة "ركن الدين العميدى" (ت 615هـ) المطبقة في كل دليل يستدل به ، سواء في العلوم الشرعية أو العلوم العقلية ، وهذا العلم يعالج أركان المناظرة ، وهي أربعة:السؤال والجواب والاعتراض والاستدلال ، يبينها في مباحث بالغة الدقة والمنهجية المنطقية مثل : أدوات السؤال وأقسامه:السؤال الصحيح والفاسد، أقسام الجواب، ما يلزم السائل والمجيب، المعارضة ،المنع، النقض ، القدح ، القلب، الكسر الدليل...الخ. وعادة ما يلحق المؤلفون بهذه القواعد جملة من الآداب تتعلق بسلوك المتناظرين مثل:الحرص على إظهار الحق ،وعدم رفع الصوت ولزوم الهدوء والسكينة وعدم الاستهانة بالخصم مهما كان ضعيفا ، ووجوب الصبر على السائل حتى يفرغ من كلامه ، والتنبه إلى الفرق بين اليقين وغالب الظن والاحتجاج والتقريب »(1) .

ولقد اهتم العلماء بعلم الجدل والمناظرة ، خاصة بعد أن نشب الخلاف بين علماء اللغة، ورجال الفكر حول قضايا فكرية ولغوية، وعلمية وأدبية،وظهر علم الكلام، ونتيجة لهذا الخلاف القائم بين هاتين الطائفتين فقد اجتهدوا في وضع قواعد لتنظيم الجدل والمناظرة لكي يكونا في دائرة المنطق والفكر المستقيم، وأسموها علم الجدل، أو علم أدب البحث والمناظرة، ويقول ابن خلدون في هذا : "أما الجدال وهو معرفة آداب المناظرة التي تجري بين أهل المذاهب الفقهية، وغيرهم، فإنه لما كان باب المناظرة في الرد والقبول متسعا، وكل واحد من المتناظرين في الاستدلال والجواب يرسل عنانه في الاحتجاج، ومنه ما يكون صوابا ومنه ما يكون خطأ فاحتاج الأئمة إلى أن يضعوا آدابا، وأحكاما يقف المتناظران عند حدودها في الرد والقبول وكيف يكون مخصوصا منقطعا، ومحل اعتراضه أو معارضته وأين يجب عليه السكوت لخصمه في الكلام والاستدلال، ولذلك قيل فيه أنه معرفة بالقواعد من الحدود والآداب في الاستدلال التي يتوصل بها إلى حفظ رأي أو هدمه، سواء كان ذلك الرأي من الفقه أو غيره"(2).

والغرض من المناظرة إن كان لمجرد إفحام الخصم والتغلب عليه بصورة أو بأخرى فهي ممنوعة أما إن كانت المناظرة لإظهار الحق أو لإلزام الخصم بالحق والصواب فهي مشروعة

---

[1]ابن خلدون: المصدر السابق، ص622.

[2]نفسه،ص439 .

، لأن إظهار الحق مصلحة عامة ومن فروض الكفاية ويدل عليه قوله تعالى:﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ﴾ [1]،وأيضا:﴿ وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ [2]،والجدل جدلان :« جدل حسن وجدل مذموم،وفيصل التفرقة بينهما هو معرفة الحق والباطل: أو تبين الخطأ والصواب ،وما ورد من ذم الشرع للجدل في بعض آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية فالمقصود منه الجدل بمعنى السفسطة والمكابرة أو الجدل فيما لا مجال للعقل فيه »[3] .

ودليل المناظرة و الجدال المحمود قوله تعالى:﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ [4].وجاء في تفسيرها: "وقوله:" وجادلهم بالتي هي أحسن " أي: من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب.."[5]

و تكمن أهمية المناظرة في صقل مواهب المتعلم وتعويده إتقان فنون القول والجدل الرامي إلى بلورة الرأي في إطار احترام الرأي الآخر ولو كان مخالفا. وتتحدد شروطها في:أن تجمع بين خصمين متضادين. و أن يأتي كل خصم في نصرته لنفسه بأدلة ترفع شأنه وتعلي مقامه فوق خصمه. و أن تصاغ المعاني والمراجعات صوغا لطيفا.كما أن للمناظرة نوعان هما: " الواقعي التي تصور الواقع، والمتخيلة كمثل المناظرة بين السيف والقلم"[6] .

أما اتجاهاتها الأساسية فهي: " تحديد المشكلة والقدرة على صياغتها، ضمن الفروض ويفضل أن تكون الفروض واقعية.كما أن تقسيم وتصنيف المناظرة يعود أساسا للموضوع الذي تعالجه"[7] . و الأدلة وهي أهم مادة في عملية المناظرة وهما نوعان: نقلي ويتعلق بالاقتباس والاستشهاد من الكتاب والسنة وأقوال العلماء والمفكرين.وعقلي ويكون من المنطق والحجة ،

---

[1] العنكبوت: الآية46.

[2] النـــحل: الآية125.

[3] نجم الدين الطوخي:المرجع السابق،ص76.

[4] النـــحل: الآية125.

[5] ابن كثير:تفسير القرآن العظيم، تح:سامي بن محمد السلامة، دار طيبة،الرياض،دط،1999 ،ج4 ،ص532.

[6] محمد عبد الغني الشيخ: المرجع السابق ، ص82-83.

[7] نجم الدين الطوخي: نفسه ،ص86.

ويلخصه قولهم :"إن كنت ناقلا فالصحة وإن كنت مدعيا فالدليل ويحتاج للأدلة للتحليل والتفسير"[1] .

بالإضافة إلى التعميم إذ ينبغي التحفظ على بناء التعميم كإطلاق دون قيد أو دون تخصيص، ويتجنب كذلك ألفاظ الجزم والقطع في القضايا الخلافية ذات الأبعاد الاجتماعية والثقافية.

-المناظرات في المغرب :

عرف المغاربة أدب المناظرة والجدل مع البدايات الأولى للفتح الإسلامي لكنها اتسمت بالبساطة ، لكونها استخدمت في نشر مبادئ الدين فقط ، دون الولوج بها في الصراعات التي لم تكن حادة.واستمرت على هذا الحال في عهد الولاة ،ومن ثم في عهد الدويلات الثلاث الأولى ،وخاصة في العهد الأغلبي حين سجل لنا التاريخ مناظرات كبيرة بين فقهاء المذهبين المالكي و الحنبلي ، فهذا "أسد بن الفرات [2]"، عرف عنه أنه مناظر كبير وعد عهده عهد مناظرات و مساجلات بين الفقهاء فيما بينهم و بين الفقهاء و أصحاب الفرق الكلامية الأخرى، ومنها تلك المساجلة في مجلس " زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب[3]"، بين" أبو محرز" "وأسد بن الفرات" ، وقد تناظرا في النبيذ المسكر، و"أبو محرز" يذهب إلى تحليله و أسد يحرمه ، قال زيادة لأحد الشيوخ عنده: ما تقول يا أبا محمد، قلت : قد علمت سوء رأيي فيه و قاضياك بين يديك" [4] .

---

[1]نفسه ،ص110.

2أسد بن الفرات (142هـ-213هـ): الفقيه العالم، قاضي القيروان في العهد الأغلبي، " فاتح "صقلية" سنة(212هـ) تتلمذ على يد الإمام مالك ،وهو أول من أدخل المذهب المالكي إلى إفريقية ،من أشهر مؤلفاته " الأسدية في فقه المالكية " نسبة لاسمه.(ينظر:محمد جمال الدين سرور:تاريخ الدولة الفاطمية،دار الفكر العربي،القاهرة،مصر،د ط، د ت،ص377).

[3]زيادة الله بن الأغلب:آخر ملوك بني الأغلب تولى الحكم بعد موت إبراهيم بن الأغلب، وكان مستهترا مما مهد الطريق لأبي عبد الله الشيعي بالاستيلاء على ملكه.وفر هاربا بما معه إلى المشرق العربي سنة(296 هـ). بقي يتنقل بين مصر والشام حتى وافته المنية ببيت المقدس ودفن بها.(ينظر:ابن حماد:أخبار ملوك بني عبيد ، ص20.ابن عذارى:نفسه،ج1،ص148 .القاضي النعمان:افتتاح الدعوة، ص 234).

[4]رابح بونار : المرجع السابق، ص54.

ونبغ أيضا "محمد بن سحنون[1] " في المناظرة و الجدل، فكانت بينه و بين منافسيه مجادلات، و مشادات تنتهي بانتصاره دائما .

كما شاعت المناظرات بين مختلف الفرق في حواضر المغرب المختلفة كتاهرت، التي كانت مسرحا حرا لفرق الإباضية و أهل السنة و غيرها من الفرق ،تقام في مساجدها و نواديها حلقات المناظرة ،ومناقشة الأفكار و العقائد و الملل و النحل المختلفة ، واتسمت مناظراتهم بالاحترام المتبادل و حدود الأدب، مما أتاح جوا مفعما بالحركة الفكرية و الأدبية النشطة، وأيقظت روحا نقدية عند وجال الدين و الأدب .

و ارتقت و ازدهرت المناظرات مع اشتداد الصراع المذهبي بين أهل السنة و الشيعة من جهة وبينهم وبين الإيباضين من جهة أخرى بعد قيام دولة العبيديين بالمغرب فمالوا على حمل الناس على اعتناق مذهبهم جبرا وقسرا واضطهادهم اضطهادا عنيفا .فاعتبرت المناظرات من أهم الأشكال النثرية في العهد العبيدي خاصة ،والعهود التي تلتها ،وانتشر هذا الشكل في مختلف المجالس ، حتى انبهر الناس بها واجتذبت إليها الكتاب والشعراء وحتى أمراء الدولة، واعتبرت من أبرز الظواهر في هذا العصر .

وقد عمد أمراء الدويلات التي حكمت في هذه الفترة الزمنية بلاد المغرب على تشجيع المناظرة، وتقريبهم للعلماء و الفقهاء و الأدباء فعقدوا لها مجالس في قصورهم وبلاطاتهم، وفي المساجد والنوادي، وقد كان "عبيد الله المهدي" شغوفا بالجدل والمناظرة حيث كان يعقد لها المجالس رجاء حسم خلاف مذهبي وفض نزاع، أو هداية شاك طالب لليقين،و نتيجة لهذه العوامل،سمت وارتقت المناظرات وتخطت الخطابة ، وكان المجادلون فيها حريصون على بلاغة الكلام، وفصاحة البيان ، والتأثير بالإقناع المعزز بالحجج و البراهين.

---

[1] محمد بن سحنون بن سعيد التنوخي (160هــ240هــ): الفقيه العالم القاضي القيرواني ، تتلمذ على يد والده الإمام سحنون،عمل على نشر المذهب المالكي في المغرب الإسلامي، من أشهر مؤلفاته المدونة الكبرى التي جمع فيها مسائل الفقه على مذهب مالك بن أنس(ينظر: المالكي :رياض النفوس ، ج1، ص345).

وقد كانت مجمل المناظرات تدور حول الصراع بين أهل السنة من علماء الدين ،وبين الشيعة ودعاتها، خاصة مع السنوات الأولى لقيام الدولة العبيدية،وقد ذهب ضحيته الكثير من علماء أهل السنة، ولأسباب متعددة، ومن بينها استفزاز أعلام المذهب المالكي وحملهم على خوض مناظرات يحيط بها جو من الإكراه ،وهذه المناظرات كثيرا ما تحمل في طياتها بذور الحقد المذهبي الطائفي الذي أريد من ورائها اضطهاد العلماء وإكراههم على اعتناق التشيع والتي شغلت حيزا واسعا في مجالسهم بل وكانـــــت تتصدر المجالس في أغلبها.

وكانت هذه المجالس تعقد،-كما يقال- في بيت الحكمة ،لكن غالبا في المساجد وفي قصور أمراء بني عبيد ، وغدت شغل الأمراء و اشتغل بها عامة الناس على اختلاف مذاهبهم وأفكارهم ، خاصة تلك التي تعقد في المساجد ، أما التي تعقد في البلاط العبيدي ، فقد كان يجري فيها حوار ونقاش ساخن بين الأمراء العبيديين وفقهاء المذاهب الأخرى خاصة المذهب المالكي ، بالإضافة إلى وجود مناظرات بين الأمراء ومعارضيهم ، كذلك كان للمسائل الفقهية واللغوية نصيب من هذه المناظرات ، مما جعلها تزدهر وتفسح لنفسها مكانا مرموقا بين أشكال النثر الأخرى .

وبتطور الحياة الثقافية و الأدبية ببلاد المغرب تطورت المناظرات وأخذت منحى جديدا لتعقد بين الأدباء و الشعراء و الأمراء،وغدت المناظرة في شكل منافرات و مفاخرات شعرية بين الشعراء كما هو الحال عند "ابن رشيق" و "ابن شرف" في بلاط "المعز الصنهاجي"، وانتشر هذا الفن في مجالس أمراء و ملوك المغرب، وتنافس الكتاب والشعراء فيها بإبرازهم لبراعتهم اللغوية، وصقلها بالحجج والبراهين، كما اعتمدوا في هذا على القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، لأن البيئة الدينية التي عاشوا فيها تفرض عليهم هذا النوع من الأدب واشتغل المغاربة بهذا العلم زمنا طويلا أبانوا علو كعبهم فيه.

ومن أسباب ازدهار هذا الفن أيضا ، الاهتمام الكبير الذي أولاه أمراء هذا العصر لهذا الفن ورعايته في مجالسهم الخاصة،فقد اتسم أمراء الدولة العبيدية بقوة الجدل في المجالس التي يعقدونها، نظرا لسعة ثقافتهم وتمكنهم من الأداء ووسائله وتفانيهم في الدفاع عن معتقداتهم ، و إزالة ما علق به من شوائب أتت عليه من خصومهم الذين يضمرون العداء الكبير لمذهب الشيعة ،ومن سوء فهم الأتباع لذلك نراهم قد سعوا في تحقيق مبادئهم بوسائل ملتوية ، ومن نظرة

فوقية،نظرة الحاكم والمالك لرقاب عبيده.كما أنهم عملوا جاهدين على تشجيع هذا الشكل النثري،حتى أن الأمراء قد حملوا أنفسهم وأولادهم على ذلك لا لشيء سوى للتمكين لعقيدتهم ومذهبهم.فهذا "المنصور" يشجع "المعز" على مناظرته حيث قال النعمان: « سمعت المعز يقول في مجلس : كان المنصور إذا أفادني شيء من العلم والحكمة ربما قال لي : عاودني فيه ، وسلني عنه ، وعن معانيه ، وناظرني ، واحتج علي ، وأرني أنك قصرت عن فهمه . وإن كنت قد فهمته وما أجللتني فيه وأعظمتني ، فلا يكون في مثل هذا من تهيبك مراجعتي فيه . فبذلك تعظم عندك الفوائد وتزيد .فكنت أفعل ذلك فيتدفق علي من بحور العلم والحكمة منه ما لم أكن أظنه فهكذا فافعلوا تأخذوا الحكم وتكثر الفوائد عندكم »[1] .

فمن خلال هذه المناظرات اتضحت ملامح ثقافة العبيدين وخصائصها ومعالم مذهبهم، لذلك خطوا خطوات عملاقة في هذا الشكل النثري بل أصبح أبرز شكل أستخدم في هذا العصر .

و على الرغم مما ساد الفترة الصنهاجية من جو داع لنشوء مثل هذا النوع النثري سيما الانقلاب السياسي الذي حدث على عهد" المعز بن باديس"، و الذي يستدعي مثل هذه الممارسات إلى أن الباحث في الفترة الصنهاجية خاصة، لن يقف على أي نص نثري مناظراتي ، إلا ما جاء إشارة له فقط ، و أما عن أيام المحنة فلا مراء من أن المقصود منها إعلان" المعز بن باديس "قطع ولائه للعبيديين، و محاربته آنذاك لكل متعصب شيعي ، رغبة منه إحلال المذهب السني بدلا منه ، ومن أبرز المناظرين في العصر الصنهاجي نجد:" سعيد بن محمد الغسان" ، الذي عاش مابين(350-450 هـ) [2].

إن عدم العثور على أي نص للمناظرات يعكس لنا حال المجتمع آنذاك ، حيث الخراب الذي طال المنطقة مع الحملة الهلالية، فمما لا شك فيه أن الفاطميين كان أول أوامرهم للهلاليين القضاء على كل متكلم تعصب للمذهب السني، باعتبار ما فعله قبله المعز وقضائه على التشيع ورموزه ، و هذا هو الوازع المباشر لعدم العثور على نص مناظرات كامل.

---

[1] القاضي النعمان:المجالس والمسايرات، ص 133.

[2] رابح بونار:المرجع السابق، ص 391.

-المناظرة أنواعها ومجالسها:

لم تقتصر المناظرات على علم الكلام فقط، و إنما سادت بين طوائف شتى من النحاة والفقهاء و المناطقة، والأدباء وغيرهم ..." ويمكن تميز أنواع من المناظرات، منها المناظرة التعليمية والغاية من التناظر فيها التدريب على الفتوى والحصول على المهارة في استنباط الأحكام الفقهية[1] " لهذا نرى أنها تنحصر غالبا بالتناظر في كتب المالكية الرئيسة وفي مقدمتها الموطأ والمدونة والمستخرجة وقد عرفت في المغرب وحتى في الأندلس ،ومن بين مجالس التناظر في" المدونة" ، مجلس" أبي إسحاق إبراهيم بن أحمد" (ت 513هـ)من سبته.و مجلس "أبي عبد الله محمد بن عيسى بن حسين "من سبته.

وعند محاولة رسم ملامح أولية لمجلس المناظرة ، نرى أن عدد الحاضرين فيه غير محدد وأحيانا يحضره عدد كبير من الفقهاء والطلاب ، وله وقت معلوم يعرفه المهتمون بحضور المجلس ، فقد كان مجلس مناظرة" أبي بكر احمد بن عبد الرحمن الخولاني" في القيروان سنة (ت 432 هـ) أيام الاثنين والأربعاء والجمعة من كل أسبوع[2] ،وفي قرطبة كانت مجالس "أبي عمر أحمد بن عبد الملك" يومي الاثنين والثلاثاء[3] أما مكان عقدها فقد كان بعضها في المسجد مثل مجالس "عبد الله بن احمد بن خلوف في جامع سبته[4] وكان مجلس "أبي يوسف الزناتي في مسجد رحبه الباجي" في اشبيلية[5].

وإذا كانت الغاية الرئيسة من تلك المجالس الدرس والاستفادة العلمية فقد شهدت القيروان مجالس أخرى يمكن اعتبارها انعكاسا لظروف سياسية مرت بها ، فخلال الحكم العبيدي الفاطمي تعرض فقهاء المالكية للمضايقة من قبل العبيديين ودعوتهم لاعتناق المذهب الاسماعيلي[6] .مما تطلب من فقهاء المالكية اتخاذ مواقف دفاعية لتأكيد تمسكهم بالمذهب المالكي ولإيجاد الوسيلة

---

[1]القاضي عياض ، المصدر السابق ، ص 124.

[2]القاضي عياض: ترتيب المدارك، ج5 ، ص 156.

[3]نفسه،ص 7- 129.

[4]ابن الأبار : التكملة لكتاب الصلة،تح عبد السلام المهراس،دار الفكر للطباعة،بيروت،1995،ج2، ص 224.

[5]نفسه، ص 390.

[6]ابن الدباغ ، المصدر السابق،ج2 ،ص70.

العلمية المناسبة لمقاومة العبيديين . وقد شهدت القيروان مجلس مناظرة بين فقهاء المالكية عقد لتلك الغاية في جامع القيروان برئاسة "ربيع القطان"،وممن حضره من الفقهاء" أبو سعيد خلف بن عمر و"أبو الأزهر بن معتب"" أبو محمد بن أبي زيد" وعبد الخالق بن شلبون" وابن التبان" وأبو الحسن القابسي[1] .و"محمد بن أحمد السدري" وعمر بن محمد العسال(ت343هـ) و"عبد الله بن عامر بن الحداد "وابن أبي الليث مولى ابن اللباد وعبد الله بن الأحدري[2] .وتمت بين تونس والقيروان مناظرة بين" البهلول بن راشد" و"علي بن زياد التونسي" حول رواتب الجنود، هل هي حلال آم حرام ، فحرمها" البهلول بن راشد" بينما حللها" علي بن زياد ، باعتبارها حق لهم من بيت المال حتى وان أشترط عليهم أن يفعلوا أمورا محرمة،فرواتبهم حلال والشرط المفروض عليهم باطل[3] .ويبدو أن هذه المناظرة نشأت كرد فعل على بعض الأعمال التي قام بها الجند تنفيذا لأوامر صادرة لهم ولم يرض عنها الفقهاء. لا سيما أن نزعة الزهد والتعبد غلبت على عدد من فقهاء القيروان في ذلك الوقت ومنهم "البهلول بن راشد"، الذي كان يتحقق من أصل كل شيء ينفقه حلال هو أم حرام[4] .

كما نشأت عدة مناظرات بين فقهاء القيروان حول عدة مسائل علمية اختلفوا فيها ومنها مسألة الإيمان وكان الخلاف بين" أبي محمد عبد الله بن إسحاق بن التبان" وأبي محمد بن أبي زيد" و"أبي الحسن القابسي" والسبائي وبسبب ذلك تم الاتفاق على عقد مناظرة لبحث هذا الموضوع ، وكانت بداية المناظرة "لابن التبان" الذي ألقى ما عنده ومع هذا أبى الفقهاء المناظرون إلا مخالفته ، وقد أخبرهم أنه درس الكتاب الذي أخذ منه المسألة التي ألقاها عليهم ألف مرة ومع هذا أصروا على رأيهم فأخذهم إلى داره وأخرج الكتاب المقصود وأراهم المسألة فيه ، وتمنى بعد ذلك أن لا يدخل في مناظرة معهم[5] .

---

[1]القاضي عياض :نفسه،ج5،ص297-310.

[2]ابن فرحون: المصدر السابق، ص 111.

[3]القاضي عياض ، نفسه،ج297،5.

[4]نفسه،ج3، ص87-88.

[5]القاضي عياض ، المصدر السابق،ج6،ص250.

ومع حدة الصراع الفكري العقائدي، خاصة من جانب الشيعة الإسماعيلية" الذين تأثرت قضاياهم المذهبية العقائدية بما تسرب إليها من الديانات والعقائد الأخرى من: مجوسية و مانوية ، ومزدكية.... "[1] ألحقت وأدخلت على صفات الله والأئمة المعصومين حسب اعتقادهم، وفكرة المهدي المنتظر وغيرها من الأفكار والمعتقدات التي سبق الإشارة إليها.هذه الأفكار التي شغلتهم عن أنفسهم لاقت صدى من لدن أهل السنة ، الذين ما لانوا وما استكانوا في مواجهة هذه الأفكار والمعتقدات في مجالس التناظر بكل ما أوتوا من ثقافة وقوة ،وبرزت منهم فئة نصرت المذهب المالكي بمناظرة علماء العبيديين.

و لقد كانت المقاومة الجدلية ،هي أقوى و أوسع أنواع المقاومة التي قام بها علماء السنة ضد الشيعة ، وقد سطع في سماء هذه المساجلات و المناظرات العقدية عدد كبير من العلماء ، كانو لسان أهل السنة الناطق و الذاب عن بيضة وحوزة هذا الدين ،ومنهم:

"ابن البردون"(ت 399هـ) ،كان قوي الحجة في الجدل ، لم يكن أحد أقوى منه في الجدل و المناظرة و إقامة الحجة على المخالفين ،ومنهم الإمام "محمد الرقادي القيرواني" (ت316هـ) ،الذي كان من أئمة هذا الشان، وكانت له في هذا الميدن مقامات مشهودة ، ذب فيها عن مذهب أهل السنة.وممن لمع نجمه أيضا في سماء هذه المساجلات،"عبدالله بن التبان" (ت371هـ)[2].وقد اشتهر بسبب مناظراته لبني عبيد، حتى وفد إليه كثير من طلبة العلم و من العلماء لعلمهم بدفاعه المستميت عن مذهب أهل السنة، وقد حفظت لنا المصادر مناظرة عن أفضلية فاطمة أم عائشة ، فقالوا له، أيهما أفضل فاطمة، أم عائشة ، رضي الله عنهما ، فقال عائشة ، وذلك لأمرين اثنين.

الأمر الأول : أن عائشة إذا مات عنها زوجها فلا يجوز أن تتزوج غيره بعده أبدا،بينما فاطمة لها أن تتزوج عشرين بعده.

---

[1] الشهرستاني : المصدر السابق ، ج1، ص49-53.

[2] هو أبو محمد عبد الله بن إسحاق بن التبان ،كان من العلماء الراسخيين و الفقهاء المبرزين ضربت إليه أكباد الإبل من الأقطار لعلمه بالذب عن مذهب أهل السنة، برع في علوم القرآن و الفقه و النحو و اللغة و الطب ،وكان مستجاب الدعوة ، توفي سنة(371هـ).(ينظر :الدباغ:معالم الإيمان،ج2،ص432.)

الثاني: فلأنها مع النبي صل الله عليه وسلم في منزلته يوم القيامة،وفاطمة مع علي رضي الله عنهما في منزلته يوم القيامة، ودرجة النبي صل الله عليه وسلم أعلى درجة من علي –رضي الله عنه–[1].وكان فضلا عن براعته في الجدل و المناضرة ، شجاعا مقداما ،ومما ذكره الدباغ ،من أن "عبدالله المعروف بالمحتال"، صاحب القيروان قد شدد في طلب العلماء ، فاجتمعوا بدار "ابن أبي زيد القيرواني" فقال لهم "ابن التبان"، أنا أمضي إليه أبيع روحي من الله دونكم لأنه إن أأتى عليكم وقع على الإسلام وهن عظيم [2]،وفعلا ذهب اليه و أقام عليه الحجة هو وجماعته الذين جاء بهم ليناظروه.

وبعد أن أفحمهم وهزمهم في مناظراته ،أرادوا استمالته ،ولكنه أبى ،وقال: شيخ له ستون سنة يعرف حلال الله وحرامه ويرد على اثنتين و سبعين فرقة ، يقال له هذا ؟ لو نشرتموني في اثنتين مافارقت مذهبي[3].

ومنهم أيضا الإمام "عمرو ابن هارون الوراق" (ت 379هـ)،فقد كان هو الآخر فارسا من فرسان هذا الميدان ، ونجما ساطعا في سماء هذه المساجلات ، وكان هذا الفن من فنون العلم أكثر علمه. ولعل أبرزهم على الإطلاق هو "ابن الحداد" الذي لم يخف هيبة السلطان أو بطش العبيديين، بل كان رابط الجأش في المناظرة واثقا من قوة حجته وقدرته ،قال عنه "أبو الأسود موسى القطان"[4]، لو سمعتم "سعيد بن محمد "في تلك المحافل –ويقصد مناظراته للشيعة– وقد اجتمع له جهارة الصوت و فخامة المنطق وفصاحة اللسان و صواب المعاني لتمنيتم ألا يسكت[5]. واشتهر ابن الحداد بمناظراته الكبيرة مع الشيعة ودعاتهم وذكرت مناظراته في" رياض النفوس" للمالكي ،و طبقات الخشني و غيرهما.

و السبب في مناظرات" ابن الحداد" للشيعة ،أنه لما ملك بنو عبيد القيروان حاولوا تبديل معتقد أهل البلد و أجبروا العامة على مذهبهم بادئ الأمر بالمناظرة و إقامة الحجة ،مع التهديد و

---

[1] الدباغ : معالم الإيمان ، ج3، ص93.

[2] نفسه،ص113.

[3] الدباغ : المصدر السابق ، ج3، ص،115.

[4] أبو الأسود موسى بن عبد الرحمن القطان: كان فقيها حافظا بارع الحفظ ثبتا صالحا ،سمع من محمد ابن سحنون و أبي العرب وغيرهما ، توفي ينة 306هـ(ينظر : الدباغ : نفسه ، ج3 ،ص 335–339).

[5] نفسه ، ج3، ص،309.

القتل ، فلجأ أهل البلد إلى أبي سعيد و سألوه التقية فأبى ،وقال : "قد اربيت على التسعين ، ومالي في العيش حاجة ولا بد لي من المناظرة عن الدين، وأن أبلغ في ذلك عذرا [1]، ففعل وصدق ،وكانت المجالس التي تعقد ،منها ماهو عام يحضره جمع كبير من علماء أهل السنة ،على اختلاف مذاهبهم الفقهية و دعاة الشيعة، ورغم احتلاف مذاهب أهل السنة إلا أنهم انبروا كلهم للدفاع عن السنة مترفعين على حساسيتهم ،وخصوماتهم الفقهية ومنها ماهو خاص يحضره عالم سني واحد مع داعي من دعاة الشيعة،وفي أغلب الأوقات يحضر" أبو عبدالله الشيعي" أو أخوه "أبو العباس". وقد كانت مواضيع هذه المجالس، تدور في أغلبها حول القضايا الخلافية بين السنة و الشيعة إلى يوم الناس هذا، فالشيعة يحاولون إثباتها بحشد إثباتاتهم وأدلتهم وبراهينهم،ومن جهتهم أهل السنة يفندونها ويدحظون حججهم بأدلة و براهين مقنعة.

ومن هذه المواضيع ، إمامة علي –رضي الله عنه– و إمامة المفضول مع وجود الفاضل ، وصلاة التراويح ،ونكاح المتعة ...وغيرها من المواضيع ، التي يسعى الشيعة إلى اثباتها بالأدلة المتوفرة عندهم.

وكانت هذه المجالس كثيرة ومتعددة،وقدرها بعضهم بأربعين مجلسا، ومن نماذج مناظرات هذه الفترة و أهم المسائل المطروحة من خلالها مناظرة "أبي عثمان سعيد بن الحداد" "لأبي عبد الله الشيعي" حول فهم السنة والموالاة : أما مناظرته للداعي الشيعي جاءت بطلب من هذا الأخير ، وفي هذا يقول أبو عثمان: « أرسل ورائي الشيعي– لعنة الله عليه– وما كنت آتي إليه إلا برسول. فدخلت إليه في قصر(إبراهيم بن أحمد الأغلبي)[2] ،وحوله جماعة من أصحابه، وجماعة ممن ينسب إليهم العلم من أهل بلدنا فسلمت ثم جلست .

فبدأ أبو عبد الله بطرح سؤال على قاضي القيروان "إبراهيم بن يونس" (ت 308هـــ)[3].

فقال أبو عبد الله" لإبراهيم بن يونس "، وقد قيل له إن هذا الشيخ كان قاضيا على هذه المدينة. بأي شيء كنت تقضي ؟

فقال له إبراهيم: بالكتاب والسنة.

---

[1] الدباغ :نفسه، ج2، ص298.

[2] محمد اليعلاوي: الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي،ص41.

[3] أبو العرب:المصدر السابق ، ص79.

فقال له أبو عبد الله : فما السنة ؟

فقال إبراهيم: السنة...السنة... ا وقد عجز" إبراهيم " عن مجاراته.

لذلك وجد "سعيد بن الحداد" ضرورة مشاركته في المناظرة فاستأذن من أبي عبد الله للمشاركة إذ كانت المناظر ة غير مقتصرة على" القاضي" فأذن له" أبو عبد الله" بالمشاركة.

(قال أبو عثمان) فلما سمعته على قوله ((السنة... السنة...)) قلت لأبي عبد الله : المجلس مشترك أم خاص ؟

فقال: مشترك (أي بمعنى يستأذن في التدخل والاشتراك في النقاش).

(فقال أبو عثمان) فقلت:" أصل السنة في كلام العرب: المثال الذي يتمثل عليه، قال الشاعر:

تريك سنة وجه غير مقرفة * ملساء ليس بها خال ولا ندب[1] .

أي صورة وجه ومثاله. والسنة محصورة في ثلاث : الائتمار بما أمر به رسول الله (ص) والانتهاء عما نهى عنه ، والإتساء به فيما فعل.

قال الشيعي : فإن اختلف عليك فيما نقل إليك عن النبي(ص) وجاءت السنة من طرق ؟

فقلت له: أنظر إلى أصح الخبرين نقلا ، فآخذ بأصحهما ، وأطلب الدليل على موضع الحق في أحد الحديثين . ويكون الأمر في ذلك كشهود عدول اختلفوا في شهادة : فلا بد من طلب الدليل على موضع الحق من الشهادتين.

فقال الشيعي : فلو استووا في الثبات ؟

فقلت له : يكون أحدهما ناسخا والآخر منسوخا.

قال : فمن أين قلتم بالقياس ؟

فقلت له : قلنا ذلك من كتاب الله – عز وجل –

قال : فأين تجد ذلك ؟

قلت : قال الله –عز و جل – : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياما ليذوق وبال أمره عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه والله

[1]ذو الرمة: الديوان، شرح :الخطيب التبريزي،كتب مقدمته وهوامشه وفهارسه:مجيد طراد ،دار الكتاب العربي،بيروت،ط2 ، 1996،ص 25.(ينظر مطلع القصيدة: ما بال عينك منها الماء ينسكب).

عزيز ذو انتقام ﴾ [1]. فالصيد معلومة عينه، والجزاء الذي أمرنا أن نمثله بالصيد المعلومة عينه ليس بمنصوص.فعلمنا بذلك أن الله تعالى إنما أمرنا أن نمثل ما لم ينص ذكر عينه بالقياس والاجتهاد. ومنه قول الله – عز وجل– ﴿ يحكم به ذوا عدل منكم﴾ فلم يكله إلى حاكم واحد حتى جعلها اثنين ليقيسا ويجتهدا.

فقال أبو عبد الله الشيعي : ومن ذوا عدل ؟ –وأومأ أن "ذوا عدل " إنما هم قوم مخصصون بنص الآية. وهنا يشير الشيعي ضمنا إلى كون ذوا عدل هم أصحاب دعوته التي يدعو إليها.

فقلت : هم الذين قال الله – عز وجل – فيهم في آية المراجعة : ﴿ وأشهدوا ذوي عدل منكم ﴾[2]. ومثل ذلك في تثبيت القياس قوله –عز وجل –: ﴿ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ﴾ [3]، والاستنباط غير منصوص.

ثم عطف على موسى القطان فقال له: أين وجدتم حد الخمر في كتاب الله تعالى ؟

فقال له موسى : قال النبي (ص) : من شربها فاضربوه بالأردية . ثم إن عاد فاضربوه بالأيدي. ثم إن عاد فاضربوه بالجريد

فقال له أبو عبد الله ، على النكير منه : ايش هذا ؟ أقول لك : أين وجدتم في كتاب الله ؟ تقول : اضربوه بالجريد ؟

(قال أبو عثمان) فقلت له : إنما حد قياسا على حد القاذف فأنه إذا شرب سكر ، وإذا سكر هذى ،وإذا هذى افترى : فوجب عليه ما يؤول أمره إليه ، وهو حد القاذف .

فقال لموسى القطان : أو لم يقل النبي (ص) : أقضاكم علي ؟ – فجعل موسى ينص عليه الحديث : ((... وأعلمكم بحلال الله معاذ، وأرأفكم أبو بكر، وأشدكم في دين الله عمر)) رضي الله عنهم أجمعين.

فقال له الشيعي: وكيف يكون أشدهم في دين الله، وقد هرب بالراية يوم حنين ؟

فقال له موسى : ما سمعنا بهذا ولا نعرفه

---

[1] المائـــــــدة، الآية97.

[2] الطلاق،الآية 2.

[3] النساء، الآية 82.

(قال أبو عثمان) فقلت له: تحيز إلى فئة كما أنزل الله تعالى. قال الله تعالى : ﴿ إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة ﴾ [1]. فمن تحيز إلى فئة كما أمر الله تعالى ليس بفار .

فقال : وأي فئة أكثر من رسول الله (ص) وقد كان حاضرا ، ولم يتحيز إليه ؟

فقلت : جاء عنه (ص) أنه قال : (عمر فئة) . فمن تحيز إلى عمر فقد تحيز إلى فئة .

فسكت . فحركه بعض أصحابه، وقال : ألا تسمع ما يقول الشيخ ؟ فقال : صدق .

(ثم قال لأبي عثمان): هلا كان عندك من قول الله – عز و جل – حكاية عن نبيه (ص) في قوله لأبي بكر﴿ لا تحزن إن الله معنا ﴾[2].دلالة أن حزنه كان مسخوطا لأن النبي (ص) نهاه عنه ؟

(قال:) فقلت: لم يكن قوله له إلا تبشيرا بأنه آمن على رسول الله (ص) وعلى نفسه معه مما كان يحذره من غلبة المشركين. وكان خوفه لما خاف من ذلك من اجل أنه لا يظهر على غيب ما تجري به مقادير الله –عز وجل – ورسول الله (ص) ينزل عليه الوحي بغيب ما يكون قبل أن يكون، فكان في قوله :(لا تحزن ، إن الله معنا) ما يبين أن الله معهما ، بنصرته إياهما ، وذلك لا يكون إلا بوحي من الله – عز وجل – . وقد بين الله تعالى إطلاعه أنبياؤه المرسلين على غيبه بقوله: ﴿ فلا يظهر على غيبه أحدا ، إلا من ارتضى من رسول ﴾[3] .

فقال له أبو عبد الله: وهل تجد لهذا نظيرا من التنزيل: " لا تفعل "، يراد به التبشير ولا يراد به النهي عن أمر مسخوط ؟

فقال له أبو عثمان : نعم، قال الله –عز وجل – لموسى وهارون –عليهما السلام–﴿ لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى﴾[4] . لما خاف من فرعون أن يفرط عليهما أو أن يطغى... »[5] .

---

[1] الأنفال ، الآية 16.

[2] التوبة ، الآية 40.

[3] الجن، الآيتين 26–27.

[4] طـــه، الآية 45.

[5] محمد اليعلاوي: الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي،ص40–45 .

وبعد مماطلة" أبي عبد الله" ما كان من" ابن الحداد" إلا أن أخبره أن الحق بين وأنه يحاول إكراههم على الدخول في مذهبه وطلب منه أن لا يجبرهم على ذلك فانتهت المناظرة بينهما مع معارضة أصحاب" أبي عبد الله الشيعي" الحاضرين وانزعاجهم من" سعيد بن الحداد[1].

فالقارئ لهذه المناظرة يقف عند التزام المناظر السني بالأدلة الشرعية في مناظرته فلا يرد الخطأ بخطأ والباطل بباطل كأن يستدل بما هو مذموم في الشرع كالأحاديث الواهية والآراء الشاذة ،بل كان يناظر مناظرة شرعية بالعقل الصريح فلم يلزم لفظا بدعيا ولا مخالفا لدليل شرعي ولا عقليا فهو يسلك طريقة أهل القرآن والحديث،بإيراده للآيات القرآنية و الأحاديث النبوية التي أجمع عليها عامة المسلمين.

وهكذا نرى أن" ابن الحداد" ما كان يحضر إلى مجالس الداعي في بداية الدولة العبيدية.وهذا يدل على معارضته للنظام الجديد، ومن ورائه الدعوة الإسماعيلية الشيعية التي حلت بالمنطقة، وذكره "قصر إبراهيم بن الأغلب" هو تصريح ضمني بالولاء له وللسلطة الأغلبية البائدة ،وهنا يصور لنا المجلس والحضور الذين استصغرهم بأقواله.وجماعة ممن ينسب إليه العلم من أهل بلدنا،وكان حضوره بادئ الأمر "ليسمع عبيد الله الشيعي" من علماء المنطقة.

كما ناظر" سعيد بن الحداد" قاضي العبيديين في القيروان" عبد الله بن عمر المروذي " في مناظرة موضوعها قيام رمضان، فاخبره" ابن الحداد" بان نتيجة هذه المناظرة معروفة مسبقا وطلب منه عدم إجرائها فرفض "المروذي" فناظره " ابن الحداد "وتغلب عليه ، وفيها رفض المروذي قيام رمضان واعتبره بدعة حيث أرسل" المروذي" إلى عدد من فقهاء القيروان مالكية وحنفية وطلب منهم إجراء مناظرة.

هذا بالإضافة إلى مناظرة أخرى جرت بين "ابن الحداد "وأبي عبد الله الشيعي" في مسألة فقهية "باب الفاضل و المفضول" ، ومبدأ النص و الاختيار،وهو بين علي و أبي بكر- رضي الله عنهما- وهذا في من له الأحقية في خلافة المسلمين بعد وفاة الرسول صل الله عليه وسلم. "قال ابن الحداد :هذا مجلس دار بيني وبينه ما رأيته أقرب إلى الإنصاف منه فيه وكأنما في مناظرته

---

[1] المالكي:المصدر السابق،ج2، ص76-87.

لي إنما يناظرني عن مذهب غيره –وسنرى في التعليق الختامي من أبي عثمان ابن الحداد رأيا مخالفا لهذا الإطراء–"[1].

وفي هذه المناظرة يقول ابن الحداد: "...وذلك أن المسألة جرت بيننا و بينه في باب الفاضل والمفضول .لأن من أصل مذهبه القول بأنه لا يجوز تقديم المفضول على الفاضل بعد الاتفاق من الخصمين على الفاضل –علي كرم الله وجهه–[2] .

وجواب الشيخ" ابن حداد" ومجاراته في هذه المناظرة ،هو مجاراة للخصم وليس على مجمل الحقيقة، أي على فرض التسليم بأن عليا أفضل من أبي بكر –رضي الله عنهما ، لأن أهل السنة متفقون على أفضلية أبي بكر" على سائر الصحابة،وكما جاء عند القرطبي أن فضلهم حسب ترتيبهم في الخلافة

فقال لي : أليس قولك إجازة تقديم المفضول على الفاضل ؟

فقلت : أعزك الله بتوفيقه . أنا متبع في ذلك لكتاب الله وسنة نبيه – عليه السلام –.وذلك لا يخفى عن ذي لب نظر في كتاب الله وسنة رسول الله (ص) و لا يعدوهما إلى غيرهما.

قال لي: وأين تجد ذلك في كتاب الله ؟

قلت له :قال الله:﴿ وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا . قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه قال: إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم ﴾[3].

فقال عند ذلك كالمغضب : ليس القصة كما توهمت .

فقلت له: والأمر الذي لم أتوهمه، وفيه الحق عندك، هل إلى ذكره من سبيل ؟

فقال : نعم . ذكرت خبر طالوت واحتججت فيه بقول نبيهم وقول أهل الجيش ، فاقصد إلى موضع حجتك ههنا .

(ف)قـلت : أعز الله الأمير .لما كان خروج طالوت من فوق إذن نبيهم ، ثبت أن الله قدم المفضول على الفاضل، إذ كنا لا نشك نحن ومن خالفنا، أن نبيهم أفضل من طالوت ، وطالوت هو المفضول .

---

[1] محمد اليعلاوي: الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي،ص56.

[2] محمد اليعلاوي: المرجع السابق،ص56.

[3] البقرة ، الآية 245.

فقال لي: وهكذا اعتقادك ؟

فقلت : نعم ، أيها الأمير .

فقال لجميع من حضره ممن حوله من أهل المجلس: افهموا عنا.ثم أومأ إلى وقال : إنما كان خروج طالوت من تحت يدي نبيهم، لا كما توهمت أنه من فوق إذنه ، لأن نبيهم هو الذي أخبرهم أن طالوت مقدم على الجيش. فلما كان هذا هكذا ، كان الفاضل بعد هو المفضول : فقد تبين فساد قولك وتناقضه .

فقلت له : أني بإذنك استوفي حجتي . فإن أذنت لي في الكلام أتيت على ما أريد [1].

فقال لي: قل، ولا تبق من حجتك شيئا.

فقلت له : نفس الآية لي شاهد ، ولا تكون الحجة من غيرها : وذلك أن الله اخبر عن نبيهم أنه قال لهم : أن الله قد بعث لكم طالوت ملكا ، ولم يقل : أني بعثته لكم . فلما جاء الخبر من نبيهم أضافه إلى الله لا إلى نفسه ، وجب بهذا أن أمر طالوت من فوق إذن نبيهم ، وكذلك قالت الآية . (ثم قلت له) وهذه سنة رسول الله (ص) : من ذلك أن رسول الله (ص) أمر على جيش "عمرو بن العاص" ، فكان يقيم الفيء ، ويأمر وينهى فيطاع ، ويصلي بهم الصلوات ويشاورونه ويستأذنونه في جميع شانهم ، وتحت يديه في الجيش أبو بكر وعمر ، وهما جميعا أفضل منه لا يشك في ذلك أحد .

وأيضا أن النبي (ص) أمر على جيش "زيد بن حارثة".وتحت يديه من الجيش "جعفر بن أبي طالب "–رضي الله عنهما –وهو أفضل منه، فلما ثبت ذلك عندنا وقام مقام العيان ، جاز للأمة تقديم المفضول على الفاضل .

فقال لي: نحن لا نقول كقولك أن للأمة أن تجتمع فتقدم على نفسها إماما . و إنما يكون الإمام من اصطفاه الله ورسوله . وأما من لم يقدمه الله على خلقه، ولم يقدمه رسول الله (ص) فكيف له و التقديم ؟

فقلت : أعز الله السيد . إن الذي اصطفاه الله ورسوله لا يعدو إحدى منزلتين: أما أن ينطق به كتاب ناطق أو سنة ثابتة عن رسول الله . ولما لم نجد في كتاب الله أن الله نصب إماما وفرض

---

[1] محمد اليعلاوي: المرجع السابق،ص57-58.

طاعته ، ولا رسوله : لم يقم إنسانا بعينه فيقول : أيها الناس هذا وصيي وخليفتي من بعدي ، وكان يقول صباحا ومساء : خلفت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا : كتاب ربي وحواريي أصحابي ، ' و' علمنا الحلال والحرام وما نأتي وما نذر ، كان من اجتمع عليه المسلمون ثابت الأمر صحيح الأحكام يعمل بكتاب الله وسنة رسوله . وما لم نجده في كتاب الله ولا سنة رسوله فهو مأخوذ من الاجتهاد ومن إتباع السلف المتقدمين.

هذا قولنا ، والأمر على ذلك إلى هذا الوقت .

فقال لي : قد ثبت فساد هذا عليك في صدر مناظرتنا ، مما أوردته عليك في تقديم المفضول على الفاضل [1].

(قال) :فلما سمعت كلام رجل يباهت العيان ويزول عن الحق ، رأيت الصواب في الإعراض عن معارضته . وذلك أني لم احتج عليه بحجة عقل ولا وزن من قياس، وإنما قابلته بكتاب الله و أفعال نبيه (ص) و إجماع المسلمين. و جعل يدخل علي كثرة الاستفهام وكثرة التكرار بلا حجة حاسمة ولا برهان مبين، نعوذ بالله من الحيرة في الدين، وإياه نسأل المعونة و التوفيق[2].

هذه بعض المناظرات التي جمعت علماء السنة و الشيعة ،في القرن الرابع الهجري ، وجاءت في معظمها على هذا النحو، وهذه العينة ،هي جزء ضئيل مما دار بين الفريقيين ،في الجوانب العقدية و الفقهية ،ومنها المشتركة و الخاصة.

ومما سبق نرى أن مجالس المناظرة يطبعها جو من التفاهم و الاحترام بين المتناظرين، خاصة مع البدايات الأولى للدولة العبيدية،وما موقف " ابن الحداد" في قوله عند تدخله « (قال أبو عثمان) فلما سمعته على قوله ((السنة... السنة...)) قلت لأبي عبد الله : المجلس مشترك أم خاص ؟ ورد الداعي الشيعي بالقول: مشترك »[3].إلا دلالة على أدب الحوار والجدال بين المتخاصمين، وأن هناك هامش من الاحترام المتبادل بينهم هذا من جهة ومن جهة أخرى هي طريقة لبقة في الاشتراك بالمناظرة والجدال وبوجود حكم يرجع إليه في تنظيم أمر المناظرة.

---

[1] نفسه،ص59.

[2] محمد اليعلاوي: الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي،ص60.

[3] نفسه ،ص41.

لكن الاتهام الأخير في المناظرة الأخيرة –الفاضل والمفضول– تخالف ما سجله "أبو عثمان "في أول روايته للمجلس من أنه كان أقرب إلى الإنصاف هذه المرة.

هذه صورة من صور المجالس التي كانت تجمع بين دعاة الشيعة العبيديين وعلماء السنة والأسلوب الذي تتخذه هو أسلوب المناظرة حول المسائل التي كان الشيعة يدعون إليها، ويريدون أن يحملوا الناس عليها.لكن للإشارة أن هذه المناظرة مع البدايات الأولى لقيام الدولة العبيدية، لذلك نجد أن موقف الداعي لا يخلو من تسامح مع خصومه في المذهب .

و لعل راوي هذه المناظرات–مما لاشك فيه أنه سني– انشغل بإظهاره براعة الاحتجاج السني، ولم ينتبه إلى الموقف الشيعي من إتباع آداب الحديث والتسامح مع اللآخر.هذا التسامح هو سياسة اتبعها دعاة الإسماعيلية في بداياتهم الأولى في تأسيس دولتهم ومحاولة استمالة المغاربة للدخول في الدعوة الشيعية.كما أن النتيجة التي يصل إليها الدارس لهذه المناظرات على طولها، هي أن دعاة العبيديين لم يكونوا –في أول أمرهم على الأقل –أهل تعسف وجبروت كما يطيب لمؤرخي السنة أن يصفوهم . فبالرغم من انحياز صاحب النقل إلى جانب السنة، فإن الأخوين الداعيين يظهران من الأريحية والتسامح ما لم يكن في حسبان الراوي ودارس سيرة العبيديين .

ولعل هذه النقول في الترجمة الطويلة ترمي إلى تعداد مناقب الفقيه القيرواني السني وتمكنه من أدب المناظرة وقوته في ذلك والإشادة بشجاعته ولعلنا من خلال ملخصات هذه المجالس الطويلة والمتنوعة للقضايا المطروحة للجدل والنقاش و التناظر وهي نماذج متنوعة في القضايا العقائدية والفقهية والكلامية وحتى اللغوية التي جرت في القرنيين الرابع و الخامس الهجريين .

على أن أبرز مواضيع المناظرات وأهمها ورودا في شتى مجالس التناظر هي مسألة استحقاق الإمامة، هذه المسألة هي الشغل الشاغل وأهم أثر من آثار قيام دولة بني عبيد ومظهرا من مظاهر النشاط الأدبي الناشئ عن ذلك.

وقد أورد "القاضي النعمان " مناظرة في مسألة الإمامة بين المعز وعالم سني أورد مقتطفات منها ،يقول فيها :" سمعت المعز يوما يقول : والله لا يخفى حقنا عن الناس ، ولو أنصفوا من

أنفسهم واطرحوا أهواءهم ونظروا بعيون الإنصاف منهم لما استتر ذلك عنهم، وما يستر ذلك عن جاهلهم إلا جهله ولا يتخلف عنه عالم إلا شحا على رئاسة .

ولقد فاوضت فلانا – وذكر رجلا من علماء العامة عندهم وأكابرهم – وبسطته في القول وما زلت به إلى أن أقر بحقنا و اعترف به اعتراف من لم أشك أن اعترافه اعتراف حقيقة لا اعتراف مداراة وتقية، وانقطع ووقف في يدي.

فقلت له: ما يمنعك بعد هذا من الرجوع عما أنت عليه إلى ما أقررت به ؟ فلم يحر جوابا .

فقلت له : إن شئت عرفتك لم لا تفعل ذلك .

فقال: مستريحا من تعذر الجواب عليه إلى قولي: ما هو يا أمير المؤمنين ؟

قلت : أنت رجل قد ترأست في العامة وذكرت بالعلم فيهم ، وصار لك بذلك حال عندهم، فإذا أنت فارقتهم وصرت إلينا، نبذوك واستخفوا بك وسقط عندهم جاهك، ولم تكن عند أوليائنا في حال من برع في علم دخل فيه لقرب عهدك به، وصرت دون من سبقك إلينا منهم ، فلا أنت صرت إلى ما أنت اليوم فيه عند أصحابنا، ولا أنت بقيت عليه عند أصحابك

فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله، أعوذ بالله من ألسنة بني هاشم.وتبين لي منه أنه قد علم أن الذي قل هو سره فاستخذى وجعل يلوذ في كلامه، فأعرضت عنه وتركته، نعوذ بالله من الخذلان والشقوة.

ولقد مات هذا الرجل بعد هذا لقول عن قرب عهد به بعد صحبة طويلة للأئمة، وفضل جزيل كان إليه منهم، وما تمتع به من نعمة الله وفضله وكرامته وما دعاه إليه وليه وتأكدت به حجة الله عليه إلا القليل . وما كان ما كان من ولي الله من هذا القول إليه، إلا تأكيدا بحجة الله عليه "[1].

وهكذا صارت المناظرات ظاهرة أدبية وفنا محببا إلى الأمراء والعلماء والفقهاء وكثيرا ما يلجئون إليها لإثبات قدراتهم الفكرية والثقافية ،ولشرح مذهبهم ودفع آرائهم.

وقد زخر القرن الرابع الهجري بمثل هذه المناظرات، ولم تقتصر المناظرات على الأدباء أو الأمراء، وإنما سارت بين طوائف شتى من فقهاء وأمراء ومناطقه وغيرها، معتمدين على

---

[1] القاضي النعمان: المجالس والمسايرات ،ص365.

الحوار و الحجاج، ولا يخف إلى ما في هذا من حرية و حيوية تجعل المتناظرين أقدر على الإقناع أو إظهار عجز الخصوم، وعلى اجتذاب السامعين وإثارة الإعجاب بالفكرة النفس والرأي.

ولقد اعتمد العبيديون هذا الشكل – المناظرات – أكثر من اعتمادهم أشكال أخرى حيث أعانتهم ثقافتهم الواسعة، المتشعبة المصطبغة بالنزعة المذهبية المتعمقة في العقائد والأفكار المذهبية المتأصلة ضمن أهداف حققوا من خلالها غاياتهم المرجوة باستمالة الخصوم بالحجة و الإقناع مستخدمين في ذلك أشكال التعبير المختلفة واعتمادهم وسائل لعرض أفكارهم بصورة جيدة.

لقد كان الصراع المذهبي عاملا في ازدهار وتطور هذا الشكل النثري، مبرزا الصراع المذهبي في شقه السلمي الحواري بين الشيعة والسنة والخوارج، هؤلاء الذين لم يرضهم انتقال الحكم والسلطة إلى الشيعة وما مارسه رجالها على العلماء والفقهاء السنة والخوارج وعلى عامة الناس من ظلم وقهر، وقد كان كل طرف يسعى لبسط سيطرته على الآخر بل القضاء والاستيلاء على زمام الحكم، مما أجج أتون هذا الصراع سواء من قبل الشيعة أو السنة لكن موقف الشيعة العبيديين، كان على جانب كبير من الدهاء وحتى من الثقافة التي تسلحوا بها لفترة طويلة وهم ينتظرون بسط نفوذهم مستعملين وسائل شتى في ذلك، خاصة وأن جل هذه المناظرات تقام تحت وصاية الحاكم.

و رغم أن الصراع الظاهر للعيان بين المذاهب، وكل مدافع عن مذهب يدعي حمل لواء الدين ونصرته وحمايته من عبث الأعداء، إلا أن نشاط الطوائف الثلاثة امتد إلى جوانب الفكر والأدب، وعللوا ظهور المذاهب والنحل وكثرتها.

وقد عبروا عن كل هذا بأسلوب راق، يتسم بالدقة في اختيار الكلمات ووضعها في مكانها الأكثر ملائمة له، فهم لا يكتفون بصحة التركيب بل يتجاوزون ذلك و يهتمون بجودة التعبير كما اتسمت مناظراتهم بغزارة المعاني وعمقها والتفنن في توليدها وجمع الجزئيات للخروج بعمل متكامل، وساعدهم على ذلك ثقافتهم اللغوية الواسعة،وطاقتهم البيانية الجبارة وإلمامهم بمفهوم البلاغة.ولعل ما يميز الجدل الذي قام في هذا العهد وفي دينهم عامة ، خاصة ما تعلق بفترات محددة من جل الفترة العبيدية ،هو :

-الحرية العقلية وسعة الثقافة وعمق النظر،ورحابة الذهن.

-شعور الشيعة بتفوقهم على غيرهم و نظرتهم إلى غيرهم فيها كثيرا من السخرية و الفرقة.

وهذا ما لمسناه عند "القاضي النعمان" وهو يورد الحديث الذي جرى بين قبيلة كتامة ورئيسها "بيان بن صقلاب" حينا دعا أهل هذه القبيلة لإحضار علمائهم لمناظرة "أبي عبد الله الشيعي" ، فاظهروا عجزهم وقالوا له: "من هذا الذي يناظره من علمائنا ؟...أنت ترى الواحد من جهالنا إذا دخل في أمره -أي في الدعوة الشيعية- ناظرهم فقطعهم ، فكيف به هو في ذات نفسه؟. وهذا رجل من أهل المشرق وهم كما علمت شياطين حذاق وعلماؤنا برابر وقوم ليست لهم تلك الأذهان،وأن ناظروه ظهر عليهم ولم يجدوا حجة يحتجون بها عليه" [1].

أما ما تعلق بمناظرات الخوارج الوهبية[2]، فكان" أبو نوح سعيد بن زنغيل" زعيمهم بدون منازع الذي ترجم له الدرجيني في الطبقات وصنفه بين علماء الطبقة الثامنة (350هـ-400هـ) وأورد كثيرا من أخباره ووصفه " بأنه أنجب من طالع ودرس...فلكل فصل منها في دجى العلم شهاب ثاقب "[3].

و كانت له مكانة مرموقة عند الأمير العبيدي المعز لدين الله وقال عنه: «سعيد فتى مجادل .لفصاحته وبراعته وبلاغته وعلمه بفنون الرد على المخالفين في المناظرات التي كانت تعقد في البلاط العبيدي ،حين كان يجمع المعز بين يديه علماء الفرق المختلفة ويتناظرون، ويرسل إلى أبي نوح يناظر بين يديه المخالفين فيحكم بينهم.وقد يعجب الباحث من العلاقة

---

[1] القاضي النعمان: افتتاح الدعوة ،ص97-96.

[2] الخوارج الوهبية:هم أتباع عبد الله بن وهب الراسبي الأزدي ،عرف بعلمه وفصاحته وسداد رأيه،وهي الخصائص التي أهلته لأن يبايع ويسمى أمير المؤمنين، كان عبد الله بن وهب في صف علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) في حروبه ، حتى وقعت قضية التحكيم التي أنكرها طائفة من جنده، وفي مقدمتهم عبد الله بن وهب، و خرجوا عليه وسموا منذ ذلك بالخوارج ،وتحولوا على علي وقاتلوه في معارك مشهورة في التاريخ ومنها وقعة النهروان (في العراق) التي قتل فيها عبد الله بن وهب، في سنة(38هـ).(ينظر:أحمد أمين:فجر الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3 ،د ت، ج1 ،ص256 -260).

[3] الدرجيني:طبقات المشائخ بالمغرب،تح: إبراهيم طلاي ،مطبعة البعث،الجزائر،د ط،د ت،ج2، ص353-367.

الحميمية بين "أبى نوح "و"المعز العبيدي" ، هذه العلاقة التي تطورت فجأة من عداوة وقتال متواصل، إلى ود وولاء، بل ودفاع عن العبيديين »[1].

هذا ما ذكر في تاريخ أبي زكريا.وكما تقدم ذكره كان أبو نوح ، عالما بفنون المناظرات حيث أرسل إليه مرة المعز وقال له: يا سعيد سل ما بدا لك من الأسئلة:

قال أبو نوح: فبدأت، فقلت: ما الدليل على أن لهذه الصنعة صانعا ؟

قال: فلبث جلساؤه حينا ساكنين، ثم أخذوا في الجواب، فقالوا أقاويل كثيرة، فما وافقوا فيها بجواب قاطع.

فقال لهم أبو تميم –المعز لدين الله العبيدي –:أجيبوا" ابن زنعيل" من حيث يفهم ، لأنه لم يرضى بأجوبتهم.

هنا راوي المناظرة لم يرد لنا إجابات الطرف الأخر، لذلك لا يمكننا أن نقف عند حقيقة مستوى الخصوم.ويكمل راوي المناظرة مكتفيا بإيراد ردود "ابن زنعيل" حيث يقول .

قال أبو نوح: فرأيت في وجه أبي تميم إرادة الجواب وما أراد أن يجيب–ولم أسأله – من كثرة أدبه وحسن سيرته.فقلت إن رأى مولانا أن يتفضل على رعيته بالجواب، فليفعل، فرأيت في وجهه تبسما وانطلاقا.

فقال: يا سعيد ، يقال لهذا السائل اشرح سؤالك لكي تستحق جوابا ، وفي شرح سؤاله جواب لقوله ، وقوله صنعة دليل على صانع.

قال أبو نوح :فأخبرت بهذا الجواب شيخنا أبا خزر[2] فتعجب به وقال ، هذا جواب قاطع.

هذه الفقرات التي وردت عن " المعز لدين الله " والتي احتفظ بها "القاضي النعمان" في " المجالس والمسايرات" تدل على أن المعز كان أديبا بنزعته وثقافته مناظرا عارفا بأدب الحديث، معبرا عما يختلج في صدره ويتردد في فكره تعبيرا شفافا، يجمع إلى صدق جمال العبارة ،ولا ريب أننا ندين بمعرفة هذا الوجه من وجوه نزوع المعز إلى أدب المناظرة إلى القاضي النعمان ، بما كان حريصا عليه ، من تسجيل ما يتحدث به في مجالسه ومسايراته .

---

[1]أبو زكريا:كتاب سير الأئمة وأخبارهم،تح: اسماعيل العربي،ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر، د ط، 1984.

[2]نفسه،ص226–227.

كما كانت هناك مسجلات و مناظرات بين الإباضية و الشيعة بعد سقوط دولة الرستمية ،ولعل من أكثرها طرافة ما حدث بين" أبي نوح" و "سعيد بن زنفيل الاباضي" ،وبين "المعز لدين الله "،من مواقف تدل على حصافة "الشيخ الإباضي" من ناحية و تبجيل المعز للعلماء و الفقهاء من ناحية أخرى.

و لا شك أن المحاورات و المساجلات بين شيوخ تلك المذاهب وبين فقهاء الخوارج أثرت الحياة العقلية في بلاد المغرب بوجه عام ،وهذا ماعبر عنه، "النفوسي" ،بقوله : "...وكثرت الآراء و الأقوال،و انتحل البحث في المذاهب وعظم الجدل حول مسالة الإمامة ، فقام كل فريق يطلب الاختصاص بها ويدعى أنه أولى و أحق بها ، ويقيم على ذلك الحجج و الأدلة"[1].

و لما قبض على أبي نوح وجيء به إلى المعز مكبلا بالأصفاد، قال المعز:إن القيود دخلت في رجلك بالعلم و لا تخرج إلا بالعلم.قال "أبو نوح ":عسى الله أن يجعل ذلك كفارة لذنوبي.فغضب المعز ،وقال :أ فنحن مسيئون فيك ، قال أبو نوح : قلت أليس في ذلك ما يدل على إساءتك ، ألا ترى أن الله يبتلي عباده فيصبروا فيئجروا ،وليس في ذلك ما يدل يثبت الإساءة لله[2].فزال غضبه فطلبه العفو ،فعفى عنه ...وقربه إليه .

كما ورد على أن المعز في أحد مجالسه مع العلماء و الفقهاء، ومن بينهم أبي نوح، سأل المعز :ما الدليل على أن لهذه الصنعة صانعا، و أجاب جلساؤه بأجوبة غير مرضية، فقال أبو نوح، فرأيت أبا تميم كأنه يريد الجواب،وتأدب أبو نوح وأجاب :جوابك مفهوم من سؤالك، لأن الصنعة بنفسها دليل الصانع،و لا صنعة بغير صانع، فأعجب المعز بنباته و لباقته[3].

كما أن هناك مناظرات جرت بين علماء و فقهاء طائفة واحدة ،ومنها مناظرة بين خارجي وهبي وخارجي نكاري [4].جرت هذه المناظرة بين "ابن زنغيل" الخارجي الوهبي و"يحي

---

[1]محمود إسماعيل عبد الرازق:الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري، دار الثقافة، بيروت، ط2، 1985، ص297.

[2]نفسه،ص297.

[3]نفسه،هامش ص297.

[4]أبو زكريا:المصدر السابق، ص340-341. (ينظر ترجمته في: الطبقة السابعة (300-350هـ)).

الأعرج" النكاري ، وكان هذا الأخير شيخ من شيوخ النكار وعالما من علمائهم،وهي مناظرة في العقيدة الإسلامية .

قال له "أبو نوح": أسألك في حجة السمع .أخبرني عن رجل مشرك ، دعاه رجل من المسلمين إلى دينه ، فأخذ يعلمه التوحيد ، وهو يتبعه حرفا بعد حرف ، فما منزلته إلى أن يتم التوحيد؟ أهو على حالته الأولى من الشرك، أم مسلم.

قال فقلت له: إن قلت مسلم فإذا، يسلم الناس ببعض التوحيد دون بعض.وإن قلت إنه مشرك ، فبماذا أشرك بالذي مع من التوحيد أم بالذي لم يسمع منه ؟

فوقف، فقال : لا أعلم. قال ، فقلت له : لا تستحي ولا تحشم ، ولكنك بلغت مبلغا لم تقف إلا في موضع وقف فيه عالمك و فقيهك من عبد الله بن يزيد . ولو وقفت دون ذلك أمكنك.

وبلغنا أن الشيخ كلمه بعض تلامذته، فقالوا له، أرأيت إن قال يحي،إنما أشرك بالذي لم يسمع؟

قال لهم: فإن قال إنه أشرك بالذي لم يسمع، فهو الرجوع إلى قولنا:حجة الله تقوم بسماع وبغير سماع.وهذا قد قامت عليه الحجة بغير سماع.

وإن قال، إنما أشرك بالذي مع، قال ، فيقال له ،إسرار التوحيد خير من إظهاره .ويلزمه أيضا أن يكون ترك التوحيد إيمانا ويكون فعله كفرا [1].

ومنه أيضا مناظرة ذكرها "الخشني" في الطبقات، تتعلق بصفات الله تعالى، وهي من المناظرات القصيرة في مسألة محددة، دارت بين" ابن الحداد "وبين "سليمان الفراء"، حيث سأل سليمان الفراء ابن الحداد يوما بقوله: يا أبا عثمان أين كان ربنا إذ لا مكان؟

فأجاب ابن الحداد:السؤال محال، فقولك :أين كان يقتضي المكان، وقولك :إذ لا مكان ينفي المكان فهذا نعم لا، قال سليمان فكيف كان ربنا إذ لا مكان؟ فأجاب ابن الحداد، هذا السؤال صحيح ،ثم قال :الجواب أنه الآن على ما عليه كان ولا مكان[2].

كما وجدت مناظرات بوصفها شكلا منظما للمجالس العلمية و إحدى نتائج الرحلات العلمية للعلماء و الفقهاء من وإلى المغرب. منها تلك التي تمت في القيروان بين" أبي ميمونة دراس بن

---

[1]أبو زكريا:المصدر السابق ،ص 239-240.

[2]الخشني : المصدر السابق،ص199.

إسماعيل" القادم من فاس و"أبي سعيد خلف بن عمر [1] أحد أبرز فقهاء القيروان وهو الذي رتب لعقد المناظرة بينهما ، لقياس درجة حفظ و فهم" أبي سعيد وأبي ميمونة لأمهات كتب الفقه المالكي [2] .

وكذلك المناظرة التي تمت في طنجة بين" أحمد بن محمد بن الحداد" القادم من بلنسية و "أبو الأصبغ عيسى بن سهل" الذي كان في طنجة في ذلك الوقت وتناظرا في مسائل فقهية متعددة ألف على أثرها" ابن الحداد"رسالة الامتحان لمن برز في علم الشريعة والقران .[3] والتقى الفقيه" أبو بكر ابن العربي" في إحدى زياراته لمدينة مالقة أبا المطرف عبد الرحمن بن قاسم الشعبي (ت 499هـ) وجرت بينهما مناظرات متعددة في ضروب مختلفة من العلوم[4]كما عقدت مجالس مذاكرة أيضا ، فقد تولى فقهاء مدينة سوسة عقد مجالس مذاكرة لمن ورد عليهم من فقهاء القيروان وكان" عبد الله بن حمود السلمي" (ت357 هـ) أحد من قام تلك المذاكرات[5] .

ومنه مناظرة بين "ابن الصغير" و "أبو الربيع سليمان الهواري الإباضي" يقول ابن الصغير : "قال الإباضي ،من أين زعمت و زعم أصحابك و غيرهم من الحجازيين و العراقيين أن الرجل إذا زوج ابنته البكر و هي صغيرة و أدركت أن لا خيار لها في نفسها وأنتم تقولون إن الرجل إذا زوج أمته و عتقت أن لها الخيار، ولا فرق بين الأمة و الصغيرة لآن الأمة لم يكن لها حكم في نفسها و إنما كان الحكم لسيدها ،فلما عتقت و صار الحكم إليها جعلتم لها الخيار ، والصغيرة لم يكن لها حكم في نفسها و أن الحكم لأبيها ، فلما أدركت صار الأمر إليها ، فلما منعتموها ما أجزتم للأمة و المعنى واحد.

فقلت له: إنما أجزنا نكاح الصغار لأن النبي تزوج عائشة بنت أبي بكر بنت سبع و بنا بها بنت تسع.

[1] القاضي عياض : المصدر السابق،ج6،ص81.
[2] نفسه،ج6،ص212.
[3] ابن الآبار: التكملة،ج1،ص23.
[4] القاضي عياض: نفسه،ج6،ص530.
[5] القاضي عياض ،نفسه، ج6، ص423.

فقال لي : دعني من هذا، فإني لا أجامعك عليها ، ولكن كلمني من القرآن أو من باب النظر مع أني لو منيت لك الخبر ما كان لك فيه حجة لأنك تعلم أن الله أحل لرسوله من النساء و من عددهن أكثر مما أحل لأمته فإن كان عندك حجة غير هذه فاذكرها ، ولا فلا تقم لك حجة(1).

قلت له: فإن أوجدتك صحة عقدها من القرآن اترجع .

فقال لي فاذكر لي ذلك.فقلت له : قال الله تبارك و تعالى :" ﴿ واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائي لم يحضن و أولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا"﴾ (2).

فقال لي عجبا منك، أنا أسألك عن عقد النكاح و فسخه و أنت تخبرني عن عدد اللائي لم يحضن.

فقلت:هيهات أبا الربيع غاب عنك المراد.وما غاب عني من ذلك.

قلت : أخبرني عن هذه العدد الموضعات من طلاق أم غيره .

قال:من طلاق.

قلت : فهل يقع طلاق من غير أن يكون عقد نكاح.

قال :لا.

قلت : في الآيسات فمنهن اللائي قد بلغن من السنين مالا يحضن مثلهن.

قال : نعم.

قلت:و اللائي لم يحضن من الصغر.

قال نعم.

قلت : ما وجب الله عليهن عددا .

قال : نعم.

قلت : أمن طلاق أم من غير طلاق.

قال: من طلاق.

1محمد اسماعيل عبد الرزاق:المرجع السابق،ص294.

2الطلاق:الآية 4.

فقلت : فيكون طلاق من غير عقد نكاح (فسكت ولم يرد جوابا) [1].

والمتتبع لهذه المناظرة يجد التسلسل المنطقي في تحليل الشاهد على صحة قوله المستند على استنباط الحكم الشرعي من الآية القرآنية الرابعة من سورة الطلاق.وهو بناء معرفي ينطلق من مسلمة عقلية و نقلية قرآنية، ليصل إلى حل الإشكال و السؤال المطروح في بداية المناظرة .كما أن الحوار جاء في شكل سؤال وجواب مختصر في جمل صغيرة ،وفي ألفاظ محددة وكأنها عملية حسابية رياضية التزم فيها الطرفان المنطق والسلاسة ،وسعة العقل و الصدر،لتنتهي بنتيجة منطقية قبلها الطرف الآخر من خلال الصمت المطبق وعدم الرد.

كما يوجد جزء من مناظرة بين "ابن التبان". و عالم نصراني، فقد روي أن نصرانيا وفد على "عبد الله بن علي بن محمد الكاتب" صاحب القيروان ،وكان النصراني عالما في مذهبه، فبعث عبد الله الكاتب إلى "أبي محمد التبان" ليناظره ن فلما جلس معه مجلس المناظرة ،قال "أبو محمد التبان" لعبد الله الكاتب إن اخترت أن أطيل معه أطلت ، وإلا أوجزت .

فقال له أوجز.

فقال أبو محمد التبان لترجمانه ، قل له أنتم تعتقدون ثلاثة.

قال نعم.

فقال:له أخبرني الواحد مفتقر إلى اثنين أو مستغن عنهما ، فضرب النصراني على وجهه و أطرق وعليه كئابة الانقطاع[2].

يتضح أن مناظرات المغاربة تعدت إلى الأديان و النحل الأخرى، وحتى الأجانب الذين يفدون في وفود رسمية على الأمراء، كانت تجرى بينهم وبين علماء المغرب مناظرات ، وهذا يدل على مكانة العلماء عند الأمراء .

- المناظرات الأدبية و الفكرية:

هي تلك المناظرات و المساجلات الأدبية التي كانت تعقد في حضرة أمراء المغرب و تحت رعايتهم موفرين كل الأجواء لنجاحها، مقدمين الهدايا و العطايا ،مشاركين ومتدخلين في الكثير

---

[1] محمد إسماعيل عبد الرزاق:المرجع السابق، ص295.

[2] الدباغ : المصدر السابق ، ج2 ، ص 113.

من الأحيان فيها بمشاركة فعالة ترقى في الغالب إلى أن يكونوا طرفا فيها، معالجين فيها، عديد المواضيع الأدبية و النقدية .

وفي هذا يقول "القاضي النعمان" أنه حضر مناظرة بين المعز و جماعة من النحويين في النحو ، قال فيه المعز لبعض ممن حضر من النحويين مجلسه ،والبارعين فيه :"ما تقولون في الحروف المجتمعة الموصولة التي تجمعها و تصلها الألفاظ،يستوي الخط بها في الشيئ و غيره بما يراه الناظر إليها إذا رأى صورة تلك الحروف، فتكون عنده بمعنى واحدا ، حتى يدخلها الإعراب و تميز بالتقييد و الشكل فتختلف معانيها و يصير كل حرف منها يدل على ضد ما دل عليه نظيره في الصورة و غيره مما هو سواه ومعناه غير معناه، ولم كان ذلك ؟ وما معناه ووجهه؟ وهل فيه معنى يجب استخراجه و تعرف الحكمة فيه؟

فلم يدر النحوي عن ذلك ، ولم يفهم السؤال فضلا عن الجواب عنه ، وتحير فيه و استفهمه المعز وسأله أن يوضح له معناه.

فقال : ذلك مثل : لم لم لم .أليس قد استوت صورة هذه الثلاثة أحرف؟

قال :نعم.

قال :كذلك : قتل قتل قتل .وكذلك حمل حمل حمل .و أشباه ذلك في كثير يطول ذكره.

قال : نعم.

قال : فإذا رفعت [1] لام لم ، كان معنى الأمر ، كقولك : لم الشعث يا فتى.

وإذا فتحت صارت حرف جزم ، كقولك : لم أفعل .

وإذا كسرتها صارت في معنى الاستخبار كقولك : لم فعلت كذا وكذا ؟ وكانت كل واحدة خلاف الأخرى .

وكذلك قتل إذا ضمت القاف و كسرت التاء و فتحت اللام قلت : قتل زيد يا فتى.

وإذا فتحت حروفها قلت: قتل زيد خالدا يافتى.

وإذا فتحت القاف و اسكنت التاء قلت : قتل ذريع يافتى ، فكانت كل واحدة مخالفة معنى الأخرى[1].

---

[1]القاضي النعمان:المجالس و المسايرات ،ص309.

وكذلك الحاء من حمل ، إذا رفعت الحاء و كسرت الميم قلت حمل الرجل .وإذا فتحت حروفها قلت : حمل الرجل.

وإذا كسرت الحاء و اسكنت الميم قلت : حمل الدابة يافتى .فاختلفت كذلك ، فلم كان هذا ؟ فلم يحر الرجل فيه جوابا اكثر من أن قال : هكذا تعارفه الناس.

فقال المعز : وكم لله عز وجل من آية وحكمة فيما تعارفه الناس تدل على توحيده لم يعرفوها و اعرضوا عنها؟.

فذكرني ذلك قول الله تعالى: "﴿كأين من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون﴾"[2] .وقول الشاعر في عظمة الله (متقارب):

وفي كل شيئ له آية* تدل على أنه واحد[3]

و ذكر أبو جعفر الماروذي[4]، أنه حرج مرة مع "اسماعيل المنصور" صاحب افريقية ،يوم هزم أبا يزيد صاحب الحمار ، فقال سايرت الأمير وكان بيده رمحان ، فسقط أحدهما مرارا ، فكنت أمسحه في كل مرة و أناوله أياه ، و أنشدته متفائلا :

فألقت عصاها و استقر بها النوى* كما قر عينا بالإياب المسافر

فالتفت إليا و قال : هلا قلت ما هو أبلغ من هذا و أصدق ؟

فقلت له : وماهو ؟

فقال: قال الله عز وجل ﴿"وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون﴾"[5].

فقلت : يا مولانا ، أنت ابن رسول الله قلت ما عندك من العلم ،و أنا قلت ما عندي [6].

---

[1]نفسه ،ص309.

[2]يوسف: الآية 105.

[3]البيت لأبي العتاهية ،لقصيدة مطلعها : ألا إننا كلنا بائد *و أي بني آدم خالد(ينظر :أبو العتاهية : الديوان ،نشر:شكري فيصل دار بيروت للطباعة والنشر،بيروت، د ط ،د ت ،ص 104).

[4]أبو جعفر المروذي: من أدباء القيروان في القرن الرابع الهجري، كان في خدمة العبيديين. (ينظر:حسن حسني عبد الوهاب : ورقات عن الحضارة العربية بافريقية التونسية ، ق2، ص 390.)

[5] الأعراف : الآية 116.

[6]حسن حسني عبد الوهاب : نفسه، ص 390.

من مثل هذه المساجلات العفوية، التي كانت بين أمراء الدولة العبيدية و غيرهم من أمراء المغرب ودعاتهم وأدبائهم، تأتي يوميا في مجالسهم و حلهم و ترحالهم، وكلها تبين مدى ثقافة الأمراء و سعة معلوماتهم ،و سرعة بديهتهم ،مصورين أنفسهم أنهم المعصومين ،وقد أورد "القاضي النعمان" في كتابه" المجالس و المسايرات" الكثير من هذه المساجلات و المناظرات الغير مباشرة.

وقد توسعت المناظرات الأدبية مع بداية القرن الخامس الهجري لتصبح مساجلات شعرية ونثرية بفضل الاحتكاك الثقافي والمجالسات الأدبية التي كانت تعقد في بلاط الأمراء، فتنامت إبداعات الأدباء واجتهادات المفكرين والنقاد، فكثرت صنوف "المداعبات والمساجلات والمطارحات ، فيتحسس الحاضرون بذلك قدرات المتبارين، لاكتشاف مواهبهم والاستعداد لإصدار الحكم على مدى قدرتهم على التعبير" [1] .

ومن المجالس الشعرية التي كانت تعقد ببلاط "تميم بن المعز الصنهاجي"، تلك التي أثير فيها الجدال والمناقشات الحادة حول السرقات الشعرية والتي جرت بين "ابن رشيق" و"ابن شرف"؛ومنها: حين أنشد "ابن شرف" قوله [2]:

غيري جنى وأنا المعاقب فيكم* فكأنني سبابة المتندم

ثم قال له: هل سمعت بهذا ؟ فرد ابن رشيق قائلا : " سمعته وأخذته أنت وأفسدته فقال ممن ؟ فقال من "النابغة الذبياني" حيث قال :

لكلفتني ذنب امرئ وتركته * كذى العر يكوى غيره وهو راتع[3]

فأما إفساده لأنك قلت في صدر بيتك إنك عوقبت بجناية غيرك، ولم تعاقب صاحب الجناية ، ثم قلت في عجز بيتك، إن صاحب الجناية قد شركك في العقوبة فناقض معناك،وذاك

---

[1] أحمد يزن: النقد الأدبي في القيروان في العهد الصنهاجي، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1986،ص63.

[2] ابن شرف القيرواني: الديوان،تحق: حسن ذكرى حسن،مكتبة الكليات الأزهرية،مصر،د ط، 1983،ص67 .

[3] النابغة الذبياني: شرح وتعليق حنا ناصر حتي،دار الكتاب العربي ، بيروت،ط1، 1991،ص126.

أنك شبهت نفسك بسبابة المتندم، وسبابة المتندم أول شيء يتألم في المتندم ثم يشركها المتندم في الألم ، فإنه متى تألم عضو من الحيوان تألم كله ... فمن ههنا أخذت المعنى وأفسدته" (1).

إن هذه الملاحظات النقدية التي وجهها "ابن رشيق" لبيت "ابن شرف" ،مبينا ــ بعد تحليله وتفسيره البيت ــ محل السرقة ومصدر المعنى المأخوذ ومواطن إفساده، هي إحدى الصور التي تجلت فيها المناظرات الأدبية النقدية بمجالس الأمراء بالمغرب الإسلامي ؛ التي أصبحت مسرحا رحبا لميلاد فنون أدبية جديدة كالنقد الأدبي الذي يعمل فيه الناقد ذوقه ويبرز إمكاناته النقدية وثقافته التراثية ، فيدرب ذوقه وينمي ملكته أمام ما يقدمه وما يستفيده ممن جلسوا إليه من النقاد والشعراء فكانت المناظرات سببا في ميلاد فن النقد الأدبي بالمغرب.

وعموما فالمناظرات المغربية في بنائها لم تخرج عن سياقها في الأدب العربي بالمشرق، وتتجلى أركان المناظرة عند المغاربة في أربعة قواعد أساسية برعوا من خلالها في إخراج المناظرة بالوجه الحسن، وهي:

السؤال والجواب، والاعتراض والاستدلال، في مباحث بالغة الدقة كما اتسمت منهجيتهم في الطرح ومعالجة القضايا المطروحة للتناظر والجدال بالمنطقية والتسلسل المتواتر بناء على استقراء منطقي لطريقة التناظر، وهذا في استخدامهم لأدوات السؤال وأقسامه استخداما منطقيا لا يشوبه عيب أو غموض.كما استخدموا:السؤال المباشر و غير المباشر، و ما يلزم السائل والمجيب من معارضة، ومنع، ونقض، وقدح، و دليل... وغيرها.

بالإضافة إلى توظيفهم الأدلة وهي أهم مادة في عملية المناظرة، خاصة الأدلة النقلية التي تتعلق بالاقتباس والاستشهاد من الكتاب والسنة حيث اعتمدوا عليها اعتمادا كبيرا وأساسيا، فلا نجد مناظرة تخلو من آيات القرآن الكريم، لكن كل فريق يوردها حسب تفسيره المذهبي ونفس الحال بالنسبة لأقوال الصحابة و العلماء والأئمة.كما اعتمدوا استخدام الأدلة العقلية والنابعة من المنطق مبنية على الحجة والبرهان.واحتاجوا لكل هذه الأدلة للتحليل والتفسير وإفحام الطرف المجادل.

---

[1] أحمد يزن: نفسه،ص67.

أما ما يخص الآداب التي تتعلق بسلوك المتناظرين فقد رأينا أنها تجلت في:الحرص على إظهار الحق، وعدم رفع الصوت ولزوم الهدوء والسكينة وعدم الاستهانة بالخصم مهما كان ضعيفا، ووجوب الصبر على السائل حتى يفرغ من كلامه، والتنبه إلى الفرق بين اليقين وغالب الظن والاحتجاج والتقريب وهذا ما كان في بداية القرن الرابع الهجري في العهد العبيدي خاصة في المناظرات المذهبية و الفقهية،وهو ما كان أيضا في المناظرات الأدبية .

وتنتهي المناظرة في الأصل بعجز أحد المناظرين و انقطاعه و قبوله برأي مناظره أو إذا توصل المناظران إلى شرعية منهجهما، وأنه يسوغ لكل واحد منهما التمسك به ما دام أنه في دائرة الخلاف المتعارف عليه.

وقد جاء هذا في عدد من المناظرات التي أفحم فيها المناظر السني نظيره الشيعي بالأدلة و البراهين كما هو الحال في مناظرات "ابن الحداد" مع دعاة الشيعة ،و قد لا تنتهي بتسليم أحد المناظرين بصحة رأي خصمه عنادا و تكبرا أو تنتهي بالسباب و القطيعة و هنا يكون الحوار و المناظرة قد فشلت وهذا قليل الوجود في نماذجنا وفي مناظرات المغاربة .

وعموما فان المناظرات في المغرب قد سمت وعدت مظهرا من مظاهر الازدهار الأدبي و الفكري بتشجيع من الأمراء، فكانت هذه المناظرات و المحاورات متنوعة في مواضيعها و أساليبها، وطريقة تناولها ، فدلت على ذوق حسن، وبراعة لفظية، فضلا عن سعة أفق و مدارك الحكام و الولاة بتخليد مآثرهم ،وإطلاق العنان للعقل ليبدع و لامتزاج الفكري و الحضاري، وإلى جانب كل ذلك الذوق الأدبي لتلك المجالس التي تسري فيها المناقشات الفكرية و الفقهية و الفلسفية و الأدبية...

الباب الثاني: الأشكال النثرية السردية في القرنين الرابع و الخامس الهجريين

توطئة:

إن مختلف الأشكال السردية النثرية المغربية لم تلق حقها من الجمع والدراسة رغم الاتفاق على وجودها مع ندرتها، وأهمها: الأخبار والحكايات والأمثال والمسامرات والمقامات وقصص الحيوان والقصص الخيالية والشعبية والمنامات والرحلات والسير ... .والملاحظ غياب الكثير من هذه الأشكال في الفترة الزمنية الممتدة بين القرنين الرابع والخامس الهجريين فقد تعذر إدراج فن المقامات باعتباره شكلا سرديا لعدم توفر النصوص وما وصلنا عن المصادر نص وحيد فريد يعزى لابن شرف القيرواني والمسمى"أعلام الكلام" .

ولعل أسباب ندرة هذه النصوص ترجع إلى نفوذ وسلطة النص العربي في بلاد المشرق والأندلس لكثرته ووفرة الأنواع والأشكال السردية فيه، ناهيك عن وفرة المصادر العربية التي تؤرخ للأدب المشرقي والأندلسي. وكذلك نفوذ الشعر المغربي الذي طغى على المصادر التي تؤرخ للأدب المغربي عموما ولعل ذلك راجع إلى اعتباره ممثلا للهوية الثقافية المشكلة للإرث الثقافي المغربي، وهو ما جعل النثر السردي يهمش، لعدم ارتباطه بالحياة الفكرية والمذهبية وكتابات الحكام والأمراء والعلماء والفقهاء...

لقد عانى مفهوم التراث السردي المغربي من لبس كبير، فحينما استقر "المصطلح" ليدل على النتاج الأدبي للحكي عند المغاربة في مرحلة زمنية متقدمة ، بقي المفهوم قضية فيها الكثير من الجدل نتيجة لكثرة المشتغلين فيه وشعورهم بضرورة بلورة موقف منه، وتحديد آلية للتواصل معه؛ على اعتبار أن التفاعل مع التراث طريق الأصالة للانطلاق نحو الحداثة، ومؤشر على أن الحاضر لا يمكن أن يقطع صلته بالماضي. وقد ترافق ذلك بدعوات للتأصيل الذي هو إحياء للذاكرة وليس اجترارا أو إعاقة للتجديد. ولذلك فإن وقوفنا على أشكال السرد المغربي في القرنيين الرابع و الخامس الهجريين لهو تقديم لنتاج حضاري يمثل واقع الأدب المغربي عموما.

بدأت ملامح الفنون السردية المغربية في التبلور و التشكل مع بدايات القرن الرابع الهجري ويشمل هذا النوع من الأدب –إلى جانب فن الترسل-:الأخبار و التراجم العامة والسير العامة والذاتية وقد شاع هذا النوع من النثر وازدهر في القرن الرابع وما بعده، ويدور حول سير

الفقهاء والعلماء والشعراء، والمتصوفة والكتاب، والنقاد، كما يشمل أيضا أدب الرحلات وفن المقامات الذي ظهر عند" ابن شرف" و"ابن رشيق" على الأخص.

و ما إن حل القرن الخامس الهجري إلا و تجلت أسس الفنون السردية وسمت معانيها و تعددت أشكالها و ظهرت على أيدي ثلة من خيرة ما أنجب المغرب في ميدان الأدب،وقد كان في بداياته وسيلة لنقل الفكرة كما جرى عليه سرد المشرق العربي، لكنه تطور في عهد الصنهاجين و الحمادين ليصبح تقليدا للسرد العباسي في شتى ألوانه من سير و تراجم و حكايات عجائبية ، ومقامات ، وقصص... وغيرها.

و يعد القرنان الرابع و الخامس الهجريين من أفضل العصور العلمية والأدبية قاطبة في المغرب الإسلامي ، ومع استقلال المغرب عن الخلافة الإسلامية وأصبح كيانا مستقلا بذاته مع بداية القرن الرابع الهجري ، بتأسيس الدولة العبيدية التي ما إن اشتد عودها حتى أعلنت نفسها خلافة منافسة للعباسين بالعراق و الأمويين بالأندلس، إلا إن الصراع الذي حصل بين الملوك و الأمراء ،حذا بهم إلى أن يقربوا رجالات الفكر والأدب ؛ لتجري ألسنة هؤلاء وأولئك بالثناء عليهم ، والإشادة بهم ، فتتمم لهم أسباب العظمة التي كانوا يسعون أن يحيطوا أنفسهم بها، وليكمل لهم التشبه بالخلفاء في المشرق أو الأندلس ممن كانوا يغدقون الأموال الطائلة على الشعراء والأدباء جريا وراء الشهرة ورغبة في تخليد ذكرهم .

وعليه فقد امتاز هذا العصر بالسمو والرقي في الحياة الفكرية والثقافية و العلمية عموما من خلال الاهتمام الذي أولاه الأمراء لهذا الجانب المهم في ذلك الوقت . فكان أمراء الدولة العبيدية، و الصنهاجية ، والحمادية حماة العلوم والآداب وكانوا من أكابر الأدباء والعلماء والشعراء وقد وصفت قصورهم بأنها منتديات زاهرة للعلوم والآداب والفنون.

ولقد أشارت الكثير من المصادر إلى مسألة الازدهار الواسع الذي أصاب الجانب العلمي والأدبي في هذا العصر ذاكرة بعض المجالات العلمية والفلسفية التي مسها هذا النمو والرقي ، فقد كان من مظاهر هذا التقدم والرقي والتجديد الذي شهده الحياة العلمية في العهد العبيدي أن مدينة كالمسيلة في المغرب الأوسط" بلغت من الحضارة و العمران ما جعلها كعبة العلم و الأدب فقصدها أرباب الثقافة من كل فج وصوب،و الفضل في ذلك يرجع إلى مؤسسها وواليها علي ابن

حمدون حيث كان يقرب العلماء و الأدباء و يغدق عليهم الصلات "[1] والشيء ذاته بالنسبة لعهد الدولة الحمادية" حين اتخذ حماد بجاية عاصمة لملكه وعمل جاهدا لإعلاء شانها فاخذ في تعميرها فشيدت المساجد و الفنادق ... و اعتنى هو و من خلفه بالعلم وأهله فنهضت الثقافة على يدهم نهضة كبيرة فأسسوا المعاهد العلمية فازدحم عليها الكثير من العلماء و الخطباء و الكتاب و أهل الفنون و الهندسة و أغدقوا عليهم الصلات "[2].

ولم يخل الأدب المغربي من التأثير المشرقي فيه، ويتجلى ذلك في ترسم أهل المغرب نهج المشارقة في أساليب الإنشاء وألوان التعبير ومجاراتهم في نظم الدواوين وتقريب الكتاب وتنصيبهم وزراء لهم ، "وتعدد الأغراض والفنون الأدبية لديهم ومثال ذلك ظهور الترسل لديهم على ضروبه وإنشائهم الكتب المصنفة في العلم والأدب" [3] .والملاحظ أن أغلب الكتابات والنقول الخبرية الممتدة على صفحات المصادر المغربية تحضر إلى جانب مواد سردية أخرى، حيث نلمس ذلك على الخصوص في مؤلفات كل من ابن شرف والتنوخي والحصري وغيرهم.

---

[1] محمد الطمار :الروابط الثقافية بين الجزائر و الخارج،الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر،1983 ،ص 110 .

[2] نفسه ،ص120 .

[3] مجدي وهبة وكامل المهندس: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، ط2، 1984، ص 401.

الفصل الأول: الرسائـــــــــل

أولا–الترسل لغة واصطلاحا

ثانيا--فن الترسل في المغرب:

ثالثا--أنواع الرسائل وموضوعاتها الأساسية

رابعا– بنية الرسائـــل

توطـئة:

تعد الرسائل من الخطابات ذات الوظيفة الوجدانية التعبيرية السردية، وهي التي تركز في نظام تواصلها على الحكي الذي يصل إلى متلق خاص، وإدراجنا لها ضمن الفنون السردية إنما يرجع إلى أن كتابها المغاربة لا يلبثون أن يخرجوا بها عن قوانين هذا الفن ليدخلوا في إطار مضامين و أساليب فنية أخرى يمكن أن نصنفه ضمن الحكي.

و كما هو معلوم فإن الكتابة لم تكن شائعة بين العرب في الجاهلية، ولهذا السبب لم يكن للرسائل دور هام في حياتهم الأدبية في ذلك العصر لقلة الدواعي إليها. و ما كان منها جاء في سياقات ضيقة خاصة عند المناذرة و الغساسنة وتعاملاتهم مع الفرس و الروم، وفي عصر صدر الإسلام كانت دواعي الرسالة النبوية تستدعي التواصل مع الأمم الأخرى خاصة بعد بداية انتشار الإسلام وقربه من حدود الفرس و الروم مما جعل النبي صل الله عليه وسلم يكاتبهم.

وكان ازدهارها وانتشارها في القرنين الثالث والرابع الهجريين حين بلغت الحضارة العربية أوجها. فمن ناحية الأسلوب فقد تميزت في أسلوبها بالإيجاز والإطناب، كما كانت في أغراضها لا تكاد تعدو عن كونها رسائل الخلفاء إلى الملوك والقواد ورؤساء الدولة لتنفيذ أمر من الأمور المتعلقة بسياسة الدولة وتصريف شؤونها ، وبذلك فقد غدت محدودة الأفاق في أسلوبها وأغراضها، وسبب هذا أن الدول العربية في ذلك الوقت كانت عربية خالصة لم تتعقد فيها الحياة .

ولعل من أسباب نشوء و تطور هذا الفن في العصر العباسي أنه " نشأ بادئ الأمر في ظل أسرة فارسية مشهورة ظهرت أيام "الرشيد" ،وهي أسرة " البرامكة "، ومما لا شك فيه أنهم تأثروا بفن التوقيعات في ديوان "آل ساسان"–الفارسي–ونقلوه عنهم، لكن العرب لم يقفوا عند التقليد فقط ،بل توسعوا فيها بفضل ما ورثوه من حكم وأمثال ،يضاف إلى ذلك ما اقتبسوه من آيات القرآن الكريم، وأحاديث الرسول"صل الله عليه و سلم" ووضعوه موضع التوقيع في ذيل الرسائل "(1).

---

[1] ابن خلدون: المقدمة ،ص743.

وهكذا شقت الرسائل العربية طريقها، مستعينة بالموروث الحضاري والفكري والديني، فأبدع الكتاب في صياغتها، باستخدامهم الألفاظ التي تفننوا في تخيرها ووضعها في مواضعها الملائمة من الجمل والتراكيب، وذلك ما أبرزه الجاحظ في قوله:«...أما أنا فلم أر قط أمثل طريقة في البلاغة من الكتاب فإنهم قد التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعرا وحشيا ولا ساقطا سوقيا »[1].والكتابة في الدواوين آنذاك غاية عزيزة المنال، ومرام دونه سدد، وقد قيل:« إنها أشرف مراتب الدنيا »[2] .وهي على حد تعبير "سهل بن هارون"[3]: " أول زينة الدنيا، التي إليها يتناهى الفضل، وعندها تقف الرغبة " [4].

أولا-الترسل لغة واصطلاحا:

لغة: الترسل من ترسلت- أترسل- ترسلا، وأنا مترسل، كما يقال توقفت بهم -أتوقف- توقفا، وأنا متوقف. ولا يقال ذلك إلا فيمن تكرر فعله في الرسائل، كما لا يقال: تكسر، إلا فيما تردد عليه اسم الفعل في الكسر. ويقال لمن فعل ذلك مرة واحدة: أرسل -يرسل- إرسالا، وهو مرسل، والاسم: الرسالة، أو راسل-يراسل- مراسلة وهو مراسل، وذلك إذا كان هو ومن يراسله قد اشتركا في المراسلة. وأصل الاشتقاق من ذلك أنه كلام يراسل به من بعيد، فاشتق له اسم الترسل، والرسالة من ذلك [5]. وهذا ما ذهب إليه "قدامة بن جعفر " لتأصيل مصطلح الترسل.

اصطلاحا: الترسل عند "ابن خلدون" بمعنى الخط وبمعنى الكتابة الفنية والعلمية ،كما أنها من الخصائص التي ميز بها الخالق الإنسان عن سائر المخلوقات ،وحسبه أنها: « تطلع ما في الضمائر ، وتتأدى بها الأغراض إلى البلد البعيد ، فتقضي الحاجات ، ويطلع بها على العلوم

---

[1] ابن خلدون: المصدر السابق،ص745.

[2] نفسه،،ص746.

[3] سهل بن هارون: أكبر كتاب الترسل في عصره، كتب بين يدي يحيى البرمكي ثم الرشيد ثم جعله المأمون قيما على بيت الحكمة في بغداد إلى أن توفي سنة 215هـ وخلف ديوان رسائل(قحطان صالح الفلاح :الترسل الفني في العصر العباسي الأول سهل بن هارون مترسلا ،مجلة التراث العربي،دمشق،العدد89، السنة الثالثة والعشرون ،مارس 2003).

[4] قحطان صالح الفلاح : نفسه،ص122.

[5] قدامة بن جعفر: نقد النثر،ص95.

والمعارف ،وما كتبوه في علومهم... »[1].والكتابة عنده بصفة نظرية تعني الكتابة الرسمية والأدبية وغيرها، كما أنها ظاهرة إنسانية حضارية.

وقد تعددت أنواع الكتابة،فنجد الكتابة الإنشائية الرسمية التي لها بالغ الدور والمكانة في حياة المجتمعات. فهذا "القلقشندي" الذي كان له كبير الاهتمام بفن الترسل ولا سيما الجانب الرسمي فيخصص له مؤلفا ضخما سماه "صبح الأعشى في صناعة الإنشاء".وفيه يعرف الترسل بمعنى الكتابة الإنشائية الرسمية منها ،أما من حيث الوجود فهو وجد لخدمة المصالح العامة والخاصة للأمة ، والكتابة تهتم بالأمور الدينية والدنيوية وفي هذا يقول: « ...إذ الترسل مبني على مصالح الأمة ، وقوام الرعية لما يشتمل عليه من مكاتبات الملوك ، وسراة الناس في مهمات الدين ، وصلاح الحال وبيعات الخلفاء، وعهودهم، وما يصدر عنهم من عهود الملوك، وما يلتحق بذالك من ولايات أرباب السيوف، و الأقلام الذين هم أركان الدولة وقواعدها... »(2).

وهكذا أصبحت للرسائل قيمة كبرى في المجتمع الإسلامي وخاصة الرسمية منها ، وهذا نظرا لدورها المهم في تنظيم حياة المسلمين في جميع المجالات ،و أثرها في حياة الفرد والجماعة حتى أنها كادت تطغى على كل الأشكال النثرية الأخرى وحتى الخطابة، ذلك أن بعض المسائل تحتاج إلى استخدام الرسائل من مثل مواضيع المصالحة ،والعهود، والمواثيق و المراسيم ...ولا تكون إلا بواسطة الرسائل والرسل .

ثانيا-فن الترسل في بلاد المغرب:

لما دخل الفاتحون أرض المغاربة، احتكوا بهم وتعلموا اللغة العربية ثم أجادوها، فاستخدموها في مكاتبتهم، وقد استخدمها الأمراء لنقل أجواء الفتح للخلفاء، ولمراسلة عمالهم في المقاطعات المختلفة بالمغرب.

وعموما كان النثر في بلاد المغرب أسبق ظهورا من الشعر لكثرة الدواعي التي تتطلبه خاصة المراسلات الداخلية و الخارجية ، ومن بين النماذج التي حفظتها لنا المصادر،رسالة وجدت سنة (121هـ) حينما ثار الخوارج على "حنظلة بن صفوان" بطنجة ، فجمع علماء

---

[1]ابن خلدون: المقدمة، ص745.

[2]القلقشندي: المصدر السابق، ص37.

افريقية الذين بعثهم عمر بن عبد العزيز وطلب منهم المساعدة في إخماد نار الفتنة ، فكتبوا الرسالة الآتية "من حنظلة بن صفوان إلى جميع أهل طنجة ، أما بعد فإن أهل العلم بكتاب الله و سنة نبيه قالوا يرجع جميع ما أنزل الله عز وجل إلى عشر آيات : أمرة و زاجرة و مبشرة ومنذرة ومخبرة و محكمة و متشبهة و حلال و حرام و أمثال...والسلا م عليكم"(1). وعلى هذا المنوال سارت رسائل هذه الفترة، فالقارئ لهذا النموذج يجده نصا خاليا من التأنق ،ومتسما بالسهولة و العفوية والمباشرة ، فلا تفنن في أساليب التعبير ،لكننا نجد تطورا ملحوظا في رسائل أواخر القرن الثاني و القرن الثالث للهجرة،من ناحية الأسلوب الذي بدأ في الرقي و السمو،من مثل رسائل "عبد الوهاب الرستمي" بتيهرت ،التي كانت تتسم بصبغة فنية عالية و موشحة بمعان سامية ،و أسلوب أدبي جيد يمتاز بالقوة والجزالة .

وفي القرنيين الرابع و الخامس الهجريين عرف المغرب حركة علمية أدبية فكرية أفرزت عددا كبيرا من العلماء و الأدباء ذوي عارضة في الأدب، كما أنه تقدم تقدما كبيرا كما و كيفا ، ولا عجب في هذا لكون هذا العهد هو عهد الازدهار الثقافي و العلمي و الفكري خاصة مع الصنهاجيين و الحماديين، وهذا ما أثبتته كل المصادر التي أرخت لهذه الفترة الزمنية،و ما أوردته عن الحركة العلمية المزدهرة التي نتج عنها عددا من الكتاب النثار الذين جادت أقلامهم بالمقالات الأدبية و العلمية والكتابات الديوانية و الاخوانية... .

وقد كان الإنشاء في صدر هذا العصر يسير على نظام الكلام المرسل ثم ما لبث أن ارتقى فتأنق الكتاب في إنشائهم شأن المشارقة فمالوا إلى السجع و التزيين و التنميق ، و تقليب الجمل على المعنى الواحد ، دون إخلال بالذوق أو أن تتغلب الصناعة على الفن.

و لعل ازدهار الكتابة على الخصوص يرجع إلى عناية أمراء و حكام الدول المغربية بالأدب و الأدباء.فكانت للكتابة عندهم منزلة لا يفوقها سوى منزلة أمراء الجيش ، إذ كانوا هم عمدة الدولة في إنشائهم التهنيئات بالنصر و تقليد الوظائف ، ومكاتبات العمال و الأمراء .

كما ارتقى كل من تقلد ديوان الإنشاء المكانة الكبرى، فكان لا يتولى هذا المنصب إلا أجل كتاب البلاغة، ويلقب بكاتب الديوان.وقد برز في هذا الفن أمراء الدولة العبيدية من عبيد الله

---

[1] رابح بونار : المرجع السابق ، ص 40-41.

المهدي إلى المعز لدين الله ،كما أن هناك ثلة من الكتاب المتميزين في هذا العصر ،من مثل:جوهر الصقلي ، وابن الرقيق، و عبد الله بن القريم كاتب عبيد الله المهدي،و أبي جعفر بن محمد بن أحمد البغدادي الذي عهد إليه المهدي ثم القائم والمنصور النظر في الدواوين والإشراف على الموظفين ... وغير ذلك.

وكانت للرسائل قيمة كبرى في العهد العبيدي خاصة الرسمية منها ، وهذا لدورها المهم في تنظيم حياة الرعية في جميع المجالات و في حياة الفرد والجماعة حتى أنها كادت تطغى على كل الأشكال النثرية الأخرى من مثل :الخطابة ، ولذلك نجدها انتشرت بشكل لم يسبق له مثيل في هذا العهد لمتطلبات الدولة ولعلاقاتها المختلفة مع الرعية والدول الأخرى خاصة وأن بعض القضايا تحتاج إلى استخدام الرسائل من مثل: المصالحة ،والعهود، والعلاقة مع الدول الخارجية التي لاتتم إلا بواسطة الرسائل.

و كانت الإدارة المركزية في عهد الدولة الحمادية تشتمل على" ديوان الإنشاء كان على رأسه كاتب و أول كاتب في هذا العهد هو كاتب الناصر كما كان للعزيز كاتب اسمه "عمر بن فلفول"،ويوجد كتاب آخرون كانوا في خدمة الأمراء الحماديين ومنهم:"أبو عبد الله محمد الكاتب" الذي كاتب أمراء بني هلال باسم يحي ،و"ابن أبي المليح الطبيب" الذي كان في قسنطينة"[1].

وبجانب ديوان الإنشاء كان للحماديين ديوان البريد،واستعملوا الحمام الزاجل مثل الزيريين كما استخدموا الإشارات بالمرايا والدليل على ذلك أنه وجد في بجاية برجا اسمه " شوف الرياض " في أعلاه المرايا تستعمل للمراسلة مع بروج وأبنية مشيدة في المدن الأخرى[2]. كما ظهر أدباء جمعوا بين الفنون النثرية كتابة وشعرا وهم أبناء بلاد المغرب الأوسط، ومنهم "ابن أبي الرجال" مربي المعز الصنهاجي و"الحسن بن رشيق" "عبد الله بن محمد التنوخي" المعروف "بابن قاضي ميلة" أحد أبرز أدباء الجزائر وهو فقيه و شاعر ،شعره يميل إلى القصص أثنى على أدبه ابن رشيق ،العالم الكاتب الشاعر "أبو حفص عمر بن فلفول" كان كاتبا "ليحيى بن عبد العزيز الحمادي"،والكاتب "ابن دفرير" أحد كبار كتاب الدولة الحمادية المتصرفين في الكتابة السلطانية ، وهذا يعود إلى التكوين الثقافي الديني العربي لمؤسس الدولة

[1]حاجيات عبد الحميد : المرجع السابق ،ص142.

[2]حاجيات عبد الحميد :المرجع السابق ،ص143

حماد في القيروان ،حيث درس الفقه وعلوم العربية ولما استقل عن الدولة الصنهاجية أنشأ ديوان للكتاب.

ولما كان أمراء الدولة الحمادية، أدباء متذوقين له، كان من الطبيعي أن يهتموا اهتماما واسعا بديوان الإنشاء القائم على كل شؤون الدولة السياسية والإدارية و الدعوية ، وكان لمن يتقلد ديوان الإنشاء مكانة كبرى لديهم ، فكان لا يتولاه إلا أعظم كتاب البلاغة.

ولم يخل الأدب المغربي من التأثير المشرقي فيه ونرى ذلك واضحا في ترسم أهل المغرب نهج المشارقة في أساليب الإنشاء وألوان التعبير ومجاراتهم في نظم الدواوين وتقريب الكتاب وتنصيبهم وزراء لهم، وتعدد الأغراض والفنون الأدبية لديهم ومثال ذلك ظهور الترسل لديهم على ضروبه وتأليفهم الكتب المصنفة في العلم والأدب . وتجدر الإشارة هنا إلى أن جل رسائلهم سقطت من يد الزمن، ولم يصل إلينا منها إلا النزر اليسير.

كما وجد بالمغرب خدمات بريدية منظمة ، منها البريد المعتمد على الحمام الزاجل في نقل الرسائل (1) ، والبريد الأرضي المعتمد على الأفراد(2) وكان البريد تشرف عليه الدولة خاصا بنقل رسائلها فقط دون تقديم خدماته للمواطنين،(3) ومع هذا فقد وجد في المقابل بريد شعبي وعرف ساعي البريد فيه باسم الرقاص(4) .

أو الفيج(5).وقد اشتهر اسم الرقاص في المغرب والأندلس(6)،وكان بإمكان ساع واحد نقل البريد من القيروان إلى القاهرة وحتى من الأندلس عبر المغرب إلى الإسكندرية مقابل أجور زهيدة. ولقد عرفت الكثير من طرق المراسلة و أسبابها في المغرب سواء بين الأفراد أو بين العلماء أو

---

[1]البكري : المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، ص 46 .

2جوايتاين : دراسات في التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية،تح: عطية القوصي ،وكالة المطبوعات ،الكويت ، 1980 ، ص 219 .

3نفسه ، ص 219 .(ينظر أيضا: آدم متز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، تر:صالح محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار الكتاب العربي،)، بيروت، ط 4 ، 1967 ،ص419).

4نفسه ، ص 219.

[5]جوايتاين :المرجع السابق، ص 220 .(والفيج كلمة فارسية تعني ناقل الرسائل.)(ينظر: ابن منظور، المصدر السابق ، ج2،ص243.)

[6]نفسه ، ص 220.

بين الأمراء و رعاياهم أو بينهم وبين ولاتهم،أو مع الخارج، فكانت المراسلات الشخصية، التي اقتصرت في بدايتها على العلماء فيما بينهم ،لأمور تعليمية و تنظيمية ،ويمكننا حصرها في :

- رسائل التوصية:وهي نوع من الرسائل يتبادلها الفقهاء فيما بينهم و يمكن تسميتها برسائل توصية . فقد حمل بعض طلاب العلم في أثناء طلبهم للعلم رسائل من شيوخهم إلى غيرهم من العلماء الراغبين بالأخذ عنهم .

- رسائل من أجل التأليف: وهي المراسلات التي كانت بين الفقهاء وتعد أحد مصادر التأليف، فقد اعتمدها الكثير من علماء المغرب واستفادوا منها في جمع مادتهم العلمية،(1) حيث أثرت علاقة الفقهاء فيما بينهم على نتاجاتهم العلمية في مجال التأليف.

-رسائل للحصول على الإجازة والتوثيق: لنقل العلم أو الرواية طرق عديدة ، منها طريقتان يمكن ممارستهما أحيانا عن طريق المراسلة وهما المكاتبة أو الكتابة والإجازة، ويتم الحصول على المكاتبة بعد سؤال الطالب شيخه أن يكتب له شيئا من علمه أو أن يكتب الشيخ بذلك لمن يريده سواء بحضور المعني أو بإرسال المادة إليه من بلد إلى أخر .(2) وبواسطتها يحق لصاحبها رواية محتواها حسب قواعد توثيق الرواية باستخدام كلمة حدثنا أو اخبرنا(3)ويتم تمييز المكاتبة للحصول على الرواية عن غيرها من المراسلات من العبارات التي تؤشر عليها فهي محددة.

ومن بين هذه المراسلات تلك التي أرسلها الفقيه "عبد الله بن أبي زيد القيرواني" (ت 386هـ) إلى "أحمد بن موسى بن مجاهد "(ت 324هـ) في بغداد يجيبه على طلبه الإجازة منه لكتابيه المختصر و النوادر ووعده أن يبعث له فيما بعد بنسخة منهما .واخبرها أن طالبين من

---

[1] القاضي عياض: المصدر السابق ج4،ص327.

[2] عثمان بن عبد الرحمن بن الصلاح: علوم الحديث ، تح: نور الدين عتر، المكتبة العلمية، المدينة المنورة ،1966، ص48.

[3] نفسه ، ص84.

طلابه هما محمد بن خالد و أبو بكر "إسماعيل بن عذرة" سيتوجهان إليه في بغداد للأخذ عنه ولديهما نسخة مصححة ومقابلة من المختصر[1].

– المراسلة في مسائل متعددة: كانت المراسلة وسيلة لتبادل الرأي والمشورة العلمية أو للإفتاء بأمر ما . حيث حصلت مراسلات عديدة بين فقهاء القيروان وعلي بن زياد الذي تفقه على يديه العديد منهم[2] لمكانته العلمية باعتباره في مقدمة فقهاء المالكية في وقته،فقد كانت له الكلمة الفصل في حال اختلاف فقهاء القيروان في مسألة ما، فهم إذا اختلفوا فيما بينهم كانوا يبعثون إلى علي بن زياد في تونس ليعطيهم الرأي الأخير [3] .

وهناك نوع أخر من المراسلات كان أحد أطرافها ممن عر ف بتصوفه وزهده ، فكان النصح والوعظ والدعوة إلى التصوف غاية أساسية في تلك المراسلات . ومنها تلك التي كان يتبادلها "محمد الخشني" وربيع القطان" أحد الفقهاء المتميزين الذين اتجهوا إلى التصوف. [4]

كما كانت مراسلة فقهاء المغرب مع أصول المالكية في المدينة المنورة ومصر، فقد راسل الفقهاء المغاربة الإمام مالك باستمرار إلى أن رسخت المالكية في الأندلس والمغرب فاستجدت مراسلات بين فقهاء المغرب و الأندلس وبرزت الوحدة المذهبية والمرجعية العلمية فيما يخص تبليغ الأحكام القضائية.

ولما كان أمراء الدول المتتابعة في القرنيين الرابع و الخامس للهجرة، أصحاب نحل مذهبية غالبة، فقد اتخذوا لها دعاة كثيرين في العالم العربي، فكان من الطبيعي أن يهتموا اهتماما واسعا بديوان الإنشاء القائم على كل شؤون الدولة السياسية والإدارية و الدعوية.

ثالثا-أنواع الرسائل وموضوعاتها الأساسية:

منذ أن ارتبطت الرسالة بديوان الإنشاء، أواخر القرن الأول الهجري، حتى راحت تحتل مكانها في صدارة الفنون النثرية كثرة وتنوعا، متخذة من الإخبار والتواصل والتوثيق غاية.

---

[1]الخشني: قضاة قرطبة وعلماء افريقية ،عنى بنشره وصححه ،وراجع أصله: عزت العطار الحسني،مكتبة الخانجي ، القاهرة، ط2 ، 1994، ص 36 .

[2]المالكي:المصدر السابق،ج1،ص224.

[3]ابن فرحون :المصدر السابق، ص 192.

[4]الخشني : طبقات علماء افريقية ، ص 179.

وكان للمناخ السياسي المهيمن على المغرب في القرنين الرابع و الخامس للهجرة أثر في ازدهار هذا اللون، وتنوع أنماطه، وكثرة موضوعاته. **و** قد سمي هذا النوع بالرسائل الديوانية فهي تضم كل المراسلات والمخاطبات والوثائق وغيرها من ضروب الإنشاء ذات الطابع الرسمي التي تدخل ضمن ترتيب الحكم ،وضبط شؤون الإدارة والدولة داخليا وخارجيا. "وتكون صادرة عن شخص واحد ، قد يكون واليا أو قاضيا أو أميرا.وتعنى بشؤون الدولة السياسية، وتتضمن العهود والتقاليد وانتقال الخلافة والفتوحات والدعوة إلى الطاعة، والحث على الجهاد وما إلى ذلك من موضوعات ذات طابع رسمي إداري"(1).

ومن الرسائل ما يوصف بالأدبية، وهي تلك الرسائل التي تصور الأفراد وسلوكاتهم التي وصلت إليها، فضلا عما ترمي إليه من إصلاح اجتماعي وأخلاقي؛ فهي تنتقد بصورة غير مباشرة، ما آل إليه حال المجتمع من بذخ وترف وإسراف،وهي نادرة.

أما الرسائل الإخوانية هي الرسائل التي تصور عواطف الأفراد ومشاعرهم«... سواء أكانت عتابا أم تعزية أم مرسلات عادية لدعم أواصر القربى ووشائجها ,و المحافظة على أصوات الإخاء، و تمتين العلائق الإنسانية ,و هي رسائل تتكلم عن صلة الود فيها الحنين إلى الإخوان و الخلان و العتاب على بادرة صديق.... » [2]. وهي في مضمونها تصور مختلف المشاعرهم من رغبة ورهبة ومن عتاب واعتذار واستعطاف، ومن تهنئة و استمناح ورثاء أو تعزية،وقد « نمت الرسائل الإخوانية في هذا العصر نموا واسعا، وكانت هذه العواطف تؤدى في العصر الأموي بالشعر، وكان من النادر أن تؤدى بالنثر، أما في هذا العصر فقد زاحم فيها النثر الشعر بمنكب ضخم»[3] وقد كان نصيب العبيديين منها قليلا؛ إذ لم تسعفنا المصادر إلا برسالتين، يمكن تصنيفهما ضمن هذا النوع من الرسائل.فيما نجد مثل هذه الرسائل قد تطور بشكل ملحوظ في العهدين الصنهاجي والحمادي.

ولعل اهتمام رجال الدول بهذا الشكل،كان من قبيل الانتصار لمذهب ما،أو لسياسة وكان أكثره من باب كشف وإظهار مدى الاطلاع والمهارة في النقل والتأويل والكلام وقد تبع

---

[1] محمد عبد الغني الشيخ: المرجع السابق، ص24.

[2] عبد النور جبور: المعجم الأدبي، دار العلم للملايين،مصر، ط1 ،1979 ، ص09.

[3] محمد عبد الغني الشيخ:نفسه،ص24.

ذلك تطور في المعاني والألفاظ، و اتسمت عباراتهم بسمة الإطناب والإسهاب، هذا بالإضافة إلى تأنقهم في العبارة كاستعمالهم الجمل المتساوية التواصل مما يضفي على التراكيب روعة في اللفظ والمعنى. وفيما يلي تفصيل لهذه الرسائل التي عرفها أهل المغرب خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين

أ-الرسائل الديوانية:

لما كانت هذه الرسائل مكاتبات رسمية ترمي بالدرجة الأولى إلى ضبط العلاقات ،ووضع ترتيبات الإدارة والحكم ،أو كما قال عنها "القلقشندي": "...تهتم بمصالح الأمة،وقوام الرعية... "[1].فهي تهتم بمضمون الشكل النثري، دون الاهتمام بمن يصدر عنه هذا الخطاب.وعادة ما يكون الخليفة أو الحاكم وما يصدر عنه من رسائل ومخاطبات تمثل وجه من وجوه السياسة، وعلاقتها بتسيير البلاد.

لكن هذا لا ينفي عنها الجانب الفني الذي يخرجها في أبهى حللها من خلال ملكة الكاتب وتمرسه وإلمامه بأنواع المعارف " اللسانية والفقهية و براعته البلاغية التي من خلالها تكون له القدرة على انتقاء فصيح الألفاظ واستخدام الأساليب المتقن، وصياغة العبارات البليغة لتحقق لنا على الأقل قيمة أدبية في الصياغة ، هذا من أجل أن يحقق مراميه التي تتجلى في دقة الوضوح ، وموافاتها لمقتضى الحال، أي بمعنى استخدام معارف وعلوم العهد لترتبط بالصورة الواقعية للمجتمع لتعطي لنا في النهاية صورة حية عن الواقع السياسي والاقتصادي، و الديني ، والاجتماعي ... "[2].

وبالنظر إلى طبيعة الحياة في القرنيين الرابع و الخامس للهجرة، التي طغى عليها الصراع والحروب والفتن، فقد اقتصرت الرسائل على الموضوعات ذات الطابع السياسي والديني والفكري... والتي ترتبط مباشرة بالرسائل الأدبية .

ولعل أول ما يصادفنا في ذلك، ويعتبر من مظاهر الدعوة التي اصطبغت بالصبغة الأدبية في المراحل الأولى من القرن الرابع الهجري ،الكتاب (الرسالة) الذي أمر "المهدي" بإنشائه عقب استقراره في أحد قصور "رقادة"، ليقرأ على منبر جامع القيروان،وعلى منابر الأمصار

[1] القلقشندي : المصدر السابق، ج13 ، ص153.

[2] شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في النثر العربي، مكتبة الأندلس، بيروت ، د ط، د ت،ص491.

الأخرى في المغرب الإسلامي،وهو كتاب بليغ العبارة، ناصع الأسلوب مرتب الأجزاء متساو في فقراته مكتوب بلهجة هادئة معتدلة بعيدة عن الإثارة وروح الهجوم ، فلا يكاد يعرض لمواطن الخلاف بين الشيعة وأهل السنة إلا في أسلوب خفيف الوقع، وذلك كقضية استحقاق الإمامة التي جعلها الشيعة مدرجة إلى إعلان البراءة من أبى بكر وعمر وعثمان وغيرهم من الصحابة، وإلى ما هو أكثر من البراءة من لعنهم وتكفير من لم يعتقد بذاك ، مما يثير الحفائظ ويبين الضغائن ، فقد تجنب الكتاب ذلك ، ولم يعرض لهذه القصة التي كان عليه أن يعرض لها بطبيعته أنه كتاب افتتاح عهد دولة الشيعة ، إلا في سياق الثناء على الله الذي أنجز ما وعد به رسوله(ص) حسب زعمهم ، بقوله جل شأنه :﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون ﴾ [1] وذلك برد إرث النبوة وتقاليد الإمامـــــة إلى عترة نبيه وبذلك « أعز الدين و المؤمنين، وأنقذهم من الهلكة ، في كل سكون وحركة، بعبد الله أبي محمد الإمام المهدي بالله، أمير المؤمنين ، وأظهر نهجه الإسلام وجماله بقيامه وأخذ تراث جده النبي وأبيه الوصي، صلوات الله عليهما ، وجعل أولياءه وأنصار الإمامة عصاها في دارها وقرت عينها ، وأسنت وحشيتها ، واستقر قرارها وصار أمر المؤمنين طودا منيعا وجبلا راسيا على الأرض وظلا ظليلا لأهلها ... فداوى الإسلام من الداء العضال ، ورتق من فتوقه ما كان منحرفا وجبر من كسره ما كان لا يجبر ، ولأم من صدعه ما كان لا يلأم ، فهو مفتاح الرحمة ودليل الخير، ذبا عن الحق وحياضه للدين ،وعناية بأمر المسلمين ، وبعد نظر فما يقطع به أماني المبطلين، والحمد لله رب العالمين» [2].وهذا الكتاب بإصداره من ديوان الإنشاء يعتبر بداية لمظاهر الدعوة الجديدة. بل هو افتتاحية هادئة سلسة أراد الكاتب من ورائها طمأنة و استمالة الناس إلى الحكم الجديد، الذي اسبغه لباس التقوى والورع بربطه بآل البيت.

كما أنه ركز على قضية الإمامة، والتي ظهرت بشدة في الأشكال النثرية السابقة الذكر بشدة وأحقية الشيعة بالحكم، وأن هذا وعد الله حسب زعمه ،ولاشك أن روح التكلف المبطن بالتدين، والظاهر في هذه الفقرة، أوضح من روح الأدب لكنها تعطي لنا فكرة تداخل الأدب مع الدين في هذا الشكل النثري.

---

[1] الأنبياء : الآية104.

[2] القاضي النعمان:افتتاح الدعوة ، ص250-253.

ب- الرسائل الخارجية:

وهي ما يتبادل بين الدول المغربية التي قامت في القرنيين الرابع و الخامس للهجرة من جهة والدول الأجنبية الأخرى من جهة أخرى ،وفي حقيقة الأمر أن مثل هذه الاتصالات الخارجية بين دول المغرب وسائر الدول القائمة آنذاك لم تكن في بادئ الأمر موجودة لانشغال مؤسسي هذه الدول بالشأن الداخلي و إحكام السيطرة على كامل بلاد المغرب الإسلامي وتهدئة الأوضاع وقمع الفتن التي انتشرت في النصف الأول من القرن الرابع الهجري ، لذلك نجد أن أغلب المراسلات الخارجية جاءت متأخرة خاصة بعد أن بدأ العبيديون يتوقون لنقل ملكهم إلى المشرق والسيطرة على العالم الإسلامي .

لكن طبيعة العلاقة بين دول المغرب وباقي الدول خاصة الإسلامية في الأندلس وبغداد كان يشوبها الفتور لتتصاعد وتيرة التوتر بينها ليصل حد العداء ، هذا العداء الذي فرق هذه الدول، ووسم علاقاتها مع بعضها البعض بالفتور تارة والتدهور تارة أخرى ، فلم تكن هناك مبادلات رسمية واضحة بينها ،لذلك نجد الكثير من الرسائل التي أمكن الإطلاع عليها في هذا المجال قليلة لضياع أكثرها .ومع هذا استطعنا أن نثبت من خلالها طبيعة العلاقة بين دول المغرب وباقي الملوك والأمراء في المشرق والأندلس و العلاقة مع أوروبا، وأن نطلع على ما يصبو إليه أمراء هذه الدول ونطلع كذلك على صيغ رسائل تلك الفترة الزمنية.

- مراسلاتهم مع المشـــــرق :

إذا جئنا إلى عرض هذه الرسائل، نجد أول رسالة كتبها "عبيد الله" إلى أتباعه في المشرق، وذلك حينما أمر عبيد الله المهدي بإعدام أبي عبد الله وأخيه اللذين تآمرا عليه .وبعد تنفيذ الحكم فيهما كتب عبيد الله إلى أتباعه في المشرق الرسالة المختصرة التالية -الموجودة في البيان لابن عذارى- « أما بعد ، فقد علمتم محل أبي عبد الله وأبي العباس من الإسلام (يقصد العقيدة القرمطية) فاستزلهما الشيطان ،فطهرتهما بالسيف ، والسلام »(1).

---

[1]ابن عذارى: المصدر السابق، ج1، ص165.

كما نجد رسالة "عبيد الله العبيدي" إلى حاكم (القرامطة)[1] بالبحرين ، الذي ينتمي للعبيدين مذهبيا وهي الدولة الوحيدة التي كانت بالمشرق على صلة روحية ومذهبية وذات ولاء عبيدي، لكن هذه العلاقة كانت في كثير من المرات تتأزم وتتوتر بسبب الصراعات السياسية بين الدولتين، وسعي كل طرف للسيطرة على العالم الإسلامي.

يدور خطاب عبيد الله العبيدي حول موضوع محدد وهو طلب إعادة (الحجر الأسود) الذي أخذ من بيت الله الحرام من قبل القرامطة في حوادث سنة (317هـ)[2]–حين هجم القرامطة على مكة المكرمة وقاموا باقتلاع الحجر الأسود–وتأنيبهم جراء العمل الذي قاموا به واعتباره عملا يثير الفتنة بين المسلمين ويؤلب الناس عليهم .

هذه النقطة الأساسية التي يدور حولها الخطاب الرسمي في تلك الرسالة والتي تبدأ بمقدمة طويلة حول طبيعة الأنبياء وطبيعة نوابهم الآئمة ، "لقد خلقنا الله أشباحا قبل خلق العالم ، وسلحنا بالقوة ، و أشياء العالم كافة ، من الأفلاك السماوية ، وحتى أقصى ما يكون داخل الأنفس ، هي لنا ومن أجلنا وتشير الينا فلم يبعث برسول و لم يظهر وصي إلا وكان يشير إلينا " نحن كلمات الله الأزليات ،واسماؤه التامات، وأنواره الشعشعانيات ، وأعلامه،النيرات ، ومصابيحه البينات ، وآياته الباهرات ، وأقداره النافذات ، لا يحرج منا امر ، ولا يخلو منا عصر" ثم يتوجه المعز إلى الحسن، ويسميه بالغادر الخائن ،و الناكث البائن عن هدي آبائه وأجداده ، المنسلخ عن دين أسلافه و أنداده ، والموقد لنار الفتنة . غير أن أمره لم يخف على المعز":«..قد حققت على شيعتنا ودعاة دولتنا اسم الكفر والإلحاد بما فعلت... والعجب من كتب إلينا ممتنا علينا بما ارتكبته و اجترمته باسمنا من حرم الله وجيرانه بالأماكن التي لم تزل

[1] القرامطة :هم أصحاب دعوة حمدان بن الأشعث قرميطي التي انتشرت في البلاد الإسلامية سنة (289 هـ/901م)، فزعزعت العالم الإسلامي زمنا طويلا ،و استفحل أمرها باليمن فقامت هناك فتن وحروب لم تهدأ إلا عند سنة(289هـ) .(ينظر:المقريزي:اتعاظ الحنفاء،ج2،ص30،هامش ابن حماد:المصدر السابق، ص28).

[2] برنارد لويس: أصول الإسماعيلية والفاطمية و القرمطية ،دار الحداثة، بيروت، ط1،1980 م،ص86. (ينظر أيضا:ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب،تحقيق:لجنة إحياء التراث العربي،دار الأفاق الجديدة، بيروت ،د ط،د ت، ج1، ص 130).

الجاهلية تحرم إراقة الدماء فيها وإهانة أهلها، ثم تعديت ذلك وقلعت الحجر وحملته إلى أرضك ورجوت أن نشكرك... » [1].

ويضيف في الخطاب نفسه:«...فأما أنت الغادر الخائن ،الناكث البائن عن هدى آبائه وأجداده المنسلخ من دين أسلافه و أنداده ، والموقد لنار الفتنة والخارج عن الجماعة والسنة فلم اغفل أمرك ولا خفي عني خبرك ولا استتر دوني أثرك ... ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا ،فعرفنا على أي رأي أصلت وأي طريق سلكت، فلعنك الله ثم لعنك والسلام على من سلم المؤمنون من لسانه ويده وفعل في يومه ما عمل فيه حساب غده...وأمره في الكتاب بأن يعيد الحجر الأسود إلى موضعه فأعاده وإن كان بعد سنين» [2].

كما نجد الرسالة التي بعث بها "القائم" لما كان وليا للعهد العبيدي ،عندما أراد غزو مصر إلى "مؤنس المظفري"[3] محتجا فيها بالشرعية الخلافية للعبيديين على العباسين، ومما جاء فيها:" باسم الله الرحمان الرحيم . من أبي القاسم محمد ولي عهد المسلمين ابن الإمام أبي محمد عبد الله المهدي بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، إلى مؤنس .ســـلام على من اتبع الهدى . فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو أسأله أن يصلي على محمد رسوله (ص) .

...فأما الخلافة ، فما جعل الله – عز وجل – للعباس بن عبد المطلب فيها حظا ، وما هو منها في شيء لأنه ليس من المهاجرين ، ولا من العشرة الذين توفي رسول الله (ص) وهو عنهم راض ، ولا أدخل في الشورى ، ولا التمسها لنفسه في وقت من الأوقات .

و إنما خص بها الله أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وامتحن بها ، بعد رسول الله صلى الله عليهما، رفع لدرجته في جنات النعيم، فصبر – صلى الله عليه – على مضض الأمور، ابتغاء لما يبقى في الدار التي لا تبيد ولا تفنى.وصارت لولده من بعده فكانوا أحق بها أهلها فغصبهم بنو أمية الكفرة الفجرة، الشجرة الخبيثة الملعونة في القران، ثم بنو العباس، رضوان الله

---

[1]ابن الأثير: المصدر السابق، ج 8، ص 469.

[2]نفسه،ج8، ص 469.

[3]مؤنس الخادم :هو القائد التركي الذي جهزه خلفاء بغداد للتصدي للقائم أثناء حملاته على مصر(306–310)، وقد نجحت مقاومته للجيش العبيدي في الحملات الأولى ،فاضطر القائم إلى الرجوع إلى إفريقية .فسمي مؤنس المظفري لذلك .(ينظر :ابن حماد :المصدر السابق،ص23–24 .محمد اليعلاوي:الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي،ص86).

على العباس ، من بعدهم، فاطفاوا نور الله وبدلوا الحق بالباطل وكانوا مثل الملوك الذي عتوا في الأرض من قديم الدهر، وجعلوا الملك بينهم ميراثا فأملى لهم الله – عز وجل – المدة ليستدرجهم ، ثم انه ينتقم منهم ويأخذهم ، وهو فاعل ذلك ومهلك آخرهم كما اهلك أولهم ، وراد الحق إلى أهله ﴿ إن الذين يحادون الله ورسوله أولائك في الأذلين كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز ﴾ (1)» (2).

ففي هذه الرسالة يحتج القائم بالشرعية الخلافية لعلي بن أبي طالب على العباس بن عبد المطلب عم النبي (ص) ، ولو أن احتجاجه هذا لا يتناسب مع وظيفة القائد التركي الذي كان مأمورا بصد خصمه عسكريا، ورده عن مصر،وهذا يدل على أن القائم في حملاته الأولى ،ما كان يقدر على دخول مصر مع وجود مؤنس لذلك فهو يخاطبه مذكرا له بما اختص الله–عز وجل– به ولد علي ،من خلافته في أرضه وأمانة عباده وتمكينه لهم، مما يستوجب على العامة الدخول تحت إمرة أبنائه أمراء بني عبيد.

كما أننا نجد رسالة من القرن الخامس الهجري تبين العلاقة الودية القائمة على النجدة و المساعدة بين بعض الأمراء المغاربة وحلفائهم العرب،وهي تشبه شعر النجدة و التوسل ، وتعد من أهم الرسائل الرسمية في العهد الحمادي، وهي رسالة " لابن دفرير الكاتب"، وهو أحد كتاب الدولة الحمادية البارزين المتصرفين في الكتابة السلطانية، وقد كتب رسالة عن سلطانها "يحيى بن العزيز الحمادي"، وهو في حالة فرار من مدينة بجاية أمام جند "عبد المؤمن" يستنجد بعض أمراء العرب بتلك الولاية،ومما جاء فيها: "كتابنا ونحن نحمد الله على ما شاء وسر، ورضى بالقسم، وتسليما للقدر، وتعويلا على جزائه الذي به من شكر، ونصلي على النبي محمد خير البشر، وعلى آله وصحبه ما لاح نجم بسحر، وبعد، فإنه لما أراد الله أن يقع ما وقع، لقبح آثار من خان في دولتنا وضبع استفز أهل موالاتنا الشنآن، وأغرى من اصطنعناه وأنعمنا عليه الكفران، فأتوا من حيث لا يحذرون، ورموا من حيث لا ينصرون، فكنا في الاستعانة بهم والتعويل عليهم كمن يستشفي من داء بداء، ويفر من صل خبيث إلى حية صماد، حتى بغث مكرهم، وأعجل عن التلافي أمرهم، ويرد بال أمرهم إليهم، فعند ذلك اعتزلنا محلة الفتنة، وملنا

[1]المجادلة، الآية 20.

[2]محمد اليعلاوي: الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي ،ص86

إلى مظنة الأمنة، وبعثنا في أحياء هلال نستنجد منهم أهل النجدة ونستقر من كنا نراه للهمم عدة، وأنتم في هذا الأمر أول من يليهم الخاطر، وتثنى عليه الخناصر"[1].

فقد استخدم "ابن دفرير" خاصية مميزة في رسالته، حين جمع بين ثنائيات متضادة، كالجمع بين انتصار عسكر عبد المؤمن، وفرار يحي بن عبد العزيز الحمادي، و الجمع بين الشعور بالهزيمة والمرارة، والرغبة في الانتصار بطلب النجدة والعون من قبائل بني هلال. ولعل هذا الجمع دال على ذلك التنازع النفسي ووحدة المزاج والعصبية الذي عانى منهما السلطان وكاتبه "ابن دفرير"، لقد جاء هذا الجمع" كتفريغ لغوي صادق لمعاناة نفسية واقعية"[2].ورسالته وإن كانت تغلب عليها المباشرة والتقريرية،فهي نص مبدع مرتبط بعصره، وبظرف سياسي واجتماعي خاصين، وهو نص له أسلوبه الخاص به، و"الأسلوب هو اختيار الكاتب لما من شأنه أن يخرج بالعبارة عن حيادها وبنقلها من درجتها الصفر إلى خطاب يتميز بنفسه، وهذا معناه أن الأسلوب رسالة أنشأتها شبكة من التوزيع قائمة على مبدأ الاحتمال والتوقع"[3].

لقد استطاع "ابن دفرير" أن يوظف الألفاظ توظيفا حسنا ليكشف عن قمة المعاناة كقوله "استفز أهل مولاتنا الشنآن، وأغرى من اصطنعناه وأنعمنا عليه الكفران فأتوا من حيث لا يحذرون، ورموا من حيث لا ينصرون، فكنا في الاستعانة بهم والتعويل عليهم كمن يستشفى من داء بداء".[4]و يبدو أن سياق الحال، والموقف الإنساني الذي مر به الكاتب وجه ذلك الاختيار فجاء متماشيا وذلك الموقف ،وجاء نصه خفيفا مؤديا للغرض المنوط به.

و جاءت رسالته راصدة للحوادث طارحة لموقف الكاتب وسلطانه، موجدة سياقا خاصا به ينطلق من السياق التاريخي والاجتماعي والسياسي، ويتقاطع مع سياقات مشابهة له، فالحوادث التاريخية كثيرا ما تتشابه.

---

[1]العماد الأصفهاني: خريدة القصر وجريدة العصر قسم شعراء المغرب،ج 1: تح :محمد المرزوقي. محمد العروسي المطوي ، الجيلاني بن الحاج يحيى،الدار التونسية للنشر،1973،ص179.

[2]فندريس جوزيف: اللغة ،تر: عبد الحميد الدواخلي، محمد القصاص، مكتبة الأنجلو مصرية،دط، 1950، ص36.

[3]محمد تحريشي :أدوات النص،منشورات اتحاد الكتاب العرب،دمشق،2000،ص121.

[4]نفسه،ص121.

كما أن العلاقة بين العبيديين -الذين رحلوا إلى مصر- وخلفائهم في المغرب قد استمرت و بقي حبل الود بين الصنهاجيين و الفاطميين مدة طويلة من الزمن ،خاصة و أن الصنهاجين كانوا يخطبون لهم في المنابر و يبعثون بالعهود و مواثيق البيعة إلى غاية عهد المعز بن باديس" حين قطع الدعوة للاسماعيلين.

لكن قبل هذا ،كانت تأتيهم رسائل التولية للأمراء الجدد مع هدايا قيمة ،ومن نماذج ،هذه الرسائل ، نجد:«...من عبد الله ووليه أبي جعفر القائم بأمر الله أمير المؤمنين إلى الملك الأوحد ثقة الإسلام و شرف الإمام و عمدة الأنام ناصر دين الله قاهر أعداء الله مؤيد سنة رسول الله" أبي تميم المعز ابن باديس بن منصور"ولي أمير المؤمنين بولاية جميع المغرب و ما افتتحه بسيف أمير المؤمنين... » [1]، وهذا كان سنة(440هـ) .

- **مراسلاتهم مع الأندلس :**

تميزت العلاقة بين المغرب و الأندلس بداية من القرن الرابع الهجري بالعداء المتبادل بين الدولة الأموية بالأندلس والدولة العبيدية بالمغرب ،فقد أخذ عبيد الله العبيدي -منذ أن استقرت خلافته في إفريقية- يبعث بدعاته إلى الأندلس لنشر الدعوة الشيعية ، لكن هذه الجهود لم تكلل بالنجاح، ولم تجذب تلك الدعوة إليها إلا فريقا ضئيلا من رجال الفكر الأندلسيين، وكثيرا من العداء من قبل الحكام السنيين.

ولما أصبح نشاط الدعاة العبيديين في نشر المذهب الشيعي يهدد كيان الأمويين بالأندلس " وجه عبد الرحمن الناصر -ولى الحكم في الأندلس سنة(300هـ)- اهتمامه للوقوف في وجه العبيديين والقضاء على أطماعهم ، فعمد على إعداد أسطولا قويا، بلغ عدد قطعه نحو مائتي مركب وكثير ما كان الأسطول الأندلسي يغير على الحدود والثغور العبيدية في عهد الخليفة العبيدي 'المعز لدين الله 'وعمل على اجتذاب أنصار له من قبائل الزناتيين المعادية للعبيديين » [2].

كما استول الناصر على سبته، وعمل على استمالة "موسى بن أبي العافية" والي المغرب الأقصى، وخلع طاعة المهدي، والدخول في طاعة "عبد الرحمن الناصر"،على أن

---

[1] الراجكوتي : المرجع السابق ،ص15.

[2] القاضي النعمان:المجالس والمسايرات، ص325-326.

الناصر لم يلبث أن أنفذ أحد رسله إلى حاضرة العبيديين، ومعه كتاب إلى" المعز" ، يطلب منه الموادعة والصلح –وهذا حسب المصادر العبيدية– فرفض "المعز" إجابة طلبه، وقال للرسول :« وما أنا بالمداهن في دين الله ، ولا بالراكن بالمودة إلى أعداء الله ــ ولا بالمخادع في أمر الله عز وجل ،ارجع بجوابي هذا إليه ، فما له عندي شواه، وما لي من الأمر من شيء، إن الأمر كله لله ، عليه توكلت وإليه أنيب... »[1].« واستمرت العداوة بعد وفاة الناصر سنة (350هــ) ، وخلفه ابنه الحكم المستنصر، استمر النزاع، وكان من مظاهره تلك الحملة التي أرسلها الحكم سنة(362هــ) إلى بلاد المغرب الأقصى والأوسط للقضاء على الدعوة العبيدية ، وتمكن من بسط نفوذه على تلك البلاد، وخرج زعماء زناته و مغراوة عن طاعة المعز ،وأقاموا الدعوة للحكم المستنصر من منابرهم» [2].

ومن هذه الرسائل تلك التي كتبها "عبد المالك المظفر بن منصور بن أبي عامر" إلى "المعز بن زيري بن عطية الصنهاجي" ملك فاس يقره على عمله ، يقول فيها : «...إلى كافة أهل فاس و كافة أهل المغرب سلمهم الله ...إن المعز بن زيري بن عطية –أكرمه الله–تابع رسله لدينا و كتبه متتصلا من هنات دفعته إليها ضرورات ، ومستغفرا من سيئات حطتها من توبته ، حسنات ، والتوبة ممحاة للذنب و الاستغفار منقذ من العيب...و قد وعد من نفسه استشعار الطاعة و لزوم الحادة و اعتقاد الاستقامة و حسن المعونة و خفة المؤونة ، فوليناه ما قبلكم و عهدنا إليه أن يعمل بالعدل فيكم و أن يرفع الجور عنكم و أن يعمر سبلكم ، و أن يقبل من محسنكم و يتجاوز عن مسيئكم إلا في حدود الله تبارك و تعالى...»[3].

وقد كانت الرسالة مؤرخة سنة(393هــ) ،وهي من الرسائل الودية التي تبين مدى عمق العلاقة بين الصنهاجيين والأندلسيين، وتقلب المغاربة خاصة أهل المغرب في ولاءاتهم المتباينة، والرسالة في أسلوب سلس وجمل قصيرة، في عبارات متدفقة تعبر عن بلاغة وفصاحة كاتبها.

– مراسلاتهم مع الــروم:

---

[1]ابن خلدون: المقدمة، ص211.

[2]محمد جمال الدين سرور: تاريخ الدولة الفاطمية، دار الفكر العربي، القاهرة، مصــر، د ط،د ت، ص358.

3 عمر فروخ :المرجع السابق، ج4،ص202.

اتسمت العلاقة بين الروم و الدول الإسلامية في القرنيين الرابع و الخامس بالاضطراب عموما، وهذا منذ وصول بني عبيد لسدة الحكم في المغرب الإسلامي، وبسطهم النفوذ على جزيرة صقلية ، التي طمع الروم في إعادتها إلى سيطرتهم التي فقدوها بفتحها سالفا .لكن انشغال الروم بالسيطرة على الشام أجبرهم على طلب الموادعة مع أمراء المغرب، وبذلوا لهم في ذلك أموالا كثيرة،وحاولوا التقرب إليهم بإرسال السفارات و تبادل الهدايا و إطلاق المساجين...

ففي العهد العبيدي رأى المعز بعد أن قويت شوكته و تبين له أن استجماع قوته و حربهم لاحقا ذلك خير له على المهادنة ،خاصة بعد أن أجابوه إلى موادعة خمس سنين– ولقد ألغيت معاهدة الهدنة المبرمة بين الروم و العبيديين في سنة(349هـ) قبل انقضاء مدتها ، في ظروف استعرضها القاضي النعمان بكل دقة ووضوح. وقدتم نقضها بمبادرة من المعز ردا على اقدام الروم على غزو جزيرة قريطش في عهد الامبراطور رومانوس الثاني خليفة قسطنطين السابع[1]– ،وقبل أن تنقضي مدة الموادعة و الهدنة، أرسل الروم جيوش ثقيلة و سفن كثيرة دخلوا بها على جزيرة اقر يطش ، وهم في دعوة بني العباس .فلما حل بهم من ذلك ما لا قوام لهم به ، وعلموا أنه ليس عند بني العباس نهضة ولا لهم لديهم نصرة ، أرسلوا مركبا فيه رجال من قبلهم مع وجه من وجوههم إلى "المعز لدين الله العبيدي" يستغيثون به ويسألونه استنقاذهم و إغاثتهم، وفي ذلك قال النعمان: « فرأى أن ينبذ إلى المشرك عهده كما أمر الله بذلك في كتابه إن هو أصر على حربهم ، وأمر بكتاب في ذلك إليه ، وأملاه على الكاتب بحضرة من بين يديه بكلام ما سمعت أجزل ولا أبلغ منه . فقال بعد أن خيره بين أن يقلع عن حرب أهل أقريطش وبين أن ينبذ إليه عهده – كما نبذ رسول الله (ص) إلى مشركي العرب عهدهم»[2].وأرسل عليا ببراءة فقرأها في الموسم عليهم ولقول الله أصدق القائلين: ﴿وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء﴾[3] .

---

[1] فرحات الدشراوي:الخلافة الفاطمية بالمغرب(التاريخ السياسي و المؤسسات)،ترجمة : حمادي الساحلي،دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1994، ص362.

[2] القاضي النعمان:المجالس والمسايرات، ص442 –443.

[3] الأنفال : الآية59.

ومما جاء في رسالة المعز إلى قسطنطين ، قوله :« ولا ترى أن دعوة أهل اقر يطش قبل اليوم إلى غيرنا وقد أنابوا ،اليوم إلينا واستغاثوا بنا، مما يوجب لك عندنا تمام الموادعة بتركهم إليك وترك اعتراضك فيهم .إن امتناع أهل الباطل من أهل الحق ليس بمزيل حقهم وإن تغلبوا عليه دونهم، بل هو لهم بتصيير الله إياه إليهم . فأقر يطش وغيرها من جميع الأرض لنا ، بما خولنا الله منها وأقامنا له فيها، أطاعنا منها من أطاع وعصانا من عصى ، وليس بطاعتهم يجب لنا أن نملك ولا بعصيانهم يحق علينا أن نترك، ولو كان ذلك لكان الأمر إليهم لا لله الذي خولنا ولا لنا ، إن شاءوا أعطونا وان أحبوا منعونا ، كلا إن ذلك لله الذي له ما في السموات وما في الأرض وهو الذي اصطفانا وملكنا أعطانا، ولو كان ذلك للخلق لما وسعنا قتال من امتنع منهم علينا ولا رد ما انتزعوه بالغصب من أيدينا» (1).

ففي هذه الرسالة يقر المعز أمرا خوله الله لهم، وملكهم إياه، وبهذا الحق عليهم أن يبسطوا سلطانهم على أي شبر من أرض الإسلام ولهذا فهو يرى أن اقريطش ما هي إلا جزء لا يتجزأ من دولته، ولو أنها تتبع دولة بني العباس ظلما.وقد حان الوقت لاسترداد حقهم المسلوب حسب زعمه وتحقيق حلمهم الموعود.

و يضيف في رسالته مبينا أحقيته بالمنطقة مهددا متوعدا بمصير من سيقف في وجه قوته وذلك بحرب لا تبقي ولا تذر قائلا:«...فإن رأيت أن من احتجز شيئا وتغلب عليه فهو له دون صاحب الحق الذي ملكه ، فلم يكن لك ولا لأبيك القيام على رومانس ولا انتزاع ما صار إليه من بين يديه .فهذه سبيل أهل الحق عندنا ،فإن اعترفت لها فقد أنصفت، وإن جهلتها لم يكن جهلك إياها حجة على من عرفها. وعهدك إن تماديت على حرب من أناب إلينا منبوذ إليك، فانظر لنفسك ولأهل ملتك فإنا منا جزوك وإياهم الحرب بعون الله لنا وتأييده، ولا حول ولا قوة لا به» (2).

وهكذا تبدى المعز في كتابه إلى أعدائه،حازما في ألفاظه ، لكنه متكلف بعض الشيء، وإن كان جانبه الأدبي لا يخلو من جمال، ويبدو هذا في استرسال عبارات، وانسجام جمله، لكونه

---

[1] القاضي النعمان: نفسه ،ص230-234.

[2] القاضي النعمان: المجالس والمسايرات ، ص444.

يخاطب طاغية الروم الذي استشرف شره، خاصة مع تقهقر الخلافة العباسية التي كانت تبسط سيطرتها على المنطقة المعنية .

وهناك رسالة أخرى تعد من الرسائل الرسمية المهمة في العلاقة بين الحمادين و رجال الدين الأوروبيين ،والتي حملها موفد الكنيسة إلى" الناصر الحمادي"، من صقلية إلى "بجاية" حاضرة الحماديين،وهي ليست الرسالة الوحيدة التي تبادلها الطرفان في سنين الموادعة و المهادنة و الاحترام المتبادل بين حاضرة المغرب و أوروبا . وقد نقل الموفد الخاص للكنيسة رسائل شكر و ثناء للناصر من كبار رجال الكنيسة، و الرسالة التي أرسلها رئيس الكنيسة تعد من أهم الرسائل التي أرسلت من بابوات روما إلى ملوك المغرب.ومما جاء فيها :" من "قريقوار" أيفيك" عبد عبيد الله إلى الناصر ملك موريتانية السطيفية بافريقية.سلاما ورضا الكنيسة .

كتبت لنا سيادتكم النابلة هذه السنة تطلب منا إن نعين القسيس "سرفاند" أيفيك على مقتضى الشريعة النصرانية ،الأمر الذي بادرنا بتنفيذه نظرا لعدل طلبكم.وقد أرسلتم إلينا بهذه المناسبة هدايا ، وقد أفديتم المسيحيين الذين كانوا أسرى بمملكتكم تقديرا لبطرس وحبا لنا واعدا لنا بعتق كل أسير مسيحي يعثر عليه من بعد.فان الخالق الذي لولاه لما قمنا بشيء قد ألهمكم هذا الحلم وقاد قلبكم للقيام بهذا العمل الكريم.إن الله العزيز الذي يريد أن ينقذ جميع الناس،وأن لا يهلك احد ولا يرضيه شيئا أكثر من محبة الإنسان لأخيه بعد الحب الذي يجب على هذا الإنسان نحو نفسه ،ومن العمل بهذه الحكمة [1]،عامل غيرك بما تريد أن تعامل به،ويجب عليكم وعلينا أن نفعل الخير أكثر من الأمم الأخرى حيث أننا نعبد إلها واحدا على طرق مختلفة ونحمده ونقدسه كل يوم فانه حالق الأجيال ورب العالمين .

فان أعيان مدينة روما عند سماعهم منا بصنيعكم الذي ألهمكم الله إياه أعجبوا بسمو عواطفكم وشادوا بذكركم فان اثنين منهم نديميينا "البريك" و" سنسيوس" اللذين تربيا معنا منذ طفولتهما بقصر روما يرغبان رغبة شديدة في أن تكون بينكم و بينهما صداقة و تعاون و يسعدهما إن يجدياكم نفعا في هذه البلاد فإنهما يبعثان لكم بعض رجالهم يحدثونكم عن تقدير

[1]محمد الطمار :الروابط الثقافية بين الجزائر و الخارج،الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر،1983 ،ص 146 .

سادتهم لما قمتم به و لجلالتكم ، و عن سرورهم بخدمتكم هنا. فنوصي فخامتكم بهم حبا و خيرا ،و نسال عطفكم عليهم و رعايتكم لهم بقدر ما يكون عطفنا لكم واعتناؤنا بما يهمكم، والله تعالى يشهد انه هو الملهم لهذه الصداقة التي نعدكم بها وكم نتمنى لكم حفظ ومجد في هذه الدنيا و في الآخرة. نسأله من صميم فؤادنا أن يستقبلكم، بعد عمر مديد ،في نعيم القديس إبراهيم"[1].

فهذه الرسالة كتبت بالعربية وهي تعد أهم رسالة من بابوات روما إلى ملوك المغرب وتوضح العلاقات الودية بين المسلمين و المسيحيين، و على تسامح ملوك بني حماد الديني فلا شك أن هذا التسامح كان يعم اليهود أيضا وكل الأقليات كانت تعيش مطمئنة تحت ظلال هذه الدولة الواعية ،كما تبين لنا من هذه النماذج إلى رقي .

ج-الرسائل الداخلية:

كل دولة لا بد لها أن تقيم مؤسسات ومصالح ترعى شؤون الرعية وتبقي على حبال بين الحاكم والمحكومين، حتى ولو كانت في بداية عهدها وهذا حال الدول المغاربية ،التي عملت منذ أن تأسست،على إرساء قواعد الضبط والتسيير،ولو أنها بصيغ بسيطة من الإدارة،ومنه الدولة العبيدية، وفي ذلك يقول "ابن خلدون":« كان للقائمين على دولة الشيعة بالقيروان رسوخ في البداوة ،فأغفلوا أمر هذه الخطط أولا-أي الوزارة والحجابة ... إلى أن بلغت دولتهم درجة في الحضارة فمضوا يقلدون الدولتين اللتين سبقتهما في إبداع أسماء لهما» [2].لكنها ما لبثت تتطور شيئا فشيئا مع اتساع النطاق الجغرافي للدول المتعاقبة على المنطقة.

لكن مع ذلك فإن الدول المتعاقبة على المنطقة في هذه الفترة الزمنية ومع بداية دولهم لم يغفلوا أمر ديوان الإنشاء، ولو أنه نشأ بسيطا على أنقاض دواوين الدول الزائلة، وفي هذا يذهب ابن عذارى" ، في أمر الدولة العبيدية "إلى أن عبيد الله، عندما أقام دولته، اتخذ حاجبا، وكاتبا، وقاضيا " [3] .

لكن ما وصلنا من نصوص نثرية لا يدل على وجود مظاهر غنية مرموقة ومتنوعة، بل اقتصر على دواوين محدودة في مخاطبة الحكام لرجال الدولة.هذا ما يجعلنا لا نرسم الصورة

---

[1]محمد الطمار :المرجع السابق، ص147.

[2]ابن خلدون: المقدمة ، ص936.

[3]ابن عذارى : المصدر السابق، ص254.

الواضحة المعالم عن إدارات الدول المغاربية في القرنين الرابع و الخامس للهجرة وكيفية استخدامها لتنفيذ سياسات الدولة الداخلية، وكل ما نملكه من نصوص يتركز في الجانب الإعلامي الدعائي ذو الطابع الشعبي.

-رسائل التبليغ:

وهذا الصنف من النثر أقدم صور الإنشاء الديواني لأن الحاجة ماسة إليه في ظل قيام أي دولة أو الدعوة لأي مذهب ،وهو في الغالب ذو طابع فردي بمعنى أن مضمون الخطاب يقتصر على فرد واحد هو يوجه إليه.

وقد يتطور مع ذلك حتى يكتسي طابع التعميم الذي يرجع إلى مجموعة من الناس أو إلى قبيلة أو مدينة في نسخ عديدة ، ولهذا كان يبعث الحاكم إلى ولاة الأقاليم والى شيوخ القبائل التي انضوت تحت لوائه أو الخارجة عن طاعته أمرا أو نهيا أو توضيحا أو يرى ذلك مما يحتاج إلى إيصاله أو تبليغه. وهي الوسيلة الأنجع في استمرار المبادلات بين الحكام والرعية، أو بينهم وبين ولاتهم القائمين بتسيير شؤون السلطة في الأقاليم.

ولعل الجانب الفني من حيث أشكاله ومضامينه هو الذي يستدعي الدراسة ،وإذا بحثنا في نماذج هذه الفترة فإننا نجدها كثيرة، ولهذا سنختار منها ما يمثل روح العصر الذي وجدت فيه من ذلك :

-رسالة من المنصور موسومة باسم "القائم" موجهة إلى "جو ذر" بالمهدية في:(14محرم 335 هـ- 16 أوت 946)[(1)] وهي التي يصف فيها وقائع الانتصار الذي حققه على الخارجي"ابن كيداد" .وهو يبدؤها بالتكبير والثناء وحمد الله تعالى على هذا النصر المظفر بقوله: « الله أكبر الله أكبر. الله أكبر. لا اله إلا الله .والله أكبر. الله أكبر. ولله الحمد .الحمد لله على نعمه التي لا تحصى، و منته التي لا تجازى. والله أكبر، تكبير ولي عهد المسلمين، سيف أمير المؤمنين، ناصر الدين، شكرا لرب العالمين، يا وارث النبيين، يا سيد المسلمين، يا خليفة رب العالمين، يا خير الخلق أجمعين، يا ولي رب العالمين»[(2)].

---

[1]محمد اليعلاوي : الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي، ص157.

[2]نفسه، ص157 .

ويروى وقائع الهزيمة التي لحقت بإتباع الخارجي فيقول: « ثم اليوم أعز الله دين جدك محمد رسوله المصطفى صلى الله عليه وعلى آله ، وسنته وأمته، وأدعم به أركان الدين ، وأظهر برهان أمير المؤمنين، وأفلج حجته، وأعلى كلمته، ونصر حزبه .اليوم فتحت مشارق الأرض ومغاربها.اليوم ازداد الحق ضياء وعلاء وسناء .الحمد لله رب العالمين الذي نصر عبده، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده.والله يا سيدنا ومولانا أمير المؤمنين،ما سمع من عهد جدك المصطفى رسول الله، صل الله عليه وعلى اله،بيوم كان أعز نصرا،وتأييدا وظفرا وقهرا، منه،بعد أن عاند الفسقة الكفرة الفجرة عناد من أيقن بالموت واستبسل،وناصب وعاند ، فأبى الله "عز وجل" إلا إتمام نوره ،و إعلاء كلمته، على كره الكافرين، ورغم الراغمين »[1] .

و تناول كاتب الرسالة بالتفصيل عن دقائق الأمور، حيث تحدث عن فداحة الخسائر التي لحقت بالأعداء وكيف أن قتلاهم قد غطت الأرض والغنائم التي لم يتمكن الجند من أخذها كلها.يقول في ذلك:« جملة ما أبشر به سيدنا ومولانا أمير المؤمنين، أن قتلاهم غطت الأرض، وامتلأ العسكر المنصور من غنائمهم، وكذلك القيروان، وما عجز الأولياء عن حمله و استثقلوه أطلقت عليه النار فأحرقته.واستولينا على مناخ اللعين بما فيه من قليل و كثير، فقتل فيه ما لا يحصى، سوى ما قتل في المعركة،وليس إلى إحصاء من قتل سبيل لكثرتهم .وكان اللعين قد صابر وحامى، فقصدته بنفسي فأخذته السيوف والرماح بين يدي وليس على اللعيـــــن إلا قميص واحد – سربله الله سرابيل جهنم – قيل أنه قد صرع في المعركة وقد أمرت بالتفتيش عليه.وإن كان قد هرب بحشاشة نفسه، فهو أسير يومه أو غده، وأنا راحل في إثره لأشق البلاد طولا وعرضا، أطأ ديار الفاسقين و أمحو بسيفك آثارهم بحول الله وقوته وعزه ونصره»[2] .

ومما هو واضح أن في آخر الرسالة إشارة واضحة إلى الغرض الإعلامي ،وحرص "المنصور "على نقل وقائع المعركة وبشائر النصر إلى "القائم" عن طريق "جو ذر" والرسالة خلاصة لما جرى في ساحة المعركة، بل هي تقرير إعلامي صور فيه ظروف المعركة والأحداث التي واكبتها منذ البداية إلى غاية نهايتها .وهي تمثل طريقة للكتابة تزخر بفقرات قوية

---

[1]محمد اليعلاوي : الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي ، ص157.

[2]نفسه،ص 158.

النسج ، وعظيمة الأثر لما تحمله من أخبار تاريخية مهمة لواقعة مفصلية ، أراد من خلالها تصوير الوقائع كما هي.

كما أنه يقود الكلام كما يريد ،و هو يعبر بحرية نابعة عن إيمانه بواجبه المقدس الذي يؤديه .وبذلك يمكن أن نعتبر هذه الرسالة ثورة عقلية وجدانية ، تشبه أحداث المعركة. كما أنه يوثق طريقة نقل هذه الرسالة ومحتواها مما لا يدع شكا في الأخبار التي تحملها وهذا بقوله: « وقد بعثت بكتابي هذا إلى أمير المؤمنين مولانا و سيدنا مع ثلاثة من عبيده ممن شهد الوقعة الميمونة تحت ركابي ، ليشافهوا أمير المؤمنين ،صلى الله عليه ، بما شاهدوه وإن كان وصف النعمة معييا ، وشكرها معجزا.والحمد لله رب العالمين ، وصل الله على محمد نبيه سيد المرسلين،وعلى آله الطيبين الطاهرين »[1] .

ومن الواضح أن هذه الرسالة تظهر لنا الحالة النفسية "للمنصور" وهو يصور لنا المعركة التي هي حلقة في سلسلة من الصراعات التي لم تفارق العهد العبيدي منذ تأسيس دولتهم .

وقد أشار في ختامها إلى تاريخ كتابته لهذه الرسالة حيث يشير إلى ذلك بصفة دقيقة ومفصلة ومباشرة بقوله :« وكتب يوم الخميس لثلاث عشرة ليلة خلت من المحرم سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة (15 أوت 946 م) » [2] .

و مما يسترعي الانتباه هو أن القائم قد توفي في شوال من سنة(334هـ) [3]. أي منذ أكثر من ثلاثة أشهر، والمنصور يواصل تكتمه عن وفاته حتى لا تقوى عزيمة عدوه، ويواصل الكتمان سنة كاملة قبل أن يعلن وفاته. والرسالة نموذج للنثر الإعلامي التبليغي، التي لم تخرج عن دائرة المراسلات الرسمية.

-رسائل موجهة إلى الثائرين:

تميزت الحالة السياسية و الاجتماعية للمغرب باضطرابات ،وفتن متفشية في جميع أنحاء البلاد، فكانت دواعي الثورة على السلطة المركزية ،والثورات على أمراء الدول المتعاقبة وولاتهم كثيرة، منها ما يعود إلى عوامل سياسية واجتماعية لكن أغلبها ذات طابع مذهبي

---

[1]نفسه ،ص 158.

[2]محمد اليعلاوي : المصدر السابق، ص158 .

[3]ابن حماد :المصدر السابق،ص33 .

عرقي وقبلي، يسعى من خلاله كل طرف التمكين لمذهبه وعرقه وقبيلته، ومنها ما يعود إلى مطامح شخصية للظفر بالسلطة لتحقيق رغبات وشهوات –كما في ثورة صاحب الحمار في العهد العبيدي– أما حكام الدولة ،فقد أدركوا خطر هذه الثورات التي تهدد وجودهم وكيانهم السياسي، بل تهدد أحلامهم وآمالهم في بسط نفوذهم على كل العالم الإسلامي ،والتمكين لمذهبهم الذي لاقى –ولحقب طويلة– الاضطهاد، لذلك سارعوا جادين ساعين لمخاطبة الثائرين سلميا بعد طول الصراع وفشل الحل العسكري، كما خاطبوا من يستطيع التأثير فيهم ومخاطبة حلفائهم، ومحاولة استمالتهم وإغرائهم بالابتعاد عن الفتنة وعن القائمين عليها، والتزام صف المسلمين حسب ادعائهم، والطاعة للأمير التي هي من طاعة الرسول (ص) وتطبيقا لشرع الله ومن هذه الرسائل ما كتبه "أبو عبد الله الشيعي" إلى البلدان بالأمان وهذا بعد دخوله القيروان و الاستيلاء عليها من الأغالبة، ومما جاء فيه :« ...وإني لم أزل بحمد الله ونعمته مذ قمت لله بواجب حقه ذابا عن دينه طالبا ثأر أوليائه آمر بالمعروف وأدعو إليه وأنهى عن المنكر أحذر منه احيي ما أماته الظالمون من معلم الحق و أجاهد أعداء الله المارقين المغتصبين حق رسول الله (ص) أقدم الموعظة إلى بني الأغلب ...ولما يئست من إنابتهم ، وانقطع طمعي من توبتهم رأيت أنه لا يسعني ترك منا جزتهم فقصدت ببعض جيوشي المنصورة وعساكري المؤيدة مجتمع جيوشهم بالأربس واثقا بالله متوكلا عليه منتجزا بما وعد أولياءه فيمن نصب لهم وعاداهم وتولى سواهم فمنح الله أولياء دينه أكتافهم فقتلوهم ابرح القتل في كل واد ومغارات و مدغل... » [(1)].

ويضيف قائلا:« ...بعد أن كنت عزمت على الانصراف لأخفف الوطء على أهل القيروان رفقا بهم و إعذارا إليهم حتى أتاني رسولهم وتلقاني علماؤهم وشيوخهم يسألونني الأمان لهم و الحوطة عليهم ويرغبون في ذلك إلي. فأجبت سؤالهم وحققت آمالهم وسكنت دهماء هم وشملت بالأمان البريء والنطف والبر والفاجر منهم ومن غيرهم بعد أن أحاطت بهم العساكر المنصورة والجيوش المؤيدة وتلافيت نفرة النافر، وقبلت فيئة الراجع و أقلت المستقيل طلبا لعظيم ثواب الله الجزيل.وأنتم أهل بلد كذا– داخلون فيما أدخلتهم فيه وصائرون من الأمان والحفظ و الحوطة إلى ما أمرتهم إليه ما قبلتم ذلك، وما أقبلتم عليه ، وعرفتم فضل النعمـــة عليكم به .فاسمعوا و

---

[1] القاضي النعمان:افتتاح الدعوة ، ص254–255.

أطيعوا ،واثبتوا ، أجيبوا، واحمدوا ربكم على ما وهب لكم ودافع عنكم، وكونوا في الحق أعوانا وعلى إماتة الباطل أنصارا، تظفروا بحظكم واشكروا الله على إنعامه عليكم يدم لكم ذلكم و يزدكم ولا تكفروا فيوقع باسه بكم فانه يقول وهو أصدق القائلين :﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد ﴾[1] »[2] .

على أن الأمير آثر أسلوب المصانعة والملاطفة وسيلة للاستقطاب والهيمنة ، راجيا أن يكون العفو أداة تأليف بين نفوسهم ، ونزع جذور التمرد ونبذ الشقاق ، ولذلك فهو يختم هذا العهد بصيغة الأمان التقليدية التي جاءت موشحة بنبرة هادئة مذكرة بأنعم الله عليهم ،ويختمه بآية قرآنية ،يستشف منها أسلوب التهديد و الزجر بأنهم إن شكروا أنعم الله ليزيدنهم من فضله، ولئن جحدوا نعم الله ليعذبنهم عذابا شديدا...

وزاد في نسخة هذه الرسالة إلى أهل صقلية : « وأنتم – معشر أهل جزيرة صقلية –أحق بما أوليته من المعروف والإحسان وازديته ، وأولى به وأقرب إليه ، لقرب داركم من دار المشركين وجهادكم الكفرة الظالمين وسوف أملأ إن شاء الله جزيرتكم خيلا ورجالا من المؤمنين الذين يجاهدون في الله حق جهاده فيعز الله الدين والمسلمين ويذل بها الشرك والمشركين ، والحول والقوة لله العظيم ، وهو حسبنا ونعم الوكيل»[3] .

ولما قرأت كتبه في البلاد أمن أهلها واطمأنوا ،وسكنوا، وشكروا، وهدأت روعا تهم وأتوه وفودا من كل بلد يشكرون له ويهنئونه وهذا حسب ما أورده القاضي النعمان.

ففي هذه الرسالة ركز "عبيد الله" في حديثه على الفتنة وويلاتها، والحث على إطفائها والاحتكام إلى العقل ،وفي الأخير اعتمد لهجة التهديد والوعيد موجها إلى كل من تسول له نفسه الاستمرار في المقاومة والتمرد على السلطة تحذيرا شديد اللهجة على أن القمع مصيرهم الوحيد وعندها سيكون الحكم مختلفا وهذا ما عملت به السلطة العبيدية فيما بعد مع المتمردين فما إن يتمكنوا من قمع أي من الثورات بحد السلاح ووقع في الأسر أي من المتمردين فيكون عندها شأن آخر للحاكم العبيدي، فقد يقتلون كما حدث لصاحب الحمار بعد فشل ثورته –فقد ألقي عليه

---

[1]إبراهيم ،الآية 9.

[2]القاضي النعمان:نفسه ، ص256.

[3]نفسه ،ص257 .

القبض وهو جريح وتم سلخه–أو يسجنون، ومنهم من يتجاوز عنه ويعفى عنه لأغراض سياسية خاصة ومنافع ترجى من ذلك.ومن يعطى عهد للأمان يستأمن به،وليس من شرط يشترطه، وتتدرج مواثيق العهود فيما يلي :

–الإشارة إلى حقيقة الفوز و النصر.

–تعليل المعاملة الرحيمة بحكمة الأمير.

–منح الأمان بشرط أكيد هو أن لا يعود إلى فعله الأول ، وعدم الخروج عن طاعة الأمير العبيدي. لكن في أغلب الحالات يكون عهد الأمان شفويا دون الالتزام بإصدار عقد مكتوب ، فيكون العهد –بلاغا عاما –أو بلاغا إعلاميا لإخبار الناس ، وعرض الصورة الرحيمة والحسنة للأمراء العبيديين.

ومنه أيضا كتاب أمان من "جوهر" لجماعة أهل" مصر من أهلها ومن غيرهم وكتبه بخطه في شعبان سنة (358هـ) بعد دخوله إليها، و مما جاء فيه: « بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من جوهر الكاتب عبد أمير المؤمنين المعز لدين الله صلوات الله عليه لجماعة أهل مصر الساكنين بها من أهلها ومن غيرهم: أبو جعفر مسلم الشريف أطال الله بقاءه وأبو اسماعيل الرسي أيده الله وأبو الطيب الهاشمي أيده الله ... و ذكروا عنكم أنكم التمستم كتابا يشتمل على أمانكم في أنفسكم وأموالكم وبلادكم وجميع أحوالكم فعرفتم ما تقدم به أمر مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه وحسن نظره لكم.

فلتحمدوا الله على ما أولاكم وتشكروه على ما حماكم وتدأبوا فيما يلزمكم وتسارعوا إلى طاعته العاصمة لكم العائدة بالسلامة لكم وبالسعادة عليكم وهو أنه صلوات الله عليه لم يكن إخراجه للعساكر المنصورة والجيوش المظفرة إلا لما فيه إعزازكم وحمايتكم والجهاد عنكم إذ قد تخطفتكم الأيدي واستطال عليكم المستذل وأطمعته نفسه بالاقتدار على بلدكم في هذه السنة والتغلب عليه وأسر من فيه والاحتواء على نعمكم وأموالكم حسب ما فعله في غيركم من أهل بلدان المشرق وتأكد عزمه واشتد كلبه فعاجله مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ... ولكم علي أمان الله التام العام الدائم المتصل الشامل الكامل المتجدد المتأكد على الأيام وكرور الأعوام في أنفسكم وأموالكم و أهليكم ونعمكم وضياعكم ورباعكم و قليلكم و كثيركم. وعلى أنكم

تصانون وتحفظون وتحرسون ويذب عنكم ويمنع منكم فلا يتعرض إلى أذاكم ولا يسارع أحد في الاعتداء عليكم ولا في الاستطالة على قويكم فضلا عن ضعيفكم .

و على أن لا أزال مجتهدا فيما يعمكم صلاحه ويشملكم نفعه ويصل إليكم خيره وتتعرفون بركته وتغتبطون معه بطاعة مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه . ولكم علي الوفاء بما التزمته وأعطيتكم إياه عهد الله وغليظ ميثاقه وذمته وذمة أنبيائه ورسله وذمة الأئمة موالينا أمراء المؤمنين قدس الله أرواحهم وذمة مولانا وسيدنا أمير المؤمنين المعز لدين الله صلوات الله عليه فتصرحون بها وتعلنون بالانصراف إليها وتخرجون إلي وتسلمون علي وتكونون بين يدي إلى أن أعبر الجسر وأنزل في المناخ المبارك وتحافظون من بعد على الطاعة وتثابرون عليها وتسارعون إلى فروضها ولا تخذلون وليا لمولانا أمير المؤمنين صلوات الله عليه وتلزمون ما أمرتم به وفقكم الله وأرشدكم أجمعين...»[1] .

وبالرغم مما حمله هذا الكتاب من آمال وآمان لأهل مصر إلا أنهم توجسوا منه خوفا ،لكون أخبار القمع الذي تمارسه الدولة العبيدية على أهل السنة في المغرب قد بلغت مسامعهم ورغم تهاوي سلطة الإخشيد وبداية الفوضى إلا أنهم رفضوه ،« ولما وافى أبو جعفر مسلم ومن معه من عند جوهر جاءه الناس وركب إليه ابن الفرات في موكب عظيم وعنده جماعة الوجوه فقرأ عليهم كتاب جوهر بالأمان والشرط وأوصل كتاب ابن الفرات وكتب الجماعة فامتنع القوم من قبول ذلك وقال فرح البجكمي للشريف مسلم: لو جاءنا جدك بهذا ضربنا وجهه بالسيف»[2].

د-الرسائل الإخوانية:

تعد الإخوانيات من أقدم صور النثر الفني بزوغا وأكثرها شيوعا ورسوخا ، و تتجلى الرسائل الإخوانية في تلك المجاملات والمبادلات التي تبادلها الكثير من الأدباء و الشعراء و الفقهاء و العلماء عموما، و الملاحظ أن هناك نوعين من هذه الرسائل رسائل نثرية و رسائل شعرية وهي تختلف بشكل خاص، حسب طبيعة الصلة التي تربط بين الأطراف سواء كانوا أحبابا أو خلانا جمعتهم ظروف الحياة ثم فرقتهم نوائب الدهر أو مشاغل العباد، وتنحصر مضامينها في:التهاني والتعازي وفي الهدايا، وفي العتاب والهجاء.كما يمكن أن نصنف

---

[1] المقريزي :اتعاظ الحنفاء ،ج1،ص56 .

[2] نفسه،ص58.

الاتصالات بين الأمراء وولاتهم و شيوخ القبائل الودية منها الخارجة عن شأن السياسية، ضمن الإخوانيات، فهي تحمل مشاعر الود والإخاء والتحالف بينهم سواء في مناسبات دينية أو سياسية أو اجتماعية وهذا لرسم سبل الود ، وتمكين عرى التواثق بينهم لفائدة تكون متبادلة.

-التعـــــازي:

هي نوع من الرسائل التي يتبادلها الأشخاص في أمور الوفاة و التعزية و المواساة و مشاركة الأحزان بين الأحباب و الأصدقاء و الخلان و الأقارب ،يعبر فيها عن مشاعر الحزن و الأسى و الألم لفقدان عزيز، وقد انتشرت في القرنين الرابع و الخامس للهجرة خاصة عند وفاة حكام البلاد فقد كانت تردهم هذه الرسائل من الولاة و كبار رجال الدولة ومن الأصدقاء...ومنها رسالة "المعز" إلى "جو ذر"، بعد وفاة المنصور، وقبل إعلان نبئها ، وكان "جو ذر" مواليه إليه، وأخصهم به .لذلك أثره بكتابة هذه الرسالة، ينهي إليه فيها نبأ تلك الوفاة . وكان التدبير يقضي بأن تظل سرا مكتوما، يقول له فيها: « وعليك ، فيما قبلك ، بالاحتراس ما أمكنك، والضبط ما استطعت، ومع هؤلاء القردة من الوصول إلينا، والخروج من أبواب بيوتهم ، فضلا عما سوى ذلك. والكتمان ثم الكتمان، عن الأهل والخاص والعام. و أن اتصل بهم شيء من ذلك فكذبه ما استطعت، وخوفهم ما قدرت... »[(1)]. ثم يختم هذه الرسالة بالدعاء، قائلا:« أستغفر الله لنفسي من الزلل، وأتوكل عليه في التوفيق في العمل، بما يرضيه ويزلف لديه »[(2)].

فكان "للمعز" أسلوبه الكتابي الخاص به في رسائله وتوقيعاته التي أوردها الجوذري"، وفي بعض ما احتفظ لنا به "القاضي النعمان" في كتبه وأسلوبه مرسل، لا تكلف فيه ولا تعمل، وإن كان لا يخلو من مسحة جمال، تبدو في استرسال عباراته وانسجام جمله .

كما بعث "المنصور" رسالة إلى "جو ذر" يعلن فيها عن وفاة "القائم" بعد عام من حدوثها وبقي لنا منها هذه الفقرة والتي تدل على المكانة المرموقة التي يحضى بها "جو ذر" لدى الأمراء العبيديين يقول فيها "المنصور" :«...وأقول بعد الصبر والاحتساب:الحمد لله على جميع الأحوال. قد تعلم اللهم أني طالما ناجيتك في ظلم الليالي، مبتهلا متضرعا إليك، أن لا تشهدني فقده ، ولا تحييني بعده، فأبى قضاؤك الماضي، وحكمك النافذ. فصبرني على ما ابتليت، ورضني بما

---

[1] القاضي النعمان:المجالس والمسايرات،ص325 .

[2] نفسه،ص326.

قضيت. وصلوات الله وبركاته ورحمته على جسمه المطهر وروحه المقدس في الدنيـــا والآخرة »[1].

-رسائل الثناء والشكر:

وهي تلك الرسائل التي كان يرسلها أمراء الدول إلى ولاتهم و قادة جيوشهم و دعاتهم و أتباعهم المخلصين، و إلى كل من قدم خدمة إلى الدولة أو الدعوة معبرين فيها عن شكرهم و امتنانهم وتقديرهم على الخدمات الجليلة التي قدموها للدولة ،ويمكن أن تكون من أي شخص إلى آخر قد يكون تلقى حظوة أو قدمت له خدمة معبرا فيها عن شكره للثقة التي وضعت فيه،أو للمصلحة التي قضيت، و منها رسالة إعجاب واستحسان أرسلها "عبيد الله المهدي" العبيدي إلى ولي عهده "أبي القاسم القائم" بعد أن قمع ثورة أهل طرابلس سنة(300هـــ) عن طريق "جو ذر" ،وقد بقية فقرة منها، مما جاء فيها: « ...فاكتب باستحساننا فعله ورضانا بما يبلغنا من حميد سيرته ، وليدم على ذلك ينفعه الله به إن شاء الله ... »[2] .

ومنها أيضا رسالة "ابن أبى زيد القيرواني"ّإلى "محرز بن خلف التونسي" : حين كتب إليه رسالة في تعليم الولدان أمور الدين الإسلامي ،جاء فيها: « أما بعد: أعاننا لله وإياك على رعاية ودائعه، وحفظ ما أودعنا من شرائعه فإنك سألتني أن أكتب إليك جملة مختصرة من واجب أمور الديانة مما تنطق به الألسنة، وتعتقده القلوب وتعمله الجوارح(مع) شيء من الآداب منها وجمل من أصول الفقه وفنونه على مذهب الإمام مالك بن أنس رحمه الله تعالى .ذلك لما رغبت فيه من تعليم ذلك للولدان كما تعلمهم حروف القرآن ليسبق إلى قلوبهم من فهم دين الله وشرائعه ما ترجي لهم بركاته وتحمد لهم عاقبته .فأجبتك إلى ذلك لما رجوته لنفسي ولك من علم دين الله أو دعا إليه. و اعلم أن خير القلوب أوعاها للخير، وأرجى القلوب للخير ما لم يسبق الشر إليه. وأولى ما عني به الناصحون ورغب في أجره الراغبون إيصال الخير إلى القلوب أولا المؤمنين ليرسخ فيها، وتنبيههم على معالم الديانة وحدود الشريعة ليراضوا عليها، فإنه

---

[1] القلقشندي : المصدر السابق، ج1 ، ص60.

[2] محمد الصلابي : الدولة الفاطمية في ليبيا، ص122.

روي أن تعليم الشيء في الصغر كالنقش في الحجر.ود مثلت لك من ذلك ما ينتفعون، إن شاء الله بحفظه، ويشرفون بعلمه ، ويسعدون باعتقاده والعمل به ..... » [1].

هذه الرسالة ضمن الاتصالات الودية بين العلماء، والتي تحمل في طياتها عبارات الود ومشاعر الإخاء بينهما ضمن غرض تعليمي تربوي، وهي لا تخرج عموما على كونها تأصل عرى التواثق بينهم في ظل الوضع المتأزم ، تحت حكم العبيدين الذين يحاولون طمس الهوية الإسلامية السليمة التي يتمسك بها أهل السنة ويعضون عليها بالنواجد، وينقلوها للأجيال عن طريق التعليم.

- **رسائـــــــل العتاب و التهديد:**

هي تلك الرسائل التي تتضمن عتابا و مؤاخذة على فعل أو قول ينافي ما عرف عليه المرسل إليه ،وقد تصل إلى مرحلة التهديد و الوعيد للفرد أو الجماعة في حالة تكرار الأخطاء أو التمرد على السلطة...أو غيرها مما ينافي القوانين و الأخلاق... ، ومنها رسالة العتاب التي بعثها الأمير العبيدي "المنصور" في : (آخر ذي الحجة من سنة 334هـ – أوت 936م) إلى كتامة حيث يفتتح رسالته بقوله: « من ابن أمير المؤمنين إلى كافة كتامة . سلام على من اتبع الهدى ، وآثر الآخرة على الأولى . فإننا نحمد الله الذي لا اله إلا هو، ونسأله أن يصلي على محمد عبده ورسوله وعلى عترته الأبرار ، الطيبين الأخيار .

أما بعد، فإن كتابنا هذا إليكم، بعد نزولنا بالقيروان بجيوشنا المنصورة من أوليائنا وعبيدنا، وقد أعز الله نصرنا، وأتم وعده لنا، وأعز أولياءنا، وأذل أعداءنا وأظفرنا، ومكن لنا البلاد، وقمع بنا جميع العباد، طوعا وكرها، و المنة و الشكر لله رب العالمين.

وقد تتابعت إليكم ، معاشر كتامة ، كتبنا ورسلنا ، تحضكم على ما فيه رضى سيدكم ومولاكم ، مولانا أمير المؤمنين ، المقرون رضاه برضا رب العالمين ، فتربصتم وتثاقلتم إلى الأرض ، ورضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة، وبالعاجلة من الآجلة ، فعل الذين أصمتهم الدنيا وأعمتهم ،ولا يعرفون معروفا فيبصرونه ، ولا منكرا فيرفعونه ، تبذلون أنفسكم وأموالكم على حمية الجاهلية التي معها خسران الدنيا والآخرة ، وقد أعرضتم عن الجهاد الذي أمركم الله به ،

---

[1] ابن أبي زيد القيرواني:متن الرسالة ،مكتبة النهضة،الجزائر د ط، د ت،ص 5-7.

صفحا ، وزهدتم في الثواب ، وأمنتم العقاب ، كأنكم لم تسمعوا وعد الله ووعيده ، ولا تليت عليكم آياته ، ولا قامت عليكم حجته .﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾(1) ، يا أشباه الرجال ولا رجال.رضيتم بالعار ، فهل لكم صبر على النار ؟ »(2).

ثم يضيف، قائلا: « واعلموا أني لا أكتب إليكم كتابا بعد هذا، وأني لم أكتب إليكم هذا الكتاب إلا بسؤال من قبلنا من أوليائنا الذين جاهدوا وصبروا، وإلحاحهم وضرعهم ، وطلبهم منا الإعذار إليكم، وتأكيد الحجة إليكم، وتأكيد الحجة عليكم ، رجاء منهم أن تنيبوا إلى ربكم ، وترجعوا التوبة التي هي أولى بكم، وتسارعوا إلى قضاء ما افترضه الله عليكم من الجهاد الذي فيه تمحيص الذنوب ، ومحو العيوب ، وتفريج الكرب .

أنفذنا مع كتابنا هذا رجالا تأكيدا للحجة عليكم ، وقطعا لمعاذريكم . فإن تتوبوا وتنيبوا تجدوا الله توابا رحيما.وإن تتولوا يغن الله عنكم، ويستبدل قوما غيركم ، ثم لا يكونوا أمثالكم والسلام على من اتبع الهدى ، وآثر الآخرة على الأولى»(3).

إلى جانب رسائل أخرى تبادلها أدباء المغرب مع نظرائهم في المشرق و الأندلس، وتمثل هذا النوع بالرسالة التي بعثها "ابن الربيب التاهرتي" (4)، كتب رسالة إلى" أبي المغيرة عبد الوهاب بن حزم"يذكر فيها تقصير أهل الأندلس في تخليد أخبار علمائهم و مآثر فضائلهم و سيرة ملوكهم ،و في تدوين فضائل بلادهم بالرغم من فضل أهل الأندلس واتساع الثقافة و الحضارة في بلادهم.

---

[1]المطففين ،الآية 14.

[2]محمد اليعلاوي:تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب، دار الغرب الإسلامي ،بيروت، د ط، 1986 م،ص383.

[3]نفسه، ص383.

[4]ابن الربيب التاهرتي القيرواني:هو أبو علي الحسن بن محمد بن الربيب التميمي القيرواني، أصله من تاهرت و مولده نحو سنة(380هــ).نشأ في القيروان و طلب العلم فيها، وقد عني به محمد بن جعفر القزاز القيرواني (ت412هــ)عناية صحيحة فبلغ به نهاية الأدب و نهاية علم الخبر(التاريخ) و النسب و الانتساب . فكان لغويا نحويا عارفا بأنساب الناس حتى اكتسب لقب النسابة الإفريقي، وكان أيضا أديبا ناثرا وشاعرا مجيدا و شاعرا مجيدا قي الكلام يقل في المدح و الرثاء و ربما تكلف في النظم ثم هو مصنف له كتاب في النسب.تولى القضاء في تاهرت حينا فصار يعرف بالقاضي التاهرتي أيضا. سئل يوما النهشلي عن أشعر أهل بلده فقال: أنا ثم ابن الربيب و كانت وفاة ابن الربيب سنة(430هــ).(ينظر: عمر فروخ :المرجع السابق،ص465-466).

وتعد هذه الرسالة من أجمل الرسائل التي يمكن أن نصنفها في جانب المكاتبات الإخوانية في شقها العتابي،وهي تحيلنا إلى العلاقة الوثيقة بين المغرب و الأندلس فيما يسمى بالغرب الإسلامي،وإلى روح التفاهم و أواصر المحبة و علاقة التواشج بين علماء العدوتين،وإلى علو همة العلماء ،ومن خلالها سنعرف الكثير من الحقائق التاريخية في شتى المجالات . ومما جاء فيها: « كتبت يا سيدي و أجل عددي –كتب الله تعالى لك السعادة ، و أدام لك المعز و السيادة – سائلا مسترشدا ،وباحثا مستنجرا ، وذلك أني فكرت في بلادكم إذا كانت قرارة كل فضل و منهل كل خير و نبل ،و مصدر كل ظرفة ومورد كل تحفة...إن بارت تجارة ، فإليها تجلب.و إن كسدت بضاعة ففيها تنفق ، مع كثرة علمائها ووفرة أدبائها و جلالة ملكها و محبتهم للعلم وأهله...ثم هم مع ذلك في غاية التقصير ونهاية التفريط..." (1).فعلماؤكم مع استظهارهم على العلوم، كل امرئ منهم قائم في ظله لا يبرح واثب على كعبه يتزحزح.يخاف إن صنف يعنف ، وإن ألف أن يخالف و لا يوالف ثم يتعب أحد منهم نفسا في جمع فضائل أهل بلدهن ولم يستعمل خاطره في مفاخر ملكه ، ولا بل قلما بمناقب كتابه ووزرائهن و لا سود قرطاسا بمحاسن قضاته وعلمائه، على أنه ن ل أطلق ما عقل الإغفال من لسانه، وبسط ما قبض الإهمال من بيانه ، لوجد للقول مساغا» (2).

ومما يلاحظ علىرسالة "ابن الربيب" أنها تعتمد أساليب معاصريه من استخدام للسجع دون تكلف واضح، والتزام بالوضوح دون ثقل الصنعة، مع تفاوت الفقرات، و المراوحة بينها و استخدام المزاوجة في العبارة، و اللجوء أحيانا إلى المجاز لتأكيد المعنى و إثباته في الذهن.

و"مات ابن حزم ،ولم يجب عن الرسالة ، ثم بعد مدة طويلة وقف الوزير أبو محمد علي بن حزم حفيد أبي المغيرة المخاطب بالرسالة المذكورة"(3)، فأجاب برسالة مطولة أثبت فيها ما للأندلسيين و علمائهم الأفاضل من فضل و تقدم في شتى العلوم و الآداب و أثبتها ابن بسام في الذخيرة ، ونقلها الكثير عنه وليس المجال هنا لعرضها.

---

[1]محمد زغلول سلام: الأدب في العصر الفاطمي"الكتابة و الكتاب"،منشاة المعارف،الإسكندرية،1995، ص250.

[2] نفسه ، ص 251.(ينظر أيضا: عمر فروخ :المرجع السابق،ص387).

[3]محمد زغلول سلام:المصدر السابق، ص251–251.

ومنه أيضا رسالة كتبها"أبو القاسم عبد الرحمن الكاتب المعروف بابن القالمي"، وهي تعد من أهم النصوص النثرية في العهد الحمادي، وهو نص خفيف جمع بين الغرض من وضعه، والانسيابية والتدفق للتعبير والإبلاغ،ومما جاء فيه: « ...ولما كنت في مضمار سلفك جاريا، ولنا مواليا، وفي قضاء طاعتنا متباهيا، رأينا أن نثبت مبانيك، ونؤكد أواخيك، ونوجب لك ولخلفك، ما أوجبه سلفنا لسلفك، تمييزا لهم عن الأكفاء، ومجازاة لهم عن محض الصفاء والولاء، فاستدم هذه النعمة العظيم خطرها بالشكر فأنت به جدي [ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا إن الله غفور شكور» [1].

ويندرج هذا النص في إطار أدب المعاملات الرسمية بين الحاكم ورعيته، والرعية والحاكم، كالنصح والإرشاد. لقد جاء النص فصيحا مبينا لفصاحة ألفاظه ووضوحها، فهي ليست غريبة مخالفة للقياس في اللغة العربية.

وجاء ختام الرسالة، على شكل اقتباس من القرآن الكريم. قال "ابن القالمي": «... فاستدم هذه النعمة العظيم خطرها بالشكر فأنت به جدير، "ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا إن الله غفور شكورا» [2]، وبذلك قوى هذا الكتاب من خطابه الإقناعي بهذا الاقتباس الذي كان بمثابة قفل الخطاب، وحسنا فعل لما استثمر الحمولة المعرفية للنص الديني في سبيل تمرير رسالته، وفي الوقت ذاته توجيه المخاطب نحو فعل إنجازي معين، ولم يكن هذا الاستثمار استثمارا مغلقا يستعمل النص الديني استعمالا معياريا، بل أوجد آفاقا مفتوحة من ربطه لما سبق من الكلام، فكان تزكية للمعنى وتفخيما له لأهميته.

هـــ-الرسائل الشعرية:

تعد ظاهرة الانتقال من النثر إلى الشعر وبالعكس من أبرز الصفات التي اتصف بها الشعراء الكتاب في القرنيين الرابع و الخامس للهجرة بسبب حرصهم على إظهار تفوقهم في فني المنظوم والمنثور إضافة إلى إبراز قدرتهم الأدبية ، وكانوا يضمنون نثرهم شعرا الأمر الذي يجعل النص النثري لديهم ذا قيمة عالية؛ إذ يدل على ثقافتهم الواسعة وإحاطتهم بصور الإبداع

[1] العماد الأصفهاني: المصدر السابق،ج 1،ص 180.
[2] نفسه،ص181.

المشرقي الذي سبقهم إلى الظهور، وحفظ المزيد من أشعارهم ومن ذلك أيضا الحاجة التي قد تدعو إلى الاستشهاد والتنويع في الكلام وإعطاء صورة واضحة عن ارتباط صورة هذين الفنين وتلازمهما ضمن فن الأدب.

وهذا النوع من الرسائل اشتهر به الشعراء في مراسلاتهم ،متبعين في ذلك أسلوب النظم ،وقد ظهر هذا النوع من الشعر عند الكثير من الشعراء، كما استخدمه في بعض الأحيان بعض الكتاب لاعتقادهم أنه الأنسب لإيصال الفكرة وبلوغ المرام ، وقد سما و ارتقى عند " "ابن رشيق" وصديقه " ابن شرف" في العهد الصنهاجي، فبعد خروج الأخير من القيروان بعد النكبة متوجها إلى المهدية ومنها إلى صقلية، محاولة منه لإيجاد حياة جديدة تنسيه أحزانه لكنه وجد آلام الغربة تحيط به من كل جانب، ففكر في دعوة صديقه "ابن رشيق" ليقاسمه أيامه هنا ، فأخذ يراسله مستعطفا إياه، طالبا منه الالتحاق به، ومما جاء في إحدى رسائله تلك قوله:

فها هو يرد على مكاتبات صديقه" ابن رشيق"، فيقول:

عتابا عسى أن الزمان له عتبي*و شكوى فكم شكوى ألانت له القلبا

عد مناك من بعد فإن زدتنا قربا*على أن فينذما بيننا سبسما شهبـــــا

إذا لم يكن إلا من الدمع راحة *فلا زال دمع العين منهلا سكبـــــــا [1]

ففي هذه الأبيات التي نظمها بعد سلسة مكاتبات جرت بين شاعرنا، و صديق عمره" ابن رشيق" يدعوه فيها إلى الالتحاق به في صقلية، لأنه اشتاق إليه، و اكتوى بنار الغربة فاشتكى سوء الحال فلم يجد سبيلا للتخفيف منه سوى سكب الدمع الذي هو نوع من الراحة التي تريح عذاباته و تداوي جراحه إلى حين.

وبقي "ابن شرف" على حاله يلح على صديقه للالتحاق به، فيستأنس به في غربته و يعنيه على الاصطبار على فاجعة خراب الوطن حتى نجح في مسعاه .لكن وجود ابن رشيق إلى جانب" ابن شرف "في هذا البلد، لم يكن كافيا لجعل نفسه تهدأ و تطمئن، فسرعان ما حدثته نفسه بالرحيل ثانية ، لأنه لم يعثر على ضالته المنشودة في صقلية التي كانت وجهته التالية، فقد عمل

---

[1] ابن شرف :الديوان، تحقيق :حسن ذكرى حسن، مكتبة الكليات الأزهرية، مصر،دط، 1983 م.ص 41.

على استنهاض همة" ابن رشيق" للهجرة معه إلى بلاد الأندلس غير أنه أبى، محتجا بعدم استحبابه ركوب البحر، حين قال:

ألبحر صعب المرام مر *لا جعلت حاجتي إليه

أليس ماء و نحن طيـــن *فما عسى صبرنا عليه (1)

وفضلا عن عدم استجابته لركوب البحر ، فهو يستهجن الإقامة بالأندلس المقسمة إلى طوائف متعددة و يتجلى ذلك في قوله:

مما يزهدنـــــي في أرض أندلس* سماع مقتدر فيها و معتضد

ألقاب مملكة في غير موضعها* كالهر يحكي انتفاخا صولة الأسد (2)

و هكذا رحل "ابن شرف "إلى الأندلس، مخلفا وراءه خلا وفيا، وذكريات لا تنس جمعتهما في صقلية.كما أن له مرسلات أخرى مع" ابن رشيق" عندما هاجر من القيروان، و يبدو من خلال الأبيات التالية أنه كان متضررا من سوء معاملة الناس له:

إن ترمك الغربة في معشر *قد جبل الطبع على بغضهم

فدارهم ما دمت في دارهم* وأرضهم مادمت في أرضهم (3)

و أكد على المعنى نفسه في مراسلات أخرى له مع " ابن رشيق" ، وكان رد" ابن شرف "على صديقه دليلا على أنه اكتوى بنار الغربة و سبر خباياها و فعمد إلى إرشاد صاحبه إلى الطريقة المثلى في كيفية التعامل مع هؤلاء الناس، فمداراتهم أفضل من مكاشفتهم.

كما راسل "ابن شرف" أحد أصحابه الذي اعتذر له بسبب تخلفه عن مقابلته، فرد ردا يدل على خلق عظيم، و طباع فاضلة كريمة حيث قال:

بدأت و للمبتدى الفضل في*فروض المودة و السنة

و ما الود إلا امتنان و قد*سبقت سواك إلى المنـــة

و نفسك فاضلة حـــــرة* إذا عاينت فاضلا حنت (4).

---

[1] ابن رشيق : الديوان، ص212 .

[2] ابن رشيق : الديوان، ص59-60.

[3] ابن شرف : الديوان، ص 99 .

[4] نفسه، ص 43 .

فهذه الأبيات جاءت في قالب مدحي، أثنى من خلالها"ابن شرف" على صديقه و امتدحه بحسن أخلاقه، و هذه الإخوانية عبرت عن معاني أخلاقية نبيلة تحلى بها كل من الشاعر و صديقه معا.

وهذا "الداروني" قد أملق – أعسر و افتقر– يوما فكتب إلى "أبي جعفر المزودي"، و كان يخدم العبيديين، مستجديا منه مساعدته على نوائب الدهر:

كتمت إعساري و أخفيته*خوفا بأن أشكو إلى معسر

وأن يقول الناس إني فتى*لم أصن العرض و لم اصبر

فإن تكن في حاجة شاكيا*فاشك على مثل أبي جعفر[1]

وهكذا فقد احتلت الرسائل في هذا العصر حيزا كبيرا من اهتمام الأدباء والأمراء.كما أننا لاحظنا أن هذا العصر اتسم بكثرة الرسائل لكن ما وصل إلينا منها لم يكن بهذه الكثرة لأسباب سبق التطرق إليها، خاصة ما تعلق منها بالجانب الرسمي للدولة أما فيما تعلق بالجانب الإخواني فهو قليل، ولعل ذلك يعود إلى الفترة المضطربة والتي لم تساعد على مثل بروز هذا النوع ، كما أنها أثرت في أمزجة وطباع الكتاب وعلاقاتهم الإنسانية والاجتماعية.

وإذا كانت أغراض الرسائل في المغرب الإسلامي –سواء أكانت تلك الرسائل سياسية إدارية أم إخوانية شخصية– هي نفسها في المشرق الإسلامي ، فلا مفر من أن يكون أسلوبها في المغرب والمشرق واحدا.

وعموما فهي مثل الرسائل المعروفة في المشرق من حيث أنواعها من الرسائل العامة– الديوانية أو الرسمية– والرسائل الخاصة– الشخصية أو الإخوانية– لكن اللافت للدارس والناظر أن جل الرسائل والعهود و المنشورات والمبايعات ورسائل الأمان ورسائل الإنذار. والمخاطبات الإعلامية أين تتحدث عن الفتن والثورات، والاضطرابات الداخلية والخارجية كما أنها تحمل أنباء الانتصار والانهزام، فهي بذلك تعتبر أهم مصدر تاريخي للفترة والتقلبات التي صاحبتها.

رابعا_ بنية الرسائـــل:

---

[1] عمر فروخ :المرجع السابق،ص237.

من عادة الكتاب اتباع أساليب متعارف عليها، في ديباجة رسائلهم ،فاصطلحوا على أن "الأصل في الرسائل أن تبتدأ بالبسملة، ثم يذكر اسم مرسلها واسم من أرسلت إليه، وما يكنى به، وأحيانا لقبه ورتبته، مع تقديم الفاضل على المفضول، ثم تورد عبارة السلام، تليها "أما بعد"، التي غالبا ما تكون مفتاحا للدخول في موضوع الرسالة، أو التحميد الذي يتقدمها أحيانا فيأتي قبلها، وهي أشبه ما تكون بلازمة قلما يستغنى عنها" (1).

بيد أنه ليس لزاما أن يتبع المترسل هذا النهج، أو أن يلتزم نهجا معينا لا يحيد عنه، فليس ثمة أسلوب محدد بعينه يسلكه الكتاب عامة، أو كاتب ما في كل رسائله، فلكل أسلوبه الخاص به، ولكل مقام مقال. ومما تجدر الإشارة إليه، أن زيادة الصلاة على النبي تنسب إلى الرشيد، فقد قيل إنه أول من أمر أن تبتدأ مكاتباته بعد البسملة بالصلاة على النبي(2) ، وقيل إن يحيى البرمكي أول من زاد في الرسائل: "وأسأله أن يصلي على محمد عبده ورسوله" (3).

أما ما يتصل ببنية رسائل القرنيين الرابع و الخامس للهجرة، فإن الغالبية العظمى منها تتحقق فيها كل السمات المعروفة في الرسائل العادية بالمشرق ،فنجد الافتتاحية المتضمنة العنوان والبسملة و التحميدة وهذا في معظم النصوص التي أمكن الوصول إليها حيث نجد بعض النصوص حذفت منها هذه الفقرات، ولعل هذا يعود إلى المؤرخين وكتاب المصادر الذين يجمعون مثل هذه النصوص، فيكتفون باختصارات تتمثل في صلب الموضوع والاكتفاء بالهدف المرتجى من خلال الرسالة دون إيرادها كاملة.

---

[1]أبو بكر الصولي: أدب الكتاب، تعليق: أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1994، ص 29. (ينظر أيضا:القلقشندي: صبح الأعشى،ج 6 ،ص220.)

[2]محمد بن عبدوس الجهشياري: الوزراء والكتاب، تح: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، ط1، 1938م ، ص 177.

[3]عبارة أما بعد : أول من استخدمها "قس بن ساعدة " وهو أحد حكماء العرب، ومن كبار خطبائهم ،كان أسقف نجران، كثير الزهد في الدنيا. توفي نحو سنة 23 قبل الهجرة (600م)(ينظر ترجمته:الزر كلي:الأعلام، دار العالم للملايين، بيروت، ج5، ط5،1980 م، ص196).

كما حافظ الكتاب على القواعد المعتادة للرسالة والمتعارف عليها من السياق والمخاطب و المخاطب إليه، والمحتوى الذي يمتاز بدقة التعبير، فاتسمت بذلك عموما بالمقدمات الطويلة في أوائل الرسائل، وتمكنهم من الثقافة الإسلامية المتنوعة.

والرسالة إذا أردنا دراستها من خلال الناحية الشكلية المتصلة بالبنية الخارجية، والقالب العام الذي تساق فيه ،فوجب علينا أن نتوقف عند مبادئها وخواتمها، وبعبارة أخرى في مدخل الرسالة التي يجعلها الكاتب لعرض غرضه، ومن ثم المخارج التي ينهي بها خطابه، لنجد بينهما السياق العام للرسالة، الذي هو موضوعها الذي لا يكاد ينفرد بقالب تعبيري خاص به.

ومنه فإننا نجد أن الرسالة أو الهيكل الرسمي لها: تبدأ دوما بالحمد، واتسمت التحميدة بالإطالة التي عرفت كظاهرة في المشرق في القرن الرابع الهجري، ثم بالصلاة على النبي ، ثم ذكر المرسل والمرسل إليه أي بذكر الخليفة، ثم اسم الوالي أو القائد الذي توجه إليه الرسالة، ثم المحتوى أي إيراد الموضوع بما يحويه، لتختم دائما بالدعاء وأخيرا تاريخ كتابتها وهذا نجده في بعض الرسائل فقط .

لكن اللافت للناظر أن بعض تلك العناصر، لم تكن تتسم بالثبات، وإنما كانت تتغير بتغير الكاتب والأحداث، وهذا التغير قد يمس أي عنصر منها بالتقديم أو التأخير، أو الحذف والتعديل. و لنا أن نكشف بنية المقدمات وخواتمها لأهميتها.

1- مقدمة الرسالة :

و التي هي البداية أو هي المدخل أو التمهيد، من خلاله يلج الكاتب إلى سياق الرسالة، وهذه المقدمة هي التي تعطي ميزة و صيغة الرسالة.

غير أن كتاب المغرب أخذوا يجرون على فطرتهم في تخير البدايات، فمنهم من يبتدئ ببيت من الشعر، أو بحكمة مأثورة أو بمثل معروف، أو قصة صغيرة، ثم يدخل في الموضوع ، ومنهم من يكتب في الموضوع مباشرة من غير أن يتقدمه بشيء، وهم في ذلك كله يجرون على خطة مقبولة، لا يراعون القواعد إلا إذا خاطبوا الأمراء وقواد الجيوش فعند ذلك يبدؤن بالعبارات المملوءة بالمجاملة والرفق .

لكن مما يجب الإشارة إليه إلى أن الهدف من وراء هذه المقدمات التي إنما هي توطئة في الكلام لإيضاح النتائج و إبراز الكلام إلى المرسل إليه ليسلك طريقه إلى قلبه، وليتمكن من

نفوسه.بالإضافة إلى أننا لا نتصور رسالة بدون توطئة تمكن المرسل من الإشارة والتمهيد الأسبق للموضوع المطروح، لتمكن له من أخذ زمام ومفاتيح الولوج الآمن السليم لموضوعه والشروع في تناوله، بل هو الجسر الموصل بين الكاتب والمضمون وكلما كانت المقدمة ناجحة كان الغرض المقصود قد وجد آذنا صاغية وأفئدة واعية، وقد تختلف صيغ وطرق التقديم من أديب إلى آخر، لكن أهم الصيغ تتجلى في :

أ- مناداة المخاطب:وهو أسلوب يجعل المرسل يخاطب المرسل إليه وكما أنه حاضرا أمامه ومنها قول المنصور في رسالته إلى القائم: « والله يا سيدنا ومولانا أمير المؤمنين...»[1]. ومنها أيضا قول المنصور في رسالته إلى القائم موجهة إلى جوذر بالمهدية:«...يا وارث النبيين، يا سيد المسلمين، يا خليفة رب العالمين، يا خير الخلق أجمعين، يا ولي رب العالمين»[1]. وهي تدل على نوع من المجاملة التي تحدث في أغلب الأحيان بين الحاكم وولاته أو بين الأمير وقواد جيشه.ليكون الحديث كما أنه بين حاضرين متقاربين زمانا ومكانا.

ب-تاريخ التحرير: وهي طريقة أخرى لمخاطبة المرسل إليه تتجلى في تحديد تاريخ تحرير الرسالة ويتحرى فيها تحديد التاريخ بدقة وحتى يصل الأمر إلى تحديد اليوم الذي تكتب فيها برسالة وهذه الحالة عهدناها في جل مراسلات العهد العبيدي، بحيث لا نجد غالبا رسالة غير محددة التاريخ .ومنها رسالة "المنصور" موسومة باسم "القائم" موجهة إلى جو ذر بالمهدية سنة(14محرم 335هـ / 16 أغسطس 946م) وقد ذكر تاريخها في قوله: «وكتب يوم الخميس لثلاث عشرة ليلة خلت من المحرم سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة (15 أغسطس 946)» [2]. ورسالة "المنصور" إلى "كتامة" التي حررت كما جاء في آخر الرسالة. «و كتب يوم الأربعاء لليلة بقيت من ذي الحجة سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة» [3].

وقد يكتفي بذكر الشهر والسنة دون الإشارة إليهما مباشرة مثل :«وكتب القائد جوهر الأمان بخطه في شعبان سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة»[4].لكن ما يمكن ملاحظته في العديد من الرسائل

---

[1]محمد اليعلاوي:الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي، ص158.

[2]محمد اليعلاوي:الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي ، ص158.

[3]نفسه، ص153.

[4]المقريزي:المصدر السابق،ص57 .

،خاصة ما تعلق منها بالرسائل الشخصية عدم ذكر تاريخ تحريرها ،لاحتمالات كثيرة ، منها حذفها من قبل ناقلي هذه الرسائل ، واحتمال أن بعض الكتــاب لم يروا فائــدة في تحديد تواريخ لرسائلهم، ولو أنهم دونوا هذه التواريخ لكان ذلك مساعدا للباحثين، في كشف الكثير من خبايا التاريخ ورفع اللبس عن كثير من الأحداث .

ج–ذكر المكان الذي يكتب منه : لعل ذكر مكان كتابة الرسالة، يعد جانبا من الأهمية التاريخية بل ويضفي عليها مسحة من المصداقية التي تفتقر إليها الكثير من الرقاع التي تجلو من مثل هذا الذكر والمؤسف أن الكثير من الكتاب لا يولون أي أهمية لمثل هذا التحديد المكاني ، إلا ما فرضته سياق الرسالة وهذا ما جاء عن "المنصور" في رسالته موسومة باسم "القائم" موجهة إلى "جو ذر" بالمهدية :«...جملة ما أبشر به سيدنا ومولانا أمير المؤمنين، أن قتلاهم غطت الأرض، وامتلأ العسكر المنصور من غنائمهم، وكذلك القيروان »[1].وكما ورد المكان محددا في رسالة المنصور إلى كتامة(آخر ذي الحجة 334 / أغسطس 946):«أما بعد، فإن كتابنا هذا إليكم، بعد نزولنا بالقيروان بجيوشنا المنصورة من أوليائنا وعبيدنا... » [2].

2–العنوان : وهو أن تعنون الرسالة ، ويتعين من خلاله اسم المرسل، واسم المرسل إليه وقد ورد شكل هذا العنوان في الرسائل العبيدية بصيغة مكتوبة في أول الرقعة من مثل : «من الأمير إسماعيل ولي عهد المسلمين، ابن أمير المؤمنين إلى كافة كتامة...» [3].« أو من أبي القاسم محمد ولي عهد المسلمين ابن الإمام أبي محمد عبد الله المهدي بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه، إلى مؤنس... » [4].

وبمثل هذه الصياغة سارت معظم عناوين رسائل الأمراء إلى ولاتهم وإلى أتباعهم، وحتى إلى خصومهم في الخارج.أما عندما يكون المرسل كاتبا نيابة عن الأمير فتأتي على النحو: «هذا

---

[1]محمد اليعلاوي : نفسه،ص158.

[2]نفسه، ص152.

[3]نفسه، ص152.

[4]نفسه، ص85.

كتاب من جوهر الكاتب عبد أمير المؤمنين المعز لدين الله صلوات الله عليه لجماعة أهل مصر الساكنين بها من أهلها ومن غيرهم »(1).

-البسملة: أو ما يسمى الاستفتاح، وهو أن يثبت بعد العنوان مباشرة عبارة البسملة (بسم الله الرحمن الرحيم).

-الصلاة على النبي: أدباء وأمراء المغرب عموما لا يغفلون أبدا في رسائلهم الصلاة على الرسول(ص) وقد تورد هذه العبارة في رسائلهم -الصلاة على الرسول(ص)-

وقد تورد بأشكال متنوعة وبتراكيب مختلفة، فمنهم من يكتب:« وصل الله على محمد الكريم وصلى الله على محمد وسلم تسليما...»(2) .كما ونجد أن كتاب البلاط العبيدي، يختلفون عن بقية الكتـــاب في صيغة الصلاة وذلك بزيـــادة عبارة وعلى آله الطاهرين أو آله الطيبين الطاهرين، كما جاء في رسالة "المنصور" إلى "كتامة": « ونسأله أن يصلي على محمد عبده ورسوله وعلى عترته الأبرار، الطيبين الأخيار ...»(3).بينما نجد السنة يكتفون بالعبارة الأولى أو إضافة وعلى آله وصحبه.

غير أن بعض الكتاب أخذوا يجرون في بعض الرسائل على فطرتهم في تخير البدايات ، فمنهم من يبتدئ ببيت من الشعر، أو بحكمة مأثورة أو مثل معروف ، أو قصة صغيرة، ثم يدخل في الموضوع، ومنهم من يكتب في الموضوع مباشرة من غير أن يتقدمه بشيء، وهم في ذلك كله يجرون على خطة مقبولة، فلا يراعون القواعد إلا إذا خاطبوا الأمراء وقواد الجيوش، فعند ذلك يبدؤن بالعبارات المملوءة بالمجاملة والرفق .

وبعد المقدمة يأتي صدر الرسالة ،أو الانتقال إلى الغرض المقصود، ولا يتأتى ذلك إلا بالتخلص السلس من المطالع والتي تتمثل في تعابير خاصة ومحدودة و تبدأ عموما باستعمال عبارة" أما بعد "،أو ببعض الألفاظ المستعملة هي "كتب"، "كتبنا"، "كتابنا "وتدل على الدخول وبصفة مباشرة في غرض الرسالة. من مثل قول "المنصور" في رسالته إلى كتامة:« أما بعد،

---

[1]المقريزي : المصدر السابق،ج1،ص44.

[2]محمد اليعلاوي : المرجع السابق، ص157.

[3]نفسه،ص152 .

فإن كتابنا هذا إليكم، بعد نزولنا بالقيروان بجيوشنا المنصورة من أوليائنا وعبيدنا، وقد أعز الله نصرنا، وأتم وعده لنا... »[1].

3-**الخاتمة:** نجد الكثير من كتاب، لا يولون اهتماما كبيرا في إخراج الخاتمة في أزهى حللها ، لكون أنفسهم تكون قد استهلكت جل طاقتها ، فضعفت العزائم ، وكلت القوى ، وتهاوت الإرادات ،كما يفنى الأدباء في عباراتهم. لذلك نجد أن جل رسائل هذا العهد لا تخرج من إشارة مباشرة إلى الاختتام مثل:« أنفذنا مع كتابنا هذا رجالا تأكيدا للحجة عليكم... »[2]، أو تتمثل في كونها صورة أدعية، أو إقراء للسلام وهو من أكثر صيغ الاختتام شيوعا، و يكون في الغالب باستعمال ألفاظ محددة وتراكيب قصيرة من مثل "السلام " وهي اختصار للجملة:(والسلام عليكم ورحمة الله) التي كانت تختم بها الرسائل غالبا في القرن الأول.ومن أمثلته أيضا:«والسلام على من اتبع الهدى ، وآثر الآخرة على الأولى»[3]ويكون دائما مقرونا بالدعاء،و لذلك اعتبر الكثير من الباحثين أن الدعاء ليس قسما من أقسام الرسالة بل هو مستقل بذاته ، ويأتي بصور متنوعة ووجوه مختلفة ، وبصيغ لفظية كثيرة وورد في رسائل العبيديين على عدة حالات ، وهي:

-وروده في مكان المقدمة:أي جعله هو المقدمة ويستغني عن المقدمة نهائيا، والدعاء في هذا يعتبر نادرا ولم يستخدم إلا نادرا.

-وروده في صور جمل اعتراضيه، ضمن المقدمة.

-وروده على حسب الأغراض المطروحة من خير أو شر ، فأتى دعاء على المخطوب نفسه وهذا يأتي في ختام الصيغ .

والدعاء مجملا يأتي مختصرا ومحتشما ليفي بالغرض، وقد يأتي بصيغ مناسبة لغرض الرسالة، أو قد يأتي على شكل من العتاب أو اللوم، أو الهجاء ... وغيرها من مثل: « فبالله نستعين وعليه نتوكل، وعلى تأييده نعول، وهو حسبنا ونعم الوكيل»[4]. ومنه أيضا قول أحدهم:

---

[1]نفسه، ص153 .

[2]محمد اليعلاوي : الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي ،ص153 .

[3]القاضي النعمان:المجالس والمسايرات ،ص 446.

[4]محمد اليعلاوي : نفسه، ص152.

« والسلام على من اتبع الهدى، وآثر الآخرة على الأولى »[1] .وبهذا يكون الأديب أو الكاتب قد خلص إلى مخرج سلس لرقعته، ليعلن للقارئ ذلك الخروج الذي تقتضيه منهجية الرسائل .

وأخير تذيل الرسالة بالتأريخ الممثل غالبا في اليوم، والشهر والسنة، وللتدليل على هذا نورد بعض النماذج والتي يورد فيها التاريخ بقوله: «وكتب يوم الخميس لثلاث عشرة ليلة خلت من المحرم سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة 15 أوت 946 م»[2] .

وهذا جوهر في كتاب الأمان الذي بعثه إلى سكان مصر يختم بقوله :«وكتب القائد جوهر الأمان بخطه في شعبان سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة»[3] .ومن جهة فإن جميع الرسائل الرسمية يظهر عليها الاتجاه العقائدي للإمارة أو الخلافة حسب زعم العبيديين، وهذا من خلال مطالعها،و يتمثل ذلك في لفظ "أمير المؤمنين"،"خليفة المسلمين"،"ولي عهد المسلمين". لعل هذا ما يمكن أن نلاحظه على رسائل العهد العبيدي و الصنهاجي و الحمادي وكتابهم ،وكيفية بناء الرسائل عندهم .

ويمكن القول أن الرسائل في هذا العصر، قد عبرت عن كل التحولات العميقة التي أحدثها الواقع السياسي والثقافي والاجتماعي و الحضاري للمنطقة ، وفن الترسل في مجمله إعلامي تبليغي و تنظيمي دبلوماسي. أي أنها كانت بوجه عام ذات طابع ديواني ، ومن الناحية الفنية سمت و ارتقت. وما وصلنا من المكاتبات و الرسائل المغربية نتف قليلة لأنه ومن المستحيل أن تكون الحركة الأدبية المزدهرة في قرنين من الزمن دون نتاج أدبي كبير، إلا أننا نعتقد أن الصراعات المذهبية و الفتن و الحروب و القوى الاستعمارية التي مرت على المنطقة هي السبب في فقدان الإرث الأدبي و التاريخي و الثقافي للمنطقة .

---

[1] نفسه ، ص85.

[2] نفسه ، ص86.

[3] المقريزي ، اتعاظ الحنفاء، ج1 ،ص43.

الباب الثالث

النثر التأليفي في القرنين الرابع و الخامس الهجريين

توطئـــة:

بدأت حركة التأليف والجمع والتدوين في الغرب الإسلامي قبل القرن الرابع الهجري بزمن ليس بقصير، وخاصة جمع الأحاديث النبوية الشريفة وتفسير القرآن لكن لا يمكننا تصنيف تلك المصنفات في مصف حركة التأليف الكبيرة، لكونها كانت محدودة. ولذلك نعتبر أن بوادر حركة التأليف بدأت مع بداية القرن الرابع الهجري خاصة ما تعلق منها بالجانب الفقهي و العقدي ، وعلوم القرآن، و اتسع نطاقها مع نهاية القرن الرابع و بداية القرن الخامس الهجريين لتشمل الكثير من العلوم المعروفة آنذك من ، شريعة ،و تاريخ و أدب ، وسير و تراجم ...بالإضافة للأجناس الأخرى.ومن خلال هذا الباب سنحاول الوقوف عند حركة التأليف و طبيعتها في القرنيين الرابع و الخامس هجريين في جميع جوانبها الشكل و المضمون، والكم و الكيف .

علينا بدء أن نشير إلى أنه من العسير أن نتحدث حديثا وافيا عن النثر التأليفي ونعطيه حقه في هذه الفترة الزمنية ، لأنه لم تصلنا كتب كثيرة عن هذا العصر– خاصة ما تعلق منه بالكتب الأدبية–، وهذا راجع لما شهدته هذه الفترة – وما جاء بعدها– من قتل وتخريب وثورات لم تعطى المجال والوقت المناسبين لهذا الشكل من الظهور بصفة واضحة خاصة في تصانيف محددة ، وهذا إذا استثنينا ما كان يؤلفه أدعياء الدعوة الإسماعيلية الذين كانوا يحظون بالدعم من قبل أمراء الدولة ، لذلك فإن أغلب ما ألف في هذه الفترة اقتصر على الجانب المذهبي والتنظير له ، دون الالتفات إلى جوانب التأليف الأخرى ، اللهم إلا النزر اليسير الذي ذكر في كتب التاريخ .

ولعل انتقال الدولة العبيدية إلى مصر قد يكون وراء ندرة هذه المادة من جهة ،" وما بقي بالمغرب يكون قد أتلف خلال الثورات المتعاقبة على المنطقة وما تلاها من دخول القبائل العربية–بنو هلال سنة(442 هــ)– التي أتت على الأخضر واليابس" [1].

وبعد التحول المذهبي لهرم السلطة في العهد الصنهاجي وما انجر عنه من فتك بالشيعة وما تعلق بموروثهم الفكري والأدبي حيث أحرقت كتبهم ،وأبيد كل ما تعلق بهم لما كان من

[1] رابح بونار : المرجع السابق ، ص134.

نظرة انتقامية وتكفيرية من أهل السنة وهو نفس الحال لما ساد المذهب الشيعي من قبل وأصبح المذهب الرسمي للدولة فأبيد كل ما كان مخالفا له. ولعل بين أيدينا نزر يسير من هذه الكتب التي احتفظ بها التاريخ ولم تطلها يد التدمير والإحراق والمصادرة.

والواقع أن مضامين النثر هي صورة للاهتمامات التاريخية التي تبديها الأمة ويعبر عنها المفكرون والأدباء ،ولعلنا تبينا أحوال الدولة العبيدية من خلال نثرها والذي استقينا معظمه من مؤلفات معاصري العهد وما دونوه من حقائق وما جمعوه من أخبار ، فعرفنا قدرا غير يسير من مشاعر أهلها اتجاه الدولة والثورات التي تقوم ضدها ، ووقفنا عند الكثير من ردود الفعل التي أفرزها الصراع المذهبي ، والتي أدت إلى انقسام الناس والقبائل حسب الأهواء ، فمنهم من تخلى عن مبدئه و أقبل على ملذات الدنيا ، ومنهم من توجه إلى المناصب السياسية وسعى إليها بكل ما أوتي من خسة ونذالة ، ومنهم من تمسك بمبادئه ومات دونها .

فالعكس على حركة التأليف، التي نعتبرها قد أخذت بداياتها المتنوعة في القرن الرابع الهجري وامتدت وازدهرت ونمت مع بدايات القرن الخامس الهجري حين عظمت الدولة الصنهاجية و الحمادية اللتان استفادتا من هذه القفزة و هذا الصراع وهذا ما نلحظه عند بعض الأدباء والعلماء الذين عاشوا شطرا من حياتهم في ظل هذا العهد وامتدت بهم الأعمار لينبغوا خاصة في العهد الصنهاجي .

-التأليـــــــــــــف لغة و اصطلاحا:

يمكن تعريف التأليف لغة و اصطلاحا،وهي:

-لغـــة:«هو جمع الشيء إلى نظيره تقول:ألفت بين الشيئين تأليفا فتألفا وأتلفـــا»[(1)].وتقول: «تألف القوم وائتلفوا أي اجتمعوا» [(2)].

-اصطلاحا: "جمع مسائل علم في كتاب" [(3)]، وهو مأخوذ من الألفة ومن الاجتماع أيضا وقد يطلق اللفظ على المؤلف وقد يسمى التأليف تصنيفا، ويسمى الكتاب المؤلف مصنفا. وهو وضع الأثر الفني بعد أن تجمع معلوماته من مضانها ويحاط بكل مستلزمات الفكرة التي يتطلبها هذا

[1]الجوهري: الصحاح ،تح: أحمد عبد الغفور عطار، دار الكتاب العربي،بيروت، د ط،1977م ، ص332.
[2]الفيروز أبادي : القاموس المحيط ،م3،ص113.
[3]بطرس البستاني : محيط المحيط، دار الفكر ،بيروت، لبنان ، د ط، 1977م، ص14.

الأثر وهو أنواع علمي وأدبي ولغوي والتأليف في طبيعته عمل تركيب تتعاون في إتمامه عناصر لا تحصى من الثقافة والتحصيل والتأمل والإحساس والخيال.

و المؤلف صاحب رسالة يريد أن ينقلها إلى القارئ ولذا فإن الاقتصار على سرد الآراء وجمع النصوص المتعلقة بموضوع معين لا يعد تأليفا، لأنه لا يضيف فكرا جديدا.وكذلك فإن تحقيق النصوص القديمة وترجمة النصوص الأجنبية لا يسمى تأليفا لأن الفكرة الأصلية والإضافة الحقيقية هي لمؤلف النص الأصلي وليست للمحقق أو المترجم،ويقاس على هذا القوائم الببليوجرافية التي تحصى المؤلفات في موضوع معين ، فإن القائم بها لا يعد مؤلفا وإنما جامعا. « ولهذا نقول:إعداد فلان ، ولا نقول:تأليف فلان.ولعل هذا هو ما يفسر لنا ظهور مصطلح "السرقات الأدبية" في تراثنا الأدبي وظهور مصطلح "حق التأليف" وقوانين حماية حق المؤلف أو حق الملكية الفكرية في العصر الحديث ، صيانة لثمرات العقول من أن تستباح فسرقة الأفكار،لا تقل شناعة عن سرقة المتاع. والمؤلف– عادة –يجمع مادته العلمية من مصادرها المختلفة ويحللها ويناقشها. ويكتبها في صورة مبدئية تسمى "المسودة" وهذه المسودة تخضع للتغيير والتبديل والتقديم والتأخير والحذف والإضافة حتى إذا استقر صاحبها على الصيغة التـــي يرتضيها، بيضها في صورة نهائية ينشرها على الناس" [(1)].

وقد يعيد المؤلف النظر فيما كتب،وقد يعدل عن بعض آرائه فيعيد اصدار كتابه بطبعة جديدة يصفها بأنها "مزيدة ومنقحة" وتلك ظاهرة صحية لا تعيب المؤلف وإنما تحسب له وتعلى من قدره وتدل على ما يتصف به فكره من تطور ونضج ونماء وأمانة أيضا.

وفى العصور القديمة كان الإملاء إحدى طرق التأليف،وكان العالم يجلس في المسجد أو أي مكان عام ومن حوله تلاميذه ومريدوه، يكتبون عنه ما يمليـــه "فالسيوطي" يذكر أن «الإملاء كان أعظم وظائف الحفاظ من أهل الحديث» [(2)]. " وتراثـــنا العربي يحفل بكتب كثيرة تحمل في عناوينها كلمة "الأمالي" أو"المجالس"وقـــد أحصاها حاجى خليفة في كتابه "كشف الظنون"ومن

[1] الخطيب البغدادي:تاريخ بغداد ، مكتبة الخانجى ،القاهرة، د ط،1981م، ج12، ص145.

[2] السيوطى : المزهر في علوم اللغة،تح: أحمد جاد المولى،وعلى محمد البجاوى، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية،القاهرة، د ط، د ت،ص256.

بعده "إسماعيل البغدادي" فـــي "إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون"وأشهرها آمالي "أبي علاء القالي" (1).

وقد انتشرت مجالس الإملاء في الحواضر الإسلامية خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين وتحدث الخطيب البغدادي في مواضع متفرقة من "تاريخ بغداد" "عن تلك المجالس ووصف ضخامتها وكيف أن بعضها كان يحضره عشرات الألوف وربما تجاوز عدد الحاضرين مائة ألف كمجلس "عاصم الوسطي" وكان طبيعيا ألا يسمع صوت الشيخ تلك الأعداد الكبيرة من السامعين ولهذا ظهرت فئة "المستملين" الذين يرددون كلام الشيخ وراءه كل منهم يبلغ صاحبه حتى تسمع جموع الحاضرين (2).ومهما تكن في هذه الأرقام من مبالغة، فإنها تدل على عظمة تلك المجالس لدرجة تلفت الانتباه.

وفي القرن الرابع الهجري كانت الحركة الأدبية في بداية نهضتها قوتها مما أدى بالتالي إلى خروج الكثير من المؤلفات والمؤلفين الذي كان لإبداعاتهم الصدى الكبير في هذا العهد. ويعتبر ولوج أهل المغرب ميدان تدوين المعارف والعلوم وجمع التراث الشفاهي وترتيبه، من دلائل النضج الفكري للعهد العبيدي ومن علامات العطاء وبعد التفكير، ومع كون الصياغة النثرية تدخل هذا الباب من التعبير، فذلك يدل على تطور حاسم في مسيرة نموه بالمغرب الإسلامي .

ومما يجدر الإشارة إليه أن حركة التأليف والجمع والتدوين كانت قد بدأت في المغرب قبل بداية القرن الرابع الهجري، وهذا ما يخص جمع أحاديث النبوية الشريفة وتفسير القرآن ، لكن لا يمكننا تصنيف تلك المؤلفات في مصف الحركة التأليفية، لكونها اقتصرت على ميدان واحد ووحيد من مجالات المعرفة. بل إنها لا تقف عند نوع واحد من العلوم ولذلك نعتبر أن بوادر حركة التأليف بدأت بصورة فعليت مع بداية القرن الرابع الهجري، و اتسع نطاقها إلى معظم جوانب الثقافة المعروفة في ذاك العهد خاصة ما تعلق منها بالجانب المذهبي الديني بالإضافة للأنواع الأخرى .وعليه فإن الأصل في تجميع الكتب عند العبيديين هو خدمة لدعوتهم إضافة إلى شغف الشخصي أمراء الدولة بالكتب وامتلاكها ومما يروى عن هذا " أن المهدي عند

---

[1]الخطيب البغدادي:نفسه، ص345.

[2]نفسه،ص348.

خروجه من مصر في طريقه إلى المغرب ،وعند وصوله إلى الطاحونة من البربر ، ما جرى فقد أخذوا بعض رحله بعد أن نهبت القافلة ، ومنها كنبا للمهدي فيها علوما كثيرة ، فكان أســفه عليها –الكتب– أشد من أسفه على غيرها مما ضاع له ، إلى أن جمعها له القائم وقت خروجه إلى مصر وعادت الكتب إلى خزانة الفاطمي في رقادة ، ثم انتقلت إلى المهدي بالمهدية ، ثم منها إلى المنصوري بالقيروان" [1].

ولقد أهتم العبيديون –على الأخص– منذ قيامهم بالدعوة لآل البيت في المشرق باقتناء و جمع الكتب الخاصة وخاصة ما يتعلق منها بدعوتهم الشيعية وأخبار المذاهب الأخرى . بالإضافة إلى حث الكتاب والحكماء والأدباء من تقديم مؤلفاتهم ،علاوة على ما اقتنوه بالشراء والاستنساخ في المغرب والمشرق لذلك جمعوا عددا هائلا من الكتب خصصوا لها مع انتقالهم إلى مصر جانبا كبيرا من قاعات القصر الملكي وسموها خزانة الكتب ، وقد ضاهت خزائن بغداد وقرطبة . ولما أنشأ "اسماعيل المنصور" قصوره بالمنصورية نقل إليها خزائن الكتب التي كانت برقادة والمهدية وقد كان شغوفا بالكتب إلى حد بعيد ، تدلنا على ذلك فقرة من رسالة كتبها من قصره بالمنصورية إلى مولاه" جو ذر وهذا نصها :" بعثت إليك كتبي وكتب الأئمة آبائي الطاهرين ، وقد ميزتها ، فأقررها عندك مصونة من كل شيء فقد وصل الماء إلى بعضا فغير فيها .وما من الذخائر هو أنف عندي منها ، فأمر محمدا كاتبك ينسخ لك منها ثلاث كتب .ففيها من العلوم والسير ما يسرك الله به "[2].

وقد ساعد أمراء الدولة هذه الحركة التأليفية، لما رأوه من أهمية قصوى في تدوين شرائع مذهبهم وأفكارهم والحفاظ عليها من الضياع والإهمال والتأكد من وصولها لأكبر عدد ممكن لرعاياهم وأشياعهم وهذا ما أشار إليه المعز بقوله : " سمعت المنصور بالله يقول : قد كنت أحب أن لو أثر الناس عنا ما نقول ووعوه وكتبوه، فإن ذلك مما كان ينفعهم ومن يأتي من بعدهم" [3].وذكر أيضا: " أن رجلا من ذوي الفهم بعلوم الدنيا وآدابها وأخبارها قد صحب المهدي

---

[1]ابن حماد: المصدر السابق،ص114 .

[2]نفسه،ص115 .(ينظر أيضا: حسن حسني عبد الوهاب:ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية،ج2، ص334) .

[3]القاضي النعمان :المجالس والمسايرات، ص286 .

والقائم مدة أيام سلطانهما وفي خدمتهما وكان خصيصا بهما قريبا منهما، ثم كبرت سنه وخرق وثقل وضعف في أيام المنصور ، فأهدى إليه كتبا جمعها وألفها في الأخبار عن سير بني أمية وبني العباس وأخبارهم وما جاء عنهم من روايات المخالفين لنا والصادين عنا وعن أمرنا ".كما أشار النعمان أيضا إلى اهتمام الأمير "المنصور" بالكتب حين كان يخدم المنصور ويسهر على مكتبته، و يقول النعمان:" كانت خدمتي إليه في جمع الكتب له " [1].

يبدي المعز تعجبه ممن يصحب الأئمة ،ولم يكتب عنهم شيئا، فيقول:" فعجبت لرجل صحب من الأئمة من صحب وقرب منهم كمثل ما قرب أكثر أيام حياته وعامة ، عمره ، لم يوفق إلى جمع شيء مما سمعه من حكمة جرت على ألسنتهم، أو علم علمه عنهم ، فيخلد ويؤثر عنه ويكتب ويسمع منه ، مكان هذا الذي جمعه ورأى أنه أتحفنا به. وهذا مما ذكره المعز أن الناس في عصره أمثل منهم في غيره إذ هم يؤثرون ويرغبون ويكتبون. لكن نجد أغلب مؤلفاتهم تنحصر في هذا المجال والملاحظ هو أن المغاربة دونوا وألفوا فأكثروا" [2].

و ما يجب الإشارة إليه هو أن الكثير من المؤرخين في تاريخ الأدب العربي غفلوا عن ذكر عدة كتب للمنصور بالله ثالث خلفاء العبيديين (334 هــ- 341هــ) " حيث ينسب إليه كتابان ألفهما بمشاركة القاضي النعمان بنفسه تعبيرا عن آراء المنصور بالله . و أحدهما "تثبت الإمامة لمولانا "علي بن أبي طالب"، "والآخر الوصية" [3].كما تنسب "للمعز لدين الله" ، رابع خلفاء العبيديين (341 – 365هــ) ، بعض الكتب التي يصعب إثبات أنه ألفها أو إن كانت بقلم القاضي النعمان ومنها: "رسالة الروضة المناجاة" و"الروضة إلى الحسن القرمطي"،"المناجاة والأدعية" [4].

كما فكر بعض علماء السنة بوقف كتبه خوفا من مصادرتها من قبل الدولة العبيدية ومنع الاستفادة منها" .ومنها ما روى عن ""عبد الله بن أبي هاشم بن مسرور"(ت346هــ) الذي

---

[1]القاضي النعمان :المصدر السابق،ص 286 .

[2]نفسه، ص 286.

3نفسه،ص 285.(ينظر أيضا: فؤاد سكيز:تاريخ التراث العربي،الهيئة المصرية العامة للكتاب،مصر،ج2،د ط 1978م ،ص318).

[4]حسن حسني عبد الوهاب:تاريخ الدولة الفاطمية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط4، 1981م، ص 122.

كان من أبرز فقهاء المالكية الذين تصدوا للعبيديين ، مما جعل العلاقة بينهما سيئة ، وعند مرض" ابن مسرور" خشي أصحابه أن يموت و يصادر العبيديون كتبه- وقد كانت لديه سبع قناطير من الكتب بخط يده وقد حرص على مقابلتها وتقييدها وضبطها لهذا عدت من أصح الكتب- ، فطلب أصحابه منه أن يوقفها وقسموها ثلاثة أقسام كل قسم أوقف عند أحد الفقهاء ومنهم" أبو محمد بن أبي زيد" وفعلا تم ذلك ، لكن في اليوم التالي تراجع "ابن مسرور "عن قراره لشدة تعلقه بكتبه فأعيد إليه قسمان منها وبقي القسم الذي لدى" أبو محمد بن أبي زيد" في داره ومات" ابن مسرور" في ذلك اليوم وحصل الذي توقعه أصحابه حيث سارع العبيديون إلى مصادرة كتبه وسلم من المصادرة الثلث الذي لدى "أبو محمد بن أبي زيد"[1].

---

[1]نفسه، ص 136.

الفصل الأول:
الكتابات الفكرية والتعليمية والفقهية و التاريخية

1-مؤلفات القاضــــــــــــــــــــــــــي النعمـــــــــــــــــــــــــــــــان

2- طبقات علماء إفريقية وتونس لأبـــــــــــــــــــــــــــــــي العــرب

3-تاريخ القيروان لابن الرقيق القيروانـــــــــــــــــــــــــــــــــــــي

4- الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين و أحكام المعلميين و المتعلمين للقابسي

توطئة:

حظيت الكتابات الفكرية و التعليمية و الفقهية و التاريخية بكم كبير من التآليف، نظرا للظروف السياسية و التاريخية والفكرية التي طرأت على المنطقة في القرنيين الرابع و الخامس الهجريين، و التحول الفكري المذهبي الذي امتد إلى منتصف القرن الخامس الهجري . وقد تضافرت أسباب للتأليف ، ومنها: التأليف المباشر في مسألة ما، أومن خلال المراسلة بين العلماء و الفقهاء في مسألة أو نازلة من النوازل، أو بطلب من عالم لتلميذه بتدوين ما يدرس في المساجد و غيرها.أو بطلب من أمراء الدول المتعاقبة على المنطقة....أو غيرها من المسائل الطارئة.

و لا بد أن نشير أن الفقهاء هم أول من طرق ميدان التأليف، وهذا لطبيعة تقدم علوم الشريعة، على سائر العلوم الأخرى، بالإضافة إلى العامل المذهبي الطارئ على المنطقة ومحاولاته فرض مذهب جديد على أهل المغرب المالكيين.

و للمالكية براعة في التأليف في علم أصول الفقه، وقد ضبطت قائمة تحصي مائة وثلاثة عشر عالما من المغرب الإسلامي ألفوا في هذا الفن ،إلا أن معظمهم من المتأخرين وهي في معظمها تعود إلى القرن الخامس الهجري ، و ركزوا على الشرح و الاختصار على المدونة أكثر من تركيزهم على الموطأ وفي إطار الشروح ،وأبرز من ألف في الموطأ نجد " أبو عبد المالك بن علي البوني" (1) ،ويمكن إدراجه ضمن التعليقات على المدونة، من ذلك كتاب التعليقة "لأبي اسحاق ابراهيم بن حسن المعافري التونسي" (ت 443هـ) (2)وتعليق "أبي القاسم المعروف

---

[1]أبو عبد الملك البوني: كان من الفقهاء المتفننين، وكان رجلا حافظا فذا في الفقه والحديث وكان رجلا صالحا ، وله مؤلفين هما : شرح موطأ الإمام مالك و شرح لصحيح البخاري توفي بعنابة سنة(439هـ). (ينظر:ابن العماد الحنبلي: المصدر السابق، ج5، ص236.وأيضا:القاضي عياض:ترتب المدارك ،ج1،ص 497).

[2]إبراهيم بن حسن المعافري المعروف بالتونسي: كان فقيها صالحا عارفا بالحديث و وجوهه وتطبيقه على الفقه ، مشهورا بذالك، له تعليق على المدونة يعرف بتعليق التونسي وتعليق آخر على الموازية توفي سنة(443 هـ). (ينظر:رابح بونار :المرجع السابق،ص195).

بالسيوري (ت460هـ) [1] وأكثرها شهرة هي التبصرة "لأبي الحسن اللخمي" (ت478هـ) [2]وهو من مختصرات المدونة[3].

وأول من اختصر المدونة هو "فضل بن سلمة البجائي"[4] ، ولكن أفضل المختصرات ظهرت في القرن الرابع على يد "ابن أبي زيد القرواني[5] "و "البراذعي" [6].

ويمكن القول أن تبسيط المذهب المالكي واختصاره كان بفضل "رسالة ابن أبي زيد" وبفضل باقي المختصرات ، و تدخل رسالة "ابن أبي زيد" في إطار محاولة تبسيط الفقه المالكي وجعله

---

[1]عبد الخالق أبو القاسم السيوري:كان فقيها قيروانيا فاضلا زاهدا أديبا ومن المناظرين البارزين، له تعاليق على المدونة توفي سنة(460هـ)(ينظر: القاضي عياض:ترتب المدارك ،ج2،ص 65).

[2]أبو الحسن اللخمي:الفقيه الفاضل ذا حظ من الأدب حاز رياسة افريقية وباشر التدريس والإفتاء إلى أن سقطت القيروان على يد بنو هلال فارتحل الشيخ إلى صفاقس حيث واصل نشره للعلم توفي سنة(478 هـ) (ينظر:ابن العماد الحنبلي:المصدر السابق، ج5، ص49.وأيضا:القاضي عياض:ترتب المدارك ،ج1،ص 123).

[3]نجم الدين الهنتاتي:المذهب المالكي بالغرب الاسلامي إلى منتصف القرن الخامس الهجري، منشورات تبر الزمان، تونس، 2004، ص 219.

[4]الفضل بن سلمة البجائي (ت319هـ): فقيه حافظ ، من أهل بجاية ارتحل القيروان و أخذ عن شيوخها ، ذاع صيته فقصده طلبة العلم من كل مكان و أخذوا عنه، وتخرج على يديه طائفة من رجال الفقه منهم: أبو سلمة ، سعد بن عثمان ، و محمد الخولاني،و أبو العرب، من تآليفه كتاب جامع المسائل الموازية، و المستخرجة. (ينظر:رابح بونار :المرجع السابق،ص184).

[5]ابن أبي زيد القيرواني (310 –386 هـ):هو أبو محمد عبد الله بن أبي زيد عبد الرحمن القيرواني النفزي ، نسبة إلى قبيلة نفزة أو نفزاوة ، ولد بالقيروان سنة (310 هـ).رحل ابن أبى زيد إلى المشرق وحج ،ثم عاد إلى القيروان ، وقضى فيها معظم حياته .و لقد عنى محنة شديدة من طرف الدولة العبيدية وكانت وفاته في سنة(386 هـ) . لخص مذهب الإمام مالك، وعرف "بمالك الصغير " له من الكتب :الرسالة (في الفقه) ،كتاب النوادر(جمع فيه ما في أمهات الكتب الفقه على المذاهب المختلفة من المسائل ومن أقوال الفقهاء واختلافهم)،مناسك الحج (السنن–العقيدة)،مختصر المدونة.كما كان له شعر ديني .(ينظر:ابن أبي زيد القيرواني: متن الرسالة، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر د ط، د ت.،ص1–4 .وأبو العرب: المصدر السابق، ص125).

[6]أبو القاسم خلف بن أبي القسم الأزدي المعروف بابن البراذعي:كان من كبار أصحاب ابن أبي زيد القيرواني،وأبي الحسن الفاسي،ولم تحصل رئاسة بالقيروان لتساهله مع الشيعة ،فكرهه علماء القيروان وأفتوا بعدم قراءة كتبه ما عدا التهذيب لشهرة مسائله،وخرج من القيروان واستقر بمصر إلى أن توفي فيها.(ينظر أبو العرب : طبقات علماء إفريقية وتونس ، ص159).

في متناول الطلبة المبتدئين بما أن من طلب منه تأليفها "محرز بن خلف [1].وهي أول مختصر للمذهب المالكي وتشتمل في مقدمتها ، على تعريف مقتضب بعقيدة أهل السنة ، وتتميز ببساطة أسلوبها ، ووضوح عباراتها لذا تدرس للمبتدئيين. وللرسالة صبغة دعائية ،وهي تشبه دعائم الإسلام للنعمان ، والهدف من تأليفها هو مقاومة الدعوة العبيدية .

ومن أسباب المغاربة في التأليف، التنافس بين العلماء و الفقهاء في السبق التأليفي ، فنجد تأليف كتب من قبل فقهاء منتقدين بعض مؤلفات الفقهاء الآخرين أو لتأييد رأيهم بحيث تكون بنفس موضوع الكتاب المنتقد. ومن أبرز الأمثلة على ذلك كتابا "خلف بن أبي القاسم البراذعي" تهذيب المدونة[2] وتمهيد مسائل المدونة . وقد شرع البراذعي في تأليفهما بقصد مجارات مؤلف"ابن أبي زيد" المختصر. وقد حدد هذا الغرض بوضوح "حسن حسين عبد الوهاب" حيث يقول عن ذلك :" إن البراذعي تصدى لتقليد "ابن أبي زيد" تأليفه فمهما صنف "ابن أبي زيد" كتابا اقتفى البراذعي أثره ووضع ما يشاكله "[3].

وقد بين" القاضي عياض" محاولات بعض الفقهاء معارضة كتب" ابن أبي زيد"[4] لكنه لم يحدد بصراحة إن كان البراذعي أحد المقصودين . وقد تضافر العامل الشخصي مع العلمي في موقف البراذعي ذلك. فقد كان هو و"ابن أبي زيد" متقاربين في السن إلا أن" ابن أبي زيد "سبق البراذعي في التقدم العلمي[5] بحيث أن البراذعي تتلمذ عليه ولم تكن المودة مستحكمة بينهما حيث تتبع البراذعي هنات" ابن أبي زيد" العلمية وجادله بها وربما تجاوز في جداله على مكانة ابن أبي زيد وتعمد إظهار خطئه أمام الحاضرين، مما أدى إلى نشوء وحشة بين البراذعي و "ابن أبي زيد "والتي انعكست بالتالي سلبيا على علاقة البراذعي بأهل القيروان وفقهائها لتقديرهم

---

[1]محرز بن خلف: هو أبو محفوظ محرز بن خلف بن زين، ويتصل نسبه بالخليفة أبي بكر الصديق،ولد (340 هـ- 413هـ)من علماء القيروان نبغ واشتهر في فن المناظرة وخاصة في مسائل الخلاف. كان له دور في نشر المذهب المالكي(ينظر:الدباغ: معالم الإيمان،ج3،ص229).

2حسن حسني عبد الوهاب : ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية ،م1، ص 123.

[3]حسن حسني عبد الوهاب :المرجع السابق ،ص65.

[4]القاضي عياض: ترتيب المدارك وتقريب المسالك ،ج6،ص216.

[5]حسن حسني عبد الوهاب: نفسه، ص 127.

العالي" لابن أبي زيد"([1])فترك القيروان إلى صقلية واستقر بها وفيها ألف كتابه التهذيب[2] و اتبع طريقة" ابن أبي زيد" في مختصره إلا أنه حذف ما زاده" ابن أبي زيد" في المختصر على المدونة[3] وكتابه الأخر "التمهيد" كان أيضا على غرار المختصر" لابن أبي زيد" وربما كان مثيله بحيث عندما بدأ بقراءته على الطلاب رفض بعضهم إكمال سماعه لكونه لم يخرج عن المختصر[4] و" ويبدو أن التمهيد أسبق في التأليف وعلى الأرجح ألفه" البراذعي" في القيروان قبل أن يخرج إلى صقلية.

ومما يشار إليه هو قلة التأليف لدى علماء المالكية في العهد العبيدي بالمقارنة بالعهد الأغلبي ، وربما يعود ذلك إلى سياسة العبيدين القائمة على القمع و التضييق ،" وسيلاحظ أن نشاط التأليف لن يعود إلا في العهد الصنهاجي و الحمادي ، وبالمقابل شهدت الساحة الاسماعيلية نشاطا تأليفيا كبيرا كان رائدها القاضي النعمان " [5].

ولعل الأمانة تقتضي منا أن ننوه بما "للقاضي النعمان" من بصمات كبيرة في ميدان التأليف ومؤلفات كان لها الأثر البالغ في التأسيس والدفاع عن الدولة العبيدية ومذهبها الاسماعيلي والتنقيح والتعريف بما كان عليه أمراؤها من تبحر في العلم وكشف جوانب تاريخية مهمة من هذه الدولة ،كما أننا نشير إلى أن مؤلفات النعمان ما كانت ترى النور لولا دعم المعز له وحثه المتواصل على تأليفها، وفي هذا قال النعمان :"أمرني–المعز– بجمع أخبار الدولة في كتاب ،ومناقب بني هاشم ومثالب بني عبد شمس في كتاب ، ففعلت وجمعت من كل فن من هذين الفنين كتابا ضخما جامعا يجتمع على أجزاء كثيرة على ما رتبه لي و أفادنيه. ورفعتهما إليه فاستحسنهما وارتضاهما و استجاد معناهما وقال : أما أخبار الدولة ومن قام فيها وسعى في إقامتها من الدعاة والمؤمنين، فإني أحب أن تخلد أخبارهم هكذا في الباقين ، ويبقى ذكرهم بالخبر في الغابرين ، ويلحقهم فيه دعاء السامعين ، ويعرف ذلك لأعقابهم من بعدهم مما أعده الله عز

---

[1]القاضي عياض : نفسه،ج2،ص258.

[2]نفسه،ص258.

[3]ابن فرحون : المصدر السابق، ص 112.

[4]نفسه،ص112.

[5]نجم الدين الهنتاتي:المرجع السابق، ص 169.

وجل لهم من الكرامة في دار المقام ، وهذا مما يجب علينا لهم من الحفظ والحق إذ لم يلحقونا فنؤدي ذلك إليهم" [1] .

ويدل هذا النص على أن المعز هو الذي يشير على النعمان بمادة كتبه وطريق تبويبها ومن مؤلفاته: كتاب(المجالس والمسايرات)، (أساس التأويل)، (دعائم الإسلام)، (الأرجوزة المختارة)، (تأويل الدعائم)، (الاقتصار)، (كتاب افتتاح الدعوة)، (اختلاف أصول المذاهب)، (المناقب والمثالب ،أو مناقب بني هاشم ومثالب بني أمية) وغيرها [2].

و عمد بعض علماء المالكية إلى ظاهرة التأليف ، وسيلة لمقاومة العبيديين ومذهبهم، ويعد أسلوب المواجهة عبر التأليف من الوسائل المجدية و النافعة في مقاومة أهل السنة للإسماعيليين، والتي كان لها الأثر الطيب في قض مضاجعهم ،كما لها الأثر الكبير في تبصير العامة بالحق ، وإرساء دعائمه ،كما أصبحت فيما بعد مرآة ناقلة لصورة الحياة العامة لهذه الفترة الزمنية في المغرب الإسلامي وعدت السبب الرئيس في الإنقلاب المذهبي في العهد الصنهاجي و الحمادي،وقد قسمت هذه المؤلفات إلى قسمين:

القسم الأول: المؤلفات التي تناولت مسائل العقيدة ، و الفقه، و الأصول،وفق منهج أهل السنة و الجماعة ،على مذهب الإمام مالك،ومن بين ماتناول بالتأليف مسألة الإمامة عند أهل السنة ،وأفضلية أبي بكر وعمر وعثمان على علي –رضي الله عنهم أجمعين– وشرعية خلافة الثلاثة خلافا للشيعة ، والترضي على أصحاب رسول الله "صل الله عليه و سلم"، واعتبارهم جميعا عدولا خلافا لاعتقاد الشيعة بهم.

ومن أكبر المؤلفين في هذا ،نجد "القابسي" الذي كان فقيها متكلما مؤلفا مجيدا ، ومن مؤلفاته الكتاب الممهد ، يقع في ستين جزءا وهو مبوب على أبواب الفقه ، جمع فيه بين الحديث و الأثر و الفقه، وكذلك له رسالة في الاعتقادات ،تهم المعتقد الأشعري بما أن القابسي و "ابن ابي زيد" من الرواد الذين أدخلوا هذا المعتقد إلى المغرب.

وكتاب "النوادر و الزيادات" لابن أبي زيد القيرواني" ،جاء في أصل عنوانه كتاب" النوادر لزيادات على ما في المدونة من غيرها من الأمهات" وبهذا فهي تكملة للمدونة. فالنوادر تشمل

---

[1] القاضي النعمان : المصدر السابق،ص 117.

[2] فؤاد سكيز: المرجع السابق،ص321–326.

مسائل فقهية و فتاوى يعود جلها الى القرن الثاني و الثالث ، و بصفة أقل المسائل التي تهم القرن الرابع الهجري وهي نادرة الوجود ، فالنوادر تمثل رجعة واضحة الى الوراء و تدقيقا لآراء علماء الحجاز و مصر خلال القرون الأولى ،فهي محاولة للربط من جديد بالمشرق حيث الخلافة السنية ، فيما تخضع للنفوذ الشيعي،وتمثل النوادر أيضا رد فعل على تعاظم خطر الفقه الاسماعيلي الذي تم تدوينه بافريقية على يد القاضي النعمان ،كما لم يغفل عن الغرب الإسلامي أي الأندلس فاستعان بأمهات الكتب المالكية الأندلسية بالأساس الواضحة و المستخرجة، وبفضل أمانة ابن أبي زيد في نقل العلم ، وقدرته الفائقة على تلخيصما ورد في أمهات الفقه التي استعملها، وحظيت النوادر رغم عظم حجمها بشهرة فائقة .وكتاب "النوادر" لابن أبي زيد و غيره تعتبر من كتب المسائل الفقهية و كتب النوازل(1)، وهي تحوي آراء فقهية منسوبة إلى علماء المدينة أي مالك ومن عاصره ، هذا إلى جانب علماء مصر(2) .

كما أن" ابن ابي زيد" استفاد ممن سلف، وما دون من كتب في المذهب، كـــ "المدونة" لسحنون، و"الواضحة" لابن حبيب، و"المستخرجة" للعتبي، و"الموازية" لابن المواز. و هذا ما أكده "ابن خلدون" بقوله :" وجمع "ابن أبي زيد" جميع ما في الأمهات من المسائل والخلاف والأقوال في كتاب "النوادر"؛ فاشتمل على جميع أقوال المذهب، وفروع الأمهات كلها في هذا الكتاب، ونقل "ابن يونس" معظمه في كتابه على المدونة. وله الرسالة في الفقه" ،مناسك الحج "السنن-العقيدة "،كما اختصر "ابن أبي زيد" المدونة في كتابه "المختصر"، ولخصه أيضا " البراذعي" من فقهاء القيروان في كتابه المسمى بـــ "التهذيب"،وألف "ابن يونس" كتابه "الجامع" على غرار كتاب "النوادر والزيادات".

أما النوع النوع الثاني :فهو ما كان ردا على الشيعة وعلى عقائدهم الفاسدة ،وهو رد فعل لما ألفه دعاتهم في تبيض صورتهم من خلال مؤلفات "القاضي النعمان" خاصة وما جاء فيها من ادعاءات و تجميلات لهم.ومنها: كتاب " الإمامة " لابراهيم بن عبد الله الزبيري المعروف بالقلانسي (ت 359هـــ) ،وكتاب "الرد على الرافضة واللذان كانا السبب في محنته و سجنه من قبل الدولة العبيدية. كما ألف كتابا في الامامة و الرد على الرافضة ، فامتحنه القائم و

[1]نجم الدين الهنتاتي:المرجع السابق، ص 213.

[2]نفسه، ص 196.

حبسه.ومؤلفات الكاتب"إبراهيم بن محمد الشيباني"[1] من كتبه "سراج الهدى" في معاني القرآن و إعرابه، و"مسند في الحديث"، و "قطب الأدب" و"لقط المرجان" في الأدب الكريزي.

وجاءت هذه التآليف من قبل فقهاء المغرب لدحض افتراءات الشيعة، وتبصيرالعامة بدينهم واعتقادهم في أصحاب رسول الله ، لكن لا يعني هذا أن جل فقهاء المالكية ساروا نفس المسار في الرد على أباطيل العبيديين، بل أن هؤلاء استمالوا بعضا من الفقهاء و المؤلفين للكتابة في صحة نسبهم ،ومنهم:البراذعي صاحب "كتاب التهذيب في اختصار المدونة"،الذي ألف كتابا في صحة نسب العبيديين ،وهذا مما يدل أن الاتصال بين العبيديين و علماء المالكية لم ينقطع تماما كما ذهب إليه الكثير من المؤرخين بل استمر وبوتيرة متصاعدة خاصة بعد ثورة أبي يزيد الخارجي

كما نجد الكثير من الذين ألفوا في الميدان الفقهي و التاريخي و الفكري ، وتركوا لنا الكثير من المؤلفات،منهم: الكاتب الطبيب "ابن الجزار"[2] " ألف وحده ما يقارب من ثلاثين كتابا في الطب منها كتاب " طب الفقراء والمساكين" وكتاب " زاد المسافر وقوت الحاضر" ، كما ألف كتبا أخرى في التربية والصحة ، مثل كتاب " سياسة الصبيان وتدبيرهم " الذي يتناول فيه إشكالية التربية بين الطبع والتطبع إذ يرى أن" :العادة طبيعة ثانية فلموقع العادة هذا الموقع وجب

---

[1] إبراهيم بن محمد الشيباني أبو اليسر(317هـ-929م):ويعرف بالرياضي الكاتب الأديب، أصله من بغداد، واستقر في القيروان فترأس ديوان الإنشاء لبني الأغلب حتى انصرمت أيامهم، ثم ثبت في منصبه من قبل "عبيد الله المهدي" حتى وفاته.من كتبه "سراج الهدى" في معاني القرآن و إعرابه، و"مسند" في الحديث، و "قطب الأدب" و"لقط المرجان" في الأدب الكريزي.(ينظر: عمر فروخ:المرجع السابق، ج4 ، ص33).

[2] ابن الجزار القيرواني (ت 400هـ):كان ابن الجزار طبيبا بارعا ومؤلفا مكثرا في موضوعات مختلفة. كما كان أبوه وعمه طبيبين. فمن كتبه في الطب : زاد المسافر وقوت الحاضر ، أو هما كتابان فيكون" زاد المسافر" (في علاج الأمراض)-الاعتماد (في الأدوية المفردة) -البغية (في الأدوية المركبة) -العدة لطول المدة'كتاب كبير في الطب -قوت المقيم (عشرين مجلدا) طب الفقراء -البلغة في حفظ الصحة-كتاب في المعدة وأمراضها ومداواتها -كتاب في الفرق بين العلل إلى تشتبه أسبابها وتختلف أعراضها -وله أيضا مجربات في الطب .وكان ابن الجزار ينزه نفسه عن أن يأخذ أجرا من المريض أخذا بيده.فعل على باب داره سقيفة وأقعد فيها غلاما له اسمه رشيق ووضع بين يديه جميع الأدوية.فكان إذا فحص مريضا أرسله إلى رشيق ليأخذ منه الدواء ويدفع إليه المال.فكان بذلك قد أسس نظام الصيدلة بالفصل بين الطبيب والصيدلي.(ينظر: عمر فروخ:المرجع السابق،ج4 ، ص192-193).

أن يؤدب الأطفال ويعودوا بالأشياء الجميلة وتربيتهم فاضلة ليكونوا إن قبلت طبائعهم منفعة التأديب والتعاهد أخيارا فضلاء.[1]، وألف أيضا في التاريخ مصنفات منها: " التعريف بصحيح التاريخ " ومنها " أخبار الدول الفاطمية " وقد ترجم عدد من كتبه في الطب إلى اللغة اللاتينية ، وظلت معتمدة في جامعات أوروبا العالمية إلى عصر متأخر " [2].

والكتب الفقهية "لأبي بكر اللباد"[3] منها،كتاب الطهارة، كتاب الآثار و الفوائد في عشرة أجزاء.و "للقابسي "[4] ،الممهد في الفقه، المنقذ في شبه التأويل ، "أبو الحسن اللخمي""[5] له "التبصرة على المدونة" و "الفضل بن سلمة البجائي" ، له كتاب "جامع المسائل الموازية "، و"المستخرجة ". و" أبو جعفر الداودي المسيلي""[6] له عدة كتب منها: "شرح الموطأ" ، "الواعي

1ابن الجزار القيرواني، سياسة الصبيان وتدبيرهم، تحقيق محمد حبيب الهيلة، الدار التونسية للنشر، مطبعة المنار، تونس1968.ص

2عمر فروخ:المرجع السابق، ص33 .

3أبو بكر ابن اللباد (ت 333هـ): كانت منزلته في الفقه المالكي كبيرة ،ضربت إليه أكباد الإبل من الأمصار لعلمه بالذات عن مذهب أهل السنة . و كان فصيح اللسان، رقيق القلب، واشتهر بحفظه وسعة علمه، وجد في نشر المذهب المالكي بالمغرب، وسجنه الشيعة لغضبهم عليه، واستمر في نشاطه العلمي والديني إلى أن توفي سنة (333هـ). و أشهر مؤلفاته هي:فضائل مالك بن أنس، فضائل مكة.(ينظر:الذهبي : سير أعلام النبلاء الذهبي:سير أعلام النبلاء،تحقيق:شعيب الأرناؤوط، محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت،ج7، ط1419،9هـ،ص148).

4أبو الحسن القابسي(324هـ-403هـ) :علي بن محمد المعروف بابن القابسي، كان واسع الرواية عاما بالحديث و رجاله ، فقيها ، أصوليا ، متكلما، مؤلفا جيدا ، له تآليف كثيرة منها:الممهد في الفقه، المنقذ في شبه التأويل ، كتاب رتب العلم و أحوال أهله (ينظر: رابح بونار : المرجع السابق، ص181-182).

5أبو الحسن اللخمي:الفقيه الفاضل ذا حظ من الأدب حاز رياسة افريقية وباشر التدريس والإفتاء إلى أن سقطت القيروان على يد بنو هلال فارتحل الشيخ إلى صفاقس حيث واصل نشره للعلم توفي سنة(478 هـ) (ينظر: رابح بونار : المرجع السابق، ص166 وأيضا:القاضي عياض : ترتب المدارك ،ج2،ص 797).

6أبو جعفر أحمد بن نصر الداودي الأسدي(ت 402 هـ):من أئمة المالكية بالمغرب والمتسعين في العلم المجيدين للتأليف، كان فقيها فاضلا،عالما،متفننا،مؤلفا جيدا.و كان ينكر على معاصريه من علماء القيروان سكناهم في مملكة بني عبيد وبقائهم بين أظهرهم،. ألف كتابه النامي في شرح الموطأ والواعي في الفقه والنصحية في شرح البخاري والإيضاح في الرد على القدرية وغير ذلك (ينظر:ابن العماد الحنبلي:المصدر السابق، ج5، ص236.وأيضا:القاضي عياض : ترتب المدارك ،ج1،ص 497).

في الفقه" ، النصيحة في شرح البخاري. و"أبو الحسن المنمر""[1] له "الكافي في الفرائض" ... وغيرهم كثر.

و نورد طائفة من المصنفات التي ألفت في هذا العصر لنمثل بها حجم الحركة وتنوعها، و من خلال هذه النماذج التي نحاول أن نبين مدى سعة هذا الميدان، حيث تعطي لنا تصورا مقبولا للجهد العظيم الذي أخذ علماء المغرب على عاتقهم حفظ وصون الموروث الحضاري للأمة.

وقد اخترنا للوقوف على خصائص النثر التأليفي في هذا العصر بالنسبة للمؤلفات الفقهية والفكرية و التاريخية و التعليمية، كتاب "طبقات علماء إفريقية وتونس"لأبي العرب القيرواني. "والمهتم بالجمع والتدوين.وكتاب رسالة" افتتاح الدعوة" "للقاضي النعمان". ومن كتب الفقه و أصول الدين والدعوة المذهبية، و"متن الرسالة" "لابن أبي زيد" القيرواني في فقه مذهب شيخ الأئمة "مالك بن أنس"، وكتاب "تاريخ القيروان" للرقيق القيرواني الذي يعد أول مؤسس للكتابات التاريخية بالمغرب، وكتاب "الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين و أحكام المعلمين و المتعلمين" للقابسي، والذي يعد أبرز كتاب ينظم و ينظر للمنظومة التربوية في القرن الرابع الهجري ،وواضع أسس التعليم السليم.

1- مؤلفات القاضي النعمان:

يعد "القاضي النعمان" من أكثر المؤلفين غزارة في المغرب في القرن الرابع الهجري وله عديد المؤلفات في ما يخص التنظير للدعوة والمذهب الإسماعيلي الشيعي، ومنها:

كتاب" افتتاح الدعوة "وهو كتاب تاريخي يشتمل على أخبار الدعوة العبيدية منذ بداية تنظيم دعوتها في اليمن أي ظهورها إلى غاية عهد "المعز" وبالتحديد سنة (341هـ) وهو تاريخ إتمام الكتاب من قبل "القاضي النعمان" الذي يظهر فيه مؤرخا موهوبا، يعرف انتقاء معلوماته،

---

[1]ابن المنمر (348 هـ-432هـ): الفقيه المحدث ولد بمدينة طرابلس ،سافر إلى القيروان و أخذ عن ابن أبي زيد القيرواني و غيره .له أثر كبير في تسيير الحياة الثقافية والسياسية بطرابلس، صمد في وجه العبيديين وتعرض لمحن عديدة جعلهم يفشلون فشلا ذريعا في صده عن مذهب مالك . صنف كتبا في الحساب والأزمنة والفرائض،وأشهر كتبه" الكافي في الفرائض" المشتمل على علم المواريث الثلاثة: الفقه، الحساب، العمل (ينظر:الطاهر أحمد الزاوي :أعلام ليبيا، مكتبة الفرجاني ،طرابلس ،ط2،1971 ،ص123).

حيث يحوي أوسع التفاصيل وأدق الروايات حول أخبار وقصص العبيدين و أمرائهم وخصومهم.

وقد كتب "الدشراوي" في مقدمة تحقيقه للكتاب" وقد تبين أن الافتتاح إنما هو النص الأصلي للرواية التاريخية المتعلقة بظهور الدعوة الفاطمية بالمغرب،أي الرواية الأم التي تولدت عنها الروايات المتتالية...وهكذا استطعت أن أتتبع بمقارنة النصوص تسلسل السند التاريخي المتعلق بالدولة الفاطمية من عهد النعمان إلى عهد ابن خلدون وتأكد لدي أن المؤرخين من أهل السنة وثقوا برواية النعمان واعتبروه مؤرخا أمينا وأن كان مؤرخا رسميا لدولة الشيعة "[1].

ونقل عنه الكثير من الؤرخين السنة –من مثل المقريزي و الذهبي وابن عذارى... وغيرهم –أخبار قيام الدولة العبدية على يد الداعي الشيعي ،ومنها ما جاء في قوله: "فخرج من صنعاء مع أخيه" أبي العباس محمد"، وعرج على مكة في موسم الحج فتعرف على جماعة من قبيلة كتامة البربرية، فتقبلت دعوته وأمروه عليهم، وعاد معهم إلى المغرب"[2]، " ودخل منطقة "إيكجان" بأرض "كتامة" في منتصف شهر ربيع الأول سنة 288هــ "[3] وتمكن بدهائه وحسن تدبيره للأمور من الوصول بأغراضه إلى استمالتهم وذلك بإطرائهم،والإشادة بماضيهم ومكانتهم كي يلتفوا حوله،كما أنه استعمل الأحاديث النبوية لهذا الغرض،ولمعرفته بمدى تعلق أهل كتامة بالرسول وهذا ما تحقق له،فأقبلوا على دعوته،وتوارد عليه البربر من أنحاء مختلفة،وعظم أمره ،وكثر أتباعه باستمرار.

وقد شرع في تكوين المجتمع الذي سيجعله مركز انطلاق لنشر الدعوة على نطاق واسع،فمكن لنفسه عن طريق الجلوس لتعليم أمور الدين للكبار والصغار، " وقضى ما يقرب سبع سنوات في بث العقيدة وغرسها ،مكنه من سن مجموعة من القواعد لأتباعه التي يسيرون عليها في حياتهم العامة، والخاصة "[4].

---

[1] القاضي النعمان: افتتاح الدعوة ، ص29 .

[2] نفسه،ص30. (ينظر أيضا: المقريزي:المصدر السابق،ج1،ص25).

[3] القاضي النعمان:نفسه،ص72.

[4] القاضي النعمان: افتتاح الدعوة ،ص74.

كما تحدث عن زحف "أبا عبد الله الشيعي" على مدن المغرب الأوسط وكيف كان يأخذ المدائن شيئا فشيئا،وأتباعه يتقدمون سراعا في مواقعهم الحربية فقال: أخذ "ميلة".وبعدها توجه إلى "سطيف" ،فحاصرها مدة أربعين يوما،ثم تمكن من دخولها والاستلاء عليها.بعدها قصد "طبنة"،واستطاع دخولها .وقد حاول ذلك من قبل فلم يستطع وبعد فتحها توجه إلى "بلزمة" التي طرقها من قبل عدة مرات ، ولم يتمكن منها .رغم أنه استخدم سياسة الأرض المحروقة، كي يضعفهم اقتصاديا، ودام ذلك ثلاث سنوات متتالية، حتى انقطع الطعام عنهم، ولم يكتفي بهذا بل رمى المدينة بالنار، و أخيرا تمكن من دخولها في آخر ذي الحجة سنة 293 هـ "[1].

وقد جمع النعمان مادة كتابه مما سمعه وحضره طوال فترة عمله في البلاط العبيدي عن أمراء بني عبيد، فقد اقتصر دوره على تسجيل ما سمعه عن أمرائه.كما أن المؤلف اعتمد على تفصيل الكتاب إلى اثنان وأربعين فصلا يبتدئ كل منها بكلمة (ذكر). كما بين المؤلف في غير مرة مدى فضل الأمير المعز في تنقيح ومراجعة هذه الكتب والإدلاء بوجهة نظره قبل الأخذ بها من قبله.

و إذا أردنا كشف أساليب الكتابة في هذا الكتاب، وطرائقه في التعبير، فلا بد لنا أن نتبع المقدمات و الأخبار التي يشير إليها مثلا في مقدمة الكتاب،يقول:" الحمد لله، مؤيد الحق، وناصر أوليائه، ودامغ الباطل ومذل حزبه، وهو أصدق القائلين:﴿ فإن حزب الله هم الغالبون ﴾[2].وإن جندنا لهم المنصورون وأن الأرض يرثها عبادي الصالحون...الذي ختم بنبوة "محمد صلى الله عليه وسلم "نبوة النبيين وبرسالته رسالة المرسلين، وأبقى الإمامة في ذريته وعقبه إلى يوم الدين ،إكراما له وإعزازا لدينه ،من قطعه بملة،أو نسخة بشريعة ،وتكفل لأهله بالغلبة والتمكين و التأييد والإعزاز والتحصين،ولم يخل الأرض من إمام فيها للأمة،وقائل بالحق وقائم بالحجة،وأن تغلب فيها المتغلبون واستتر للتقية الأئمة المستحفضون... " [3].

---

[1] نفسه،ص135–205. (ينظر أيضا:ابن الأثير:الكامل في التاريخ،ج8،ص103–136،ابن عذارى:البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب،د تح،كوليج الآداب، مكتبة صادر، مطبعة المناهل ،د ط،،د ت،ج1،ص141).

[2] المائدة: الآية 56.

[3] القاضي النعمان: نفسه ،ص254.

ويقول أيضا في عبيد الله المهدي:"...فلم يحاول أمير المؤمنين –بحمد الله كثيرا – عسيرا إلا يسره الله ، ولا صعبا إلا ذلله، ولا وعرا إلا سهله ، فأصبحت الكلمة به مجتمعة والألفة متصلة ، والدهماء ساكنة ، و قواصي الأرض وأدانيها منه آمنة ووليه غزيرا ممنوعا وعدوه ذليلا مقموعا ، فكل من قدح بزنده واحتطب في حبله فمحكوم له بالنصر ومقضي له بالظفر... وكل من أوقد عليه نار الحرب أحرقته بنارها، وكلمته بأظفارها... "[1]. وفي أسلوب متميز،يقول :"... من قطعه بملة، أو نسخة بشريعة، وتكفل لأهله بالغلبة والتمكين و التأييد والإعزاز والتحصين، ولم يخل الأرض من إمام فيها للأمة... "[2]. و التي تصور لنا هذا الأداء المولد من فكر وقاد رزين، وعن مراجعات واحتكام. وعند التوقف قليلا عند ما يعرض أخبار الأمراء كقوله عن استعداد أهل القيروان لاستقبال عبيد الله المهدي:"...تضاعف سرور الأولياء وانقطعت الشناعات، وذهب الإرجاف، واستعد الناس وتأهبوا للقائه وتطلعت أعينهم نحوه واستشرفت أنفسهم إليه وإلى قدومه ... "[3].

من خلال هذه النصوص نجدها أنها تغرف من معين واحد–طبعا لأنهما لمؤلف واحد وفي مؤلف واحد–،حيث استخدام السجع والتنغيم كان واضحا، واستخدم البلاغة في هذا المدح كما أننا وجدنا الكتاب في أغلبه ذا مضمون موضوعي ذو فائدة تاريخية للفترة،عرفنا من خلاله عن أمراء بني عبيد و أوصافهم و سلوكا تهم، ويمكن أن نصنفه ضمن كتب السيرة للعهد العبيدي، بل ويعتبر المصدر الرسمي لتاريخ الدولة العبيدي ولا يستغني عنه أي دارس لهذا العهد وبذلك فالنعمان قد أرخ للفترة. وقد برهن فيه على إلمامه بالثقافة المتنوعة وقوة ذاكرته، ويعود الهدف الأسمى من وراء هذا المؤلف وغيره،هو وضع لبنة للتاريخ العبيدي وتأصيل هذه الأخبار والقصص لتوضع بين يدي كل باحث .

والقول نفسه عن كتاب "المجالس والمسايرات" الذي لا يعتبر كتاب تاريخ ولا كتاب سيرة فقط كما أشار النعمان في مقدمته،بقوله:"...ثم رأيت وجوها من الحكم والعلم والآداب والمعرفة تنفجر عن منطقه وتندفع من ألفاظه وتشير عن رمزه وإشارته، لا تجري مجرى السير التي

[1]القاضي النعمان: افتتاح الدعوة ، ص256.

[2]نفسه ،ص225.

[3]نفسه، ص255.

صنفتها، ولا تدخل في أبوابها التي الفتها على ما في تلك السير من الحكمة والعلم والمعجزات...فرأيت إفراد هذه في كتب تشبهها وتليق بها...وأن أذكر ما سمعته من المعز من حكمة وفائدة وعلم ومعرفة عن مذاكرة في مجلس أو مقام أو مسايرة... "[1]. فهو كتاب عقيدة و أدب أيضا.

ومما يزيد في الأهمية التاريخية لهذا الكتاب أن النعمان كان حريصا على تسجيل مادته إثر كل مجلس مباشرة ويتحرى في نقل ما ينقل حتى يأتي بلفظ المعز كما ورد على لسانه،وفي هذا يقول بعد حضوره مجلس من مجالس المعز:"...و تخوفت إن أنا انصرفت إلى مجلس الحكم أن أنساه أو أخل بأكثره لشغب الخصوم وكثر الكلام فاستأذنت أمير المؤمنين...وانصرفت وأنا أستبعد المنزل وأتذكر ما جرى في المجلس، فما هو إلا أن وصلت إلى منزلي...وجلست أتذكر المجلس ما حفظت منه شيئا حتى أتيت على ما حفظته من ذلك ، فأثبته في هذا المجلس وأرجو أني قد بلغت منه جماع ما كان فيه واتيت على جملة من لفظه وجمعت معانيه إن شاء الله"[2].

وإذا كان النعمان قد وضح خطة العمل في هذا الكتاب، وحدد مادته ومحتواه ومرتبته من الوثوق باعتبار توخيه التسجيل المباشر أولا ، ثم مراجعة المعز لهذه المادة ، فقد ظل التاريخ الذي توقف فيه مبهما نظرا لأن صفة التأريخ لم تجيء في هذا الكتاب إلا بصورة عرضية، وقد ذكر بعض الأحداث التي يمكن التوثق من تاريخها، مثل:

-أسر ابن واسول واستقدامه المنصورية ، وذلك سنة 348 هـ [3].

-الإعذار الجماعي سنة 351هـ[4].

و فيه إشارات تاريخية كثيرة لفتنة "أبي يزيد" التي دامت مدت القائم والمنصور، وعن خصومات المعز مع الدولة الأموية بالأندلس ، ومختلف الثورات التي قامت في المغرب ،وذكر لمختلف معارك المعز مع الروم،كما نجد فيه صورا للصعوبات التي لقيها العبيديون في بسط نفوذهم المذهبي على المجتمع المغربي السني، ولم تستقر دعائمه إلا بقوة الأنصار الكتامين الذين

---

[1]نفسه ، ص47.

[2]القاضي النعمان: المجالس و المسايرات، ص224.

[3]نفسه،ص217 .

[4]نفسه،ص553 .

أشاد المعز مرارا بفضلهم وفضل أسلافهم.كما أن هذا الكتاب يبين لنا مكانة "القاضي النعمان" في الدولة العبيدية ومختلف وظائفه الدينية والمذهبية والسياسية بذكر تواريخ هذه المناصب .

أما ما ورد فيه من أخبار عن الأئمة فهي مبثوثة في كلام المعز أو في ذكريات النعمان على طول صفحات الكتاب، وما قيل في نسب العبيديين وأصلهم، ومسائل في الظاهر والباطن فكان الأكبر واحتوى أيضا على معلومات تفصيلية عن أمراء الدولة العبيدية وهم: " المهدي والقائم والمنصور والمعز وسياساتهم الداخلية والخارجية وعن طباعهم ومعاملتهم للناس مع نماذج كثيرة من حكمتهم ومواعظهم"[1].

وإلى جانب هذا فهناك مصنفات أخرى لا تقل أهمية عن سابقاتها ككتاب "الهمة في آداب اتباع الأئمة ""الذي تكمن أهميته في أنه يعرف بحدود المذهب العبيدي الشيعي ، ويشرح واجبات الأتباع نحو الدعاة والأئمة ويبين حقوقهم المالية حيث يصر على وجوب دفع الخمس لإمام العصر، وذلك قربى لله وللرسول، ويتصرف فيه كما يشاء، وخاصة في فقراء أهل بيته، " والمقصود بالخمس هنا هو خمس مكاسب أهل المذهب في كل عصر، تدفع إلى إمام ذلك الزمان مع زكاة الأموال"[2].

إضافة إلى ما سبق فللمؤلف كتاب آخر هو "دعائم الإسلام" وهو أهم مصنف في الفقه الإسماعيلي ، يقول النعمان:" أنه ألفه بطلب من المعز ، ولم يذكر في مقدمة الكتاب طلب المعز هذا ، بل اكتفى بذكر الدعائم السبع التي بني عليها الإسلام في نظر الإمام جعفر الصادق، وهي التي أوحت إليه بعنوان" هذا الكتاب الجامع المختصر الذي يسهل حفظه ويقرب مأخذه" ولا شك انه أصبح أهم كتاب في الفقه الشيعي "[3].إلى درجة أن المعز حين أبقى القاضي السني على قضاء "مصر"،" اشترط عليه أن يحكم بفقه آل البيت كما دون في الدعائم ، وكذلك اشترط الخليفة الحاكم على دعاته أن تكون فتاويهم حسب كتاب الدعائم ، وإلى اليوم لازالت طائفة الإسماعيلية المتبقية في الهند وباكستان والخليج العربي تستمد منه فتاويهم "[4].

---

[1]نفسه ،ص18 .

[2]نفسه، ص15.

[3]أبو العرب : المصدر السابق ، ص14.

[4]نفسه، ص14.

من خلال هذا تبين لنا معالم النثر التأليفي العبيدي بصفة عامة الذي يتميز، بالسهولة واليسر في التعبير،والرقة والعذوبة في الألفاظ المختارة بكل عناية،و الاسترسال في الصياغة، وفي نصوصهم صنعة يبذل فيها المؤلف جهدا ويصبغونها بالطابع الديني وتضمينها آيات قرآنية تبين مدى إلمامه بالموروث الديني الذي هو أساس دعوته .

2-طبقات علماء إفريقية وتونس لأبي العرب:

إذا تحدثنا عن مؤلف آخر يكون بلا شك "أبو العرب "العالم السني وهو الذي شهد بأسف التغيرات الفكرية و المذهبية التي حلت بالمنطقة ،وعايش الصراع الدموي الذي أتى على كثير من علماء المغرب ممن حافظ على آرائه السنية ، لذلك لما ثار"أبو يزيد صاحب الحمار" على العبيديين انضم إليه "أبو العرب" مع صفوة من علماء القيروان، وقد مدحه المؤرخون بالقول أنه كان ثقة عالما بالسند والرجال من أبصر أهل وقته بها ، كثير الكتب حسن التقييد،وكانت له مكتبة تحتوي على ثلاثة آلاف وخمسمائة كتاب خطها بنفسه ،كما اشتهر بين مواطنيه بأنه رافع لواء التاريخ بإفريقية، وقد ألف كتب كثيرة كما ذكر المؤرخون إلا أن أغلبها مفقود ومنها:"طبقات علماء إفريقية وتونس"،"عباد إفريقية "،" فضائل مالك" ،"فضائل سحنون "،"كتاب في الصلاة "،"ثقات المحدثين وضعافهم" "التاريخ سبعة عشر جزءا" [1].

وقد ارتأينا أن نختار من بين هذه المؤلفات كتاب "طبقات علماء إفريقية وتونس" ،والذي حققه المحققان"علي الشابي ونعيم حسن اليافي " وهو كتاب للطبقات،و المحققان يشيران إلى بعض من تلك الحركة الفكرية التي شهدتها القيروان في القرن الرابع الهجري خاصة ما تعلق بالاعتزال و الفرق الكلامية بقولهما" :وقفوا "أهل الجدل" عند ″أبي سعيد بن الحداد″ صاحب المجالس المعرفة ومحمد بن الفتح الرقادي الذي.. كان يذهب مذهب الجدل والمناظرة والذب عن السنة وأهل المدينة وقد اعتبره عياض من مشاهير المتكلمين والنظار بالقيروان. كما وقفوا عند تلك المناظرات التي كانت تقوم بين العلماء في الفقه والكلام. كالمناظرة التي دارت بين ابن طالب ومحمد ابن محبوب في الفقه أو التي دارت بين ابن محبوب وأحد العراقيين بمحضر ابن طالب "في الاستثناء بالله الذي يزيل الكفارة ولا يزيل الطلاق"، أو كتلك التي قامت بين ابن

[1] نفسه، ص 27 .

محبوب وأحد المعتزلة في القدر بحضور أبي عبد الله الرقادي ونتج عنها أن ابن محبوب وضع كتبا مناقضة لقول المعتزلة [1]." لكن يعترف المحققان بأن القيروان لم تعرف ميلاد فيلسوف بالمعنى الحقيقي للكلمة في حجم ابن سينا وابن الهيثم والبيروني لأن الناس فيها لم يكونوا يفرقوا بين الفلسفة والمروق" لذلك تراهم يتهافتون على العلوم النقلية ويحاولون التأليف فيها واجترارها ويرفضون كل نظر عقلي أو نزعة فلسفية وليس غريبا أن نجدهم يعتبرون المعتزلة كفارا والشيعة والخوارج مارقين ثم ليس غريبا أن نجد عندهم صوت الشعر خافتا وصوره باهتة لأنهم يعتبرون الخيال والإمعان فيه ضربا من التحلل" [2].لكن مع نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس حتى ازدهرت شتى العلوم و تفتقت قرائح المغاربة في شتى صنوف العلم و الأدب.

و الكتاب يحوي مجموعة من التراجم لعلماء القيروان و تونس ،ولقد بدأ كتابه بذكر ما جاء من الفضائل في إفريقية ،وقد أورد أحاديث للرسول (صل الله عليه وسلم)،لكننا نشك في صحتها نظرا أن محققي الحديث المحدثين لم يوردوها ولم يخرجوها لنا،ومن أمثلة هذه الفضائل :قوله:" حدثني فرا بن محمد،قال :حدثنا موسى بن معاوية –الصماديجي–،عن أبيه معاوية الصماديجي، عن عبد الرحمان بن زياد بن أنعم نعن أبي عبد الرحمان الحبلي ،قال قال رسول الله(صل الله عليه وسلم):يحشر من إفريقية قوم وجوههم مثل القمر ليلة البدر"[3].

كما يورد أبو العرب– لكي يعظم منزلة القيروان ويجعلها أم المدائن وقبلة ثانية للمسلمين– حديثا للرسول يؤكد فيه قداسة هذا الموطن وربما يكون الحديث مرسلا أو موضوعا، إذ يرى بعد العنعنة":ليأتين ناس من أمتي من افريقية يوم القيامة وجوههم أشد نورا من القمر ليلة البدر [4].

ثم يذكر من دخل إفريقية من الصحابة ومن رآه(ص) وإن لم يكن له صحبة والتابعين،وممن ذكرهم، "حيث يقول أبو العرب : ودخل إفريقية عبد الرحمان بن صبيحة، وقد رأى النبي(ص)

---

[1]أبو العرب : المصدر السابق ،ص21.

[2]نفسه،ص20.

[3]نفسه،ص45 .

[4]نفسه،ص44.

وعمرو بن عوف المزني ،وقال،وقد ذكر بعض المحدثين أن عقبة بن نافع لما دخلها كان معه خمسة وعشرون من أصحاب النبي(ص) "(1).

كما قسم المؤلف هؤلاء الداخلين إلى طبقتين ،طبقة جل التابعين الذين دخلوا إفريقية،وأورد كنهم أبرز أبناء الصحابة ،ومما قاله:" قال محمد بن أحمد بن تميم دخل إفريقية من جلة التابعين:معبد أخو عبد الله بن العباس بن عبد المطلب وعاصم بن عمر بن الخطاب،وعقبة بن نافع الفهري ،وعبيد الله بن عمر بن الخطاب ،وزهير بن قيس البلوي... "(2). ويقول عن الطبقة الثانية ممن كان بإفريقية ،و يذكر منهم :" زياد بن أنعم المعافري ،لقي الصحابي أبا أيوب الأنصاري وغزا معه وروى عنه ابنه عبد الرحمان، ويزيد بن أبي منصور من أهل إفريقية... "(3)

ويقول عن الطبقة الثانية ممن دخل إفريقية أو كان بها من أهلها و يذكر منهم:" قد حدثني فرات بن محمد أن "عمر بن عبد العزيز" أرسل عشرة من التابعين يفقهون أهل إفريقية منهم ، موهب بن حيى المعافري، وأقام بإفريقية حتى مات بها وحبان بن أبي جبلة...وإسماعيل ابن عبيد مولى الأنصار ،وهو الذي يقال له تاجر الله ... "(4).

ويذكر من علماء القيروان وتونس طبقات حسب روايتهم عن الطبقات السالفة الذكر، وفي هذا يقول:" كان بتونس جماعة من أهل العلم والفضل وأنا ذاكر إن شاء الله من علمته منهم ، أبدأ منهم بذوي الأسنان ثم الذين يلونهم وبالله التوفيق"(5).ويذكر كان بتونس "خالد بن أبي عمران التجيبي" .سمع من القاسم ابن محمد بن أبي بكر ومن سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وله كتاب عنهم كبير ،حدثني به عبد الله بن أبي زكرياء الحفري عن أبيه عن عبد الملك بن أبي

---

[1] نفسه،ص77-78 .

[2] أبو العرب : المصدر السابق ،ص79-80 .

[3] نفسه،ص87.

[4] نفسه،ص84-85 .

[5] نفسه، ص212 .

كريمة عن خالد بن أبي عمران قال: سألت القاسم بن محمد .وكان خالد ثقة مأمونا قال –أبو العرب–، قال فرات بن محمد إن خالد بن أبي عمران ما نشك في أنه كان مستجابا "[1].

وعموما فقد جاء الكتاب في أسلوب علمي سهل وهذا ما نجده في جل الترجمات ،من مثل قوله: "أبو الحسن علي بن زياد من أهل تونس كان ثقة مأمونا فقيها متعبدا بارعا في الفقه ،سمع عن "مالك بن أنس" ومن "سفيان الثوري"..."[2] وفي ترجمته للإمام سحنون:"قال أبو العرب نص إنشائي لا رواية: "...ومن شيوخ أهل إفريقية أبو سعيد سحنون بن سعيد بن حبيب التنوخي من صليبه العرب و أصله من الشام من أهل حمص ، و أبوه سعيد قدم مع الجند ، وهو من أهل حمص ، كان (سحنون) جامعا للعلم فقيه البدن؟اجتمعت فيه خلال ما اجتمعت في غيره، الفقه البارع و الورع الصادق و الصرامة في الحق و الزهادة في الدنيا و التخشن في الملبس و المطعم و السماحة و الترك .لا يقبل من السلطان شيئا و كان ربما وصل بعض إخوانه بالثلاثين دينارا ، و كان سحنون أول من شرد أهل الهواء من المسجد الجامع ، و كان فيه حلقات للصفرية و الاباضية (و المعتزلة يتناظرون فيه) و يظهرون زيغهم ، و قد كان حافظا للعلم ، لم يكن يهاب سلطانا في حق يقيمه...وولي القضاء سنة أربع و ثلاثين و مائتين، و هو يومئذ ابن أربع و سبعين سنة، و لم يأخذ على القضاء أجرا، و توفي رحمه الله، يوم الثلاثاء تسعة أيام مضت من رجب سنة أربعين و مائتين"[3].

ويتميز أسلوب المصنف بالسهولة واليسر في التعبير ،و مضمون موضوعي واضح يعرفنا من خلاله بعلماء المنطقة منذ القرن الهجري الأول إلى غاية علماء عصره الذين أرخ لهم ، وقد أفاد الأجيال بحفظه لسير وتراجم الأجداد، ولعل المؤلف سعى من وراء هذا الجهد إلى وضع موسوعة تأريخية لفئة من أبرز علماء المنطقة ليضعها بين يدي الأجيال التي تلقى على عاتقهم الحفاظ على إرثها الحضاري.

و يعتبر الكتاب من أهم الكتب التاريخية للفترة التي تناولها، و بالترجمات التي أوردها للكثير من العلماء و الفقهاء...والتي عرفت باضطرابات و قلاقل سياسية و مذهبية و صراعات

[1] نفسه، ص213.

[2] نفسه، ص73.

[3] عمر فروخ : المرجع السابق،ص228–229.

ثقافية ،مع ما صاحبه من أحوال اجتماعية و اقتصادية متردية و تأرجح الثقافة بين التمسك بالمذهب المالكي وما طرأ على المنطقة من تحول عقدي ومذهبي.

- الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين و أحكام المعلمين و المتعلمين للقابسي:

كتاب الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين "لعلي بن محمد القابسي القيرواني المالكي[1]، ألفه في أواخر القرن الرابع الهجري، وهو يعتبر كتابا مكملا لكتاب ابن سحنون "آداب المعلمين " ويعتبر شارحا ، ومرتبا لكثير من أبوابه ومسائله ، مع فوائد مهمة ، وزيادات لا يستغني عنها كثير من المعلمين والمتعلمين.

اعتمد القابسي في رسالته هذه على كتاب "آداب المعلمين" لابن سحنون"، في صياغة تكاد تكون مماثلة لصياغة الفقرات المنقولة من ذلك الكتاب . غير أنه كان حريصا على النسق المنطقي في بناء النص وفي تسلسل أبوابه وفصوله، فجمع في المساق المتماسك ما كان مبعثرا في كتاب "آداب المعلمين"، وأضاف إليه شروحات وتعليقات نفيسة. كما تظهر هذه الرسالة خصوصا التفاصيل الثمينة عن العقوبة في الكتاتيب بإفريقية في القرن الرابع هجري، ومناهج التعليم وبرامجه في ذلك العصر، وأحكام المعلمين والمتعلمين، وإرشادات تربوية و قضائية جد مفيدة [2].

---

[1]أبو الحسن القابسي(324-403هـ): أبو الحسن علي بن محمد بن خلف المعافري،المعروف بأبي الحسن بن القابسي. فقيه مالكي، حافظ، كان من رجال الفقه والأصول والكلام، ومصنفا يقظا دينا تقيا، وكان ضريرا، وهو من أصح العلماء كتبا. كتب له ثقات أصحابه، وضبط له بمكة صحيح البخاري، وحرره وأتقنه . أخذ القابسي القراءة عرضا بمصر عن أبي الفتح بن بدهن، وأقرأ الناس بالقيروان دهرا، ثم أعمل نفسه في الفقه والحديث حتى برع فيهما، وصار إمام العصر، أثنى عليه بأكثر من هذا أبو عمرو الداني.من تصانيفه: الممهد في الفقه؛ أحكام الديانات؛ المنقذ من شبه التأويل؛ المنبه للفطن عن غوائل الفتن؛ ملخص الموطأ؛ المناسك؛ الاعتقادات؛ رسالة تزكية الشهود وتجريحهم؛ الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين والمتعلمين؛ رسالة الذكر والدعاء، وغيرها من الكتب.توفي بمدينة القيروان، وبات عند قبره خلق من الناس، ورثته الشعراء.(ينظر:القابسي: الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين والمتعلمين، تح: أحمد خالد، الشركة التونسية للتوزيع،ط1، 1986، ص7-17).

[2] القابسي:المصدر السابق،ص 4.

ومادة الرسالة مكونة من أجوبة القابسي عن أسئلة طرحها عليه أحد مخاطبيه [1]، ويقول " القابسي: "قد سألني سائل، و ألح علي أن أجيبه عن مسائل كتبها و شرط فيها شروطا ، واعتذر من إلحاحه علي، أنه مضطر إليها و راغب في فهم ما تعذر عليه من فهمها، إذ هي تحل عليه وتنزل به فيرهبها ،ويخشى القدوم عليها ،ويخاف ضيق الإمساك عنها ،لبعده ممن يصلح أن يستعان به فيها ، فعذرته بعذره، و أشفقت من التوقف عنه، على وجل مني في مجاوبته عن كل ما سأل عنه "[2].

والكتاب في أغلبه مجموعة فتاوى و بذلك فهو يكتسي أهمية قضائية و مهنية ،كما يجمع مبادئ التربية الإسلامية المتبعة في الكتاتيب، بالإضافة إلى ما احتواه من نظرات ثاقبة تستحق مقاربة جديدة نفسانية على ضوء دراسة بيداغوجية ،كما أنه يستحق تحليلا آخر للمفاهيم المذهبية الواردت فيه.

و الخلاصة أنه تكفي إطلالة سريعة على فهرس موضوعات الكتاب لمعرفة أهميتة و قيمتة التعليمة، والفوائد النفيسة التي بين طياته.وللرسالة ثلاثة أبواب كبرى :

جاء الباب الأول في تفسير الإيمان و الإسلام و الاستقامة و صفة الصلاح ، كما يقدم القابسي فيه أصول التعليم الأخلاقي في الإسلام، و يرسم للمعلمين خطا سلوكيا مستوحى من المبادئ الدينية الرامية إلى تمسك المسلمين بعقيدتهم السليمة عقيدة أهل التوحيد أهل السنة و الجماعة ، مؤكدا أن خير من يقتدى به هو النبي محمد "صل الله عليه و سلم "، ويدعو أولياء التلاميذ إلى تعليم أبنائهم الصغار القرآن الكريم ،ويجيب مخاطبه فيفصل طويلا عن أسئلة طرحها عليه في فضائل القرآن ،وما الفضل و الكرم لمن علمه و تعلمه وعن آداب حامله، وما يصحبه القرآن ،ومن ضيعه حتى نسيه ، ومن يعلم الإناث ...و يجعل القابسي من تعليم القرآن غرضا هاما لتعليم الصبيان، فالقرآن ضرورة لمعرفة الدين، والصلاة لا تتم إلا بقراءة شيء من القرآن وهي مفروضة على المسلمين؛ لأنها ركن من أركان الدين، وهو يتفق مع غيره من علماء المسلمين في أن الغرض الأول من تعليم الصبيان هو معرفة الدين علما وعملا، أو نظرا وتطبيقا وممارسة، يقول:"...وقد أمر السلمون أن يعلموا أولادهم الصلاة ،والوضوء ويدربوهم

---

[1] نفسه،ص 6.

[2] نفسه، ص 58.

عليها ، ويؤدبوهم بها ليسمنوا إليها و يألفوها، فتخف عليهم إذا انتهوا إلى وجوبها عليهم،وهم لا بد لهم إذا علموهم الصلاة، أن يعلموهم من القرآن ما يقرؤنه فيها ..." [(1)].وغيرها من المسائل الواردة في هذا الباب

والملاحظ في كل ذلك، حرصه الكبير على تقديم العلوم الدينية في التعليم الابتدائي على كل العلوم الأخرى بإفريقية في القرنيين الرابع و الخامس هجريين، لما لها من وقع على الصبية و على الناشئة طول عمرها ،وهو ما ذهب إليه "ابن خلدون" في نقله لصورة التعليم في عصره قائلا :" أما أهل افريقية فيخلطون في تعليمهم للولدان القرآن بالحديث في الغالب و مدارسة قوانين العلوم و تلقين بعض مسائلها ، إلا أن عنايتهم بالقرآن ،واستظهار الولدان إياه ، ووقوفهم على اختلاف رواياته و قراءاته ،أكثر مما سواه، وعنايتهم بالخط تبع لذلك"[(2)].

ويتعرض القابسي لقضية لم ترد عند "ابن سحنون"، وهي قضية القول بضرورة تعليم جميع الصبيان، فتعليمهم واجب وجوبا شرعيا، وهو يدلل على هذا الوجوب بوجوب معرفة القرآن والعبادات، وأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب؛ ولذا كان التعليم واجبا؛ لأنه شرط معرفة القرآن والعبادات، وهكذا نجد بذور فكرة التعليم الإجباري الإلزامي عند القابسي، وقد كان صريحا كما كان جريئا فيها.

كما يذهب القابسي إلى تحيد منهجه في الدراسة و التدريس و الأهداف المرجوة من ذلك ، وأن الغاية الدينية هي التي تحدد العلوم التي يدرسها الصبيان و الدين أصل الأخلاق وهو أساس التربية الخلقية في الإسلام؛ لذلك يجب أن يعمل التعليم على تهذيب الأخلاق، وأساس الأخلاق عنده الضمير الخلقي الحي المستمد من الدين الذي يعتمد على ما ورد عن النبي –صلى الله عليه وسلم– عندما سئل عن الإحسان فقال : "أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فهو يراك" ويكون اكتساب الأخلاق عن طريق التعليم والقدوة؛ ولذلك كانت سيرة الرسول "صل الله عليه وسلم" ذات فائدة تعليمية خلقية عظيمة قال تعالى : {وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا" [(3)].وقال تعالى : "لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم

---

[1]القابسي :المصدر السابق ، ص 92.

[2]ابن خلدون: المقدمة ، ص 538.

[3]الحشر : الآية 7.

الآخر" [1]، وأول هذه العلوم التي تقوم السلوك و الأخلاق : حفظ القرآن وقراءته وكتابته ونطقه وتجويده، وتعليم الحساب والمواد الأخرى –في نظره– ليس بشرط لازم. يقول القابسي "وينبغي تعليمهم الحساب ، وليس ذلك بلازم له إلا أــن يشترط عليه ذلك ، وو كذلك الشعر و العربية ، والغريب و جميع النحو ، وهو في ذلك متطوع ..." [2].

وفي الباب الثاني و في فصله الأول يجيب المؤلف عما كان يشغل بال سائله فيما يأخذه المعلمون على المتعلمين و سنة ذلك، و ما يصلح أن يعلم للصبيان مع القرآن، وما على المعلم أن يعلمهم إياه من سائر مصالحهم، وما لا ينبغي له أن يأخذ منهم عليه أجرا إن هو علمهم إياه على انفراد ، وهل يعلم المسلم النصراني، أو أن يترك النصارى يعلمون المسلمين ،وهل يشترط المعلم لحذقه القرآن أجلا معلوما؟.

وفي الفصل الثاني يذكر سياسة معلم الصبيان و قيامه عليهم، وعدله فيهم، و رفقهم به، وهل يستعين بهم فيما بينهم ، أو لنفسه ، وهل يوليهم غيره إن احتاج إلى ذلك، وهل يشتغل مع غيره معهم أو يشتغل له، وكيف يرتب لهم أوقاتهم لدرسهم و كتابتهم، وكيف محوهم ألواحهم ، وأوقات بطالتهم لراحتهم، وحد أدبه إياهم ، وعلى من الآلة التي بها يؤدبهم ، والمكان الذي فيهم يعلمهم، وهل يكون في المسجد،وهل يشترك معلمان أو أكثر في ذلك، وهل يدرس الصبيان مجتمعين باختلاف مستوياتهم، وهل يلمسون المصاحف و هم على غير طهر ...؟

أما الباب الثالث فهو يحوي فضلا عن التفاصيل التشريعية و المهنية المتعلقة بأجرة المعلم و الهدايا المباحة، ومبادئ تربوية طريفة و مفيدة جدا وتتعلق بالعقوبات المسلطة على التلاميذ في الكتاتيب في هذه الفترة الزمنية من تاريخ المغرب. ويختم كتابه ببحث في القراءات القرآنية المتفق عليها شرعا.

وقد اشترط القابسي في المعلم معرفة القرآن والنحو والشعر وأيام العرب إلى جانب شخصيته الدينية وسمعته الطيبة، وهو بهذا يتفق مع ابن سحنون ويتفق معه أيضا في مطالبة المعلم بعدم الانشغال عن تعليم الصبيان، وعدم طلب الهدايا منهم أو إرسال تلاميذهم في قضاء حوائجهم والحصول على طعام باسمهم في مناسبات الأفراح أو إحضار الطعام والحطب من

---

[1] الأحزاب : الآية21.

[2] القابسي:المصدر السابق ، ص113.

بيوتهم، ولا يجوز للمعلم أن يترك عمله للصلاة على الجنازة أو السير فيها، أو عيادة المرضى أو قبول شهادة البيع والنكاح، وربما من هنا جاءت فكرة عدم قبول شهادة المعلم الصبية لا لنقص فيه، ولكن؛ لأنه منهي عن الانشغال عن التعليم وهو واجبه بأعمال أخرى

كما و أن القابسي قد ضمن نصائحه بعضا من المواقف الطريفة لبعض السلوكات التي نهى عنها في العملية التعليمية ، و التي قد نسمع عنها فيومنا هذا ،كنصيحته للمعلم بتوخي الانصاف و البعد عن المغريات المادية في معاملة الصبيان و تعليمهم ، فها هو يقول: ومن حقهم عليه أن يعدل بينهم في التعليم و لا يفضل بعضهم على بعض و إن تفاضلوا في الجعل (الأجرة)،وإن كان بعضهم يكرمه بالهدايا و الأرفاق إلا أن يفضل من أحب تفضيله في ساعة راحته بعد تفرغه من العدل بينهم"[1].

أما يخص العقوبات التأديبية للصبيان في الكتاتيب، فقد أقر القابسي مبدأ عقاب الصبيان، لكنه يترفق معهم تمشيا مع روح الإسلام التي تتسم بالرحمة والعفو، وينزل المعلم من الصبي منزلة الوالد وطالبه بأن يكون رفيقا به عادلا في عقابه غير متشدد فيه، من الرفق ألا يبادر المعلم إلى العقاب إذا أخطأ الطفل، وإنما ينبه مرة بعد أخرى فإذا لم ينتصح لجأ إلى العقاب، وقد نهى القابسي عن استخدام أسلوب الحرمان من الطعام والشراب في العقاب، بل طالب من المعلم أن يترفق بالصبيان فيأذن لهم بالانصراف إلى تناول الغذاء من طعام وشراب، ثم يعودون. وهذا يعني أن الدراسة بالكتاب كانت تمتد إلى العصر.

كما نهى عن الانتقام في العقاب؛ ولذا نهى المعلم عن ضرب الصبيان في حالة الغضب حتى لا يكون ضرب أولاد المسلمين لراحة نفسه، وأشار القابسي إلى إتباع أسلوب الترغيب والترهيب في معاملة الصبيان؛ فأقر الضرب كعقوبة ويقول القابسي لسائله حول عقوبة الضرب "وأما سؤالك عما يتعدى به المعلم في ضرب الصبي ، فترقى إلى ماهو أكثر من الضربة ، فهذا إنما يقع من المعلم الجافي الجاهل ،وقد قدمت لك نهي المعلم عن ضرب الصبي وهو غضبان ، والضرب على التعليم إنما هو لخطأ الصبيان ، فيما يصلح أن يضربهم به ، غنما هي الدرة

---

[1] القابسي :المصدر السابق ، ص 27.

وتكون أيضا رطبة مأمونة لئلا تؤثر أثر سوء ،وقد اعلمت أنه يجتنب ضرب الرأس و الوجه فما لهذا أن يضرب بالعصا و اللوح"[1] .

أما ما يخص الإناث فإن الكاتب يخشى عليهن تعلمهن فن الترسل و الشعر في نظر القابسي ، أما الفتيان فلا يرى مانعا في تعلمهم الشعر و النثر، وأيام العرب و الحساب... و لكنها معارف تأتي في المرتبة الثانية ،كما يعترف القابسي بحق البنات في التعليم انطلاقا من أن التكاليف الدينية واجبة على الرجل والمرأة، ويورد شواهد قرآنية كثيرة في ذلك وهو بهذا يتفق مع روح الإسلام التي جعلت من طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة على حد سواء، إلا أنه ذهب إلى عدم الخلط بين الصبيان والإناث، لاعتبارات أخلاقية، وينبغي أن تعلم البنت ما فيه صلاحها ويبعدها عن الفتنة.وفي هذا يقول:" و أما تعليم الأنثى القرآن و العلم فهو حسن ومن مصالحها .فأما أن تعلم الترسل و الشعر وما أشبهه ، فهو مخوف عليها وإنما تعلم ما يرجى لها صلاحه ،ويؤمن عليها من فتنته ...وما خيف عليهن منه ،فصرفه عنهن أفضل لهن ،واوجب على متولي أمرهن فافهم ما بينت لك و استهد الله يهد و كفى بالله هاديا و نصيرا" [2].

كما أنه رأى أن تعليم التلاميذ الحساب شيء جيد فهو ينمي عقولهم ، ليس الأمر إجباريا بل اختياريا وبطلب من ولي التلميذ فقط ، و في هذا يقول : "و ينبغي له – المعلم – أن يعلمهم الحساب وليس ذلك بلازم له إلا أن يشترط عليه ذلك، وكذلك الشعر و الغريب و العربية وجميع النحو،هو في ذلك متطوع ولا بأس أن يعلمهم الشعر مما لا يكون فيه فحش ، ومن كلام العرب و أخبارها ، وليس ذلك بواجب.

كما أن نظام الدراسة التي أشار إليه القابسي يقوم على أساس الدراسة طول أيام الأسبوع باستثناء يوم الجمعة والنصف الثاني من يوم الخميس، ويخصص مساء الأربعاء وأول يوم الخميس للمراجعة والتدقيق من جانب المعلم للصبيان، وتكون الدراسة في أول النهار حتى الضحى مخصصة للقرآن الكريم، ومن الضحى إلى الظهر لتعليم الكتابة، وعند الظهر ينصرف التلاميذ لتناول الغذاء، ثم يعودون بعد صلاة الظهر؛ حيث يدرس الصبيان فيما يتبقى من نهار بقية العلوم كالنحو والحساب والشعر.

---

[1] نفسه ، ص 170 .

[2] القابسي :المصدر السابق ، ص95.

وعليه فهذا الكتاب التربوي قيم ضمنه القابسي منهجه التربوي التدريسي لأطفال المغرب في ذلك العصر وبقي لقرون عدة مرجعا للمنظومات التعليمية بالمغرب، فالقابسي من خلال كتابه ينقل القارئ إلى جو الكتاتيب والمدارس الابتدائية و المساجد ،ليبين لنا أن المهمة النبيلة للمعلم تتمثل في تلقين الأطفال القراءة و الكتابة، وقبل كل شيء تلاوة القرآن و حفظه، فدون طرائق التعليم و بين فيها قوة التأثير الديني ، فالصبيان ، يبدءون أولا بحفظ القرآن عن ظهر قلب، أما دراسة الشريعة و سائر العلوم الأخرى ونظرا لسعتها فإنها تقوم على الفهم لا الحفظ ،ويشتمل برنامج التعليم كما ضبطه على إعراب القرآن و الشكل و الهجاء و الخط و القراءة الحسنة بالوقف و الترتيل وضوابط القرآن، وحتى كيفية الجلوس و السلامة و الصلاة ،وكل ما يتعلق بها من أركان و سنن...وكل ما هو مرتبط بالعبادات وهذا ما يحصن الطفل و ينشئه على التربية القويمة و السلوك السليم ليكون فردا صالحا في الأمة.

فهذا هو البرنامج التعليمي التربوي الأنفع الذي رآه القابسي أنه ناسب للأطفال، إلا أن ابن خلدون يعارض هذا التوجه، وهذا البرنامج الشعبي البدائي و يرى أن النموذج الأندلسي هو الأنسب في البرامج و في هذا يقول :"أما أهل الأندلس فمذهبهم تعليم القرآن و الكتاب من حيث هو ــ وهذا هو الذي يراعونه في التعليم، إلا أنه لما كان القرآن أصل ذلك و أسه و منبع الدين و العلوم، جعلوه أصلا في التعليم، فلا يقتصرون لذلك عليه فقط بل يخلطون في اعليمهم للولدان رواية الشعر في الغالب، والترسل، وأخذهم بقوانين العربية و حفظها، وتجويد الخط و الكتابة. ولا تختلط عنايتهم في التعليم بالقرآن دون هذه، بل عنايتهم فيه بالخط اكثر من جميعها إلى أن يخرج الولد من البلوغ الى الشبيبة، وقد شدا بعض الشيئ في العربية و الشعر و البصر بهما و برز في الخط و الكتابة و تعلق بأذيال العلم على الجملة ... "[1].

غير أننا نرى أن ما ذهب إليه القابسي هو الأنسب للصبية قبل الدخول إلى المدارس بالحرص على تعليم القرآن و حسن تلاوته ،وتعلم العبادات و السلوكات التربوية التي تحضر الصبي للولوج الى عالم العلم بأريحية ، وسلامة النطق و حسن القراءة ، وحرصه على السلوكات والعبادات لينطلق في أخذ بقية العلوم بيسر ونهم.

[1] ابن خلدون: المقدمة ، ص 538.

ولقد أولى القابسي أهتماما بالغا لتدريس القرآن، ورأى ترجيح كفته على كفة أي مادة أخرى من مواد التعليم .لأن القرآن هو أصل الدين، وسار حذوه كل علماء المغرب لقرون عديدة إلا "ابن خلدون الذي يرى اسبقية تعلم اللغة على حفظ القرآن، فابن خلدون" يرى أن ايلاء الأهمية القصوى على تعليم القرآن ،وبدون الالتفات إلى أعداد الصبية لفهمه بتلقينهم القراءة و الكتابة كان من نتيجته أن أعاق أهل المغرب عموما عن امتلاك ناصية اللغة العربية ، فهو يقول : "فأما أهل افريقية و المغرب فأفادهم الاقتصار على القرآن القصور عن ملكة اللسان جملة""[1].ويمكن القول أن حرصه على تكوين العقل البشري قبل الحشو بالحفظ لاعتقاده أن هذا من رداءة التعليم ،وهو يذهب أعمار فئة من الناس في العناية بالحفظ.

و القابسي اعتمد على أصول التربية التقليدية ذات الهدف الديني الصرف فنظامه التربوي معد لتعليم ابناء المسلمين كتاب الله ومبادئ دينهم.وهو وجهة نظر كل أهل المغرب المالكية الذين اكتوا بنار الصراع المذهبي الرامي إلى اقتلاع المذهب المالكي من بلاده خلال القرن الرابع الهجري في العهد العبيدي.

كما ضمن كتابه بعض الآراء الأدبية و النقدية، منها تعريفه للشعر ،يقول:" ... و أما لبيد ، فقد أجاب إلى الإسلام ، ويقال أنه كف في الاسلام عن قول الشعر تعظيما للقرآن و الله أعلم .وليس يعد شاعرا من جرى له في بعض الأوقات كلام موزوون ،ولا سيما إذا كانت الفصاحة من طبعه .." "[2]. وفي هذا يذهب القابسي إلى أن الشعر "ليس هو الكلام الموزون المقفى يدل على معنى بل لابد أن تكمله عناصر أخرى هي الخيال و الحس و الطبع وهو ما ذهب إليه نقاد المغرب ابن رشيق و ابن شرف، وفي هذا يورد كلاما للرسول "صل الله عليه و سلم"، من حديث "جندب بن عبد الله" رضى الله عنه: بينما الرسول "صل الله عليه و سلم" يمشي إذ أصابه حجر فعثر فدميت اصبعه فقال:

هل أنت إلا إصبع دميت*وفي سبيل الله ما لقيت[3]

---

[1] نفسه، ص 538.

[2] القابسي :المصدر السابق ، ص 27.

[3] القابسي :المصدر السابق ، ص 27.(ينظر شرح الحديث:موسى شاهين لاشين:فتح المنعم (شرح صحيح مسلم)،دار الشروق، ط2002،1، ج7،ص307).

فلا يعد قائله شاعرا و لا راويه (1) .

وبهذا يعد كتاب القابسي من أهم المؤلفات التي اعتمد فيها على أصول التربية التقليدية ذات الهدف الديني الصرف ،فكان نظامه التربوي معد لتعليم أبناء المغرب المالكيين كتاب الله ومبادئ دينهم.وهو وجهة نظر كل أهل المغرب المالكية الذين اكتوا بنار الصراع المذهبي الرامي إلى اقتلاع المذهب المالكي من بلاده خلال القرن الرابع الهجري وما تلاه من صراع فكري و دموي.

تبين من خلال دراستنا أن علماء و فقهاء المالكية في المغرب ربطت بينهم وبين التأليف علاقة وثيقة ، عمادها أن تألف كتابا فأنت تحفظ مذهبا ، وبه تحفظ خصوصية مغربية تفردت بها هذه الأخيرة التي تتكالب عليها الاسماعيليون ، وتمخض عن تلك العلاقة نشاطا ملحوظا في الحياة العلمية و الفقهية في المغرب صانت من خلالها عقيدة أمة وعرفنا بها المستوى الإدراكي لسلفنا.فتعددت طرق التأليف فكانت المراسلة وسيلة مهمة من وسائل الاتصال بين الفقهاء وطريق للتأليف، وقد اعتمدها كل من فقهاء المغرب. وحتى مع علماء الأندلس، كما تباينت الأهداف المرجو تحقيقها من خلالها بين فقهاء الأندلس والمغرب . نشاط التأليف في الأندلس والمغر ، حيث راسل فقهاء الأندلس فقهاء المغرب لأخذ منهم مادة تغذي مؤلفاتهم . والأهم من ذلك تم متابعة أخر التطورات التي تعلقت بالمذهب وذلك بمتابعة مراحل كتابة المدونة، وبرزت أهمية المراسلة بصورة أوضح بين فقهاء المالكية في الأندلس والمغرب عند طلب المشورة الفقهية وتبليغ الأحكام القضائية من خلالها .

وهكذا كان التأليف ترتيب للمعارف، وتصنيف للعلوم، لبلوغ الهدف المنشود الذي يتمثل في تحقيق رغبة الكاتب ومن خلاله بث الدعوة التي يصدح بها ويذود عن المعتقد والمذهب الذي يدعو إليه لذلك كان هو همهم الوحيد، فاستقام هذا الشكل للطرفين المتصارعين.

وهكذا جاءت كتب هذه الفترة شاهدة على مدى قدرة الجمع والتدوين و التحكم في الأساليب والنضج في الأداء، وكما أنه بدأ في شكل يعنى ببلوغ الهدف، وتبليغ الرسالة المنوطة به والوقوف عند الغرض منه،في صياغة محكمة بعبارات سهلة سلسة، كما استخدمت بعض

[1]نفسه، ص 27 وهامشها .

الحلل الفنية التي يوشى بها بمقدار من الجهد في الصنعة، على أنه لم يخرج عن حد المعقول ضمن الغرض المقصود دون الإفراط والتفريط ، والتصنع والبذخ .هذا كله لم يخرج عن نطاق الظروف المحيطة به والمتمثلة في ضوابط سياسية مذهبية تحكم سيل البديع وتمسكه دون الوصول إلى مراحل التعقيد والتقييد .

وقد بدا يتحرر هذا التأليف من الأسلوب التقريري الجاف، وأصبح يعبر عن رقـــي الأمـــة الفكري والحضاري، ويكشف عن صور النضج الذي بلغه في المجالات المختلفة. وللتأليف فـــي هذا العصر سماته المختلفة حيث أنه بدا يشغل اهتمامات النقاد واستأثر بملحوظاتهم وآرائهم مـــن حيث الوظيفة وطبيعة اللغة في كل منهما.

كانت غاية العلماء والفقهاء من مصنفاتهم ومؤلفاتهم المختلفة ، تعليمية تربوية دعوية للأحادية المذهبية، ولاشك أنه لو كتب لبلاد المغرب أن تمتع بحقبة طويلة من الاستقرار والأمن اللذين هما أساس كل عمران ورخاء وشرط كل نهضة في العلوم ،لأمكن له أن يبلغ درجة عالية من التحضر والتفوق العلمي و الفكري، ويمكننا أن نصل إلى مجموعة من النتائج ، أهمها:

-بالرغم من تعرض فقهاء المذهب المالكي على يد العبيديين وأعوانهم إلى شتى صنوف الضغط والقمع والترهيب، من سجن وقتل وتعذيب وتهديد... إلا أنهم صمدوا وتحملوا، و ألفوا وأبدعوا.

-معظم ما وصلنا كان يمثل جزءا بسيطا، في حين لم يصلنا إلا القليل من إنتاجهم على الرغم من إشارات المصادر لعدة مؤلفات ولعدة مؤلفين.

-انقسمت المؤلفات الفكرية و التعليمية و التاريخية إلى مؤلفات سنية ومؤلفات شيعية.

-كانت غاية العلماء والفقهاء من مصنفاتهم ومؤلفاتهم تعليمية تربوية دعوية، أساسها حفظ المذهب من الضياع .

-انصراف المغاربة آنذاك إلى العلوم النقلية والإبداع فيها ،وتقصيرهم في العلوم النظرية الفلسفة وفروعها.

الفصل الثاني:الكتابات النقديـــــــة

أولا-مؤلفـــات نقديـــــــــة تنظيريـــــــــــــــــــــــــة

1- **العمـــــــــــــــــدة لابن رشيـــــــــق**

2-**قراضة الذهب في نقد أشعار العرب لابن رشيق**

3-الممتع في علم الشعر وعمله" للنهشلـــــــي

4-ضرائر الشعر للقزاز القيروانـــــــــــي

ثانيا- مؤلفات نقدية تحليليـــــة نصيـــــــــــــــــــــة

1-**أنموذج الزمان في شعراء القيروان لابن رشيـــق**

2- **المختار من شعر بشار للتجيبـــــــــــــي**

3-زهر الآداب وثمر الألباب للحصـــــــــــري

4-مسائل الانتقاد لابن شـــــــــــــــرف

توطئة:

إن المتتبع للمشهد النقدي المغربي منذ الفتح الإسلامي يجد شحا في ذلك نظرا لما مر به المغرب في القرون الثلاثة الأولى من طور النشوء الأدبي والإلمام باللغة ثم التمكن منها إلى ظهور أدباء مغاربة ينظمون على منوال المشارقة، ليتطور الأمر إلى التفرد و حضور الخصوصية المغربية ومنها النبوغ المغربي في الأدب العربي، التي جاءت مع نهايات القرن الرابع الهجري ليستمر في ما عرف بالازدهار الأدبي في القرن الخامس الهجري.

ولما كانت مسيرة النقد الأدبي مصاحبة لحركة الأدب عبر عصوره التاريخية ؛ فقد عرف هو بدوره التطور والثراء والتنوع في الاجتهادات النقدية باتجاهاتها المختلفة ومقاييسها المتنوعة ؛ من ذوقية ولغوية وجمالية فنية ، فساهم بفعالية في تهذيب الأدب وتوجيه المبدع صوب الجودة والتنوع والتطلع نحو المثالية ،بل نحو العطاء والثراء الفني أكثر فأكثر. وظهر نقاد كانوا في مستوى مواكبة الصيرورة الكبيرة للأدب المغربي في هذا العصر،فواجهوا النص بالتحليل والمناقشة وإطلاق الأحكام، لا تقل عن مستوى المشارقة في هذا الميدان،فأبدع الناقد المغربي وعمل على تدوين إحكامه و إبداعاته النقدية في مصنفات عديدة و متنوعة.

وما وصلنا من مواصفات نقدية من تراثنا الأدبي النقدي المغربي يوحي بتلازم منهجين؛ فقد ضمت هذه المصنفات معايير جمالية تأصيلية ونظريات نقدية توجيهية دعمها الناقد العربي القديم بنماذج نصية مارس عليها إمكاناته النقدية التحليلية المرفقة بالتعليل و الاستقصاء و المناقشة الموضوعية ، و حكم فيها ذوقه لتقييمها بالجودة أو الرداءة.

وما كان للنقد في الفترة الممتدة بين القرنين الرابع والخامس الهجريين أن يعرف كل هذا الثراء والتطور والتوسع ، لولا تضافر وتداخل عوامل مختلفة وعديدة ساهمت بشكل كبير في دفع عجلته وتنمية قدرات ممارسيه، وإحاطتهم بالظروف المواتية التي هيأت أسباب النجاح ، وأوقدت الأذهان لعطاء نقدي مستمر كانت نتيجته تلك المؤلفات الجليلة المؤسسة لنقد أدبي مغربي بالمنطقة.

فقد عج هذا العصر بالمبدعين المجدين الذين وسعتهم بلاطات حكام وأمراء الدول التي حكمت المنطقة، وكان أكثرهم نقادا مجتهدين موجهين، تزاحموا كلهم لإثبات الجدارة والتمكن في الميدانين معا. فتعددت الإبداعات وتنوعت وتضاربت الآراء النقدية، وتحسنت مستويات

الممارسين سواء أكانوا مبدعين أم نقادا مما أثمر دواوين ومؤلفات نقدية جيدة ضاهت نظيراتها في المشرق العربي.

كما تعدد مذاهب الشعراء المغاربة– ومنذ بداية القرن الرابع الهجري، وتنوع اتجاهاتهم الشعرية– فمنهم من ارتضى مذهب الصنعة، "كإبراهيم الحصري" والفزاري" وابن غالب [1]... وغيرهم كثير، ومنهم من ارتضى الطبع، "كالوراق التميمي"[2] " وابن مشرق السلمي" [3]... وغيرهما ومنهم من جارى طريقة أبي العتاهية في السهولة ؛ "كابن البقال الضرير"[4] ،أو قصصية عمر بن أبي ربيعة في الشعر ؛ "كابن قاضي ميلة"[5] ، أو إجلاب وتهويل "ابن هانئ الأندلسي"، كابن حربون"[1] ، أو الطريقة البدوية الأعرابية ، "كعبد الواحد فتوح الكتامي"[2] .

---

[1]ابن رشيق القيرواني: أنموذج الزمان، ص 46 ــ 410 ــ 289.

[2]الوراق التممي:شاعر قيرواني مطبوع ، يكره عويص الكلام و يجتنبه ،و لا تكاد تخلو له قصيدة في البديع ،ومن شعره

في رثاء الفقيه القيرواني علي ابن خلدون وقد دفن بليل :

دفنوا صبحهم بليل و جاؤوا*حن لا صبح يطلبون الصباحا

(ينظر:ابن رشيق: أنموذج الزمان ، ص 251–255.)

[3]ابن مشرق السلمي: محمد بن خلوف بن مشرق السلمي من أشراف أهل باجة ورؤسائها و بها تأدب، وهو شاعر مطبوع عذب الألفاظ ،واضح المعان ،سهل الطرق حسن التلويح ،غزل الشعر حلو المقطعات، من شعره في الغزل:

لي حبيب لم أصغ فيه للوم*غاب عني فما انتفعت بنوم

لم أخن عهده وخان عهدي*يا لقومي لقاتلي يا لقومي

(ينظر:ابن رشيق: نفسه ، ص 378–380).

[4]ابن البقال الضرير: عبد العزيز بن أبي سهل الخشني المعروف بابن البقال الضرير كان مشهورا باللغة و النحو بصيرا بغيرهما من العلوم و لم ير ضريرا أطيب منه نفسا و لا أكثر حياء مع دين و عفة .وقد جاز التسعين و التلاميذ يكلمونه فيحمر خجلا،كما كان شاعرا مطبوعا يلقي الكلام إلقاء و يسلك طرق أبي العتاهية في سهولة الطبع و لطف التركيب،وقرب مآخذ الكلام ،وكان المعز الصنهاجي عارفا بحقه مقربا له مقبلا عليه ،ومن شعره:

العين من وجهك في لهو*والقلب من صدك في شجو

تناصف الحسن الذي حزته*لم يفتقر عضو إلى عضو

(ينظر:ابن رشيق: نفسه ، ص 158–161).

[5]ابن قاضي ميلة:عبد الله بن محمد التنوخي أبو محمد المعروف بابن قاضي ميلة شاعر لسن ، يؤثر الاستعارة ، ويكثر الزجر و العيافة ، ويسلك طريق ابن أبي ربيعة في نظم الأقوال و الحكايات ، وله في الشعر قدم ساق و

وقد أثرت هذه الاتجاهات والطرق المختلفة في الشعر، وفي قضايا النقد الأدبي بالمغرب الإسلامي ، وأنارت سبيل الناقد للخوض في أكبر المسائل النقدية تعقيدا والحكم على النص من خلالها بالأصالة أو الزيف، والتمرن على اختلاف فنونها وتنوع اتجاهاتها ؛ لاكتساب الخبرة الواسعة ، وتنمية ملكة التمييز والتحليل والمقارنة والتعليل،وكذلك تدريب الذوق وتثقيفه .

وهكذا انبعثت حركة أدبية و نقدية، أعلنت ارتباطها الوثيق بالحركات الفكرية ومذاهب الفرق الكلامية ،وأصبحت تعبر عن خضوع الفن للعقل والمنطق المذهبي ،وبهذا انتشر الأدب – بفنونه الشعرية والنثرية – وذاع صيته رغم اكتسابه الطابع العقلي الذي له ملمح وتوجه جمالي. ومثال هذا التوجه الجمالي الذي عرفته إبداعات المغاربة كثيرة ،ومنها، ما قاله "ابن هانئ"،شاعر الدولة العبيدية، هاجيا "الوهراني"كاتب الأمير جعفر"،مدافعا عن مذهبه وتوجهه الفكري والعقائدي، مصورا الخصومات الفكرية والأدبية النى نشأت بينهما [3] :

طلب المجد من طريق السيوف *شرف مؤنس لنفـــس الشريف

إن ذل العزيز أفظـــــــع مرأى* بين عـــينيه من لقاء الحتوف

مجال متسع وربما بلغ الإغراق و التعمق إلى فوق الواجب ، رحل إلى صقلية و استوطنها و تقرب من حاكمها وألحقه بأحد دواوين الدولة ، ومن شعره:

يذيل الهوى دمعي و قلبي المعنف*و تجني جفوني الوجد وهو المكلف

وأحور ساجي الطرف أما وشاحه*فصفر و أما وقفه فمـــــــــــوقف

(ينظر:ابن رشيق: نفسه ، ص 209–215).

1ابن حربون : الحسن بن عبد العزز بن حربون تونسي الأبوة ،شاعر مشهور عرف استعمال اللغة و تركيب ألفاظ الشعر نحو منحى ابن هانئ في الاجلاب و التهويل،رحل إلى مكة وهناك مكث،ومن شعره:

لظبى المناصل و الوشيج الذبل*شرف أناف على السماك الأعزل

(ينظر:ابن رشيق: نفسه ، ص 104–106).

[2] عبد الواحد فتوح الكتامي:المعروف بالزواق وهو كتامي نشأ بالقيروان و بها تأدب، وهو شاعر مفلق قو أساس الشعر كأنه أعرابي بدو يركب ظهر الشعر ويخوض بحر الفكر ، تكلف بعض التكلف ،وفي قصائده طول ،من شعره:

وليلة بين حمى ربوتي*ماوية والغصن من سدرها

طرقت فيها الحي مستوطئا*مثل لهيب النار في جمرها

(ينظر:ابن رشيق: أنموذج الزمان ، ص 226–230).

[3]ابن هانئ الأندلسي:الديوان،ص219 .

ليس غير الهيجاء والضربة الأخــ*ــدود فيها والطعنة الإخطيف

أنا من صارم وطرف جـــــواد*لست من قبة وقصــــــر منيف

وبالإبحار في سماء المعاني والإكثار من الفنون والأساليب الجمالية بدأ النص الأدبي يعود تدريجيا إلى اتجاهاته الفنية كإبداع وجداني نابع عن حس مرهف وذوق فني، مع البقاء تحت ظل البلاط وخدمة الدولة بما يمتلكه الشاعر من إمكانات لغوية وأسلوبية تؤثر على السامع، مثال ذلك ما قيل في عهد الدولة الصنهاجية من قصائد ترهف الحس وتطرب الأذن وتحمل بين طياتها مساعي الدولة وأهدافها، كتلك التي قالها "ابن قاضي ميلة "في مدح "ثقة الدولة" وهي قصيدة بديعية جدد في بنائها الفني مستخدما المعاني اللطيفة والألفاظ المؤثرة التي يتغزل فيها الشاعر حينا ويمدح حينا آخر مستخدما أسلوب الحوار والقص، منها قوله (1):

يذيل الهوى دمعي و قلبي المعنف*و تجني جفوني الوجد وهو المكلف

وأحور ساجي الطرف أما وشاحه*فصفر و أما وقفه فمـــــــــــــوقف

ومن أهم تلك العوامل أيضا انفتاح الأقاليم وانعدام الحواجز والحدود الجغرافية بين أقطار العالم الإسلامي، فالمغرب بحكم موقعه الاستراتيجي،كان محط رحال العلماء والأدباء ،مشارقة وأندلسيين متنقلين شرقا وغربا من أجل التزود بالعلم والبحث عن المصادر المعرفية الجديدة. وهو ما ساعد أيضا في تسهيل الهجرة العلمية أمام علماء وأدباء المغرب إلى مصر وبلاد المشرق حينما بلغت أوج حضارتها المعرفية ونهضتها الفكرية والثقافية .

بل إن ذلك الانفتاح الإقليمي عبد طريق انزياح المشارقة وأهل الأندلس الفارين من جور الحكام والتمزق السياسي الذي هدم كيانها وزعزع استقرارها وأثقل كاهل علمائها وأدبائها إلى إفريقية المغرب بحثا عن أسباب الهدوء والاستقرار والظروف المواتية والمناسبة لاحتضان التدفق الإبداعي والاجتهاد الفكري.

كما يضاف إلى ذلك، ولادة حواضر علمية أضحت من أكبر الحواضر في العالم العربي والإسلامي آنذاك ، تضاهي بتقدمها وازدهارها ونهضتها ما كانت عليه حواضر القاهرة وبغداد ودمشق وقرطبة .وكان أهمها القيروان التي يقول فيها "المراكشي":"وكانت القيروان هذه في قديم

---

[1] ابن رشيق القيرواني: أنموذج الزمان، ص 210.

الزمان ، منذ الفتح إلى أن خربها الأعراب، دار العلم بالمغرب إليها ينسب أكبر علمائه وإليها كانت رحلة أهله في طلب العلم، وقد ألف الناس في أخبار القيروان ومناقبه وذكر علمائه، ومن كان به من الزهاد والصالحين والفضلاء والمتبتلين، كتبا مشهورة ككتاب "أبي محمد بن عفيف" وكتاب "ابن زيادة الله الطيبي" (1).

فقد كانت القيروان سادسة أكبر الأمصار العربية والإسلامية، قصدها الناس لاستزادة علمهم وطلب المعرفة والأدب حتى أضحت ملتقى الوفود العربية من حجازيين وعراقيين وشاميين وأندلسيين، يصفها المقدسي فيقول:" كانت مصرا بهيا عظيما قد جمع أضداد الفواكه والسهل والجبل مع علم كثير لا ترى أرفق من أهلها، ليس بينهم غير حنفي ومالكي مع ألفة عجيبة لا شغب بينهم ولا عصبية فهي مفخرة المغرب ومركز السلطان وأحد الأركان أرقى من نيسابور وأكبر من دمشق وأجل من أصبهان ، بها جامع بموضع يسمى السماط الكبير وهو أكبر من جامع ابن طولون (...) فلا عجب إذا خطر الأدب من نثر ونظم في حلل التفنن والرقة وظهر فيه الاختراع الجيد وتوليد المعاني العميقة " (2).

ومن الحواضر أيضا، المهدية التي أسهم علماؤها في دفع الحركة الفكرية والأدبية بالمغرب آنذاك (3). فقد" ازدان ملك صنهاجة بالمهدية كما ازدان بالقيروان . فكان فيها البلاط فاخر، التفت حوله ثلة صالحة من رجال العلم وأعلام الأدب وكبار الفلاسفة والشعراء "(4).

كما كان للأمراء والحكام الدور البارز في هذه اليقظة الفكرية،فهذا "المعز بن باديس الصنهاجي"، وابنه تميم، ممن بلغت القيروان في أثناء حكمهما أوج ازدهارها وذروة نهضتها في ميادين العلم والأدب، ففي عهد"المعز بن باديس" قدم "أبو الفضل عبد الواحد الدارمي البغدادي"(5)

---

[1] المراكشي:المصدر السابق، ص356.

[2] عبد العزيز قلقيلة:النقد الأدبي في المغرب العربي، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب،ط2، د ت، ج1،ص14.

[3] نفسه، ج1،ص41 .

[4] عبد الرءوف مخلوف : ابن رشيق القيرواني ،دار المعارف، مصر،د ط، 1964، ص16 .

[5] الدرامي:هو أبو الفضل محمد بن عبد الواحد بن عبد العزيز بن الحارث بن أسد بن الليث بن سليمان بن سفيان الدارمي التميمي البغدادي، ولد في بغداد سنة (388هـ) وكان وزيرا ، وشاعرا من بيت علم وأدب ،خرج من بغداد متجها إلى الهند في ضيافة السلطان" محمود بن سبكتكن" الذي استقطب بلاطه آنذاك مجموعة كبيرة من

) إلى المغرب رسولا من قبل القائم بأمر الله العباسي، في مهمة سياسية تتعلق بشؤون الحكم. فحلت له القيروان فأقام بها وانتظم في سلك أدباء بلاط المعز. الذي كان يبجل أصحاب المواهب، ويجزل العطايا للعلماء والكتاب والشعراء إذ " لا يسمع بعالم جليل أو شاعر عظيم إلا أحضره إلى حضرته وجعله من خاصته حتى سار بذكره الركبان وانتجعه العلماء والأدباء من كل مكان ، وقد بالغ في إكرامهم وعول على آرائهم ومنحهم أسمى المراتب وأعلى الرواتب" (1).

كما أن ابنه تميما" محبا للعلماء معظما لأرباب الفضائل، حتى قصدته الشعراء من الآفاق على بعد الدار، كابن السراج الصوري ونظائره... وكان يجيز الجوائز السنية ويعطي العطاء الجزيل"(2).

وبفضل الاحتكاك الثقافي والمجالسات الأدبية التي كانت تعقد في بلاط الأمراء تنامت إبداعات الأدباء واجتهادات المفكرين والنقاد، فكثرت صنوف "المداعبات والمساجلات والمطارحات ، فيتحسس الحاضرون بذلك قدرات المتبارين، لاكتشاف مواهبهم والاستعداد لإصدار الحكم على مدى قدرتهم على التعبير" (3).

ومن المجالس الشعرية التي كانت تعقد ببلاط "تميم بن المعز الصنهاجي"، تلك التي أثير فيها الجدال والمناقشات الحادة حول السرقات الشعرية والتي جرت بين ابن رشيق وابن شرف؛ومنها: حين أنشد "ابن شرف" قوله (4) :

غيري جنى وأنا المعاقب فيكم* فكأنني سبابة المتندم

الأدباء والشعراء ، وحملة العلم .وبعد وفاة السلطان عاد إلى بغداد في عهد الخليفة العباسي القائم بأمر الله ،وقد تزامن قدوم الدارمي إلى بغداد مع قدوم رسول "المعز بن باديس" الصنهاجي ،فطلب الخليفة منه التوجه إلى القيروان كرسول إلى المعز ووصل القيروان سنة(439هــ) شهد حصار القيروان ،توفي بطليطلة سنة (454هــ)(ينظر: المقري: المصدر السابق ،ج3،ص111-112).

[1] عبد العزيز قلقيلة:النقد الأدبي في المغرب العربي، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب،ط2، د ت،ج1، ص 40 .

[2] المراكشي:المصدر السابق، ص356.

[3] أحمد يزن : المرجع السابق ، ص 63 .

[4] نفسه، ص 67 .

ثم قال له: هل سمعت بهذا ؟ فرد ابن رشيق قائلا : سمعته وأخذته أنت وأفسدته فقال ممن ؟ فقال من "النابغة الذبياني" [1] حيث قال :

لكلفتني ذنب امرئ وتركته*كذى العر يكوى غيره وهو راتع

فأما إفساده لأنك قلت في صدر بيتك إنك عوقبت بجناية غيرك ، ولم تعاقب صاحب الجناية ، ثم قلت في عجز بيتك، إن صاحب الجناية قد أشركك في العقوبة فناقض معناك،وذاك أنك شبهت نفسك بسبابة المتندم ، وسبابة المتندم أول شيء يتألم في المتندم ثم يشركها المتندم في الألم ، فإنه متى تألم عضو من الحيوان تألم كله (...) فمن ههنا أخذت المعنى وأفسدته" [2].

فهذه الملاحظات النقدية التي وجهها "ابن رشيق" لبيت "ابن شرف" ،مبينا بعد تحليله وتفسيره البيت محل السرقة ومصدر المعنى المأخوذ ومواطن افساده، هي إحدى الصور التي تجلى فيها النقد بمجالس الأمراء بالمغرب الإسلامي، لما أصبحت مسرحا رحبا يعمل فيه الناقد ذوقه ويبرز إمكاناته النقدية وثقافته التراثية، فيدرب ذوقه وينمي ملكته أمام ما يقدمه وما يستفيده ممن جلسوا إليه من النقاد والشعراء .

فهذه العوامل وغيرها، باختلاف مشاربها أسهمت بشكل جاد في سير الحركة النقدية ببلاد المغرب الإسلامي، و خطت السبيل الناقد للخوض في أكبر المسائل النقدية تعقيدا وتنمية ملكة التمييز والتحليل والمقارنة والتعليل،و تدريب الذوق وتثقيفه ،لتثمر نقادا متمكنين وعلماء مثقفين ترجموا ما اكتسبوه من خبرة في مصنفات نقدية تنوعت واختلفت، بتنوع الطابع الذي سيقت فيه، فكانت المؤلفات النقدية التنظيرية ، والمؤلفات النقدية التحليلية النصية، التي تهتم بالتنظير للنقد والقضايا المتصلة بفـــن الشعر وأحوال الشعراء و تطبيق الآراء على النصوص الأدبية. فظهر "الممتع في علم الشعر وعمله" لعبد الكريم النهشلي" و"الضرائر الشعرية "للقزاز النحوي"، و"زهر الآداب وثمر الآداب" "لإبراهيم الحصري" و "مسائل الانتقاد" "لابن شرف القيرواني"، وكذا "الرائق بأزهار الحدائق" "لأبي الطاهر التجيبي البرقي، و"العمدة في علم الشعر وعمله" لابن رشيق المسيلي"، إلى جانب "قراضة الذهب في نقد أشعار العرب" و"أنموذج الزمان في شعراء القيروان" ... وغير ذلك كثير مما ضاع ولم يصل إلينا.

---

[1] النابغة الذبياني: الديوان،شرح حنا ناصر الحتي، دار الكتاب العربي،بيروت، ط1، 1991،ص126.
[2] أحمد يزن : المرجع السابق ، ص 67 .

وقد تميز أصحاب هذه المؤلفات الجليلة بالبصيرة النقدية الثاقبة، والوعي الأدبي النافذ ، والانفتاح على آداب الحواضر العربية الإسلامية من مشرقية وأندلسية مما أتاح لهم فرص التعرف على النصوص الأدبية المتنوعة ؛ جيدها ورديئها ، بمستوياتها الفنية المختلفة، مطبوعة أو مصنوعة ، قديمة أو حديثة، سهلة أو معقدة ... بل إن ذلك الانفتاح أمكنهم من الاطلاع على خيرة المصنفات باتجاهاتها ومقاييسها النقدية المختلفة؛من ذوقية ذاتية ، أو منطقية، أو منهجية موضوعية، أو فنية بلاغية ... [1] أوجدتها عقول اجتهدت في تأصيل النقد الأدبي العربي كابن معتز صاحب "البديع" و"ابن قتيبة" صاحب"الشعر والشعراء"، وقدامة بن جعفر بكتابه "نقد الشعر"، والآمدي بموازنته والجرجاني بوساطته، دون أن أنسى ابن عبد ربه في "العقد الفريد"، وابن شهيد في "التوابع والزوابع" [2]

وبعد أن تشبع نقاد القرنين الرابع والخامس الهجريين بالمغرب من الثقافة المحلية ثم المشرقية والأندلسية؛ راحوا يؤسسون لنقد أدبي مغربي مستقل عما اطلعوا عليه وغرفوا منه، له خصوصية مغربية؛ فاتخذوا لاتجاهاتهم النقدية وآرائهم وأحكامهم مقاييس تنوعت بين الفنية والأخلاقية و الدينية والعقلية والإنسانية، مستقاة مما اختاروه من نماذج شعرية أو نثرية خاضعة لما أصلوه من نظريات ومبادئ نقدية.

وبمثل هذه الدوافع و العوامل نهضت بلاد المغرب لتشهد ازدهارا علميا و أدبيا و فكريا و نقديا و لتعلن ميلاد ثلة من الأدباء و النقاد المثقفين وذوي الفضل و الشأو الكبيرين في الأدب والنقد؛فنما فكر الناقد المغربي وتهيأت شخصيته الناقدة ، بفضل الاحتكاك الثقافي والمجالسات الأدبية التي كانت تعقد ــ غالبا ــ في بلاط الأمراء؛ أين كان الأدباء يتبادلون " صنوف المداعبات والمساجلات والمطارحات ، فيتحسس الحاضرون بذلك قدرات المتبارين ، لاكتشاف مواهبهم والاستعداد لإصدار الحكم على مدى قدرتهم على التعبير" [3].

وبفضل ذلك اتضحت ملامح الشخصية النقدية المغربية، والتقى نقاد المغرب بإخوانهم المشارقة والأندلسيين، فجاروهم في نتاجاتهم وآرائهم ومصنفاتهم النقدية، بل و في مستوياتهم

[1] نفسه، ص 72.

[2] نفسه، ص 72.

[3] أحمد يزن : المرجع السابق ، ص 63 .

الثقافية والمعرفية، وتفوق بعضهم؛ فأنتجوا مصنفات جامعة للآراء السابقة،ذات لمسات ومميزات أو خصوصيات مغربية ؛ فكان عمدة "ابن رشيق" ملما لما حققه غيره من إنجازات نقدية سابقة تعزى لخيرة نقاد القرنين الرابع والخامس الهجريين بالمشرق والأندلس، مضيفا إليها ما استجد لدى صاحبه مما أملته عليه خصوصيته كمثقف مغربي . يقول ابن خلدون عنه: إنه" الكتاب الذي انفرد بهذه الصنعة ــ يعني النقد ــ وأعطاها حقها ، ولم يكتب فيها أحد قبله ولا بعده مثله" (1).

كما أبدع بعضهم مصنفات قل وجودها فيما سبق إنتاجه من المصنفات النقدية ؛ تميزت بطابعها التطبيقي النصي المحض ، ككتاب "أنموذج الزمان في شعراء القيروان" لابن رشيق و"المختار من شعر بشار" للتجيبي".

تلكم هي مسيرة النقد الأدبي بالمغرب الإسلامي ،منذ ظهوره إلى جانب التطور الأدبي شعره ونثره ، وحتى بلوغ الازدهار والتطور المعرفي والأدبي والنقدي بظهور مؤلفات نقدية عديدة ومختلفة ضاهت نظيراتها في المشرق والأندلس، واستطاعت أن تتبوأ مكانتها في الساحة النقدية العربية.

المؤلفات النقدية التنظيرية،وهي تدرس الأدب وقضاياه المتنوعة من لفظ ومعنى ،وطبع وصنعة وقديم وحديث، وصدق وكذب، وسرقات أدبية، يدخل صاحبها من خلالها في منقاشة طويلة تنتهي برأي ينظر فيه للظاهرة الأدبية، ثم يدعمه بنماذج كأمثلة تطبيقية توضيحية تجسد نظرياته تلك،فتكون دراسة تحليلية تفسيرية للكشف عن مكامن الجمال فيها وتمييز جيدها من رديئها، ومن أمثلة هذه المؤلفات:

---

[1] عبد الله شريط :"تاريخ الثقافة والأدب في المشرق والمغرب، المؤسسة الوطنية للكتاب،ط3،الجزائر،1983، ص 131.

1- العمدة لابن رشيق المسيلي:

قدم "ابن رشيق"[1] مؤلفات جليلة خدمت فن الشعر و الشعراء وساهمت في إثراء الحركة النقدية، التي بلغت أوجها خلال تلك الحقبة من تاريخ المغرب. ولعل كتابه "العمدة في محاسن الشعر و آدابه ونقده" أشهر ما ألف ابن رشيق في التنظير للشعر وظواهره .

يعد العمدة من المؤلفات النقدية التي أثقلت كفة المغاربة وحركت مجرى الحركة النقدية والبلاغية يقول فيه صاحبه: "وجدت الشعر أكبر علوم والعرب، وأوفر حظوظ الأدب، وأحرى آن تقبل شهادته وتمثل إرادته... ووجدت الناس مختلفين فيه، متخلفين عن كثير منه: يقدمون ويؤخرون، ويقلون ويكثرون، قد بوبوه أبوابا مبهمة، ولقبوه ألقابا متهمة، وكل واحد منهم قد ضرب في جهة، وانتحل مذهبا هو فيه إمام نفسه، وشاهد دعواه، فجمعت أحسن ما قاله كل واحد منهم في كتابه، ليكون (العمدة، في محاسن الشعر وآدابه) إن شاء الله تعالى"[2].

فالكتاب جاء لتنظيم الفوضى التي سادت مصادر النقد والبلاغة، ويعيد النظر في اصطلاحاتها، ويحسن تبويب وتقسيم المضامين التي تطرق إليها من سبقه من النقاد والبلاغيين بشيء من الاختصار والتنسيق، وجمع ما كان وجيها مخيرا في نظره[3].

ومن هنا كان كتاب "العمدة" جامعا لآراء السابقين، حاملا لآراء صاحبه ومناقشاته وتحليلاته وتنسيقاته، وذوقه الخاص إزاء الشعر الذي يختاره كتطبيق لما يأتي به من آراء في مختلف

---

[1]هو الحسن بن رشيق المعروف بالقيرواني من أهل مدينة تعرف بالمحمدية المسيلة حاليا،وهي مكان ولادته عام (385-463هـ)، فابن بسام في ذخيرته ينسبه إلى المسيلة مولدا و نشأة فيكنه بالمسيلي ، نشأ الحسن بن رشيق بالمحمدية وعلمه أبوه صنعته وهي الصياغة وقرأ الأدب بها، بيئة المسيلة التي كانت بدايات تأدبه واغترافه العلم والأدب كانت إحدى العوامل الأساسية في نبوغه المبكر فقال الشعر وهو صبي لم يبلغ الحلم ، واكتمل نضوجه الثقافي العلمي بارتحاله صوب القيروان التي قضى بها ثلاثا وأربعين عاما، له من المؤلفات ما يزيد عددها عن الثلاثين، من بينها ديوان شعر: فله "العمدة في صناعة الشعر ونقده"، و"وأنموذج الزمان في شعراء القيروان" و"قراضة الذهب في نقد أشعار العرب، و "الشذوذ في اللغة"، و "تاريخ القيروان" و "المساوي في السرقات الشعرية" و "الروضة الموشية في شعراء المهدية" " و " فسخ الملح ونسخ اللمح"...منها ما وجد ومنها ما فقد،توفي عام995-1071م –(ينظر، ترجمته كاملة في: ياقوت الحموي :معجم الأدباء"، ص 220-221، ، عادل نويهض :معجم أعلام الجزائر ، ص 150-151) .

[2]ابن رشيق القيرواني: العمدة ، ج1،ص 16.

[3]أحمد يزن: المرجع السابق، ص 142.

القضايا النقدية ، معتمدا في ذلك على معرفته وثقافته ورواياته، يقول:" وعولت في أكثره على قريحة نفسي، ونتيجة خاطري، خوف التكرار، ورجاء الاختصار، إلا ما تعلق بالخبر، وضبطته الرواية،فإنه لا سبيل إلى تغيير شيء من لفظه ومعناه ليؤتي بالأمر على وجهه، فكل ما أسنده إلى رجل معروف باسمه، ولا أحلت فيه على كتاب بعينه فهو من ذلك، إلا أن يكون متداولا بين العلماء، لا يختص به واحد منهم دون الآخر"[1].

و"العمدة" كتاب نقدي بلاغي تاريخي، يضم دراسة بلاغية عن الاستعارة والتشبيه والمجاز والإيجاز و فنون البديع، و دراسة تاريخية عن أخبار العرب وأيامهم، وأصول نسبهم وبيوتات الشعر ... وغيرها من فنون السير وميادين التاريخ[2].كما تناول فن الشعر:مفهومه وبنيته وطبيعته وقيمته وبناء القصيدة العربية ،والقضايا التي اتصلت بالشعر كالقديم والجديد، واللفظ والمعنى، والطبع والصنعة والسرقات الشعرية ... وغيرها.

صنف الناقد هذه الدراسات ضمن أبواب مختلفة، وفي كل باب يأتي بمجموعة من الآراء التي يحاول تحليلها والتعليق عليها،أو مخالفتها، من ذلك قوله:"قال أبو عثمان الجاحظ: أجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء،سهل المخارج فتعلم بذلك أنه أفرغ إفراغا واحدا، وسبك سبكا واحدا، فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان"[3]. ثم يحلل قول الجاحظ قائلا: "وإذا كان الكلام على هذا الأسلوب الذي ذكره الجاحظ لذ سماعه، وخف محتمله وقرب فهمه، وعذب النطق به ، وحلي في فم سامعه، فإذا كان متنافرا متباينا عسر حفظه، وثقل على اللسان النطق به ، ومجته المسامع فلم يستقر فيها منه شيء"[4].

وبعد أن يأتي بأمثلة شعرية تدعم رأي الجاحظ وبعض الأحكام التي أطلقها عليها،يعلق قائلا: "والناس مختلفوا الرأي في مزاوجة الألفاظ: منهم من يجعل الكلمة وأختها، وأكثر ما يقع ذلك في ألفاظ الكتاب، وبه كان يقول البحتري في أكثر أشعاره"[5]–ثم يأتي بأشعار البحتري ليدلل

---

[1]ابن رشيق : العمدة، ج1، ص 17.
[2]أحمد يزن: المرجع السابق، ص 143.
[3]ابن رشيق: العمدة، ج1، ص 257.
[4]نفسه، ج1، ص 258.
[5]نفسه، ج1، ص 258.

على هذا القول- ...وبعد مناقشة مطولة على هذا النحو ينتهي "ابن رشيق" إلى رأيه في قضية النظم يخالف به آراء من جاء سابقا له، فيقول: "... وأنا أستحسن أن يكون كل بيت قائما بنفسه لا يحتاج -إلى ما قبله ولا إلى بعده- وما سوى ذلك فهو عندي تقصير، إلا في مواضع معروفة، مثل الحكايات وما شاكلها، فإن بناء اللفظ أجود هناك من جهة السرد، ولم أستحسن الأول على أن فيه بعدا وتنافرا، إلا أنه إن كان كذلك فهو الذي كرهت من التشبيح"[1].

فهذه النماذج وغيرها تجسد منهج "ابن رشيق" واتجاهاته في النقد، فهو من جهة، قد فسر آراء من سبقه وحللها ثم ناقشها ورد عليها معللا موقفه، مستقصيا الجزئيات التي تدعم تلك المواقف من خلال النصوص المختارة، ثم يلتقي مع النص الأدبي ليطلق أحكاما ذوقية يعللها،ويدعمها بدراسة نقدية، من جهة ثانية، وهذا ما يميز فكره النقدي المتزن بموضوعية وحيادية.

2-قراضة الذهب في نقد أشعار العرب لابن رشيق:

هو كتاب نقدي ألفه ابن رشيق بعد "العمدة"، يبحث فيه موضوع السرقات الشعرية باعتبارها القضية الأساسية التي شغلت فكر النقاد وقد أشار إليها في قوله: "على أن المحدثين قد شاركوا القدماء في كل ما ذكرته أيضا، إلا أن أولئك أولى به، وأحق بالتقدمة فيه، كما خالطوهم في صفات النجوم ومواقعها، والسحب وما فيها من البروق والرعود (...) وكثير مما لا يتسع له هذا الباب، ولكني أفرد له كتابا قائما بنفسه أذكر فيه ما انفرد به المحدثون وما شاركهم فيه المتقدمون ... "[2].

جاء الكتاب في شكل رسالة بعث بها "ابن رشيق" إلى صديقه أبي الحسن علي بن القاسم اللواتي"، الذي كان معجبا بشعره ، وكان الدافع من وراء هذه الرسالة، تنبيهه إلى أن ما أنشده من شعره على مسامع أحد الجلساء، فأشاروا بأنهما مأخوذان من شعر" لعبد الكريم النهشلي" ليس بالسرقة، فيقول: " بلغني أعزك الله تعالى أنك استحسنت معنى البيتين من مرثية الأمير سيدنا أبي منصور نضر الله وجهه، وهما الأخيران من هذه الأربعة الأبيات ذكرت ما قبلهما لتعلقه بهما:

---

[1]نفسه، ج1، ص 261-262.

[2]ابن رشيق: العمدة، ج2، ص 241.

ألم ترهم كيف استقلـــوا به ضحـــى *إلى كنـــف مـــن رحمة الله واســـــع

أمـــام خميس مـــاج في البر بـــحـــره *يـــسير كمـــتن اللجـــة الـــمـــتـــدافع

إذا ضـــربـــت فيه الـــطـــبول تتابعـــت *بـــه عـــذب تحكي ارتعاد الأصابع

تجـــــــاوب نوح بات يـــندب شجـــوه *وأيدي ثكالى فوجئت بـــــالــفواجع

وأن بعض من لا خلاق له في الأدب ولا معرفة له بحقائق الكلام عارضك فيهما بالطعن ونازعك معناهما بالجهل وادعى عليهما ضربا من السرق ... لأن المعنى المأخوذ بزعمه إنما هو قول "عبد الكريم النهشلي" يصف ما يحدث عند اندفاع الجدول في الماء، من تلك الرغوة و النفاخات:

قـــد صـــاغ فـــيه الـــغمام أدمـــعه *درا ورواه جـــــدول غمـــــر

يجيش فيه كـــأنـــــما رعـــشــــت *إلـــــيـــك منه أنامل عـــــشر

فإن كان المعترض أراد ذكر هذا الارتعاد والارتعاش وذكر الأصابع والأنامل فصدق إلا أن هذا لا يعد سرقة في السرق لعلل شتى منها أن القصد غير واحد .....ولو أن هذا الناقد بصير لنظر نظر تحقيق وتأمل تأمل رفيق فعرف بعد ما بين المقصدين على قرب ما بين اللفظين...وليس لفظة الارتعاش من خاص البديع فيعد سرقة كما عد علينا. وما الذي يشبه أنامل شيخ قائمة ترتعش كبرا حتى شبه عبد الكريم بها ذلك الزبد المقبب منبعثا عن مسقط النهر، من أصابع ثكلى مبسوطة ترتعد طيشا وجزعا عند مفاجأة المصيبة على عادات النساء، شبهت أنا بها تلك العذب الخافقة "[1].

من هنا جاء تأليف الكتاب في السرقات الشعرية ، فالجزء الأول مـــن الكتـــاب تـــأريخ تنظيري للظاهرة، تحدث الناقد فيه بإسهاب عن السرقة في الشعر منذ عصـــر "امـــرئ القـــيس" بمفهومها الحقيقي ، أما الجزء الثاني فقد استخرج فيه ابن رشيق المعاني المبتكرة عند امـــرئ القيس، والتي أخذ الشعراء في تداولها من بعده، والمعاني المبتكرة عند غيره، واحتيال بعضـــهم في السرقة بعكس المعنى أو الزيادة فيه أو نقله من غرض إلى آخر، والذي جعله يختار "امـــرأ القيس" من بين الشعراء أن في شعره من فضيلة الابتكار ما لا يوجد في كـــلام يقـــول: " وأنـــا

[1] ابن رشيق: قراضة الذهب في نقد أشعار العرب، تحقيق: الشاذلي بويحي، الشركة التونسية للتوزيع، 1972، ص 12-13-14.

أقتصر من جميع الشعراء في أكثر ما أورده على "امرئ القيس" لأنه المقدّم لا محالة وإن وقـــع في ذلك بعض الخلاف فالمميز الحاذق بطرق البلاغة يجد لكلامه من الفضيلة في نفسه مالا يجد لغيره من كلام الشعراء "[1].

يجمع "ابن رشيق" في هذا الكتاب بين ضروب السرقات مستثنيا ما تداوله الناس وما جرى على العادات والألسنة،يقول: « ما كان الناس فيه شرعا واحدا من مستعمل اللفظ الجاري على عادتهم ولى ألسنتهم وكذلك ما كان من المعاني الظاهرة المعتادة فإنها معرضة للأفهام متسلطة على فكر الأنام ومن ههنا قل اختراع المعاني وقلت السرقات فيها وصارت إذا وقعت أشهر »[2] ثم يأتي بنماذج شعرية يطبق من خلالها نظريته الشعرية حول هذا الموضوع ، معلقا ومحللا ومفسرا ما جاء فيها من جزيئات تدعم رأيه.

ومن النماذج الدالة على السرقة الحقيقة ما يقع في البديع النادر الخارج عن العادة ،مـــن ذلك ما قاله في الاستعارة : "وأول ما أبدأ به من ذلك ما كان من جهة الاستعارة كقوله :

بـــمـــنـــجـــرد قـــيــــــد الأوابـــــــد هــــــيــــكـــل

فإنه أول من قيدها وسبق إلى الاستعارة البديعية فاتبعه الناس فقال بعضهم:

قـــيــــــد الأوابـــــــد في الرهان جواد.

فزاد زيادة كانت بالنقص أشبه، لأن الرهان لا يقيد وإن استعير لها ذلك فبعيد واستغرق قول ابن معتز:

كأن ما يفر منه يطلبه

وإن كان غاية لكون القيد ألزم ليد المطلوب وهما فيه أحصل.

وقال أبو الطيب وهو خاتم الفحول المولدين:

أجل الظليم وربقة السرحان

فأتى بالمعنى في غير اللفظ وزاد زيادة جيدة وإن لم يبلغ صاحب الاختراع"[3].

---

1 نفسه، ص 20.

2 نفسه ،ص 20.

3 ابن رشيق: المصدر السابق، ص 21-22.

لعل البحث الذي قدمه "ابن رشيق" في باب السرقات وإيراد النصوص قد خفف على الشعراء أمر اتهامهم بالسرقة من غير ذهابهم قصدا إلى ذلك،وقد سلك طريقة تقوم على أساس الموازنة بين الشعراء، وبيان طريقة تناولهم المعاني المحدودة، مستخلصا ما تضمنته من جمال وما فيها من ابتكار أو حذو ولهذا اعتبر القراضة كتاب نقدي تنظيري في عمومه تطبيقي في جزئه.

3-الممتع في علم الشعر وعمله" للنهشلي:

كتاب" الممتع في علم الشعر وعمله" للنهشلي"[1] ،هو كتاب مختصر يضم دراسة في الأدب وتاريخه وفنونه ونقده ،تناول فيه صاحبه ماهية الشعر وطبيعته وأقسامه وأصله ونشأته وفضائله ودواعيه، وأسبقيته على النثر وقضايا اللفظ والمعنى والسرقات والطبع والصنعة والقديم والجديد ،كما تعرض إلى البلاغة وفنونها من المبالغة والتصدير والتكرار والتقطيع والاتساع والأوزان والقوافي[2].

جاء الكتاب مقسما إلى أبواب، "تناول في كل باب موضوعا من الموضوعات المذكورة حث يتناول آراء سابقة ، ثم يعمد لعرض آرائه قصد المناقشة أو التعقيب أو التحليل ، ويعتبر أول كتاب عرض للشعر بالدراسة وحاول أن يقيم علما خاصا به" [3] في القيروان .

---

[1] النهشلي: هو أبو محمد عبد الكريم بن إبراهيم الجزائري التميمي المتوفي عام (405هـ) بمدينة "المهدية" أصله من "المحمدية" أو "المسلية" التي احتلت آنذاك مكانة مرموقة بين الحواضر العلمية، برع النهشلي في الإنشاء ونظم الشعر حتى عد في طليعة أدباء زمانه بإفريقية ، كان عالما لغويا وناقدا متمكنا ساهم في بناء الخطاب النقدي في شمال إفريقية بعد أن أضحى من أصحاب الكتب والتأليف المشهورة، لم يعرف للنهشلي غير كتاب "الممتع في علم الشعر وعمله" اعتمده ابن رشيق في كثير من القضايا التي أثبتها في عمدته دون التصريح بعنوانه الحقيقي والمدونة التي يعتمد عليها الكثير من الدارسين ما هي-إلا-اختيارا من كتاب"الممتع" وليس الكتاب كاملا، حققه منجي الكعبي وعنونه باسم اختيار الممتع في علم الشعر وعمله،(ينظر: عبد العزيز قلقيلة:"النقد الأدبي في المغرب العربي،ص73).

[2] بشير خلدون: الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي ، الشركة الوطنية للطباعة والنشر والتوزيع الجزائر، 1981، ص56.

[3] محمد زغلول سلام:، تاريخ النقد العربي إلى القرن العاشر الهجري، دار المعارف، مصر،1980، ج2،ص112.

فبالإضافة إلى الأخبار التاريخية والشروح اللغوية يدرس الكتاب قطعا نثرية قليلة إذا ما قورنت بالقطع الشعرية للبحث في المسائل الأدبية، والوقوف عند المختارات بالتحليل والتفسير.

ينطلق النهشلي في كتابه من التنظير للقضايا النقدية ثم تطبيقها على النماذج الشعرية،فيعرضها على الصورة التي وضعها النقاد القدامى في مناقشتهم مختلف القضايا النقدية المتعلقة بفن الشعر من القصد والاعتدال والمبالغة والإسراف ومناسبة الكلام لمقتضى الحال ومناسبة اللفظ للمعنى... من أمثال ابن سلام وابن قتيبة وابن طباطبا[1].

وقد كان موضوع السرقات الشعرية أكثر تلك القضايا التي أعمل فيها منطق المتقدمين وآراء المتأخرين، أورد له تلميذه "ابن رشيق" في عمدته قوله: :"قالوا السرق في الشعر ما نقل معناه دون لفظه، وأبعد في أخذه على أن من الناس من بعد ذهنه إلا من مثل بيت "إمرئ القيس" وطرفه حين لم يختلفا إلا في القافية،فقال أحدهما "وتحمل"، وقال الآخر "وتجلد" ومنهم من يحتاج إلى دليل من اللفظ مع المعنى، ويكون الغامض عندهم بمنزلة الظاهر، وهم قليل...يقول امرؤ القيس[2]:

وقوفـا بـها صحـبي علي مـطيهـم* يـقـولـون:لا تهـلـك أسى وتـجـمـل

ويقول طرفة:

وقوفا بها صحبي علي مطيهم* يقولون لا تهلك أسى وتجلد

اكتسب النهشلي خبرة نقدية واسعة عن الرواية وأخبار العرب، وهو ما أكسب تعليقاته على النصوص موضوعية التصور، من ذلك قوله: " وقال النابغة الجعدي" :

زجر أبي عروة السباع إذا * أشفق أن يلتبسن بالغنم

قالوا: كان يزجر الأسد فيشق مرارته في جوفه.وهذا من المبالغة في الوصف "[3].

إن التعليقات التي يقف بها عند النص الشعري تبدي تبحره في الشعر ومقدرته على فهمه والإلمام بأسراره، إذ نراه يعرض للقضية أو الموضوع في نصوصه كثيرة متتابعة يتبعها

[1] عبد الكريم النهشلي: الممتع في صنعة الشعر،تحقيق: محمد زغلول سلام، منشأة المعارف الإسكندرية،ص 08.
[2] ابن رشيق: العمدة، ج2، ص282.
[3] النهشلي : المصدر السابق ، ص130.

بتحليل أو تفسير يناسب مقتضى الحال، من ذلك قوله في شعر "حسان بن ثابت": "... و من خير ما ينشد في مقامة القوم من الشعر الجامع الخصال المديح قول "حسان بن ثابت":

لله در عصابة نادمتها* يوما بجلق بالزمان الأطـــــــول

يغشون حتى ما تهر كلابهم * لا يسألون عن السواد المقبل

أولاد جفنة حول قبر أبيهم* قبر بن مارية الكريم المفضل

بيض الوجوه كريمة أحسابهم* شم الأنوف من الطراز الأول

وقوله:حول قبر أبيهم يعني أنهم أرباب مدائن وقصور، لا ينتجعون من عدم ولا يرتحلون من خيم ، وأنهم حول قبور آبائهم ومنازل أوائلهم، ودار عرهم. ويقال: إن معنى قوله حول قبر أبيهم أنهم مقيمون على مآثره وسننه. والأول أصح"(1).

ويحتكم الناقد لذوقه في بعض الأحيان فيبدي استحسانه أو استهجانه، من ذلك ما قاله عن" زهير بن أبي سلمى":"كان يجيد المديح وهو أعذب لفظا وأحسن معنى"(2) وذلك في أبيات له يقول فيها:

وفيهم مقامات حسان وجوهها* وأندية ينتابها القول والفعـــــــل

وإن جئتهم ألفيت حول بيوتهم*مجالس قد يشفى بأحلامها الجهل

هذه صور من النقد العلمي عند النهشلي، ويتجلى نقده الكاشف عن ذوقه الأدبي وحسه النقدي الجمالي في رده على آراء سابقيه وتعليقاتهم على بعض النماذج الشعرية المختارة ،كما تنوعت بين أحكام ذوقية معللة وغير معللة، وشروح وتفسيرات وتحليلات، تدعم وتوضح وتطبق ما يقال من آراء نظرية حول قضايا النقد العربي القديم.

و هذا مختصر لما قدمناه و ما أمكننا عرضه مختصرا لمصنفات كبيرة في ميدان النقد النظري و التطبيقي ، حاولنا التعريف بهذه المصنفات المغربية النقدية العديدة فيه ،وكذا لثلة من النقاد والأدباء الذين خاضوا فيه بثقة وثقافة نقدية متنوعة حاملة لمبادئ ونظريات استطاعوا تطبيقها على نماذج شعرية لشعراء معروفين.فكان هدفنا تسليط الضوء على مؤلفات المغاربة في

---

[1] نفسه، ص07.

[2] نفسه ، ص 19.

هذه الحقبة التاريخية الزاهرة من مسيرة النقد المغربي القديم وتوجيه الأنظار نحو شخصيات نقادها واجتهاداتهم التي أسست لفكر نقدي مغربي مستقل يتمتع بخصائص تميزه عن الفكر النقدي المشرقي.

ويمكن أن نقول و بالرغم من الإهمال والتهميش الذي تعرض له الأدب المغربي عموما طوال العصور الماضية، إلا أن جهود العديد من المحققين و الأدباء، الذين استطاعوا أن يلملموا التراث المغربي الموزع في مظان الكتب واستخراج كنوزه وحفظها من الإهمال والضياع.وأثبتوا بذلك مكانة النقد المغربي في صرح الأدب العربي وهذا أكبر دليل على حاجة العالم إلى معرفة النقد المغربي و الأدب المغربي الصرف وذاكرته.

الفصل الثالث : الكتابات الأدبية العامة

1- سيرة الأستاذ جوذر وبه توقيعات الأئمة الفاطميين للمنصور الجوذري

2- -المصون في سر الهوى المكنون الحصـــــــــــــــــــــــري

3- جمع الجواهر في الملح والنوادر للحصــــــــــــــــــــــري

4- وصف الأنبذة و الخمور لرقيق القيروانـــــــــــــــــــــي

توطئة:

اتسم النثر التأليفي الأدبي المغربي في بداية القرن الرابع الهجري بالقلة و الندرة ،ومرد ذلك ي أساسا إلى الجو المشحون المرتبط بالصراع الفكري المذهبي،الذي انعكس سلبا على النثر الأدبي والمقابل نجد أن الاهتمام كله كان منصبا حول القضايا المذهبية والرد عليها،وليس هناك شك في أن المؤلفات التي تناولت القضايا المذهبية، قد اصطبغت بصبغة أدبية جميلة،ولم تخلو من قيمة أدبية متميزة ،خاصة في العصر العبيدي الذي كان أكثر حظا من العهود السابقة في حجم الحركة التأليفية ، ولم يزدهر منه سوى ما تتطلبه الدعوة العبيدية ، كالكتب الفقهية ومذهبها التي تستدعيها هذه الدعوة.

و قد بلغ التأليف الأدبي مع نهاية القرن الرابع الهجري قمة الازدهار و الرقي في دعائمه الثلاث، الشكل و المضمون والكم و الكيف،لكن الملاحظ أن نشاط الدراسات النثرية، في شقيها الفني و التأليفي لم يكن متساويا خلال هذا العصر في عطائه، فالنثر التأليفي الأدبي كان أكثر ظهورا وبروزا في القرن الخامس الهجري لما شهدته الساحة الثقافية و الأدبية و الفكرية من نشاط بارز وازدهار كبير.

ومن الملاحظ أن حجم الحركة الأدبية الكبير في هذا العصر، ولدت عددا من الأصناف التأليفية المختلف التي تطورت مع تطور المجتمع ورقيه ، ولذلك فأن بعض أشكال التصانيف قد سمت و ارتقت و تعددت ، فيما بعضها قد قلت وندرت وخبت، وهذا لدواعي سياسية و مذهبية ،حيث نجد أن الكتابات الأدبية بصنوفها المختلفة قد شملها التطور و الازدهار،فيما نجد التصانيف المذهبية قد قلت مقارنة بالقرن الرابع الهجري.

وقد بزغ مع بداية القرن الخامس الهجري ثلة من الكتاب و المؤلفين المرموقين و المتخصصين ، ذوي الثقافة المتنوعة و المتميزة،مما جعل الكتابات الأدبية تبلغ شأوا كبيرا ، فظهرت الكتابات الجادة و الهزلية، وهي نوع من الكتابات التي برزت مع نهاية القرن الرابع و بداية القرن الخامس الهجري ، على يد مجموعة من الأدباء، الذين نعموا برفاهية العيش و رغده في بلاط الدولتين الصنهاجية و الحمادية ،لما استقامت الحياة في المغرب و تطور المجتمع حيث مال الناس إلى مخاطبة بعضهم بعض بصور الدعابة و الهزل، بالإضافة إلى روح التنافس بين الأدباء و الشعراء في من يأخذ المكانة و يحظى بالقرب من الأمير و ينال الحظوة لديه، مما ولد

بعضا من المنافسة، التي تعددت صورها لتصل إلى حد القطيعة و المنافرة بينهم ، ووصل الحد إلى تأليف كتب ساخرة للحط من قيمة المنافس ،والعمل على تحطيمه نفسيا ،وهذا ما حصل بين "ابن شرف" و "ابن رشيق" في منافراتهم النثرية الجميلة .

لقد تضافرت عدة عوامل لتجعل الشخصية المغربية مؤهلة لاحتضان الفكاهة سلوكا ونمط حياة ، تجسدت في بيئة فاتنة، ومناخ حضاري يكرس ثقافة اللهو، وواقع سياسي يبعث على الانكسار ، ومنافسة تيار فني أندلسي جارف ومشرقي حارق... ، ينقل الظاهرة من إطارها السلوكي إلى مجالات إبداعية أكثر رحابة " فأصبحت طرائقهم في السخرية والفكاهة – وخاصة طريقة ابن رشيق و ابن شرف – مطلبا يحاولون بلوغه، ومنها: ما أورده "ابن رشيق"، قال جلست يوما في دكان أبي لقمان الصفار ، مع جماعة من شعراء القيروان ، وأبو لقمان و الدركادو [(1)] يلعبان الشطرنج ، ونحن نضحك لما يجري بينهما من غريب المهاترة .

فقال الدركادو : أجز يا أبا لقمان : حيتان حبك في طنجير بلوائي.

فقال أبو لقمان: و فحم وجهك في كانون أحشائي

قال أحمد بن إبراهيم الكموني قسيمك خير من قسيمه فزها أبو لقمان ، وقال : أدافع في بديع الشعر ، وهذا شعري في النهاية (الأباطيل ، والترهات) [(2)] .و هي صورة من صور مجالس الضحك والفكاهة في بلاد المغرب في عصر الازدهار الأدبي.

و روى لنا "ابن رشيق" لطيفة من اللطائف التي كان المغاربة يتندرون بها قائلا: دخل "بكر الصابوني" على صاحب له فوجد عنده جماعة من إخوانه يشربون منهم "ابن أبي حفص الكاتب" ،ورأى برزونه–حماره– قائما في السقيفة ، فقال لهم بكر ،كم لكم ها هنا ؟ف قالوا : كذا و كذا يوما.

فشرب معهم نهاره أجمع و ليله، وأراد الانصراف، من الغد فافتقد رداءه ودراهم.كانت معه ، وسأل القوم فما وقع على عين و لا أثر ، فقال لابن أبي حفص "سألتك بالله إلا ما نزلت بنا إلى

---

[1] الدركادو:هو عبد المالك بن محمد التميمي لقب بالدركادو ، شاعر، غزل الشعر مطبوعى، موجز الكلام ، قليل التكلف،ترجم له ابن رشيق في الأنموذج ،ساردا له مجموعة من الأبيات (ينظر: ابن رشيق: الأنموذج،ص221–225)

[2] حسن حسني عبد الوهاب :ورقات عن الحضارة الإفريقية ،ج2،ص 430–431.

هذا العبد الصالح فاستوهبت لنا منه دعوة بأن يفضح الله سارقنا أو يجمع علينا ما راح منا ، فإنه صائم النهار قائم الليل".

فقال : ابن أبي حفص– و أي عبد يكون هذا–؟ قال بكر : برذونك : ياسيدي .

فضحك الجماعة، وجبروا ما ضاع [1].

وسواء أأقدم المغاربة على الفكاهة – ببعديها التهكمي الساخر أو الفلسفي الباسم – إقبالا على طبيعة خاصة تدعو مفرداتها إلى طرح كل ما من شأنه أن يعكر الصفو، أو نقدا للذات – فردية وجماعية – أو سموا على انكسار نفسي ولده واقع سياسي مترد، أو محاكاة لتيار فني مشرقي فإن الفكاهة شاعت لديهم شيوعا صبغ سلوكهم بميسمها الخاص فأضحت سمة أصيلة من مكونات الوجدان المغربي وأصبح نزوعهم إليها " يكاد يكون شاملا ...حتى لقد توفر عليها جماعة الأمــراء والفقهاء والوزراء، بل كانوا يمتدحون أهلها ، ويــشيرون إلى خصائصها المتميزة في الإنسان ولو كان عالما.

وامتد تأثير الفكاهة ليشمل إبداعهم النثري الذي استجاب لسلطانها استجابة فاقت الشعر، فراح يشاركه في إشاعة الروح الهزلية " بل أخذ النثر يحفل بالاهتمام، ويحتل ما كان يؤديه الشعر من دور، ولعل هذا التفوق للنثر في هذه الآونة في هذا المجال ، يرجع إلى الرفعة الذهنية ، والتقدم الحضاري، فضلا عن صيرورة النثر أداة طيعة لدى الكتاب الذين جل أثرهم في القرن الخامس الهجري.

ومن خلال النماذج الكثيرة للطائف الأدبية التي أوردها "ابن رشيق" و "ابن شرف"... وما جرى بينهما من نقائض و منافرات في شكل رسائل مكتوبة ومؤلفات، لم تصلنا سوى عناوين لها ،منها: نسخ الملح و فسخ اللمح ،و ساجور الكلب–طوق الكلب_، نجح الطلب ، و قطع الأنفاس و رفع الإشكال،ولمح الملح لابن شرف.. و غيرهما ، وقد وأورد منها ،"حسن حسني عبد الوهاب" في عدد من مصنفاته ، كما أورد "الشاذلي بويحي" في كتابه "الحياة الأدبية بافريقية في عهد بني زيري"...صنفا منها، وبفضلها تعرف القارئ إلى جانب عظيم من نفسية المغربي وميولها في مجالسها العامة و الخاصة ،والى طرائق أحاديث نواديهم ،وظريف فكاهاتها ،مما

[1] حسن حسني عبد الوهاب :ورقات عن الحضارة الإفريقية ،ج2،ص 421–422.

يصلح أن يكون مرآة صافية تعكس لنا فيها صورة حضارتها ،وبرهانا صادقا على رقة شعورها و جودة عواطفها .وكما اعتبر الفلاسفة الفكاهة معيارا لحضارة الشعوب ،والدعابة عنوانا لتمدنها ،فبقدر ما ترق النكتة و تجود الملحة ،يدرك الباحث رقة طبع العنصر المنسوبة إليه و عراقته في الثقافة و التهذيب، ومنه فقد ظهرت طائفة من الكتاب عنيت بالكتابة والتأليف في مختلف الأغراض، كما انتشرت في هذا العصر المكتبات التي تضم الكتب النفيسة. وعكفت طائفة من الكتاب على تأليف كتب جديدة منها ما وصلنا ومنها ما ضاع للأسف ،أو لم يكشف عنها ومازالت حبيسة الأدراج:

1-سيرة الأستاذ جوذر وبه توقيعات الأئمة الفاطميين للمنصور الجوذري:

هو أبرز كتاب في فن التوقيعات في العهد العبيدي ، ويمتاز باشتماله على وثائق رسمية ،صدرت من أمراء الدولة إلى الرجل الأكثر وفاء و المعروف عنه بالكتمان ألا وهو جوذر الصقلي لأن قيمة الأسرار التي عهدت إليه مهمة جدا وخطيرة ،خاصة ما تعلق بولاية العهد ، أو الخاصة بعلاقة أفراد الأسرة الحاكمة بالإمام أو الأمير، أو الخاصة برأي بعض الأمراء في البربر أو في أشخاص ولاتهم...وغيرها.

فمن الناحية التاريخية يقدم الكتاب لنا صورة واضحة عن شخصية هامة في عهد الدولة العبيدية والذي يعد الرجل الثالث في هرمها، والأهم من ذلك أنه يحوي عددا مهما من الوثائق الرسمية مشفوعة بإيضاحات موجزة ،عمل المؤلف وهو القريب من شخصية جوذر على جمعها، ومن خلالها تصوير مجمل حياته التي كانت بالطبع في خدمة الأمراء العبيدين ودولتهم ، مع التزام الحياد و الموضوعية التامة في طرحه ،مع تطعيم تلك الوثائق بإيضاحات مهمة تقود القارئ إلى الفهم السليم لها،أو للربط السياقي بينها .

وقد وصلتنا هذه الوثائق عن طريق "منصور الكاتب"، حين جرت بين سنة(323هـ) تاريخ أول توقيع وسنة(363هـ) تاريخ وفاته، وهي تمثل صورة حية لأربعين عاما من حياته في ظل الدولة العبيدية ، ولكن المؤلف اكتفى بنسخ بعض التوقيعات فقط التي تصور حياة

جوذر.فيقول في ذلك: "ولو تقصيت الكل –كل التوقيعات–لطال بنا الكتاب...وقد أثبت في كتابنا هذا ما يجب ذكره وأباح الله ووليه إظهاره وتركنا ما سوى ذلك كراهة اكتساب الآثام و التجاوز إلى المحظور [1].

وقد لازم المؤلف "جوذر" في السنوات الثلاثة عشر الأخيرة من حياته (350–363هـ) [2]،كما وتقلد منصبه بعد وفاته فانتقلت إليه كل الوثائق خاصة منها رقع الرسائل و التوقيعات وكل ما أبدعه الأمراء العبيدون من نثر و أدب. وفي هذا يقول "المنصور الجوذري: "أنه لما استخدمني مولاي الأستاذ جوذر كاتبا بعد وفاة كاتبه رشيق ، وكان ذلك سنة خمسين وثلاثمائة ، وآثرني بما أنالنيه من جزيل الرتبة و شرف المنزلة عنده، وجعلني واسطة بينه وبين الخدام تحت يديه، واستحفظني على ما يجري بينه و بين مولانا و سيدنا الإمام المعز لدين الله من الأسرار مما تضمنته التوقيعات ، وجرت به المشافهات ، والكتب الواردات عليه من كل الجهات " [3]، ومن خلال هذا فالقارئ يطمئن على ما في الكتاب ،من الناحية المعلوماتية ،ويمكن أن نعتبر كتابه هذا مرآة حقيقية لما انتجه الأمراء العبيدون، وعلى ضوء أسلوبه يرى القارئ أمانة المؤلف ودقته ،خاصة وتعليقاته الصائبة التي تضفي على التوقيعات قيمة كبيرة.

كما أن مجمل ما ورد من رسائل وخطب و توقيعات و أخبار في الكتاب، تعتبر من الناحية المنهجية وثيقة يعتمدها الباحث و المؤرخ ، ليستمد منها آراء لنقد المصادر المتعددة بالتدعيم أو بالتعديل أو بالنفي ،كما تضيف إلى أخبار هذا العهد معلوات جديدة . ومن بعض مما في هذا الكتاب: أنه يذكر أمراء الدولة العبيدية على أنهم أئمة ومنتجي للأدب و أسلوبهم أخاذ [4].كما أن التوقيعات التي جاءت في الكتاب أبرزت هذا الفن الراقي الذي وجد بالمغرب،و دعمت هذه التوقيعات ما ورد في جل المصادر من الثناء المطلق بصنيع كتامة وإلى الصلة الوثيقة بينهم

---

[1] الجوذري : سيرة الأستاذ جوذر وبه توقيعات الأئمة الفاطميين،تقديم وتحقق:محمد كامل حسين ومحمد عبد الهادي شعيرة،دار الفكر العربي،مصر،دت،ص 11–12.

[2] نفسه ،ص 12.

[3] نفسه،ص 23.

[4] نفسه ،ص12.

وبين أمراء الدولة العبيدية ،وتشير توقيعات الكتاب إلى الكثير من الحوادث الكبرى، مثل الحملات العسكرية في المغرب و نحو مصر ،وحتى نحو صقلية ،ووصف الأساطيل العبيدية.

كما أنه يبين فن السيرة من خلال سيرة "جوذر" ..وأشارت هذه الوثائق إلى الرسائل التي كانت تتبادل بين الأمراء العبيدين وبين قوادهم في جبهات القتال ،كما سجلت لنا مجموعة من الخطب التي ألقاها أمراء الدولة ، كما ذكت وصفا جميلا لمعارك كبيرة خاصة أثناء الحرب ضد الخارجي.كما يبين لنا الكتاب طبيعة ديوان الكتابة و بقية الدواوين والتي تولاها "أبو جعفر المروزي"،وهو الذي كتب إحدى خطب المنصور عند انتصاره على الخارجي.

كما يحفل الكتاب بالإشارات إلى الإدارات العبيدية وهي ضمن التوقيعات، و تورد لنا أسماء الدواوين و الولاة كخزائن البحر ودار الصناعة و المراكب و الأساطيل، ودار الطرز وضرب السكة بيت المال...وغيرها،ويذكر لنا الخدم الصقالبة و السودان و الصبيان و الغلمان ،وعمال البريد، وقضاة النواحي ...وغيرها.

يمثل أسلوب المؤلف في كتابه ، خصيصة ميزته ودلت على شخصيته، ويمكن أن نكتشف عددا من الأساليب في الكتاب ، وهي: أسلوب المؤلف فيما أورده من تعليقات ومقدمات للتوقيعات ،وأسلوب التوقيعات و المشافهات التي صدرت عن الأمراء العبيدين . كما ان الكتاب هو صورة مختلفة من تلك الأساليب التي انتشرت بالمغرب في النصف الأول من القرن الرابع الهجري، كما أن الكثير من النصوص التي أوردها الكاتب ،من توقيعات و خطب و مشافهات ،ومقطوعات شعرية لم يرد ذكرها في مصادر أخرى ،ولذلك فقيمة الكتاب الأدبية كبيرة ،فهو مصدرا مهما لعدد من النصوص الأدبية كما يببين اتجاهات أسلوب الكتابة و أسلوب المشافهة في القرن الرابع الهجري .

ودارس الكتاب يتبين له ولأول وهلة أسلوبين مختلفتين من أساليب الكتابة، أولهما أسلوب الصنعة والذي يتجلى في الخطب التي أوردها المؤلف ،كما هو الحال في خطية المنصور عند انتهائه من حرب الخارجي ،فقد ظهر بمظهر رجل الحرب و السياسة، مطعما ذلك بعلمه وأدبه مع العلم انه أديب متذوق للأدب لذلك جاءت خطبته مطبوعة بالصنعة اللفظية و البيانية ، فاكتسبت الألفاظ و لعبارات نغما موسيقيا وجرسا بيانيا ، يزهو بعبق الانتصار، وجزالة في التعبير ،وميل إلى اصطناع الأسجاع ،وتوشيح العبارات بتضمين آيات الذكر الحكيم والأحاديث

النبوية .والاستشهاد و الاقتباس منهما .كما يتخيرون ألفاظهم بعناية فائقة، حتى تكتسب العبارة أسلوبا خاصا،مع الزهد في الاستعارة و الكناية ،وإيثار المرونة في التعبير على نحو ما عهده كبار الكتاب و الخطباء .

كما نجد نوع آخر من الأسلوب ، وهو ذلك المرسل الذي يطلقه الأمراء في مشافهاتهم دون تعمد أو صنعة، بل على السليقة ، بمقدار ما تتخيره سليقتهم من ألفاظ وعبارات ،مع العلم أن أمراء الدولة العبيدية أدباء و شعراء و متذوقين للأدب، وأسلوب التوقيعات جاء عفو الخاطر ، نتيجة أمر طارئ على العموم ودواعيها تحتم على الموقع ذلك فهي في عمومها ليست رسمية ،وهدفها طلب تنفيذ أمر ما ، أو تقريب فكرة معينة ــ أو إسرار حديث برجل بعينه ، وفي مثلها لا يدعو مقتضى الحال إلى العناية بالأسلوب حد التأنق.

والكتاب غني بالكثير من الرسائل و الخطب و التوقعات... وغيرها من الفنون الأدبية منها:رسالة المنصور" إلى "جوذر" يعلن فيه موت القائم:" كتب المنصور وهو يطارد مع والده الخارجي"صاحب الحمار في بلاد المغرب الأوسط إلى مولاه جوذر،رسالة فيها من الأخبار و والأوامر، و خبرا عن موت القائم بأمر الله ، موصيا إياه بالسير بالأمور كما كانت في عهد القائم ، ومما جاء في الخطاب : وأقول بعد الصبر و الاحتساب:الحمد لله على جميع الأحوال، قد تعلم اللهم أني طالما ناجيتك في ظلم الليالي مبتهلا متضرعا إليك أسالك ألا تشهدني فقده و لا تحييني بعده ، فأبى قضاؤك الماضي وحكمك النافذ،فصبرني على ما ابتليت ،و أرضني بما قضيت ، وصلوات الله ورحمته وبركاته ورضوانه على جسمه المطهر وروحه المقدس،في الدنيا و الآخرة"

وعندها عرف الناس موت القائم ، وكان قبل ذلك قد أخفى موته لكي لا تفتر عزيمة الجند ،وهم يقاتلون "ابن كيداد" .فلما انتصر أذاع الأمر. (1).

و الأمر نفسه في رسالة" المنصور" إلى "جوذر" بشأن هدية ملك الروم، كتب عند وصول هدية من قبل الروم، فأراد المنصور أن يرسل مع رسول روما بدوره هدية قيمة وبأحسن مما جاءوا بها وأفضل منها ، فكتب إلى جوذر وهو أمين بيت المال والمسئول عن ذاك ،يأمره أن

[1] الجوذري : المصدر السابق ، ص 46 –47.

يحمل إليه بأشياء وصفها له من الخزائن التي تحت يديه ،ومما يصلح كهدية قيمة لملك الروم،ومما جاء في الكتاب:" وأنا اعرف من حرصك على ألا يكون في الدنيا شيء حسن إلا وهو عندنا و في خزائننا مما أضنه يحملك على الشح على النصارى بمثل هذا الذي أمرنا بإنفاذه إلينا ، فلا تفعل ، فإن ذخائر الدنيا في الدنيا تبقى ، وإنما ادخرنها لمباهاة الأعداء، والدلالة على شرف أنفسنا و علو همتنا ، وسخاء قلوبنا بما تضر به النفوس ويشح به كل أحد "[1].ويتضح من الرسالة أن المنصور له نظرة متبصرة للدنيا وزخارفها المتنوعة الفانية، و على سماحة نفسه وجوده وكرمه .

ومنها أيضا: رسالة المنصور إلى" جوذر" في أهل القصر":كتب المنصور إلى الأستاذ بما أثبته من الرسوم و الوظائف لأهل القصور عامة ولحرمه خاصة ،و آثر عامة أهل القصور بزيادة ما رسمه لحرمه وخاصته[2]. وهذا النص يفيد أن "جوذر" كان يحتفظ بما كان يصدر إليه من توقيعات الأئمة، ومن هنا استطاع مصنف هذه الكتاب المهم أن يجمع فيه تلك المحفوظات التي آلت إليه بعد وفاة جوذر.

وبهذا فالكتاب ذو قيمة أدبية رفيعة، حفظ لنا عددا من الأشكال النثرية المغربية للأمراء الدولة العبيدية، ومن خلاله نستطيع أن نحدد طبيعة هذه الفنون وأنواعها و خصائصها و أسلوبها .

كما أن هناك مجموعة من التآليف ذات الطابع الأدبي في القرن الرابع الهجري، ومنها كتاب "المجالس و المسايرات"، وهو كتاب متعدد الجوانب و الاهتمامات بالإضافة إلى قيمته التاريخية و الوثائقية و المذهبية فإن قيمته الأدبية متميزة.وهو قطعة أدبية رائعة، يمتاز بأسلوبه السهل، كما يمتاز بالانسجام الكبير بين ألفاظه ومعانيه، والكتاب يعد انعكاسا صادقا للأدب الشيعي الإسماعيلي في عصوره الأولى.

---

[1] نفسه ، ص 61.

[2] نفسه، ص 61.

أما كتاب" تلقيح العقول للأديب "بري بن أبي اليسر الشيباني" فهو عبارة عن مجموعة من الأمثال.ويقع في مائة وسبعة و خمسين بابا ،من الأبواب الصغيرة،وقد ألفه في بداية عهد المعز لننا لم نصل إليه [1].

وفي عهدي الدولة الصنهاجية و الحمادية كان للحكام دور كبير في تشجيع الأدباء على التأليف، فظهر نوع من النثر التأليفي المتأثر بنثر الجاحظ وكتاباته في البيان و التبيين و غيرها، ، فقد ألف "الحصري" ثلاث كتب ،من مثل "جمع الجواهر في الملح والنوادر"و "المصون في سر الهوى المكنون".

2-المصون في سر الهوى المكنون للحصري:

يقول "الشاذلي بويحي" عن أن مؤلفات "الحصري"[2] أنها تجسد لنا ضربا من صنوف الأدب المتخصص، وهو "الأدب عن طريق النصوص، وتقدم أمثل نموذج منه في اللغة العربية"[3]، و كتبه تتكامل في ثالوث يعتمد على تعليم الأدب بطرقة مباشرة ،وهي التي تضع القارئ اتجاه نماذج من الأدب عديدة ومتنوعة يستطيع أن يلقن منها بطريقة مباشرة دون وسيط ، بما تتضمنه من صنوف أدبية متنوعة في فسيفساء منسجمة ذات قيمة وجمال ،كما يجمع محتارات منتقاة بعناية ومنهجية عالية لأحسن الكتاب و الشعراء في عصره ،مستجيبا لما تمليه عليه دقته وذوقه العاليين ،واستجابة لرغبة الناشئة المغربية في القيروان المستمتعة و المتذوقة لمثل هذا الأدب الزاخر والولد.

ويمكن لنا أن نقف عند هذه الكتب بالشرح و التفسير، ومنها:كتاب "زهر الآداب وثمر الألباب" ذو القيمة الأدبية ومختصره عرف أيضا بـــ "نور الطرف ونور الظرف" ، ويقع في جزء واحد ، كما يسمى أيضا، "كتاب النورين". وتفرد "ابن بسام" وحده بالقول هو : كتاب ،" النور والنور"، وكتاب "زهر الآداب وثمر الألباب" جعل الحصري في مصاف مؤلفي المجاميع

1يوسف بن أحمد حواله : الحياة العلمية في إفريقية (منذ إتمام الفتح إلى منصف القرن الخامس الهجري) سلسلة بحوث الدراسات الإسلامية، مكة،،ج2،2000، ص187.

[2]إبراهم الحصري (ت 413هــ)":هو إبراهيم بن علي بن تميم الأنصاري، "أبو إسحاق الحصري" أديب وناقد وشاعر من أهل القيروان. نسبته إلى عمل الحصر ، وهو ابن خالة الشاعر أبي الحسن الحصري ناظم (يا ليل الصب).له عدة مؤلفات أدبية جد مهمة في ملح الشعر و الخبر.(ابن رشيق : أنموذج الزمان، ص45-49).

[3]الشاذلي بويحيى :المرجع السابق،ج2،ص722.

الأدبية المشهورة مثل الجاحظ ، والثعالبي، والمبرد، وابن عبد ربه، وعبد الكرم النهشلي التاهرتي، وابن رشيق المسيلي القيرواني... وغيرهم .

حذا الحصري فيه حذو الجاحظ في كتاب "البيان والتبيين" ،حيث تتألف مادة الكتاب الأدبية من مختارات شعرية ونثرية ، ونوادر،وهو لا يتقيد بموضوع أدبي محدد،كما لا يتقيد بالحديث بالوحدة العضوية في الموضوع فهو ينتقل منه إلى غيره ثم يعود إليه ، ثم يأتيك بنبذ نقدية ،لذلك سماه زهر الآداب دليلا على انه يقطف من كل بستان زهرة . وأثنى عليه القدامى و المحدثون ــ فهذا "أبو القاسم كرو وعبد الله شريط" ، في كتابهما: "شخصيات من المشرق والمغرب"يقولان: "أن إبراهيم الحصري تبنى منهجية لا تختلف عما كانت تسير المجاميع الأدبية عليه في نهج بين التنويع والتلوين"، وفي ظن "عبد الجبار الشريف وعلي دب –أن كتاب زهر الآداب "يعد من أهم كتب الأدب الخالص، بما اشتمل عليه من مضامين وقيم أدبية واجتماعية ونقدية وتاريخية، ووصفية"[(1)].

ومن مؤلفات الحصري أيضا التي بلغت شهرة عريضة: كتاب "المصون في سر الهوى المكنون" وقيل الدر المكنون، ويقع في جزء واحد، وهو ذو قالب أدبي طريف في بابه، إذ هو كما يقول "الشاذلي بويحي" موضوع الحب المكتوم في الصدر وهو دراسة تحليلية لعاطفة الحب في مظاهرها " ويرى أن هذا الكتاب ربما يكون أصلا لكتاب "طوق الحمامة في الألفة والآلاف" ، "للأديب الأندلسي ابن حزم القرطبي"" المعاصر له [(2)]، "لكن محقق المصون لم يجزم أيضا بمن تأثر بالأخر ،لأنه حسب تحليله فالكتابان مختلفان جذرين"[(3)].ومهما يكن فإن الحصري قد فاق في خطته "ابن حزم" ،ذلك لان كتاب طوق الحمامة يعتبر في عرفنا الحاضر مذكرات شخصية ،أما كتاب المصون فأنه كتاب علم و أدب.

والكتاب عبارة عن محاورة ،نسبها الحصري إلى أليفين ، لا يسميهما ، ولكن أحدهما سائل ، والآخر مجيب.وموضوع المحاورة المعلن عنه هو مسائل في الهوى و حالاته و مراتبه

---

[1]أبو القاسم كرو وعبد الله شريط:المرجع السابق،ص134.

[2]الشاذلي بويحيى :المرجع السابق،ج2،،ص725.

[3]إبراهيم الحصري:المصون في سر الهوى المكنون ،تح:النبوي عبد الواحد شعلان،دار سحنون للنشر و التوزيع، تونس ،1990،ص23.

و درجاته و"المصون في سر الهوى المكنون" اتخذ فيه "الحصري" موضوع كتم سر الحب مكانة محورية في مؤلفه ولذلك فالكتاب يدور عموما حول مشاعر الحب، و آلاف الصور التي يتجلى بها علانية، ولا يكتفي المؤلف في هذا السياق بالاستشهاد بكتاب عرب يعتد برأيهم، بل يعرض لنا أيضا آراء الفلاسفة اليونانيين، كما اعتمد فيه على أسلوب الحوار الذي تخلل مجمل صفحات الكتاب.

كما يقدم للقارئ ضربا خاصا من ضروب العشق في التراث العربي الإسلامي، بما أورده من مصطلحات صوفية لا يمكن أن توظف في الغزل، وهي تتحد بين العاشق والمعشوق عبر رياضة الصمت، ورياضة الذكر الصامت هو الغاية المثلى، فتفقد اللغة معناها في هذه الحال.

إن تنظير القدماء لهذا الصنف من العشق مثلما فعل "إبراهيم الحصري" في كتابه ليس منعزلا فيما نرى عن تفشي ظاهرة التصوف ابتداء من القرن الخامس الهجري، لقد كتب الكثير عن العشق في التصوف، فكان كتاب الحصري "المصون" في الإمكانية الأخرى، أي دخول التصوف في العشق.

إن المتتبع لمؤلفات الحصري، يرى أنه يسير على طريقة كتابات المشارقة كالجاحظ في البيان و التبيين ،وكتابات القالي في الأمالي و في كتابات الزجاجي في أماليه و في كثير من كتب تراثنا العربي ،و الذي يميز المصون عن الكتابين الأخريين فهو أنه حدد العنوان ومنه بين منهجه في دراسة مضمونه وأجزائه وما يتصل به من قريب و بعيد.فقد قصر الحديث فيه عن الحب و ما يتصل به من عفة و كتمان سر و ضن وهجر وما إلى ذلك.

كما وضع المحقق عناوين فرعية للكتاب ليسهل على القارئ معرفة ما يقرأ، و يتحدد في ذهنه الموضوع الذي يقوم بقراءته و كان في هذا ما فيه من المشقة و الجهد(1).

و الكتاب مليء بجوانب علمية وأدبية و نقدية، وكان الرجل موفقا في اختياراته و تعليقاته، ذوق رفيع و أدب عال و مقدرة فائقة على التعبير وحسن الاختيار.كما أنه فسيفساء متنوعة من الأخبار و الأشعار، والرسائل، والوصايا ، وأقوال الحكماء...، و القارئ لهذا الكتاب لا يعسر

---

[1]إبراهيم الحصري:المصدر السابق ،ص23.

عليه أن يلاحظ ظاهرة شائعة في مجموع صفحاته ابتداء من المقدمة هي ظاهرة السجع. يقول المؤلف في سبب تأليفه للكتاب:"قال من رقت حواشي فهمه ،ودقت معاني علمه ،وأنجبت بنات فكره ،واتسعت موارد صدره لتوليد عقائل الكلام الرقيق ، وتنضيد فواضل النظام الأنيق ، فوشى ديباج هذا النمط المصون في سر الهوى المكنون ببدائع الأوصاف،وروائع الأوصاف [1]:

صور المعاني بالتأمل تجتلى* أبكارها في الخط و الألفاظ

فانظر لنزهة لحظ فكرك إنما*تجلى الحسان لنزهة الألحاظ

ويضف قائلا: "التقى أليفان نشآ في عراص الصفاء، ورتعا في رياض الوفاء ،وألفا الاسترواح إلى مياته السرائر،وتالفا على استشارة ما في الضمائر ،وكانا إذا اجتمعا رجعا و قد قدح الاجتماع نارهما ،وأسرج السماع أفكارهما ،وكانا إذا استسقت العقول أزاهر أخلافهما ،وتطمع النفوس معسول مذاقهما ،وتصفحت القلوب أعراض غرائزهما...فكان علمين في ثوب الطرف ،ونجمين في فلك اللطف ،قد غذيا بدر الفهم وربيا في حجر العلم ،فهما ،يحلان دقائق الإشكال ، ويفتحان مغالق الأشكال" [2].

وقد أورد المؤلف أقوالا كثيرة ومواقف عديدة لحكماء ووعاظ ، وفقهاء ،وأمراء و أدباء و شعراء...وغيرهم ، من مثل قوله:قال "أحمد بن إسماعيل الكاتب":مطارحة الشكوى على قدر البلوى، إلا أن يكون بالشاكي انقباض ،وبالمشكو إليه إعراض[3].وقال بعض الحكماء :"الحب قسطاس العقول ،وجلاء الأذهان ،ينفي عنها الأذى و القذى ،كما ينفي الكير خبث الحديد"[4]،"وقال بعض التراجمة:العشق ارتياح يجول في الأرواح ،وجوهر فلكي تنتجه النجوم بقدر مطارح شعاعها ،وتولده النفوس بوصلة أشكالها ،وتقبله الأوهام بلطف جواهرها ،وهو بعد

---

[1]نفسه ،ص29.

[2]نفسه ،ص29.

[3]إبراهيم الحصري:المصدر السابق ،ص33

[4]نفسه ،ص35.

جلاء للعقول ما لم يفرط ،فإذا أفرط عاد سما" [1].ومنه أيضا ما أورده عن بعض الفقهاء المشهورين الذين تحدثوا عن الحب من مثل ما أورده عن "الزبير بن أبي بكر"حين قال:" قدمت المدينة امرأة من هذيل ، وكانت جميلة ،ومعها ابن لها صغير ،وهي أيم ،فخطبها الناس و فأكثروا ،فقال "عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود"[2]:

أحبك حبا لن يحبك مثله*قريب ولا في العالمين بعيد

وما جاء عن الفقيه الكبير"سعيد بن المسيب" عندما سمع ،قول "عبد الله بن محمد نميري الثقفي" :

فلم تر عيني مثل سرب رأيته* خرجن إلى التنعيم معتمرات

نزلن بفج ثم رحن على منى* يلبين للرحمن مؤتجـــــرات

ولما رأت ركب النميري أعرضت*وكن من أن يلقينه حذرات

دعت نسوة العرانين ندبـــــا* أوانس لا شعثا ولا عفــرات

فقال :هذا و الله مما يحسن استماعه ،ويلذ إنشاده [3].

كما ويورد أقوال متعددة "للجاحظ" ،من مثل تعريفه للعشق و الحب: "قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: كل عشق يسمى حبا، وليس كل حب يسمى عشقا ،لأن العشق اسم لما فضل من الحب ،كما أن السرف اسم جاوز الجود، و البخل اسم لما قصر عن الاقتصاد، و الجبن اسم لما فضل من شدة الاحتراس، والهوج اسم لما فضل عن الشجاعة "[4].

[1]نفسه ،ص35.
[2]نفسه ،ص39–40.
[3]نفسه،ص40–41.
[4]نفسه ،ص79.

ويعرض المؤلف لأقوال الفلاسفة اليونانين ، منهم أفلاطون وما قاله عن مكانة السمع و البصر من القلب ،حين قال: "لما قيل لأفلاطون : أيهما أشد ضررا بالقلب السمع أو البصر ؟ فقال هما للقلب كالجناحين للطائر فلا ينهض إلا بهما، ولا يستقل إلا بقوتهما ،وربما قص أحدهما فتحامل بالأخر على تعب و مشقة ،قيل فما بال الأعمى يحب و لا يرى، و الأصم يحب و لا يسمع ؟ قال لذا لكما قلت : أن الطائر قد ينهض بأحد جناحيه، ولا يستقل به طيرانا، فإذا اجتمعا كان ذهابه أمضى و طيرانه أوحى[1].

ومنه أيضا "فيثاغورس" فقد تكلم عن مبادئ الهوى، بقوله:" العشق طمع يتولد في القلب ،ويتحرك وينمى، ثم يتربى، و يقوى، ويجتمع إليه مواد من الحرص، وكلما قوي ازداد صاحبه في الاهتياج و اللجاج، و التمادي في الطمع، و الفكر في الأماني، و الحرص على الطلب ،حتى يؤديه ذلك إلى الغم و المقلق ..." [2]. أما جالينوس : فيرى أن العشق من فعل النفس، وهي كامنة في الدماغ و القلب و الكبد، و في الدماغ ثلاث مساكن: التخيل، وهو مقدم الرأس، و الفكرة وهو في وسطه، و الذاكرة وهي في مؤخره ،فليس يكمل لأحد اسم عاشق حتى يكون إذا فارق من يهوى لم يخل من تخيله و فكره وذكره و قلبه و كبده ، فيمتنع عن الطعام و الشراب باشتغال الكبد، ومن النوم باشتغال الدماغ بالتخيل ، و الذكر له، و الفكر فيه ،فتكون جميع مساكن النفس قد اشتغلت، فإذا لقيه خلت المساكن" [3]. ولعل إيراده لكل هذه الآراء تنم عن سعة ثقافته و تبحره فيها، وتنوع مصادرها من عربية و إسلامية إلى يونانية.

ومن العناوين الفرعية و الكثيرة التي وردت في الكتاب ،من يعيب العشق و يقع فيه" ويذكر أمثلة كثيرة عن ذلك ما رواه عن النميري قال: ما رأيت شابا و لا شيخا من ولد العباس أصون لنفسه ،ولا أعف فرجا و لا لسانا من أبي العباس بن المعتز، وكان يعيب العشق، ويقول:هو طرف من الحمق ، وإذا رأى منا مطرقا أو مفكرا اتهمه بهذا المعنى ، ويقول :

[1]إبراهيم الحصري:المصدر السابق ، ص55.

[2]نفسه ،ص75.

[3]الحصري :المصدر السابق ، ص76.

وقعت و اله يا فلان ، وذهل عقلك ن وسخف رأيك، إلى أن رأيناه قد حدث سهو شديد و فكر دائم ، وزفير متتابع، وسمعناه ينشد[1]:

سل بحق الله عينيك عنى*هل أحســـت في الهوى بقتيل

أنت نغصت حياتى بهجر*ومماتى بحساب طويـــــــــل

كما نجد عنوانا آخر "مذلة الملوك أمام العشق"، وفي هذا يقول:" وكم من ملك قاهر وسلطان قادر، تذل لهيبته الأملاك ،وتذعن لسطوته الفتاك أذله الهوى و أهانه، وأذل عزه و سلطانه.ويورد أمثلة شعرية عن خلفاء بني العباس ، فهذا المهدي يقول :

أما يكفيك أنك تملكينـــــــــي*و أن الناس كلهم عبيـــــــدي

وأنك لو قطعت يدي ورجلي*لقلت من الهوى أحسنت زيدي [2].

وهناك الكثير من العناوين المتدرجة ،من مثل :"أثر الهوى في أبواب الفضائل" ،"ما يريد ذكره من مسائل الهوى" ،"ما يثير كوامن الحب" ،"أسباب تغير المحبة ،"أول الحب "،"النظرة في الحب" ،"مكانة القلب من الأعضاء"،"ومكانة السمع و البصر من القلب"،"منزلة الحب من العقول"،الحب أغمض من الروح في الجسد ، أراء بعض الفلاسفة في مبادئ الهوى ،العشق من فعل النفس ،أصناف الصداقة و العداوة أجناس الحب، من أقوال الجاحظ في البيان و التبيين، الحيلة وأثرها في الوصول إلى الغرض ،حيلة يوحنا في الوصول إلى غرضه وهي حكاية أوردها "الجاحظ" ونقلها" الحصري عنه في حيلته للوصول إلى ابنة الملك التي هواها "[3]، "كتمان الحب، التستر في الحب، دعائم المحبة، العفة والصفاء و الوفاء ،علل الحب ،وأنواع الهجر،البعد في الحب، البعد مع الصد، توقع البين قبل و قوعه ،بعض ما قيل في البين ، رياضة

---

[1] نفسه ، ص42-43.

[2] الحصري:المصدر السابق ،ص45.

[3] الحصري :المصدر السابق ص94-97.

القلوب بالصبر على البعد، الفراق و اليأس من اللحاق، السر في بكاء الديار و الآثار و ما قيل في ذلك ... "[1].

والكاتب يعرض بالنقد لكل ما أورده من شواهد و حجج وكل ما قيل في الموضوع . والملاحظ أن الحصري لا يغفل عن حسه النقدي و روحه الثاقبة الناقدة فهو كلما أورد أشعارا علق عليها ، ومن ذلك :قول ابن المعتز ،عندما خاف على سره أن يفتضح ، وأشفق على آمره أن يتضح، فقال:

لما رأيت الحب يفضحنى*وقضت علي شواهد الصب

ألقيت غيرك في ظنونهـــم*فسترت وجه الحب بالحـــب[2].

فيعلق "الحصري"على ذلك بقوله: "إن قول "ابن المعتز" أخذه من قول "يحي بن أكثم "، لما ولى القضاء في عهد المأمون، وقال له : اكتم ما وليتك حتى أمرك بإظهاره، ووضع عليه أصحاب الإخبار ،فأتوا إليه يقولون ،إنه قد بلغنا عن يحي أنه ولى قضاء البصرة ،فقال له المأمون : كيف ذاع هذا الأمر ؟ فقال أنا أذعته يا أمير المؤمنين . قال : ولما ؟ قال لأنه لا يستقيم كتمان سر إلا بإذاعة غيره و إلا وقعت ظنون الناس عليه . فانتشر مطويه ، قال صدقت" [3].

أما عن أسلوبه في المصون، يطغى عليه السجع و يبدو فيه الالتزام في الموازنة بين جملتين أو أكثر، مما يحدث وقعا موسيقيا محببا، كما يبرز الجري وراء المحسنات البديعية كالجناس ، و الميل إلى استخدام التشبيهات على عادة الأندلسيين، و تعمد استعمال الألفاظ العلمية النحوية في شكل تورية – كالصحيح و المعلول و المصروف و المعدول- على طريقة العهد

---

[1] نفسه،ص97-110.

[2] نفسه،ص110.

[3] الحصري :المصدر السابق ،ص111.

العباسي، كما يلاحظ قصر الجمل المستعملة، لكن هذا لا يمنعه من إعادة الضمائر على ما هو بعيد، الشيء الذي جعل كتابته تمتاز بطول النفس.

و مثل هذا الأسلوب و إن كان مقبولا في المقدمة، وقد يحرص عليه كل المؤلفين في تلك الفترة، و يتعمدونه في مقدمات تآليفهم، لإظهار مقدرتهم في التعبير و البيان، و تلوين الكلام ،إلا أننا نجده في يجمل في كتابه من مواضيع ،وحتى خاتمته عندما يقول :"قد أريتك نموذج القول فيما أخذنا بعنانه ،وجلنا في ميدانه ، بما اتسع له ناظر الخاطر، وامتد فيه لسان الناظر ، و الباب عماره ،وأوقد ناره ، كثير الفروع ، غزير الينبوع ، ...و أنا استغفر الله من الاشتغال بفضول المقال و الأعمال وتو اسأله التوفيق إلى سواء الطريق، فله الصنع الخفي ، واللطف الخفي ،وصل الله على محمد أفضل نبي و أكرم صفي ، فتحت به الآخرة و ختمت به الدنيا." (1).

كما تبرز في الكتاب بوضوح ظاهرة الاستطراد و التقصي للأخبار و الإحاطة بكل ما له علاقة بالموضوع. وترجع ميزة الاستطراد ربما إلى طبيعة التأليف في عصره و التي كانت تعني إيراد الأخبار و تقصي الحوادث، و تسجيل النوادر و الحكايات، و الإشارة إلى التاريخ و القصص، و يتعدى تأثر بأسلوب نلمح ذلك في الوصف الذي تخلل كتابه في مواضع مختلفة، فنفسه الطويل، و دقته في نقل الموصف، و الوقوف على جزئياته، و اعتماده على التشبيهات، و التشخيص...من مثل ما ورد عن الفراق و اليأس من اللحاق حين يقول:" و أما إذا كان الفراق من الأحباب ، وقطعت المحب عن المحب اللحاق السباب فذلك السم القاتل، بل الموت العاجل، الذي لا تبلغه الوصاف، ولا يناله الوصاف، فكل رزء دونه يسير، وكل أمر دونه حقير ،و سأجول في بعض ما قيل في ذلك(2).

و عموما يمكن القول أن المغرب في القرن الرابع الهجري– ومع أتون الصراع الفكري المذهبي– ولد حركة تأليفية واكبت هذا الصراع فجاءت معظم كتب الفترة معبرة عن وعي ذاتي معبر عن صوت الحاكم من جهة ومعارضيه من جهة أخرى، ولم تخرج مصنفاهم عن إطار

---

1 نفسه ،ص200.

2 الحصري:المصدر السابق ،ص200.

الفقه و كتب الطبقات و التراجم وكتب التاريخ... ومع بداية القرن الخامس الهجري، تغيرت الصورة النمطية عند المغاربة وخرجوا من بوتقة الصراعات العرقية و المذهبية فانعكس ذلك إيجابا على حجم الحركة التأليفية حيث ازدهرت ونمت بتشجيع من أمراء الدول المتعاقبة على المنطقة ، مستفيدة من الجو العلمي و الاستقرار النسبي و الهجرات من و إلى المغرب والدعة التي رفل فيها المجتمع المغربي فشهد بذلك حركة تأليفية واسعة في الميدان الأدبي، فأنتجت مؤلفات ذات قيمة كبيرة سواء في النقد و الأدب والتي ذاع صيتها في زمانها واستمرت في إشعاعها إلى يومنا شاهدة على ما وصلت إليه بلاد المغرب من نهضة و ازدهار أدبي و علمي لم تشهده من قبل و من بعد.

وهكذا نصل إلى خاتمة هذا الباب الذي حاولنا فيه استقراء معظم أشكال النثر التأليفي في القرنين الرابع و الخامس الهجريين الذي استطعنا الوصول إليها، ولعلنا قمنا بحصر أهم مجالات التصنيف، ووقفنا عند أبرز المواضيع التي كتب فيها المغاربة، وعبروا من خلالها عن صور الحياة المغربية الزاخرة بالأحداث و الصراعات ،والإبداعات في جو حضاري لم تشهده المنطقة من قبل .

كما استطعنا أن نحدد أهم المراحل التي مر بها النثر التأليفي في القرنين الرابع و الخامس وبينا أن دخول النثر ميدان التدوين والتأليف، أصبح أداة يتم بواسطتها جمع وتسجيل التراث وحفظه من الضياع والنسيان ،ولما شهدته الفترة من حروب وفتن شغلت الناس عن التفكير والحفظ .

وهكذا كان التأليف ترتيبا للمعارف، وتصنيفا للعلوم، لبلوغ الهدف المنشود الذي يتمثل في تحقيق رغبة الكاتب ومن خلاله بث الدعوة التي يصدح بها ويذود عن المعتقد والمذهب الذي يدعو إليه وهو همهم الوحيد، فاستقام هذا الشكل للطرفين المتصارعين.

وقد حقق الأدب المغربي في القرنيين الرابع و الخامس للهجرة، تراكما معرفيا لم يسبق له مثيل حيث انتقل المغرب من مرحلة المعرفة المروية إلى مرحلة المعرفة المكتوبة.فبلغ النثر التأليفي الأدبي في العصر"الصنهاجي" أوجه و قمة الازدهار و الرقي في دعائمه الثلاث ، الشكل و المضمون، والكم والكيف.

كما ظهر في هذه الفترة نقاد وكتاب تجاوزت شهرتهم وشهرة كتبه المغرب، ومــنهم :أبــو اسحاق الحصري، والنهشلي، وابن رشيق، وابن شرف، وأبــو الحســن الحصــرى، و الرقيــق القيرواني...وغيرهم

وعلى العموم فإن المؤلفات في هذه المرحلة تجاوزت مرحلة الكتابات العادية، إلى الكتابــات الأدبية كما عرف الأدب من خلالها تحولا في عقيدته من السنة إلى الشيعة، ومن ثــم تغيــرت ملامح المغرب كله ،وهذا التحول العميق للبنيات الفكرية، والفنية، ولد تعــددا فــي المصــنفات المختلفة و التي تبقى في اعتقادنا شاهدة على تطور الأدب و النثر في رقعة و حقبة من تاريخنــا لم تأخذ حظا فيما نحسب من العناية و الدراسة.

البــــــاب الرابع

البناء الفني في النثر المغربي

1- الفصل الأول: المستوى المعجمي و التركيبي.
2-الفصل الثاني: المستوى الدلالـــــــــــــــــــي.
3-الفصل الثالث: المستوى الصوتــــــــــــــــي.

الفصل الأول: المستوى المعجمي والتركيبي

أولا- المستوى المعجمي:

أ_القاموس اللفظي

ب- التضمين والاقتباس

ثانيا- المستوى التركيبي:

أ- الجمل الاسمية والفعلية

ب- الجمل الخبرية والانشائية

ج- التقديم والتأخير

توطـــئة:

تعتبر اللغة المادة الأساسية الذي ينبني عليها أي خطاب أدبي، والقالب اللفظي الذي يترجم أحاسيس المبدع ورؤاه الخاصة للوجود،فيغدو الأدب استعمالا خاصا للغة يحتاج إلى تحليل و تأويل يكشف عن أسرار هذا الاستعمال الخاص و وظيفته الجمالية وكل ما لم يبح به النص .فمهمة الدراسات الأدبية هو الكشف عن خصائص الأدباء، ومكامن الجمال في النصوص

ولما كانت اللغة انعكاسا للوجه الحضاري،فهي ترتقي برقي استعمالاتها الإبداعية، وتنحط بانحطاطها، فالتفاعل مع اللغة يطبع الفن بالجمال ،ويعبر عن الذات وتصوراتها بامتياز.ومن خلال هذا نكتشف طبيعة اللغة وتركيبها و قوتها وضعفها وعلاقتها بالجانب الفكري للأمة ،ومدى نجاحها في نقل الفكرة بصورة تقنع القارئ وتؤثر فيه في إطار جمالي بحت.

فمعرفة البناء اللغوي لأي نص يقتضي النظر في طرق التشكيل اللغوي عبر مستوييه: المعجمي والتركيبي، فإذا استوفى الدارس هذا الجانب نظر في الجانب الآخر من النص وهو" فهم المعاني المجازية أو التضمينية أو الإلزامية التي تؤديها العبارة بطريقة الاستعارة أو تشير إليها... "(1).

إن اختيار اللبنات الأساسية لأي عمل أدبي أمر لابد منه ، وبقدر انتقاء الأديب أو الخطيب لألفاظه بقدر ما يلقي عمله الآذان الصاغية والقلوب الواعية مما يرفعه إلى المستوى الفني المطلوب، لأن لكل لفظة خاصية تميزها عن غيرها وخاصة إذا اقترنت بتركيب خاص يلزمها ولا ينفر منها وفي هذا يقول "حازم القرطاجني":" ...وكما أن الصورة إذا كانت أصباغها رديئة، وأوضاعها متنافرة وجدنا العين نابية عنها غير مستلذة لمراعاتها ، وإن كان تخطيطها صحيحا، فكذلك الألفاظ الرديئة القبيحة التأليف... "(2).

إن النثر في معظمه :خطب، مناظرات، رسائل... قائم على الأداء، وحسن التناول، وإقامة العلاقات بين الألفاظ، ومراعاة الجرس الذي ينبعث من هذه الألفاظ والتراكيب ،ولذلك وجب أن تكون هذه الألفاظ منتقاة بعناية لتصور حقيقة ما مر به الأديب من مواقف هزته بقوة .

---

[1]حازم القرطاجني:منهاج البلغاء وسراج الأدباء،تح:محمد الحبيب بن الخوجة،دار الغرب الإسلامي،د ط، 1981، ص147-148.

[2]نفسه،ص129.

ولعل ما يراعيه الأديب في نصه الجانب الصوتي للفظة ومدى موافقتها للسيلق وللمعنى المراد، فهناك ارتباط بين بعض الحروف ودلالة الكلمات، حيث إن العبرة بموقع الحروف من الكلمة لا بمجرد دخوله في تركيبها.وإن الاستثناء في الدلالة قد يأتي من اختلاف الاعتبار والتقدير "[1].

فمن جملة ما ينبغي أن يراعى في موسيقى الألفاظ، أن تكون مرتبطة بالمعنى لتنقل إلينا تجارب إنسانية تثير في أنفسنا خواطر و إحساسات وانفعالات. "فالقيمة الشعورية التي تحملها الألفاظ تختلف من فرد إلى فرد ، كما تختلف من جيل إلى جيل تختلف أولا بحسب المشاهد ، والتجارب التي مرت بهذا الفرد ،مما ينطبق عليه دلالة هذا اللفظ ، وتختلف ثانيا بحسب استجابة كل فرد بما يمر به من هذه المشاهد ، والتجارب مما يفسح المجال لأنماط لا تحصى من الانفعالات والمشاعر كلما ذكر لفظ من الألفاظ،فاستدعى من الذاكرة صور هذه التجارب"[2].

أما عن السياق التركيبي الذي تأتي اللفظة ضمنه، فهو مهد وظيفتها التبليغية، يقــول "عبد القاهر الجرجاني": " وأعلم أن مما هو أصل في أن يدق النظر ويغمض المسلك في توخي المعاني التي عرفت أن تتخذ أجزاء ويدخل بعضها في بعض وأن تحتاج إلى أن تضعها في النفس وضعا واحدا ... "[3].

فتبليغ الرسالة يحتاج إلى دعائم نصية أساسها وضع اللفظة في سياقها التركيبي الذي يليق بها، يقول أحد المحدثين: :" التركيب البليغ ما كان عذبا في جهاز الإرسال ، وهو الفم ، ولطيفا على جهاز الاستقبال، وهو الأذن، سالكا في أجهزة القلب والعقل والوجدان طريقة المقصود ... "[4]. وقد حدد "حازم" بعض ما يسبب الغموض في العبارة فقال:" ومن ذلك أن يقع في الكلام

---

[1]عباس محمود العقاد:أشتات مجتمعات في اللغة والأدب، دار المعارف،مصر،د ط،1970م،ص48-49.

[2]سيد قطب: النقد الأدبي أصوله ومناهجه ،دار الكتب العربية ،بيروت، د ط ، د ت، ص41.

[3]عبد القاهر الجر جاني: دلائل الإعجاز،تصحيح:محمد رشيد رضا ،دار المعرفة للطباعة والنشر،بيروت،د ط، 1981م، ص279.

[4]بكري الشيخ أمين:البلاغة العربية في ثوبها الجديد،علم المعاني،دار العلم للملايين،،بيروت، ط1، 1979م ،ج1، ص28-29.

تقديم وتأخير ، أو يتخالف وضع الإسناد ، فيصير الكلام مقبولا أو يقع بين ببعض العبارات وما يرجع إليها ... "[1].

وتعامل الأديب مع اللغة يؤدي بنا إلى الحديث عن المعجم اللغوي للكتاب والأدباء والمعجم النثري الذي يكاد الناس يتفقون عليه قديما وحديثا ،أما حديثا فلا يرى الدارسون تبيانا في اللغة نفسها ، إنما في طريقة تناول اللغة ذلك " أن الألفاظ ملك لجميع الناس وهي تستخدم في كل فن من الفنون الأدبية ، ولكن كل فن يستخدمها بطريقته الخاصة ،فاللغة في الشعر الناجح تبدو تركيبية ،في حين أنها في النثر تحليلية ، ذلك أن التركيب عملية يقتضيها العمل الشعري،في حين أن التحليل تقتضيه الكتابة النثرية"[2].

وإذا كان المعجم هو مصدر اللغة ، فتوظيفها في مجال الإبداع يحتاج إلى صبغها بصبغة أدبية إبداعية بحتة عن طريق شحنها بطاقة شعورية إبداعية فتتجلى لنا في ثوب غير الذي عرفت به في مصدرها المعجمي، ونظرا لهذه الطاقة الإبداعية في التعامل مع اللغة .فإن الأديب يمكنه استخدام اللفظة الواحدة في مواطن عديدة تظهر فيها في كل مرة مختلفة عما عرفت به في السابق، فهو يقدمها بصور مختلفة ،مما يولد لدى المتلقي تذوقا مختلفا .

وهذا الاعتناء بصور التركيب والصياغة يحتم الالتفات إلى الوضع أو المعنى النحوي "فعبد القاهرالجرجاني" يقول: " لا معنى للنظم من غير توخي معاني النحو فيما بين الكلام ... "[3]. والالتزام بمعاني النحو لا يعني الخضوع للقاعدة النحوية فقط،بل يستوجب إعطاء الكلمة موقعها المهم من السياق الذي إن فقدته ستفقد معه إيحائها ودلالتها وبها يختل المعنى.

أولا-المستوى المعجمي :

و بما أننا تعرضنا سريعا لأهم القضايا التي تخص اللغة في الدراسة الأدبية والذي أردنا من ورائه تسليط بعض الإضاءات النظرية التي تساعدنا على تحليل النصوص وسنتطرق إلى :المعجم اللغوي وندرس فيه القاموس اللفظي الذي ارتضاه مبدعوا النصوص على اختلاف

---

[1] حازم القرطاجني:المصدر السابق،ص174.

[2] عز الدين اسماعيل:الأدب وفنونه ،دار الفكر العربي،بيروت، ط8،1983م، ص99.

[3] عبد القاهر الجرجاني:المصدر السابق، ص279.

مشاربهم، وكيف تفاعلت نصوصهم مع النصوص الأولى الممثلة في القرآن والحديث الشريف، ومصادر الأدب كالأمثال والحكم وأشعار العرب...وغيرها.

أ-القاموس اللفظي:

إن المتمعن في لغة النصوص من حيث ألفاظها والسياق الذي جاءت فيه يجد أنها ليست على مستوى واحد من حيث انتقاء اللفظ والتعامل معه من قبل كل مبدعي النص على اختلافهم وهو أمر طبيعي لاختلاف المشارب واختلاف النحل والملل،واختلاف الملابسات الخارجية والداخلية ومنها السياسية والمذهبية ، فلغة العلماء والفقهاء ودعاة المذهبية تميزت بألفاظها الجزلة المتينة خاصة في خطبهم ومناظراتهم وبعض رسائلهم ،وقد تكون أكثر دقة وعذوبة في بعض الأشكال السردية الأخرى كالسير والتراجم والقصص والعجائبيات.... والأمر نفسه في لغة أمراء الدول المتتابعة وما تتسم به من هدوء وعذوبة،و المباشرة كما هي في متون اللغة ولا تشحن بالعواطف والمشاعر إلا حينما يخصصونها لنشر أفكارهم المذهبية وسياستهم ..

أما الأدباء المتفردون بالصنعة الأدبية، خاصة وأن معظمهم مزج بين صناعة النثر والشعر، فقد طغت على قاموسهم اللغوي الألفاظ المشحونة بالجماليات والخيال الفسيح... ويمكن تقسيم القاموس اللفظي إلى:

- ألفاظ العلماء والفقهاء والدعاة.
- ألفاظ الأمراء والقادة والسياسيين.
- ألفاظ الأدباء والكتاب .

أ-1- ألفاظ العلماء والفقهاء والدعاة:

ونعني بها الألفاظ التي وظفها دعاة العقيدة وعلماء وفقهاء الدولة في نصوصهم النثرية الموجهة إلى الرعية من خطب توعوية ودينية ورسائل للحكام والأمراء ...وغير ذلك مما يخدم الدولة والعقيدة، وهنا نذكر الرموز الدالة والمشتركة: (الله ، الإله ، الرب ، محمد ،المسجد ، الصلاة ، الخطبة ، القرآن ، الشهادة ، الدين ، دين الله ، الإسلام ،المسلمون ، الإيمان ، الآذان ، النبي، السجود، الركوع ، الزكاة ، الصدقة، الجهاد الجنة ، النار ، المنبر، المحراب ،النعيم، الكعبة، البيت الحرام، الحوض، الحواري عيسى ،المهاجرين، الأنصار،البيع...).

مثل هذه الألفاظ وغيرها كثيرة الاستعمال في شتى الأشكال النثرية باعتبارها رموزا إسلامية تنمي روح المقاومة في نفوس الأفراد وبذل النفس والنفيس للدفاع عن مقومات الأمة وعلى رأسها العقيدة .

وفي مجال العقيدة المذهبية نجد الألفاظ الدالة على الصراع المذهبي في شقين: تتعلق الأولى بأهل السنة :(الرافضة الباطنية، الكفار، الملاعين، المشارقة، المارقيين، المغتصبين،المبدلين...). والثانية بأهل التشيع (آل البيت ، العترة ، الإمام ، الولي ، علي ، فاطمة ، الحسن، الحسين ،المهدي ، الإمام،مولانا ،أمير المؤمنين ، الحجة...). وهذه الألفاظ تستخدم في الغالب لاستثارة المشاعر وتحفيز الأتباع، وقد استعملت استعمالا أدبيا سياسيا دعويا لنشر الدعوة وتحريك النفس والمشاعر وتصوير الوضع القائم وهي كثيرة خاصة في الخطابات المباشرة من مثل الخطب بأنواعها .

أما ألفاظ العلماء والفقهاء التربوية التعليمية فقد جاءت ضمن سياق تربية النفس الفردية والجماعية والتي وجدناها بصورة خاصة في الوصايا والكتابات التأليفية وبعض الرسائل والتوقيعات... ، وقد استقاها هؤلاء من المعجم التعليمي الناتج عن تجاربهم التعليمية في المساجد والكتاتيب ومجالس العلم وحلقات الذكر، وقد كان القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف أساس هذا المعجم التعليمي، من ذلك ما جاء في الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين للقابسي من ألفاظ تعليمية: (الكتابة، الحروف، التعليم، المعلم،التأدب،التأنيب،الجهل، العلم، العقاب، الموهوب، المكافئات، الفطنة، الحذقة، الزاد، العصا، اللوح...).

ومن الألفاظ التربوية ما جاء في صيغة الوعظ والإرشاد والتي نلمحها في وصية الفقيه "محرز بن خلف" إلى" الأمير المعز الصنهاجي":(استح، احذر، بطانة، سوء، شاور، اتق، استعن، توكل...).

ومن ألفاظ الفقهاء والعلماء الكتاب الذين مزجوا بين العلم والأدب ما يرقى إلى مستوى الألفاظ الأدبية الخيالية التي تتماهى إلى الشعرية الصوفية والتي نجدها في بعض الرسائل الإخوانية وقصص الكرامات و العجائبيات وفي بعض التآليف الأدبية و النقدية، من ذلك ما جاء في نثر "القاضي النعمان "من ألفاظ رقيقة عذبة مصطبغة بطابع ديني جاءت في شكل دفقات

تعبيرية شاعرية(السرور، الشنعات، الإرجاف، الدهماء القواصي، الألفة، الذليل المقموع والغزير الممنوع...)(1).

أ-2-ألفاظ الأمراء والقادة والسياسيين:

هي الألفاظ التي تميز التجربة النثرية المواكبة لمختلف الصراعات والمعارك الحربية الشرسة ،في أبعادها الحضارية وفي نطاقها الجغرافي العربي والدولي. فإذا أمعنا التركيز مع هذه الألفاظ وجدناها مألوفة السمع والوقع، مصاحبة لميادين الوغى في معظمها، ومن ألفاظ المعارك والحروب ما يتعلق بوصف العدو :(الخائن ، العميل، اللعين،الكفرة، الفجرة...) ووصف أرض المعركة:(فارس ، فرسان ، عساكر، جنود، الزحف ،رجال، معركة،العدة، السرايا،الأسطول...) وهذا ما نجده خاصة في الرسائل و الخطب .

أما ما تعلق بالعدو الخارجي والمعاهدات والحروب التي جرت بينهم وبين أهل المغرب فقد أنتجت ملفوظات دبلوماسية منها(المفاوضات، الموادعة،السلم، الهدنة...) أو ملفوظات الغضب والثورة :(الفتك ، السلخ ، قطع الرؤوس ، الوغى ، الفتوح ، الأخذ الغنم ، السلب ، السبي، الخيانات، سلم ، نصر انهزام ، الوغى ، الصراع ، ،النهب، الجلاء..).من ذلك رسالة "المعز" لطاغية "الروم"والتي شحنها بألفاظ دالة على غضبه ومقته لهم:(الطاغية ،الروم الأعداء ، العدو ، الإفرنج ،الباطل، أهل النار، النصارى، المنافقين ،اليهود،التوراة ، الإنجيل ،المستكبر...).

وقد نجد الألفاظ سهلة سلسة تمضي كأنها تنساب من منبع رقراق ، ليس بينها تنافر واضحة ليس فيها غموض، لا تثقل على اللسان مباشرة وتمضي مسرعة كما هو الحال في الخطب الدينية الخاصة بالأعياد والمناسبات والتي في مجملها يتهيأ لها الخطيب الأمير ويتروى فيها ويشحنها بملفوظات التقرب إلى الله وحسن التوكل عليه و اتباع سيرة المصطفى صل الله عليه وسلم وحسن الأخلاق... من ذلك خطبة "المنصور" بقلعة "كيانة" في "عيد الأضحى" وهو يحاصر" أبا يزيد" ،وبالرغم من الموقف العسكري الذي يقفه الأمير إلا أنه التزم الهدوء ورباطة الجأش ،وكأنه لم يقف في موقف حرب ،وهذا يعود ربما إلى تأكده من قرب نهاية عدوه

[1]القاضي النعمان: افتتاح الدعوة، ص 255-256.

والقضاء عليه ومما قال فيها: " أوصيكم عباد الله بما أوصيت به نفسي قبلكم من تقوى الله ومراقبته ، والعمل بما يرضيه ، ويقربنا وإياكم إليه ، ففي تقواه رضاه، وبرضاه الفوز بالجنة والنجاة من النار... فتقربوا إلى الله تعالى فيه بما أمركم به..."(1).

كما تداعت ألفاظ الشكوى والعتاب في نصوص الأمراء عند إحساسهم بقرب خطر العدو، من ذلك الرسالة التي بعثها " المنصور"إلى "كتامة :وهي مليئة بألفاظ الشكوى والعتاب يقول فيها:"...وقد تتابعت إليكم، معاشر كتامة كتبنا ورسلنا تحضكم على ما فيه رضا سيدكم ومولاكم ، مولانا أمير المؤمنين ، المقرون رضاه برضا رب العالمين ، فتربصتم وتثاقلتم إلى الأرض ، ورضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة وبالعاجلة من الآجلة ، فعلى الذين أصمتهم الدنيا وأعمتهم،ولا يعرفون معروفا فيبصرونه ، ولا منكرا فيرفعونه ، تبذلون أنفسكم وأموالكم على حمية الجاهلية التي معها خسران الدنيا والآخرة وقد أعرضتم عن الجهاد الذي أمركم الله به ، صفحا ، وزهدتم في الثواب ، وأمنتم العقاب، كأنكم لم تسمعوا وعد الله ووعيده ، ولا تليت عليكم آياته ، ولا قامت عليكم حجته ... يا أشباه الرجال ولا رجال . رضيتم بالعار ، فهل لكم صبر على النار ؟ ... واعلموا أني لا أكتب إليكم كتابا بعد هذا ، وأني لم أكتب إليكم هذا الكتاب إلا بسؤال من قبلنا من أوليائنا الذين جاهدوا وصبروا ، وإلحاحهم وضرعهم ، وطلبهم منا الإعذار إليكم ، وتأكيد الحجة إليكم ، وتأكيد الحجة عليكم ، رجاء منهم أن تنيبوا إلى ربكم ، وترجعوا التوبة التي هي أولى بكم ، وتسارعوا إلى قضاء ما افترضه الله عليكم من الجهاد الذي فيه تمحيص الذنوب ، ومحو العيوب ، وتفريج الكرب أنفذنا مع كتابنا هذا رجالا تأكيدا للحجة عليكم ، وقطعا لمعاذريكم. فإن تتوبوا وتنيبوا تجدوا الله توابا رحيما.... وإن تتولوا يغن الله عنكم ويستبدل قوما غيركم، ثم لا يكونوا أمثالكم. والسلام على من اتبع الهدى ، وآثر الآخرة على الأولى "(2).

وفي الفترات التي تخمد فيها الفتن والحروب بفعل الانتصار يعم الفرح والأمل بلاط ومجـــالس الأمـــــراء والقادة فيكون الخروج عن مألوف وعن نسخة الحزن والألم والشكوى و البلوى لتتفتح ألفاظ ندية عطرة مليئة بالأمل والفرح بما تحقق على جبهات القتال و نشوة

(1) نفسه ، ص168-169.

(2) محمد اليعلاوي : الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي، ص152.

الانتصار ونخم الفوز ويمكن الإشارة إليها كما يلي:(النصر ، الفوز ، الأمل ، الهناء ، الصفاء ، العزة ، التمكين، القوة، البلوغ...). وبالرغم من محدوديتها، ونظرا لقصر فترات الهدوء والاطمئنان، إلا أن دورها كان غالبا في الأهمية مما تستثيره من مشاعر الأمل، ورفع لمعنويات الأنصار ومنحهم نفسا جديدا لإكمال المسيرة الشائكة والطريق الصعب.

ونجد هذا في رسائل وخطب العبيدين إلى أنصارهم ومنها كتاب الأمان الذي كتبه"أبو عبد الله الشيعي" بعد دخوله رقادة منتصرا وقال فيه: "أما بعد فالحمد لله الناصر لأوليائه لما سبق لهم من وعده وخاذل أعدائه بعد الإعذار إليهم بوعيده، الذي لم يجمع بين أنصار الحق وأتباع الباطل في موطن من مواطن التحاكم إلا وهب لأنصار دينه النصر وأيدهم بالعز وأنزل بأعدائه البأس والنقمة إظهارا لفضل منزلة الحق عنده وإذلالا لمن عند عن سبيله وصدف عن حقه حمدا برضاه ويتقبله ويحسن المزيد عليه من فضله"[1].

ومنها أيضا الرسالة التي بعثها "المنصور" إلى "كتامة " ومما جاء فيها :"أما بعد ، فإن كتابنا هذا إليكم ، بعد نزولنا بالقيروان بجيوشنا المنصورة من أوليائنا وعبيدنا ،وقد أعز الله نصرنا ،وأتم وعده لنا ، وأعز أولياءنا ، وأذل أعداءنا وأظفرنا ، ومكن لنا البلاد ، وقمع بنا جميع العباد ، طوعا وكرها ، و المنة و الشكر لله رب العالمين"[2].

كما في رسالة "المنصور" الموسومة باسم "القائم" موجهة إلى "جوذر" بالمهدية ،مما جاء فيها:" اليوم أعز الله دين جدك محمد رسوله المصطفى صلى الله عليه وعلى آله، وسنته وأمته، وأدعم به أركان الدين، وأظهر برهان أمير المؤمنين، وأفلج حجته ، وأعلى كلمته، ونصر حزبه .اليوم فتحت مشارق الأرض ومغاربها ... جملة ما أبشر به سيدنا ومولانا أمير المؤمنين، أن قتلاهم غطت الأرض، وما عجز الأولياء عن حمله و استثقلوه، أطلقت عليه النار فأحرقته. واستولينا على مناخ اللعين بما فيه من قليل و كثير، فقتل فيه ما لا يحصى، سوى ما قتل في المعركة، وليس إلى إحصاء من قتل سبيل لكثرتهم "[3].

---

[1] القاضي النعمان: افتتاح الدعوة ، ص254.

[2] محمد اليعلاوي : الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي ،ص152.

[3] نفسه، ص157.

أ-3- ألفاظ الأدباء والكتاب:

بالرغم من الفتن والحروب الطويلة كانت هناك فترات للاستقرار والدعة وهو ما استغله الأدباء من أجل بعث روح الأمل في العيش والتمتع بالحياة بالرغم من محدوديته، نظرا لقصر فترات الهدوء والاطمئنان، إلا أن دوره كان غالبا في الأهمية مما تستثيره من مشاعر الأمل،ورفع لمعنويات الناس ومنحهم نفسا جديدا للاستمرار في الحياة،من أجل ذلك ركزوا على الألفاظ الدالة على الفرح والأمل (الهناء، الرخاء، الأمن السلم، الحب، رغد، شمس...).

كان المعجم اللغوي عند الأدباء مشتركا بينهم في شتى الأشكال النثرية بما له دلالة حضارية عميقة وخاصة ما تعلق بالجانب الفكري ، فهو يصدر عن تصور مختلف للعقيدة والحكم السياسي، وفي أشكال هذه الفئة تكثر ألفاظ المدح و الحماسة والتوسل... للتقرب إلى الحكام.

وفي العموم كانت لغة الأدباء المتفردون بالصنعة الأدبية من أمثال :"ابن رشيق"، و"ابن شرف"، و الحصري... وغيرهم، تتسم بالجزالة وتفتح فضاء خاصا إبداعيا يعتمد على مراوغة اللغة من خلال إعطاء الألفاظ دلالات جديدة عن طريق تجاوزها وتوزيعها داخل النص. وهو ما يكشف عن حسن تصرف في الأداء الفني للغة.من ذلك ما جاء في رسائل الحصري من جماليات التصنع في الألفاظ من حيث التسجيع والتجنيس والتكرار كقوله مفتخرا: "... يا مهموس، أنا الطاء، وأنت الهواء، فلست من طباقي بين همسك وإطباقي،لو زرت نقران ونجران لألفيت ذكري قد علا، وشعري قد غلا، ما اغتابني في غيب إلا ذو عيب وخيم..."(1) .

وقد وظف "ابن دفرير" في رسالته التي كتبها عن الأمير يحي بن العزيز الحمادي بعض الألفاظ توظيفا حسنا ليكشف عن قمة المعاناة كقوله: "استفز أهل مولاتنا الشنآن، وأغرى من اصطنعناه وأنعمنا عليه الكفران فأتوا ،يستشفى من داء بداء"(2).

لقد استطاعت هذه الجمل أن توجه القارئ إلى جمالية هذا التعبير الذي اعتمد على التقابل بين جمل متوالية في مقام أول ثم على تقابل الألفاظ في تواليها في مقام ثان فأنتج ذلك دلالة

---

[1] محمد المرزوقي و الجيلاني بن الحاج يحي :علي الحصري القيرواني، تقديم :محمد اليعلاوي، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون(بيت الحكمة) ، تونس،2009، ص136.

[2] العماد الأصفهاني: المصدر السابق،ص180.

خاصة للنص بإبداع علاقات إسنادية جديدة، اعتمد فيها الكاتب على التشبيه، والتي أدت إلى تواصل دلالي ناتج عن تواصل الكلمات والجمل فكان اختيار الكاتب لألفاظه مفروضا عليه معجما ولغويا فرضا طوعيا.

جاء اختيار الكاتب لألفاظه بعناية، منتجا دلالات تقرب المتلقي إلى واقع النص الذي تشاكلت ألفاظه، وجمله لتضفي على المعنى رونقا، وجمالا ،كقوله : "... فعند ذلك اعتزلنا محلة الفتنة، وملنا إلى مظنة الآمنة، وبعثنا في أحياء هلال نستنجد منهم النجدة، ونستفز من كنا نراه للمهم عدة، وأنتم في هذا الأمر أول من يليهم الخاطر، وتثني عليه العناصر"(1). فجاء هذا النسق اللغوي ليؤكد على المعنى الذي أراده الكاتب، على الرغم من أن اللفظ يمكن أن ينصرف إلى أكثر من دلالة لعدم تقيده بسياق واحد، إلا أنه، هنا، جاء مقيدا بضرورة إثراء النص، فالأفعال اعتزلنا، ملنا، بعثنا، نستنجد" تشاكلت لتسهم في بناء النص بناء يتماشى وطبيعة الموضوع والظرف السياسي، ثم تمازجت مع ما يليها من ألفاظ لترسم واقع النص ،وهو حال معظم النماذج النثرية في القرنيين الرابع و الخامس للهجرة.

وقد يستخدم الأديب ألفاظ العقيدة في نصوصه كرموز يقدمها من أجل الاستعطاف أو التقرب من أولي الأمر حيث نجد الكتاب والخطباء يتفاوتون في إبداع صور المعاناة والشكوى ، ومنهم من يكثف لغته حتى تشعر بها تتقطر ألما وحسرة ، ومنهم من لا يعدو الوصف الخارجي والتقرير المباشر ،ويمكن إجمال هذه الألفاظ في:(اليأس ، القنوط ، البكاء، الحزن ،الرعب، الأهوال،الموت ،الطعن ،الردى خزي،عار،عقاب، فزع، شيوخ، أطفال، نساء، الطمع ، الأمان ،الخوف ، الحفظ ، الترحم ، الحظ ، السوء ، المنقلب...).

ومن الكتاب المتميزين باختيار الألفاظ وفق الموضوع أو مقتضى الحال أصحاب المؤلفات المختلفة بين الأدبية والنقدية والتاريخية ،حيث يتحرى المؤلف ما يصلح للتوثيق التاريخي وما يستدعه من ألفاظ وعبارات تناسب الحدث وتعبر عنه أصدق تعبير دون مبالغة أو تقصير ومن ذلك كتاب "طبقات علماء إفريقية وتونس" لأبي العرب"، الذي اعتنى فيه بالأسلوب العلمي السهل في جل ترجماته للعلماء ،من مثل قوله: "أبو الحسن علي بن زياد من أهل تونس

---

[1]نسه،ص180.

كان ثقة مأمونا فقيها متعبدا بارعا في الفقه ،سمع عن "مالك بن أنس" ومن "سفيان الثوري"..."[(1)] وقوله في ترجمة الإمام سحنون: "...ومن شيوخ أهل إفريقية أبو سعيد سحنون بن سعيد بن حبيب التنوخي من صليبه العرب و أصله من الشام من أهل حمص، و أبوه سعيد قدم مع الجند ، وهو من أهل حمص، كان سحنون جامعا للعلم فقيه البدن؟اجتمعت فيه خلال ما اجتمعت في غيره، الفقه البارع و الورع الصادق و الصرامة في الحق و الزهادة في الدنيا و التخشن في الملبس و المطعم و السماحة و الترك .لا يقبل من السلطان شيئا و كان ربما وصل بعض إخوانه بالثلاثين دينارا، و كان سحنون أول من شرد أهل الهواء من المسجد الجامع ، و كان فيه حلقات للصفرية و الإباضية (و المعتزلة يتناظرون فيه) و يظهرون زيغهم ، و قد كان حافظا للعلم ، لم يكن يهاب سلطانا في حق يقيمه...وولي القضاء سنة أربع و ثلاثين و مائتين، و هو يومئذ ابن أربع و سبعين سنة، و لم يأخذ على القضاء أجرا، و توفي رحمه الله، يوم الثلاثاء تسعة أيام مضت من رجب سنة أربعين و مائتين"[(2)]. وتحرى أبو العرب في ذلك اليسر والسهولة مما استدعته الكتابة التاريخية، والموضوعية في السند مما ثمن الكتاب و أفاد الأجيال بحفظه لسير وتراجم الأجداد، باعتبارها إرثا الحضاريا.

ومن أمثلة الكتابات العلمية الأدبية التي يتحرى فيها المؤلف الدقة والوضوح والموضوعية كتاب "العمدة" لابن رشيق"" الذي انحاز فيه إلى التعبير الأدبي الرقيق والألفاظ السهلة المسجوعة المناسبة للقول النقدي حول النص الأدبي ومن ذلك قوله: " وإذا كان الكلام على هذا الأسلوب الذي ذكره الجاحظ لذ سماعه، وخف محتمله وقرب فهمه، وعذب النطق به، وحلي في فم سامعه، فإذا كان متنافرا متباينا عسر حفظه، وثقل على اللسان النطق به، ومجته المسامع فلم يستقر فيها منه شيء"[(3)].فالألفاظ دقيقة رقيقة عذبة ، علمية واضحة ملممة بجوانب القضية النقدية .

[1]أبو العرب : طبقات علماء إفريقية وتونس، ص73.

[2]عمر فروخ : المرجع السابق، ص228-229.

[3]نفسه، ص 258.

ب- الاقتباس والتضمين:

تعددت الروافد التي استعان بها الأدباء في نصوصهم النثرية فوظفوا آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول صل الله عليه وسلم كما استعملوا الموروث الثقافي العربي الإسلامي من شعر، وأمثال، وحكم ،وتاريخ واشترط المنظرون من الخطيب وكاتب الإنشاء والمناظر... وغيره من الأدباء أن يكون واسع الإطلاع على النحو،واللغة ، والتاريخ ، وأدب المتقدمين، أي كل ما يساعد الأديب على تمرير رسالته ، وأداء مهامه،ولهذا أعتبرت المواد السالفة الذكر من أولويات أي عمل أدبي نثري. ومن تلك الروافد نذكر:

ب-1- القرآن الكريم :

إذا كان كتاب هذا العهد يأخذون من التراث الأدبي ، ويستخرجون منه ما يدعم و يقوي معانيهم ، فإن كلام الله عز وجل ، هو الرافد الأساس والقوي الذي استخدم بشكل واسع لاسيما عند ورود سياقات روحية وعاطفية ، حيث يقوم الكاتب من خلاله بتفريغ الشحنات من خلال تمثيلها وربطها بحقائق إلهية كأدلة ، ليكون بذلك كتاب الله ، خير ما يرسم على هديه طريق الحق .

و الحقيقة أننا لا نكاد نجد عمل أدبي أو شكل نثري إلا واقتبس من هذا المصدر الرباني، والتشريع السماوي، وهذا التضمين إما أن يكون اقتباسا مباشرا على مستوى الآيات أو يكون على مستوى المعاني والألفاظ. ويعود ميل الكتاب إلى الاقتباس، والتضمين من القرآن الكريم ، لكونهم كانوا يعيشون في عهد اتسمت فيه الأغلبية من أفراد المجتمع بالتدين -والتدين الشديد لأهل المغرب هو خصوصية ينفرد بها عن أهل المشرق خاصة بعد أن خامره هذا الصراع المذهبي المحموم- حيث راح كل فريق يتمسك بما لديهم ، ويعض عليه بالنواجد، لكي لا يفقد دينه وهويته، و يفرض نظرته على فئات الشعب المختلفة ومن أمثلة ذلك ، ما جاء في خاتمة رسالة "ابن القالمي" التي يقول فيها: :"ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا إن الله غفور شكورا".وقد اقتبس كلامه من قوله تعالى: ﴿ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا

الصالحات قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا إن الله غفور شكور﴾ [1]" [2].

والاقتباس القرآني لم يتوقف عند مستوى آية أو جزء منها. بل تعدى ليشمل البيان القرآني في لفظه ومعاني آياته، أي باستلهام معانيه، وربطه بموضوعات شبيهة بالواقع الذي تنطبق عليه،وهذا كثير في المكاتبات، ومن أمثلة ذلك ما نجده في رسالة العتاب التي بعثها "الأمير المنصور" إلى" كتامة "سنة(334هـ)[3].وأورد فيها الكثير من الاقتباسات القرآنية في رسالة قصيرة، من قوله:" كأنكم لم تسمعوا وعد الله ووعيده، ولا تليت عليكم آياته، ولا قامت عليكم حجته ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾"[4].

فالمنصور يهدف من وراء هذا الاقتباس المباشر للآية ، إلى الإيحاء بالذنب المتكرر للقبيلة وجسامته بالرغم من أنه هو ومن سبقه من الأمراء كانوا يتجاوزون عن زلل القبيلة شفاعة منهم لما قدمته من خدمات جليلة في توطيد ملكهم بالمنطقة. وقد وظف الآية من خلال سياق تفسيرها الذي يعني "إن العبد إذا أخطأ نكت في قلبه نكتة سوداء، فإن هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه، فإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه، فهو الران الذي ذكره الله تعالى عنه في الآية السابقة.

و من أمثلة الاقتباس من القرآن الكريم أيضا خطبة "ابن أبي الوليد" لأهل السنة استعدادا للخروج لقتال" بني عبيد" حيث حرض الناس على الجهاد وأعلمهم بما فيه من الثواب وتلا الآية: ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما﴾[5].فهدفه شحذ الهمم واستنهاض العزائم

---

[1] الشورى:الآية21.

[2] العماد الأصفهاني: المصدر السابق،ج 1،ص 180- 181.

[3] محمد اليعلاوي:المرجع السابق ، ص152.

[4] المطففين : الآية 14.

[5] النساء : الآيـــة 94 .

لمقارعة العدو في ساحات الوغى، فإما نصر أو شهادة. وهي وإن كانت لا تدل على القدرة الإبداعية فإنها تدل على القدرة التوظيفية لما تراكم في الذاكرة.

ومن الأمثلة تلك المناظرات التي اعتمدت على التراكيب القرآنية بصفة أساسية ، بل وهناك مناظرات قامت أساسا على آية قرآنية كموضوع للجدل والنقاش ، من مثل مناظرة في باب الفاضل والمفضول الفقهية[1] والتي ارتكز وانطلق الجدل منها من الآية : ﴿ وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم ﴾[2] .

لقد كثر تضمين آيات القرآن الكريم في المناظرات والخطب وغيره، والهدف من وراء هذا الاقتباس هو الاستشهاد بالدرجة الأولى،لأن الأديب عند استعارته لتراكيب القرآن الكريم يدعم حججه ويزيد في قوة معانيه ،من مثل ما جاء في خطبة "المنصور" عندما تولى ولاية العهد:«اللهم ،وأوقع بأعدائه ، شرقا وغربا، برا وبحرا، أشد ما أوقعت وأحللت بأحد من أعدائك من السطوات والنقمات،والقوارع المبيدات، والمثلات المخزيات... »[3].حيث أورد لفظة المثلات وهي المثلة و المثلة:وهي العذاب والعقوبة،وهو تضمين لقوله تعالى: ﴿ ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات ﴾[4].

ومن المناظرات التي اتكأت على الحجج القرآنية لفهم منهج السنة والموالاة ؛مناظرة "أبي عثمان سعيد بن الحداد" "لأبي عبد الله الشيعي" والتي يتكئ فيها على النص القرآني لدحض حجة مناظره ، يقول: " قال الله –عز و جل – : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياما ليذوق وبال أمره عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام ﴾[5]. فالصيد معلومة عينه، والجزاء الذي أمرنا أن نمثله بالصيد

---

[1]ينظر البحث،ص120-123.

[2]البقـــــرة : الآية 245.

[3]محمد اليعلاوي : الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي ،ص151.

[4]الرعد : الآية 07 .

[5]المائــــــدة: الآية 97.

المعلومة عينه ليس بمنصوص. فعلمنا بذلك أن الله تعالى إنما أمرنا أن نمثل ما لم ينص ذكر عينه بالقياس والاجتهاد. ومنه قول الله – عز وجل– ﴿ يحكم به ذوا عدل منكم﴾ فلم يكله إلى حاكم واحد حتى جعلها اثنين ليقيسا ويجتهدا.

فقال أبو عبد الله الشيعي : ومن ذوا عدل ؟ –وأومأ أن "ذوا عدل " إنما هم قوم مخصصون بنص الآية. وهنا يشير الشيعي ضمنا إلى كون ذوا عدل هم أصحاب دعوته التي يدعو إليها.

فقلت : هم الذين قال الله – عز وجل – فيهم في آية المراجعة : ﴿ وأشهدوا ذوي عدل منكم ﴾[1]. ومثل ذلك في تثبيت القياس قوله –عز وجل –: ﴿ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ﴾[2]، والاستنباط غير منصوص"[3].

و الاقتباس من القرآن الكريم لم يتوقف عند أشكال نثرية دون الأخرى، أو موضوعات بعينها، وإنما شمل جل الأشكال بنسب متفاوتة، كما شمل كل غرض وموضوع أو معنى قرآني ينطبق على الحياة. والسبب هو أن كل كاتب أو خطيب أو مناظر..."كان حافظا للقرآن الكريم، مداوما على قراءته، ملازما لدرسه، متدبرا لمعانيه، عارفا لتفسيره. كل هذا ليكون راسخا في ذهنه ،مصورا في فكره ، دائرا على لسانه،متمثلا في قلبه آخذا لاهتمامه ، ذاكرا له في كل ما يريد من الوقائع التي تحتاج إلى الاستشهاد به، فيقيم به الحجة ، ويقطع النزاع ، و يرغم الخصم ، ويؤثر في المتلقي والسامع ، وينشر أفكاره" [4].

ب–2–الحديث النبوي الشريف:

ذهب الكثير من الكتاب والأدباء إلى اقتباس أحاديث الرسول"صل الله عليه وسلم" ، لكن ليس بنفس الاقتباس من القرآن ، وجاء هذا الاقتباس في أغراض شبيهة بما أتينا سالفا على ذكره بالنسبة لاقتباس القرآن،فقد تفاعلت نصوصهم مع التراكيب اللغوية للحديث الشريف بحسب ما تقتضيه المعاني كإيراد الجمل في أسلوب خبري، يكون غالبا دالا على تقرير الأحداث التي

---

[1] الطلاق:الآية 2.

[2] النساء: الآية 82.

[3] محمد اليعلاوي: الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي،ص40.

[4] ابن خلدون:المصدر السابق، ص 1038.

جرت. وهو حال ما يعيشه أدباؤنا في المغرب عموما والكتاب خصوصا، وما جاءت به جل الأشكال الإخبارية النثرية في القرنين، وقد يتعدى ذلك إلى الغوص في أعماق ذات الكاتب الانفعالية أو الفكرية.فيمتزج الخبر بالانطباع أو وجهة النظر تبعا لانتماءات الكاتب الفكرية والعقدية والمذهبية.

وكانت عناية الكتاب والأدباء بالاقتباس من الحديث الشريف مرتبطة بتخير الألفاظ حتى تكون صدى لظروف الحياة الواقعية،ومرتبطة أيضا بالاستعمال الفني لأدوات الكتابة النثرية و الإجادة فيها، وقد نمى من هذا التوجه الفني في نصوصهم رغبتهم في التوسع في مدلول الكلمات العربية .

وقد جاء الاقتباس في الكثير من الأشكال النثرية معتمدا على استلهام المعنى وإهمال اللفظ، من مثل ما جاء في رسالة "أبي زيد القيرواني" حين كتب إلى "محرز بن خلف التونسي" رسالة في تعليم الولدان أمور الدين الإسلامي جاء فيها :" ذلك لما رغبت فيه من تعليم ذلك للولدان كما تعلمهم حروف القرآن ليسبق إلى قلوبهم من فهم دين الله وشرائعه ما ترجي لهم بركاته وتحمد لهم عاقبته. فأجبتك إلى ذلك لما رجوته لنفسي و لك من علم دين الله أو دعا إليه"[1]. ولعله قد استلهم معنى الحديث:« طلب العلم فريضة على كل مســـلم»[2]. وهي أن يطلب العلم من الصغر إلى الكبر، والتركيز على العلم الشرعي أساسا وقبل كل شيء. وهذا الاقتباس والتضمين الحديثي في نسيج الأسلوب النثري عموما يعود أساسا إلى كثرة الرصيد من المحفوظ، وهذا يرجع إلى أن أغلب الكتاب والخطباء فقهاء.

وقد تبع ذلك تطور لغوي، بسبب توليد الكتاب و الآداباء المعاني وتأنقهم في تخير الألفاظ، بالإضافة إلى تأنقهم في العبارة كاستعمالهم الجمل المتساوية التواصل مما يضفي على التراكيب روعة في اللفظ والمعنى بالرغم من اكتفائهم بالجزء اليسير من الحديث الشريف، أو ما يخدم سياق النص ،ونادرا ما يوردون التركيب اللفظي للحديث كاملا من مثل: ما جاء عن "ابن حداد" في مناظرته "للشيعي" مع البدايات الأولى للدولة العبيدية في باب الفاضل والمفضول يقول "ابن الحداد"من ذلك:" ...أن رسول الله(ص) أمر على جيش عمرو بن العاص ، فكان يقيم الفيء

---

[1] ابن أبي زيد القيرواني:المصدر السابق،ص 6-7.

[2] ابن ماجة:سنن ابن ماجة، تح:محمد فؤاد الباقي،دار الفكر،دمشق ،د ط، د ت، ج1،ص82.

،ويأمر وينهى فيطاع ،ويصلي بهم الصلوات ،ويشاورونه ويستأذنونه في جميع شأنهم ، وتحت يديه في الجيش أبو بكر وعمر ، وهما جميعا افضل منه لا يشك في ذلك أحد " [1].

ومن مثل ذلك هذه المناظرة التي جرت بين "ابن الحداد "والداعي الشيعي في مسألة فقهية هي "باب الفاضل والمفضول"، ومبدأ النص و الاختيار، وأفضلية علي –كرم الله وجهه– على أبي بكر الصديق – رضي الله عنه– وجاء فيها استدعاء أقوال الرسول صل الله عليه وسلم لاستجلاء الشك وكشف الظنون، في توظيف ضمني يقوي الحجة والبرهان، وجاء فيها قول "ابن الحداد" : "وهذه سنة رسول الله (ص) ،ومن ذلك أن رسول الله (ص) أمر على جيش "عمرو بن العاص"[2] ، فكان يقيم الفيء ، ويأمر وينهى فيطاع،ويصلي بهم الصلوات ويشاورونه ويستأذنونه في جميع شانهم ، وتحت يديه في الجيش أبو بكر وعمر ، وهما جميعا أفضل منه لا يشك في ذلك أحد .

وأيضا أن النبي" صل الله عليه وسلم" أمر على جيش "زيد بن حارثة"[3].وتحت يديه من الجيش "جعفر بن أبي طالب "–رضي الله عنهما –وهو أفضل منه، فلما ثبت ذلك عندنا وقام مقام العيان ، جاز للأمة تقديم المفضول على الفاضل .

فقال لي: نحن لا نقول كقولك أن للأمة أن تجتمع فتقدم على نفسها إماما . و إنما يكون الإمام من اصطفاه الله ورسوله . وأما من لم يقدمه الله على خلقه، ولم يقدمه رسول الله صل الله عليه وسلم فكيف له والتقديم؟"[4].

---

[1]محمد اليعلاوي : الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي، ص58.

[2]كان ذلك في غزوة ذات السلاسل ،حدثت هذه الغزوة في جمادى الآخرة سنة ثمان من الهجرة ، وسببها أن جماعة من قضاعة أرادو أن يدنوا إلى أطراف المدينة فدعا رسول الله صل الله عليه وسلم "عمرو بن العاص"فعقد له لواء وبعثه في ثلاثمائة من الصحابة المهاجرين و الأنصار(ينظر:العسقلاني: فتح الباري في شرح البخاري،، ج8، ص74).

[3]أمر "زيد بن الحارثة" في غزوة مؤته ،وفي الجيش "جعفر بن ابي طالب" الطيار ، و"عبدالله بن رواحة "،و"خالد بن الوليد"وضي الله عنهم أجمعين، فلما استشهد زيد ،حمل الراية جعفر ــفلما ارتقى شهيدا ، حملها عبدالله بن رواحة فلما قضى نحبه شهيدا ،حمل الراية خالد بن الوليد ،وانسحب بالجيش بذكائه (ينظر: سليمان بن موسى الكلاعي: الاكتفاء في مغازي رسول الله و الثلاثة الخلفاء،تحقيق:مصطفى عبد الواحد،مكتبة الخانجي ،ج1، 1970 ،ص 231–266).

[4] محمد اليعلاوي: الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي،ص56–57–58.

والجدير بالذكر هنا أن الفرق المتخاصمة كانت تورد أحاديث مختلفة عن بعضها البعض من حيث المصدر والسند وحتى اللفظ والمعنى فنجد أن كتاب السنة يعودون إلى المذاهب الأربعة وإلى كتب الحديث الصحاح ،أما الشيعة فهم لا يؤمنون بأصحاب المذاهب الأربعة ، بل لهم مصادر وسندا خاصا بهم وفي بعض الأحيان يوردون بعض الأحاديث الموجودة عند السنة .

ومن أمثلة ذلك إيراد الحديث الشريف كما حققه علماء الحديث على النحو:" قال تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنة نبيه"[1].فيما نجد الشيعة يوردون الحديث على الشكل: " يا أيها الناس إني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا كتاب الله وعترتي أهل بيتي"[2].كما كثر ذكر الحديث المشهور عن الولاية في معظم خطبهم ومناظراتهم وحتى رسائلهم، وفي حكاياتهم الشعبية. والذي يستشهدون به دائما في مسألة الإمامة وأحقية "علي بن أبي طالب" "كرم الله وجهه" بالخلافة على حساب"أبو بكر الصديق"و"عـــمر بن الخطاب""رضي الله عنهما"وهو الحديث الذي قاله الرســـــول (ص) في يوم "الغدير"[3]الذي يحتفل به الشيعة إلى اليوم والذي قال فيه:" من كنت مولاه فعلي مولاه "[4].

وقد تناظر" أبو عبد الله الشيعي " مع "ابن الحداد"[5]. في هذه المسالة.ولكن أغرب ما في ذلك ، هو إيرادهما في أغلب المرات لمعنى الحديث فقط ويكتفيان بمضمونه العام ، دون ذكر أي عبارة ، ولا كلمة تبين وتحدد أو تدلل عليه ، مما يصعب التعرف على الحديث المقصود بالإيحاءات ،وهو في الحقيقة نماذج قليلة منها... وهـــي في مجملها تستخدم لتدعيم أقوالهم وإقناع المستمعين والقراء.

---

[1]مالك بن أنس : الموطأ،دار إحياء التراث العربي،لبنان،2008،ص371.

[2]الترمذي:المصدر السابق،ج12، ص256.

[3]جاءت الرواية أن ذلك كان في منصرف علي من حجة الوداع لما صار عند غدير خم (موضع بين مكة والمدينة) وذلك لثماني عشرة من ذي الحجة،وأن الله عز وجل أنزل عليه حينئذ لما قام بولاية علي(ينظر:القاضي النعمان : المجالس والمسايرات ، ص 327 – 328 . وأيضا:محمد اليعلاوي:الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي،ص47) .

[4]الترمذي:المصدر السابق،ج2، ص298.

[5]محمد اليعلاوي : الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي، ص47.

ب-3-الشعـــــــــــر:

تعد ظاهرة الاقتباس من الشعر العربي أو تضمين أبيات منه ميزة اتصف بها الشعراء الكتاب المغاربة في القرنين الرابع والخامس للهجرة،فقد حرصوا على إظهار تفوقهم في المنثور والمنظوم معا دلالة على سعة إطلاعهم وإبحارهم في شتى الفنون الأدبية وإحاطتهم بصور الإبداع الشعري في بلاد المشرق العربي، ولعل هذا الاستعمال الخاص للشعر في النص النثري استدعته الحاجة إلى الاستشهاد ودعم الحجة والتنويع في صور الكلام قصد الإقناع باعتبار النثر فن الإقناع بالدرجة الأولى...

لقد استخدم الأدباء الشعر بصور مختلفة ومتنوعة باختلاف الأنواع الشعرية، فمنها ما كان مقتبسا من الشعراء السابقين، ومنها ما هو نتاج إبداعي للأديب ذاته. ونجد أن الأشعار التي استخدمت في شتى الأشكال النثرية هي أشعار مقتبسة من الرافد الأدبي العام للموروث الشعري العربي، فهو من جملة المعارف الأساسية التي يشترط توفرها في الأديب ، وفي ذلك يقول "النويري":" حفظ أشعار العرب ومطالعة شروحها ، واستكشاف غوامضها ، والتوفر على ما اختاره العلــماء منها كالحمـــاسة و المفضليات و الأصماعيات ،وديوان الهذليين ،وما شابه ذلك ، لما في ذلك من غزارة المواد وصحة الاطلاع على أصول اللغة ... "[(1)] .

فالأديب بعد تمكنه من هذه المعارف يقوم باستدعائها في الكتابة التي تفرضها دون قصدية، يقول:"فإذا أكثر المترشح للكتابة من حفظ ذلك وتدبر معانيه سهل عليه حله، وظهرت له مواضيع الاستشهاد به ، وساقه الكلام إلى إبراز ما في ذخيرة حفظه منه، ووضعه في مكانه، ونقله في الاستشهاد والتضمين إلى ما كأنه وضع له .وكذلك حفظ جانب جيد من شعر المحدثين كأبي تمام والمتنبي ...للطف مأخذهم، ودوران الصناعة في كلامهم، ودقة توليد المعاني في أشعارهم، وقرب أسلوبهم من أسلوب الخطابة والكتابة" [(2)].

كما أفاد الكتاب والأدباء من أساليب الشعر لاقترابه من منثورهم المقفى أي النثر الذي يلتزم التقفية وكثرة الأسجاع، يقول في ذلك "ابن خلدون":" الفن المنثور المقفى أدخل المتأخر ون

---

[1]النويري: نهاية الإرب في فنون الأدب،تحقيق: مفيد قمحة و أخرون، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1،2004،م7، ص32.

[2]نفسه،ص34.

فيه أساليب الشعر فوجب أن تتنزه المخاطبات السلطانية –الرسمية –منه "[1]. فالأمراء والقواد و ذوي المراتب العليا في الدولة استصاغوا تضمين الشعر حتى قال عنهم "ابن خلدون":" وأنف من ذلك أهل المهن والمراتب من المتأخرين ، وتغير الحال فيه وأصبح تعاطيه هجنة في الرئاسة ومذمة لأهل المناصب الكبيرة "[2] .

وقد تبين لنا من الرسائل الرسمية ، والخطب المنبرية التي حصلنا عليها أنها تكاد تخلو من تضمين الشعر، فلم نكد نجد في تلك المخاطبات والرسائل الرسمية آثارا للشعر إلا نادرا ،وإن وجد فهو منثور، محورا بحسب أسلوب الأديب الذي يوظف هذا الشعر.

وعملية الاقتباس من الشعر تتم على مستوى اللفظ أو المعنى،كما تأتي على مستوى الصياغة أحيانا ومن أمثلة بعض الأشكال ، الني نجد فيها تضمينا لجملة من الأشعار ، ما نجده في مناظرة "ابن حداد"(219 -302 هـ) "للشيعي" حول الإمامة و أحقية "علي بن أبي طالب" (رضي الله عنه) بالخلافة، وفي رد "ابن حداد" عن سؤال الشيعي بأن أهل السنة لا يصلون على "علي" لأنهم يبغضونه فرد عليه "ابن حداد" –ورفع صوته– وقال:نعم :صلى الله عليه ، لأن الصلاة في كلام العرب الرحمة والدعاء، وأورد قول "الأعشى ":

تقول بنتي، وقد قربت مرتحــــــلا* يارب،جنب أبي الأوصاب و الوجعا

عليك مثل الذي صليت،فاغتمضي*يوما،فإن لجنب المرء مضطـــــجعا[3]

و أردف شارحا ، " فالصلاة من الله رحمة ، ومن الآدميين دعاء ، نعم ، فصلى الله على علي وفاطمة والحسن والحسين وعلى أهل طاعته أجمعين من أهل السماوات و الأرضين" [4].

ولعل هذا المثال من الاقتباس على مستوى الصياغة، بل هو على مستوى التصريح بالمصدر الذي أخذت منه المادة الشعرية. أما الغرض هذا الاقتباس فهو الاستشهاد، وهو تأكيد على المعنى الذي أورده للصلاة في كلام العرب. ويأتي المناظر لنصرت لنفسه بأدلة ترفع شأنه وتعلي مقامه فوق خصمه.

ابن خلدون: المقدمة ، ص 1122.

[2]نفسه،ص1123.

[3]محمد اليعلاوي: الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي، ص47.

[4]نفسه،ص47.

كما نجد الاقتباس الذي يتم على مستوى الألفاظ والتراكيب المشابهة،من مثل رسالة ولي العهد العبيدي "القائم"،والتي كتبها إلى الأمير العبيدي "المهدي" في وقت عودته من الإسكندرية إلى المغرب سنة اثنتين وثلاثمائة هجرية بقوله :

الله لي ثم إمام الهـــدى* ما ضاع من كـــان له الله
الله، جل الله، لي صاحب*سقــيا لمن صاحـــبه الله
الله لي في وجهتي ناصر* قد عز من ينصـــــــره الله

ويقول القائم العبيدي أيضا:

الله ربـــي و إلاهي ،ومن* مثلـــي إذا قلت: لـــي الله؟
الله حسبـــي بعـــد ذا كله* يا حبـــــذا من حسبه الله(1)

هذه المقطوعة يبدأ كل بيت فيها ويختم باسم الله، وهي شبيهة بمقطوعة في ديوان "أبي فراس(ت 352هــ)""بعنوان يرجو النجاة"(2)، وهنا الاقتباس تم على مستوى المعنى واللفظ مع عدم التصريح بالمصدر الحقيقي للمادة الشعرية.بل ضمن شعره إشارات وعبارات مشابهة للمصدر المقتبس منه، فغدت وكأنها جزء من أسلوبه الخاص.

ولعل ما يجدر بنا ذكره في هذا المقام رسائل "علي الحصري" الذي تجاوز فيها صنعة الأدب في أشكاله النثرية في زمانه فضاهت ما جاء به المشارقة وأهل الأندلس. وقد عجت رسائله بأنواع البديع إلى جانب تضمين شعره الخاص، وقد زاد ذلك في تقوية المعنى ورفع مستوى لغة النص، ومن ذلك قوله من رسالة يخاطب بها صديقه غانم المخزومي:" ...أبى صرف القضاء وشلبه لسانك في المضاء، ونظير صدرك ويديك، في سعة المعروف والعلوم

1محمد اليعلاوي: الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي ، ص101.

2أبو فراس:الديوان،رواية أبي عبد الله الحسين بن خلويه، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت،د ط،1979، ص313

(وقالها في أهل البيت: لست أرجو النجاة، من كل ما أخــ* شـــــــاه،إلا بأحمد وعـــــلي
وببنت الرسول فـــــاطمة الطهــ * ر، وسبطيه والإمـــــام علــــي
والتقي النقي، باقــر علـــم الــ* له فينا ،محمد بن علـــــــــــي
وابنه جعفر ومـــــوسى ومـــولا * نا علي ، أكرم به من علـــــي).

لديك، أن أكون من زوارك، فأقبس من أنوارك، وأقطف من أنوارك، يا لباب، أولي الألباب، يا سلسبيل، أبناء السبيل

فارقتني وأنا والشوق إلفان*فسل رسولك عني كيف ألفاني

قبلت كتبك من فرط الهوى قبلا* أقلهن إذا عددت ألفـــــان

ولما شقتني بغررك الأثيرة، ورقتني بدررك النثيرة، ذممت عبد الحميد، ومحمد بن العميد، وأنشدت:

لقد فات في نثــــــره غانم* بديع الزمان وقابوســــــــه

وروى الظماء بماء النعــ *يم فلا عيش إلا وقى بوسه

وكنت وقاك الله منهلا عذبا لأودائك ، ومنصلا عضبا على أعدائك، صنعت قصيدا يحي الطرب " (1)

وإذا كان النثر بصفته أداة تعبير فني يعتمد فيه أصحابه إلى جعل بعض تعابير نصوصه من تراكيب وعبارات تتضمن أبياتا شعرية كشواهد أدبية بعد تحويرها وجعلها تتواشج والسياق العام للنص النثري، فإنه يكسبه لغة جديدة من حيث الصياغة والتعبير، وهذه الطريقة في دمج النثر في أجواء شعرية قد عرفت منذ عصر الجاحظ في بلاد المشرق العربي، لجا إليه الأدباء للحد من رتابة التعابير النثرية المبتذلة، وإثارة المتعة في العبارة ذات الوقع والتأثير، بالإضافة إلى أن الأديب صاحب الذوق العربي يميل بفطرته إلى الشعر وشجونه فيحاول استمالة الكلام المنثور إلى أغوار الشعر لأجل تذوقه والاستمتاع بمزاياه الإيقاعية والتصويرية والتعبيرية...

فهذه الأسباب هي التي حدت ببعض أدباء النثر في المغرب إلى العودة إلى نماذج عليا من الشعر العربي ونقل تعابيره وصيغه وإيقاعه إلى النص النثري فيقع التواشج والانسجام ويظهر النص الجديد بحلة شعرية جميلة ، ومن ذلك ما استهل بها "أبو الصلت "الرسالة المصرية": كنت إبان عصر الشباب مونق، وغصن الصبا مورق، إذ لمتي مسودة ولماء وجهي

[1]محمد المرزوقي :المرجع السابق ، ص138–139.

رونق، ممن سامحه الدهر بغفلة من غفلاته...[1] .وهو بلا شك اقتباس نحن نثبت من بيت المتنبي وقد داخله البتر والتحوير :

ولقد بكيت على الشباب ولمتي* مسودة ولماء وجهي رونق " [2]

ب-4- الأمثال والحكم:

إن توجه الأدباء إلى تضمين الأمثال أو الحكم و اقتباس معانيها وملفوظاتها يدل على سعة إطلاع الأديب وثقافته وسعيه إلى التنويع والتجديد، ولعل سبب هذا العود ما تتميز به الأمثال والحكم من خصوصيات جمالية لا تجتمع في غيرها من النصوص:" إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى،وحسن التشبيه ،وجودة الكناية،فهو نهاية البلاغة" [3].

وتكمن براعة الأدباء في هذا التوظيف بحسن توظيف هذه الأشكال ووضعها في سياقها، أو حسن التجديد بابتكار سياق جديد لها، واشترط النقاد في هذا الصنيع العودة إلى المصادر الأصلية، إذ يشترط "النويري": "النظر في كتب الأمثال الواردة نظما ونثرا كأمثال الميداني ،والمفضل وحمزة الأصبهاني وغيرهم ،وأمثال المحدثين الواردة في أشعارهم كأبي العتاهية ،وأبي تمام والمتنبي ،وأمثال المولدين" [4] .

فإذا جئنا إلى النثر المغربي و تتبعنا مدى استخدام المثل والحكمة في التركيب البنائي للجمل والتعابير.وجدنا الأدباء قد أجادوا في ذلك بنسب متفاوتة. على أن الملاحظة هنا تكمن في أنهم استخدموا المثل والحكمة على نوعين فمنها ماكان مقتبسا، ومنها ما كان نتاج إبداع خاص للأديب.

وسنكتفي بالإشارة إلى تضمين المثل أو الحكمة أخذا عن المصادر القديمة لغرض تعميق الفكرة وحسن إيصالها إلى المتلقي، من ذلك قول:ابن أبي زيد القيرواني "إمام المالكية في زمانه" في مقدمة رسالته الفقهية: "...إيصال الخير إلى قلوب أولاد المؤمنين ليرسخ فيها ...وتعمل به

---

[1] الشاذلي بو يحي:المرجع السابق ،م2، ص 756.

[2] نفسه، الصفحة نفسها.

[3] حنا الفاخوري:الحكم والمثال، دار المعارف ،مصر، ط 4 ،1980م،ص8.

[4] النويري : المصدر السابق،ص34.

جوارحهم فإنه روي أن تعليم الصغار لكتاب الله يطفئ غضب الله وأن تعليم الشيء في الصغر كالنقش في الحجر وقد مثلت لك من ذلك ما ينتفعون إن شاء الله بحفظه..." [1].

لقد ضمن الأديب بتضمين رسالته القائل: "التعليم في الصغر كالنقش في الحجر" ، فالعلم يجب أن يلقن في الصغر حيث ذهن الطفل خصب كأرض صالحة للزراعة أو كصفحة بيضاء يخط فيها أي شيء، لهذا فالأساس التربوي للمتعلمين هو البداية الصافية لذاكرة الإنسان التي تخزن بقوة ما يثبت فيها.

ولتعميق الفهم، يورد الفقيه مثلا عربيا أخر يلتقي والأول في بعض المكونات اللفظية التي تؤدي نفس المهام التركيبية لكنه يخالفه في المعنى، فيقول: " التعليم في الكبر كالنقش في الماء. التعلم في الصغر كالوقرة في الحجر الوقرة النقرة في الصخرة أراد أنه يثبت في القلب ثبات هذه النقرة في الحجر" [2] فباجتماع المثلين على اختلاف معنييهما تلتحم أجزاء الفكرة فتؤدي وظيفتها التبليغية بقوة وصفاء حتى تكون هذه الرسالة أساسا ومنهجا تربويا يدرس في الكتاتيب .

ب-5-التاريــــــــــخ:

يعتبر تاريخ البشرية مصدر مهم يلبي رغبات الإنسان في الإطلاع على حياة الأفراد والمجتمعات،ومعرفة أسرار الوجود والتطور الإنساني ، لأخذ العبر والدروس، يقول "عبد الرحمن الجيلالي":" إن للتاريخ أثرا كبيرا في الثقافة العامة ،فهو سجل الأيام من سياسة وعمران،وفن وأدب" [3]

يدخل الرافد التاريخي في النصوص الأدبية النثرية للاستشهاد والتمثيل والتأكيد بالحجة والبرهان والدليل التاريخي القاطع، ولأجل ذلك اختصت باستدعائه كل المناظرات والخطب أكثر من غيرهما من الفنون والأشكال النثرية على اعتبار أنه الوسيلة الموجهة إلى إقناع المتلقي ولفت الانتباه من أجل فرض فكرته وحسن تبليغها ،ولذلك فقد حرص الكتاب المغاربة على

---

[1] ابن أبي زيد القيرواني: المصدر السابق، ص6.

[2] الميداني: مجمع الأمثال ،تح: محمد محيى الدين عبد الحميد، دار المعرفة ،بيروت، د ط،د ت،ج1، ص651 (ينظر: ابن الأثير:النهاية في غريب الأثر-حرف الواو-تح:طاهر أحمد الزاوى-المكتبة العلمية،بيروت، 1979م،ج 5،ص213.

[3] عبد الرحمن الجيلالي: المرجع السابق،ص17.

استدعاء تاريخ أنسابهم ونسب قبائلهم لتعظيم شأن خطابهم المتنوع وإحلاله مكانته اللائقة، ومن ذلك ما جاء في رسالة "القاسم" إلى "مؤنس""[1] .

وفي الخطب إشارات إلى حوادث تاريخية كاملة في الكتابة في موضوعات أغلبها دينية ، كما قد تكون سياسية ،وحضارية ، وحتى أدبية متعلقة بتاريخ الأدب كما يشيرون إلى أعلام الكتاب والشعراء ، والخطباء، وغيرهم ممن ضربوا مثلا في الكرم والجود ، والشجاعة ، والكرم .

وفي هذا يقول "القائم" في خطبته في عيد الفطر سنة(302 هـ):" اللهم انصر جيوشنا وسرايانا في مشارق الأرض ومغاربها، وبرها وبحرها، وسهلها وجبلها.اللهم، العن أعدائك وأهل معاصيك من الأولين والآخرين، وقوم نوح في العالمين، إنهم كانوا قوما فاسقين ، وعادا وثمودا وأصحاب الرس، وجبابرة بني أمية وبني مروان،و"معاوية بن أبي سفيان"[2] الذي اتخذ من عبادك نصيبا مفروضا من الدنانير وقاتل بهم المهاجرين والأنصار ، والعن "عمرو بن العاص"[3]و"عتبة بن أبي سفيان"[4]،و"الوليد بن عتبة"[5]، و"الوليد بن أبي معيط"[1] و الوزغ بن الوزغ–يعني مروان بن الحكم[2]

---

[1]محمد اليعلاوي:الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي ، ص85.

[2] معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية الأموي أبو عبد الرحمن الخليفة صحابي أسلم قبل الفتح وكتب الوحي ومات في رجب سنة ستين وقد قارب الثمانين. (ينظر:ابن حجر:التقريب،ج1،تح:محمد عوامة،دار الرشيد حلب،ط1،1986م ص 537،رقم الترجمة: 6758).

[3]عمرو بن العاص بن وائل السهمي الصحابي المشهور أسلم عام الحديبية وولي إمرة مصر مرتين وهو الذي فتحها مات بمصر سنة نيف وأربعين وقيل بعد الخمسين.(ينظر:ابن حجر:المصدر السابق، ص423 ،رقم الترجمة: 5053).

[4]عتبة بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية الأموي شقيق معاوية ولاه عمر الطائف.توفي بمصر في سنة أربع وأربعين.وكان فصيحا خطيبا بليغا مفوها وولاه أخوه مصر بعد وفاة عمرو بن العاص.(ينظر: ابن حجر :تعجيل المنفعة،ج1،تح: إكرام الله إمداد الحق، دار الكتاب العربي ،بيروت، د ط، د ت ، ص 279 ،رقم الترجمة: 716).

[5] الوليد بن عتبة بن أبي سفيان:ولي المدينة لمعاوية عمه وليزيد، وكان يضايق الحسين بن علي.وقد يكون الوليد بن عتبة بن ربيعة الذي قتله علي يوم بدر،وهو خال معاوية (ينظر : ابن حجر:المصدر السابق، ص 473،رقم: 5153).

و"المغيرة بن شعبة"[3] ، و"زياد بن سمية"[4]، و"عبيد الله بن زياد"، والسلمي، وذا الكلاع" وحوشبا[5]،و"الأشعث بن قيس"[6] و"عبد الملك بن مروان"[7]، و"عبد الرحمان بن ملجم"[8] والناكثين والقاسطين... [9].

والغرض من إيراد هذه المجموعة من الأمثلة المختلفة المصادر، من القرآن الكريم، و من حوادث التاريخ الإسلامي،وخاصة ما تعلق بالحكم الأموي وما انجر عنه من صراع بين الشيعة وخصومهم حول مسألة الحكم .

فالخطيب الشيعي عادة ما يربط وحسب اعتقاده مصادر الكفر حسب مراحل متتالية حدها الأول قوم نوح ثم عاد وثمود وأصحاب الرس[1] ،وكل قصص هذه الأقوام مصدرها

---

[1] الوليد بن عقبة بن أبي معيط:أخو عثمان بن عفان لأمه، كان سكيرا مستهترا بالدين، وكان ممن يطالب بدم عثمان ويشتم عليا.وشارك في وقعة صفيين بين علي ومعاوية وكان يحرض معاوية بشعره.(ابن حجر:المصدر السابق،ص665 ،رقم الترجمة: 5213).

[2] مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية أبو عبد الملك الأموي المدني ولي الخلافة في آخر سنة أربع وستين ومات سنة خمس في رمضان وله ثلاث أو إحدى وستون سنة لا تثبت له صحبة من الثانية ،وتملك ابنه عبد الملك (ابن حجر :المصدر السابق،ص525 ،رقم الترجمة: .6527. الذهبي: الكاشف،ج2، تح:محمد عوامة-أحمد نمر الخطيب،دار القبلة-مؤسسة علوم القرآن،جدة،ط1 ،1992م،ص253 .رقم الترجمة: 5363).

[3]المغيرة بن شعبة بن مسعود بن معتب الثقفي صحابي مشهور أسلم قبل الحديبية وولي إمرة البصرة ثم الكوفة مات وبرأيه ودهائه يضرب المثل مات سنة خمسين.(ينظر:الذهبي:المصدر السابق،ص286، رقم الترجمة: 5592 .ابن حجر :المصدر السابق،ص543 ،رقم الترجمة: 6840).

[4]زياد بن سمية: هو زياد بن أبيه أمير العراق.(ينظر هامش:محمد اليعلاوي:نفسه ،ص92).

[5]عبد الله بن زياد، والسلمي، و ذو الكلاع، و حوشبا: ممن كانوا مع معاوية في وقعة صفين. (ينظر هامش:محمد اليعلاوي:نفسه ،ص92).

[6]الأشعث بن قيس الكندي:هو من أصحاب علي.ولكن الشيعة يؤاخذونه بتحريضه عليا على قبول التحكيم. (ينظر هامش:محمد اليعلاوي: نفسه ،ص92).

[7]عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص الأموي أبو الوليد المدني ثم الدمشقي كان طالب علم قبل الخلافة ثم اشتغل بها فتغير حاله ملك ثلاث عشرة سنة استقلالا وقبلها منازعا لابن الزبير تسع سنين من الرابعة ومات سنة ست وثمانين في شوال وقد جاوز الستين (ينظر:ابن حجر:المصدر السابق،ص365 ،رقم الترجمة: 4213).

[8] عبد الرحمن بن ملجم : الخارجي قاتل علي بن أبي طالب.(ينظر:ابن حجر:المصدر السابق، ص380).

[9] محمد اليعلاوي:نفسه ،ص92.

القرآن الكريم . يوردها ليربطها بكفر وطغيان "بني أمية" ومن والاهم على "علي بن أبي طالب" وذريته وأحقيتهم بالخلافة التي غصبت منهم ظلما وعدوانا.كما أن ذكره للأقوام السابقة الكافرة يقصد بها التنبيه إلى مصيرهم المهلك الذي لحق بهم ،وهو ما تشابه فيه الفريقان في الكفر والتكذيب وفي النتيجة الحتمية التي آلو إليها وهو الهلاك والعذاب.

كما أن هذه الفقرة من الخطبة بذكره فيها بني أمية ومن حالفهم ممن عادوا عليا واغتصبوا حقه، واضطهدوا ذريته، وبهذه الحدة.فلنا في هذه الخطبة نموذج عنيف مما عرف بـــ "اللعن على المنابر"، والذي أساء إلى الحزبين جميعا وإلى الإسلام عموما.

ومن هنا فإن بسط فكرة المهدي وتوظيفها كل كما يراها، ووفق الأغراض التي يرونها ويعرفون من ورائها.والاعتماد على أولويات الفقه الإسلامي هو استحضار التقى لسياق الآيات الكريمة من القرآن الكريم ،إنما تدل على مدى الاطلاع وسعة الإدراك الثقافي للمحيط الثقافي الإنساني لأدباء العهد الفاطمي. كما أننا من خلالها نكتشف مصادر ثقافة الأديب وإدراك مدى براعته في توظيفها لما يهم الموضوع وغرضه من دون ركاكة ، ومن دون تلبيس لها ومدى القدرة التوظيفية لهذه الاستطاعة المتراكمة في أذهانهم .

وعموما فإن نثار المغرب باختلاف انتماءاتهم المذهبية وتوجهاتهم وآرائهم في مختلف المجالات المحيطة بهم –باعتبارهم كتاب الدول– ،قد سلكوا الطريق نفسه ، ونهجوا آثار بعضهم البعض في الكثير من الألفاظ والعبارات، والتراكيب.والغاية من وراء هذا العنصر ليس الاستقصاء لكل ما اقتبسه الأدباء أو ضمنوه ،ولكن هو إشارة إلى أن الأشكال النثرية في هذا القرنين الرابع والخامس للهجرة ،تزخر بمثل هذه التراكيب و التعابير ،لكونها أخذت منحيين ،تمثل الأول في: كونها موجهة إلى عامة الناس و اعتماد الأدباء والأمراء على ما هو متداول ومتعارف عليه خاصة ما تعلق بالقرآن الكريم والحديث النبوي،وما تعلق بتاريخ صدر الإسلام. لما لهم من تأثير في المتلقين واستجابة سريعة لها.أما ثانيا فهو استنطاق لحوادث التاريخ وآيات القرآن الكريم والتمثل والاستشهاد بها، لاستمالة المتلقي والتأثير فيه.

---

[1]الرس هو البئر وهم القوم الكافرون الذين كذبوا نبي الله شعيب عليه السلام. (ينظر: محمد اليعلاوي:المصدر السابق ،ص92).

ثانيا: المستوى التركيبي:

التركيب النثري طبيعي وتلقائي يروم التوضيح والإفهام وهو يخالف في ذلك الشعر الذي هو مصنوع يروم الاشجاء تساوقا مع الايقاع. إلا أن النثر ليس نظاما لغويا أوليا فهو يستعمل نظاما موجودا قبله وهو اللغة في تركيبها النظامي، تبعا لذلك نتساءل عن كيفية استعمال الكاتب لهذا النظام اللغوي.

والإجابة عن هذا التساؤل سنحاول البحث في الاستخدامات التركيبية الشائعة في مختلف النصوص النثرية.

أ-الجمل الخبرية والانشائية :

أ-1-الجمل الخبرية:

تأتي الجمل في أسلوبها الخبري للدلالة على تقرير الأحداث التي جرت. وما اتسمت به جل الأشكال النثرية،وقد يتعدى ذلك حتى على الفعل فيكون مرتبطا بالخبر ،كقول " المنصور"في رسالته إلى "جو ذر" بالمهدية "جملة ما أبشر به سيدنا ومولانا أمير المؤمنين ، أن قتلاهم غطت الأرض ، وامتلأ العسكر المنصور من غنائهم ، وكذلك القيروان ، وما عجز الأولياء عن حمله و استثقلوه ، أطلقت عليه النار فأحرقته.واستولينا على مناخ اللعين بما فيه من قليل و كثير ، فقتل فيه ما لا يحصى ، سوى ما قتل في المعركة وليس إلى إحصاء من قتل سبيل لكثرتهم"[(1)].فهذه الجمل جاءت على شكل دفقات متوالية لتقرير حقائق ميدانية، كما جاءت وفق أسلوب نابع من أعماق الكاتب الانفعالية وحتى الفكرية الانتقامية.

وقد يأتي اختيار الكاتب لألفاظه بعناية، منتجا دلالات تقرب المتلقي إلى واقع النص الذي تشاكلت ألفاظه، وجمله لتضفي على المعنى رونقا، وجمالا ،كقول الأمر العبيدي المنصور : "... فعند ذلك اعتزلنا محلة الفتنة، وملنا إلى مظنة الأمنة، وبعثنا في أحياء هلال نستنجد منهم النجدة، ونستفز من كنا نراه للمهم عدة، وأنتم في هذا الأمر أول من يليهم الخاطر، وتثني عليه العناصر"[(2)].

---

[1]محمد اليعلاوي:الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي،ص170.

[2]نفسه،ص117.

فجاء هذا النسق اللغوي ليؤكد على المعنى الذي أراده الكاتب، على الرغم من أن اللفظ يمكن أن ينصرف إلى أكثر من دلالة لعدم تقيده بسياق واحد، إلا أنه هنا جاء مقيدا بضرورة إثراء النص، فالأفعال ("اعتزلنا، ملنا، بعثنا، نستنجد" تشاكلت لتسهم في بناء النص بناء يتماشى، وطبيعة الموضوع، والظرف السياسي، ثم تشاكلت مع ما يليها من ألفاظ لترسم واقع النص ،وهو حال معظم النماذج النثرية في القرنيين الرابع و الخامس للهجرة.

كما نجد في خطبة أخرى "للقائم "أثناء حصار المهدية من قبل" صاحب الحمار مخلد بن كداد".وهي موجهة للمحاصرين الذين خارت قواهم وأغلبيتهم من قبيلة كتامة الموالية للعبيديين ومن جملة ما جاء في الرسالة قوله: "وقد علمتم يا معشر كتامة ما مضى عليه آباؤكم وقدماء أسلافكم من لزوم الطاعة و الاعتصام بحبلها و التفيىء بظلها، والمجاهدة في الله حق جهاده" (1).والملاحظ أن هناك تزاوج بين جمل تقريرية لحقائق القبيلة وأصولها التي لها الفضل الكبير في قيام دولة بني عبيد ، وبين الحث على المضي قدما والقيام بما يناسب تاريخ القبيلة العريق في الولاء المطلق للدولة .

وقد تأتي الأخبار على شكل إقرار بالجمل الاسمية المثبتة ، وهي في الأساس تفيد نوعا من الحث على الإقدام والمضي قدما في نصرة الفئات المتصارعة كما أنزلت فيها حوادث المستقبل بمنزلة الماضي اليقين.

وقد ترد الأخبار بأفعال ماضية ثابتة كقول "المنصور" في رسالته إلى "كتامة": "وقد أعز الله نصرنا، وأتم وعده لنا، وأعز أولياءنا، وأذل أعداءنا وأظفرنا، ومكن لنا البلاد وقمع بنا جميع العباد، طوعا وكرها، و المنة و الشكر لله رب العالمين" (2).

فالأفعال الماضية هنا لم تأتي لغوا، ولكنها عبرت عن أحداث وقعت فعلا وانتهت وهي أحداث تتعلق بمسيرة السيطرة على المغرب الإسلامي، والذي دان لهم ، بالحروب حينا وبالسلم حينا آخر و فالاتفاقيات.وكلها ثابتة لا ينكرها منكر، ولذا جاءت كلها مؤكدة ، لا يشوبها أدنى

---

[1] محمد اليعلاوي،المرجع السابق، ص157.

[2] نفسه،ص158.

شك .ونجدها كثيرة الورود خاصة عند أمراء وكتاب وخطباء الدولة العبيدية في شتى الأشكال ، وفي جل الأغراض .

وقد جاءت بعض الأشكال النثرية في معظمها تقريرات تأتي على دفقات وصفية أو سردية مفصولة بأساليب طلبية كما عند الأمير "القائم" في خطبه[1] وبعض رسائل "المعز" من مثل رسالته إلى "الإخشيدي" التي دعا فيها إلى تضافر الجهود لنصرة المسلمين من حملات البيزنطين في الشام وفي هذا يقول: "إن الله – سبحانه – قد خولنا من فضله وأمدنا من معونته وتأييده بما نرى أنا بحوله وقوته ونصره لنا و اظهارنا على عدونا نكف أيدي الكفرة عما تطاولت إليه من حرب هذا الصقع والإيقاع بأهله. وقد انتهى إلينا أنك أظهرت الحركة إلى الجهاد و إمداد هؤلاء القوم بمراكب من قبلك ، وأنت لعمري بذلك أجدر لقربهم منك واتصالهم بك و ميزهم بلدك وكونهم وإياك في دعوة واحدة " [2].

وهكذا يزاوج الكاتب بين الأخبار و الأناشي وكأنه يجعل الأناشي محطات للحركة النفسية التي تود الاستراحة من ثقل الأرزاء ، ولكنه ما إن يخرج الأناشي حتى نجدها أكثر دلالة على الأفعال التي كانت على أبلغ وجه ، إلا أن هذا الانفعال يأتي على شكل أوامر ونواه تفيد النصح والإرشاد إلى جانب التحذير ،من عواقب التكاسل عن نصرة هذا الجزء من جسد الأمة الإسلامية وهذا ما يفسر لنا الحالة النفسية للأمير الكاتب ، وأنه كان يئن تحت عبء الوقائع الجسام ،التي يتعرض لها المسلمون على أيدي البيزنطيين ، وإحساسه بالمسئولية على أراضي البلاد الإسلامية ، وكله هذا نتاج الرغبة والآمال المعقودة على بسط السيطرة على هذه البلاد ، وتحقيق الأماني. التي كانت تساور أمراء الدولة منذ تأسيسها على أرض المغرب الإسلامي.

كما أنه نجد هناك خطب، ورسائل،ووصايا نوتآليف أدبية وتاريخية و فكرية... يمتزج فيها الخبر و الانشاء امتزاجا عجيبا بين، كالخطبة التي قرأها "جعفر الحاجب "على لسان أميره "المنصور"في مسجد القيروان سنة (335 هـ)،حيث يقول:" قد علم الله سبحانه حسن نيتي فيكم ،وما أضمره من الخير لكم،وما أحبه من صلاح أموركم،وما أجد في نفسي من الغم لما حل بكم من البلاء ،وما نــزل بكم من الفقر وذهاب الأنفس والأموال. وأن لي آمالا كثيرة حسنة أملها

---

[1] نفسه، ص383.

[2] القاضي النعمان: المجالس والمسايرات ،ص 445- 446.

فيكم ما منعني عن إظهارها إلا كون هذا العدو بحذائي، ومحاربتي له، وما كان من هذه الوقائع بيني وبينه. فلو كنا أظهرنا ما كنا نؤمله من الإحسان إليكم قبل الظفر ..."[1].

فالخطبة هنا يكاد يتساوى فيها الخبر بالإنشاء لطغيان الانفعال وتمازجه مع الأحداث التي يسردها الخطيب لتوضيح أمر الضرائب التي فرضت على الأهالي.ويزداد ورود الخبر حتى يعتقد الخطيب من أن المستمعين قد وعوا الأسباب التي نتج عنها مثل هذه السياسة، لتظهر الأساليب الإنشائية قوية واضحة، وهذا ما دل عليه انفعال الخطيب الذي نقله عن أميره ، والاضطراب الشديد الممزوج بالألم ، والحسرة لما لحق بالأهالي من خسائر بشرية ومادية،جراء دفاعهم واستماتتهم من أجل بقاء الدولة العبيدية ، إلا أنه يبرر سياسته المنتهجة من خلال ، إبراز قوته أمام خصمه ، وعدم إعطاء المجال والفرصة لتبيان حجم الخسارة والوهن الذي لحق الأهالي من هذه الحرب على الصعيدين البشري والاقتصادي. وهذا التلون في الخطبة منح لها بريقا ساهم في زيادة إعطاء السامع شحنا انفعالية .بالرغم من حالته المزرية ،كما أعطى السامع اطمئنانا داخليا .

أما تأكيد الخبر فمرتبط عموما بالحالة النفسية للأديب،وبوضع المتلقي ، لهذا قد تأتي الأخبار مؤكدة أو غير مؤكدة،من مثل ماجاء في كتاب الأمان الذي بعثه "جوهر" إلى أهل مصر، يقول فيه: "مع اعتماد ما جرت به عادته من صلاح الطرقات وقطع عبث العابثين فيها ليتطرق الناس آمنين ويسيروا مطمئنين ويتحفوا بالأطعمة والأقوات إذ كان قد انتهى إليه صلوات الله عليه انقطاع طرقاتها لخوف مادتها إذ لا زاجر للمعتدين ولا دافع للظالمين"[2].

فالأخبار هنا لم تقع بل هي في حكم المستقبل ، لكن الكاتب أخرجها مخرج اليقين وهذا لاقتناعه بأن الدخول تحت حكم المعز هو الرخاء والأمن لأهل مصر ، بل هو قوة وتمكين للناس من حياتهم الهادئة ونضيف كذلك: "...وأن يؤمن من استولى عليه الوهل ويفرخ روع من لم يزل في خوف ووجل وآثر إقامة الحج الذي تعطل وأهمل العباد فروضه وحقوقه لخوف

---

[1]محمد اليعلاوي: الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي، ص154.

[2]المقريزي : المصدر السابق،ص54.

المستولى عليهم وإذ لا يأمنون على أنفسهم ولا على أموالهم "[1]. فعدم التأكيد في ذاته يحمل دلالة نفسية لا يماريه فيها أحد.

أ-2--الجمل الإنـــــــــشائية :

تعتبر التراكيب الانشائية الوجه الثاني للقالب السردي التقريري، وتتحقق في النص عن طريق أساليب: النداء أو الطلب أو الاستفهام.

ويعد الاستفهام من أبرز صور التحول في الوظيفة اللغوية في نهج البلاغة ،فقد تحول عن وظيفته الحقيقية التي تبحث عن الإجابة إلى وظيفة تستند إليه بوصفه وسيلة بلاغية يمكن استعمالها على غير الوجه الذي وضعت من أجله لمنح اللغة هوية استثنائية تنأى بها عن الجمود والعلمية الصرفة .و يلعب الاستفهام دورا كبيرا في إثارة المتلقي، فالكاتب يسأل لكنه لا يقدم جوابا، وهذا لا يعني أنه لا يعرف الإجابة بل يترك أفق البحث والمعرفة مفتوحا، فالسؤال يدفع إلى مزيد من التفكر والتدبر ،وهنا تكمن أهمية الاستفهام في كونه المثير والمحفز للمتلقي والمؤثر فيه.

ومثل هذا ما جاء في خطبة "المعز"[2] التي استهلها بالتمني وأعقبه بالاستفهام المتبوع بجملة من المعطوفات التي تأخذ الحكم نفسه ،وتبدي لنا التلون العاطفي للخطيب ، والحلم الذي يرتقب تحقيقه في بلاده.ويغلب السرد والتقرير على الخطبة حتى إذا اقتربت من نهايتها تلونت بالاستفهام والنداء ، والأوامر والنواهي الدالة على النصح والإرشاد .

و الأمر مثله في مناظرة "أبي عثمان سعيد بن الحداد" "لأبي عبد الله الشيعي" ،لما سأل "أبو عبد الله الشيعي" "أبا عثمان الحداد" فقال: أفلا أوجب قول الله تعالى عند من سمعه: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ﴾"[3] انقلاب أصحاب محمد. فقال له أبو عثمان: "لا"؛ لأن معناه أفإن مات أو قتل أفتنقلبون، على أعقابكم؛ لأن معنى "أفإن مات": استفهام، ومعنى "انقلبتم": أفتنقلبون والاستفهامان إذا جاء في قصة واحدة اجتزئ بأحدهما عن الآخر، وهذا الاستفهام إنما هو في معنى التقرير بأن لا تنقلبوا على

---

[1]نفسه ، ص55.

[2]ينظر البحث،ص84-85.

[3]آل عمران:الآية 144.

أعقابكم. فقال له: فهل تجد في كتاب الله عز وجل نظيرا يكون لهذا دليلا؟ فقال له: نعم. قول الله عز وجل: "أفإن مت فهم الخالدون"[1] أي: إنك إن مت فهم لا يخلدون، فلما التقى استفهامان أجزأ ذكر أحدهما عن الآخر، فكان لفظ الاستفهام من ذلك مرادا به التقرير: "بأنهم لا يخلدون"[2].

أما أساليب الطلب والأمر والنهي فكثيرا ما كانت تترادف في النص الواحد ،وهذا ما يخلق طرافة وجدة، فإذا كان الأمر يتطلب القيام بشيء أو بفعل، فإن النهي يطلب القيام بضده ، فهما متعاكسان في الجهة ، ويمتاز الأمر بأنه لا يدل على زمن يتلبس فيه الفاعل بالفعل ، فهو مجرد صيغة يطلب بها الفعل من الفاعل، فالأمر ليس فعلا حقيقيا ، إذ لا يدل عل حدث بقدر ما يدل، في الأصل، على طلب القيام بحدث ، أي أنه ليس واقعيا، بل هو أقرب إلى التصور ،الذي يحقق في النص مستويات جمالية تعلو فوق التعبير اللغوي .

ومن ذلك قول "القائم"في خطبته الموجهة لقبيلة كتامة " يا أبناء المهاجرين والأنصار ، والسابقين الأولين المقربين أليس بكم أزال الله دول الظالمين ، التي مضت لها أحقاب السنين ،حتى جعلهم حصيدا خامدين ؟ وأورثكم أرضهم وديارهم ، فصرتم تغزون بعد أن كنتم تغزون ؟" [3].

فالخطيب اعتمد على الاستفهام، وجاءت الجمل تحريضية دافعة للعمل والقتال مستنكرة لتقاعس أفراد القبيلة، ثم قال:" فلا تنكصوا بعد الإقدام.وأنتم حزب الله وهم حزب الشيطان، وقتيلكم في الجنة، وقتيلهم في النار، فأي حق بعد هذا الحق تطلبون، ومع أي إمام بعد إمامكم تقاتلون ؟" [4].حيث لجأ إلى النهي، آمرا إياهم بالقيام بفعل الإقدام ، وهنا استتر أسلوب الأمر أو طلب القيام بالفعل بالنهي عن ضده .

وتعتبر الوصايا من الفنون النثرية التي تعتمد أسلوب الأمر والنهي، مع مراعاة موضوع الوصية ومقامها. فمثلا وصايا الآباء عند الاحتضار، تقتضي من الموصي استخدام صيغ أمرية أو صيغ نهي هادئة اقتضاء للمقام الذي يعيشه الموصي.

---

[1]الأنبياء: الآية 34.

[2] محمد اليعلاوي :الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي،45-46.

[3]نفسه،ص102.

[4]نفسه،ص103.

وعلى العكس من ذلك نلاحظ أن الموصي في الوصايا التي تتعلق بتوصية الآباء للأبناء عند الزواج أو وصايا المعلمين لتلاميذهم، أو الحكام لذويهم ومستشاريهم في الحكم، أنه يهتم بالأسلوب الطلبي الصارم، لما يقتضيه مقام الموصي وموضوع وصيته. "وغالبا ما يقترن هذا الأسلوب بالتعليل، وذلك لبيان الهدف الذي يرمي إليه القائل من الأمر والنهي ثم من الوصية بوجه عام"[1]، ويمكن ملاحظة هذا الأسلوب في كل الوصايا التي وردت في هذا البحث ومثالها وصية المعز لشيوخ كتامة والتي جاءت كاملة في الباب الأول من هذا البحث، يقول فيها:" ...فافعلوا يا شيوخ في خلوتكم مثل ما أفعله ولا تظهروا التجبر والتكبر فينزع الله النعمة عنكم وينقلها إلى غيركم وتحننوا على من وراءكم ممن لا يصل إلي كتحنني عليكم ليتصل في الناس الجميل ويكثر الخير وينتشر العدل. وأقبلوا بعدها على نسائكم و ألزموا الواحدة التي تكون لكم ولا تشرهوا إلى التكثير منهن والرغبة فيهن فيتنغص عيشكم وتعود المضرة عليكم وتنهكوا أبدانكم وتذهب قوتكم وتضعف نحايزكم فحسب الرجل الواحد الواحدة ونحن محتاجون إلى نصرتكم بأبدانكم وعقولكم. واعلموا أنكم إذا لزمتم ما آمركم به رجوت أن يقرب الله علينا أمر المشرق كما قرب أمر المغرب بكم. انهضوا رحمكم الله ونصركم"[2].

واجتماع الأساليب الإنشائية يحقق الحركة والتلون الانفعالي في النص ، ومثال ذلك ما جاء في الخطبة التي بعث بها "المعز" إلى "الإخشيدي" بمصر،حول نصرة المسلمين بالشام ،وكان فيما كتب به إليه:"أن قل لصاحبك :إن الله – سبحانه – قد خولنا من فضله وأمدنا من معونته وتأييده بما نرى أنا بحوله وقوته ونصره لنا و اظهارنا على عدونا نكف أيدي الكفرة عما تطاولت إليه من حرب هذا الصقع والإيقاع بأهله. وقد انتهى إلينا أنك أظهرت الحركة إلى الجهاد و إمداد هؤلاء القوم بمراكب من قبلك،وأنت لعمري بذلك أجدر لقربهم منك واتصالهم بك و ميرهم بلدك وكونهم وإياك في دعوة واحدة . ولو أسلمناهم إليك وقعدنا عنهم لما كان لك ولا لهم علينا حجة في ذلك ، ولكنا آثرنا نصرة أمة جدنا محمد (ص) ولم نر التخلف عن ذلك وقد

[1] صالح، محمود عبد الرحيم: فنون النثر في الأدب العباسي. وزارة الثقافة، الأردن، 1994، ص40.
[2] حسن حسني عبد الوهاب :شهيرات التونسيات ، ص65-66.

رجونا له ، وألقوا بأنفسهم إلينا فيه "[1] . ففيها يلتمس الدعم ، ويدعو إلى تضافر الجهود لنصرة المسلمين بلا توان أو استكانة،كما يلتمس بإلحاح الأمن والطمأنينة وتجهيز الجيش للانتقام،وهذا لقربه من مسرح الأحداث والدعوة وسرعة نجدته لهم قبل فوات الأوان.وأخيرا يدعو المعز إلى الوثوق به وبتحالفه لأنه تحالف من أجل الإسلام ضد عدو جارف يهدد الوجود الإسلامي بلا تفريق بين سني وشيعي بقوله: "ففي تضافر المسلمين على عدوهم واجتماع كلمتهم إعزاز لدين الله وكبت لأعدائه.فقد سهلنا لك السبيل ، والله على ما نقول وكيل"[2]. فأساليب الرسالة كانت إنشائية في معظمها على شكل دفقات تتخلل الرسالة.

وأخيرا إن تقصي الخبر و الإنشاء في كل النثر المغربي أمر متعسر،ولعل ما أشرنا إليه كافيا للدلالة على ارتباطه بالحالة النفسية للكتاب والخطباء والأمراء في هذا العصر،ويزودنا بالأهداف المتوخاة من كل الأنواع النثرية.

ب-التقديـــم والتأخـــير :

تعتبر ظاهرة التقديم والتأخير سمة أسلوبية في البلاغة العربية، الغاية من ورائها تحقيق خصوصية جمالية في النص، فهي وسيلة من وسائل التعرف على الخروج عن القاعدة التي تمس ترتيب الكلمات في شكلها النظامي، ولعل هذه الظاهرة التركيبية من أكثر الظواهر التركيبية بروزا في الإفصاح عن الجهد المبذول من قبل المبدع للانحراف باللغة عن مسار الجمود و المألوف الذي لا يخرج اللغة إلى حيز المغايرة والجمال والعلة في ذلك أن التقديم والتأخير يحققان أهدافا جمالية قد لايحققها الالتزام بالرتبة العادية للعبارة.

إن البحث في ظاهرة التقديم والتأخير في النثر المغربي القديم ، هدفه إبراز الجماليات المكنونة في طيات العبارات والتراكيب الخارجة عن نظاميتها ومدى فعالية هذا التصرف إن كان يؤدي إلى التعقيد وإن كانت تراكيب النثر أقل حرية في تأليف كلماتها من حيث التقديم والتأخير عكس الشعر الذي يتحرر في التأليف، و "ذلك ناشئ عن قصد التوفيق بين وزن الشعر

---

[1]القاضي النعمان: المجالس والمسايرات، ص445.

[2]نفسه،ص446.

وحركات العبارة،فتبدو الجمل في نظام غير طبيعي ...على أن شيئا من ذلك قد يكون لغرض معنوي أو فني..."[1].

فإذا وقفنا عند قول "المنصور" في خطبته بقلعة كيانة في عيد الأضحى وهو يحاصر"أبا يزيد": " اللهم ،وكما قلدتني خلافتك التي كرمتها وشرفتها،وحظرتها وحرمتها،ولعنت من غير أهلها مدعيها"[2].نجد تقديما وتأخيرا استوجبه السجع والسياق هو: ولعنت مدعيها من غير أهلها.والتقديم والتأخير يكسب الجمل جمالا يكرس صيرورة ورتابة البناء العادي للجمل والتراكيب.

ج-الاعتــراض:

لجأ أدباء وأمراء وكتاب هذا العصر إلى الجمل الاعتراضية كثيرا في التراكيب، خاصة في الرسائل .كما استخدمت في الخطب أيضا بصورة واضحة جلية ، وقد يوظف الاعتراض في الرسائل في سطر واحد ولمرة واحدة ،أو لمرات عديدة .ويستعمل لأغراض عديدة كقول "المنصور": "وليس على اللعين إلا قميص واحد – سربله الله سرابيل جهنم – قيل أنه قد صرع في المعركة .وقد أمرت بالتفتيش عليه"[3].فجملة "سربله الله سرابيل جهنم" بالإضافة إلى كونها تضمين للآية: ﴿وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار﴾ [4].فهي ذم وقدح، وتدل على مدى الكره وشدة البغض للمذموم، وقد أحسن الكاتب استخدامها. فهو يريد تبيان حال خصمه،وهو في حالته المزرية، ومدى العداوة الشديدة التي يكنها لعدوه اللدود وكأنه يفيد التشفي و الاستطراد إذ أن العبارة لا تفتح مجالا للعطف والشفقة على الخصم بالرغم من حالته الصعبة ولا إنسانية، فجاء بهذا الاعتراض ليسد الباب ويقطع الشك باليقين، ويبين أمانيه الكبرى برؤية خصمه في نار جهنم ،وأن يلقى أشد العذاب وسوء المصير.

---

[1]أحمد الشايب: الأسلوب، مكتبة النهضة المصرية،مصر، ط6، 1966م، ص69.

[2]محمد اليعلاوي : الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي،ص171.

[3]محمد اليعلاوي : المصدر السابق ، ص.157

[4]إبراهيم : الآيتان 51-52

وقد يأتي الاعتراض للتوضيح والاستدراك كقول "النعمان" عن "المعز": " فاوضت فلانا – وذكر رجلا من علماء العامة عندهم وأكابرهم – وبسطته في القول.وبين أن ينبذ إليه عهده – كما نبذ رسول الله صلى الله عليه وسلم– إلى مشركي العرب عهدهم وأرسل عليا ببراءة فقرأها في الموسم عليهم"[1].ويفيد التوضيح لإزالة الشك. ويفيد المزيد من العزم و الإصرار على سلك طريق القدوة صاحب الفضل والرسالة.

وفي رسالة "المعز" إلى "الإخشيدي" يقول فيها: " إلى مرسى طنبة من أرض برقة – لقرب هذا المرسى من جزيرة إقريطش–،ويكون اجتماعهم مع أساطيلنا بهذا المرسى"[2].يفيد التوضيح والتعليل لاختيار هذا المرسى.

كما يقول "المعز" في إحدى خطبه : " النور ــ أيها الناس ــ فينا مصون "فالاعتراض هنا فصل بين يفيد الاستدراك،ويفيد الاعتراض وهو أيضا نوعا من الثناء والمدح كقول "المنصور " في مستهل الخطبة التي ألقاها بمناسبة عيد الأضحى بقلعة "كيانة" "[3]،وهو يحاصر أبا يزيد الخارجي سنة(335هـ–947م):"والحسن والحسين–سيدي شباب أهل الجنة–" [4]فالخطيب أراد أن يبين مكانة الحسن والحسين عند المسلمين، وأنهما سيدا شباب الجنة ، وخيرة أهل الأرض .ويفيد الاعتراض أغراضا أخرى .ولكنه بصورة مطردة يفيد معاني جمالية يقتضيها السياق.

ويمكن أن نجد أخيرا سببا مقنعا للجوء النثار إلى هذه الظاهرة اللغوية التي لها قيمة عالية ومهمة متمثلة في ارتباط الكاتب مع موضوعه وشكله النثري، وفي استعمالها لأغراض نفسية بلاغية ولكثرة الظواهر اللغوية اكتفينا ببعضها فقط .

ومن خلال ما سبق نستنتج أن كتاب الدول المتتابعة قد أجادوا في الانطلاق من الفصحى والسمو بلغة الأدب من حيث صوغ القوالب، وتراكيب الجمل والثروة اللفظية وطرق التعبير. ولم تزل اللغة من حيث بناؤها الحقيقي على الرغم من بعض السمات المولدة محافظة على أصولها وسلامتهابل إن المناظرات ، والمساجلات ،التي كانت تجرى في مجالس العلم وحلقات

---

[1] القاضي النعمان:المجالس و المسايرات،ص442.

[2] نفسه، ص445 – 446.

[3] محمد اليعلاوي:الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي ص170.

[4] نفسه،ص171.

الدرس تميزت بمصطلحات وألفاظ خاصة من الناحية الأدبية ،ولدها أصحاب الاختصاص للتعبير عن المفاهيم الجديدة كما هو الشأن في حلقات "القاضي النعمان " في بث الدعوة الإسماعيلية،ومناظرات "الداعي الشيعي" مع "ابن حداد" ومع المساجلات التي تحدث بين المعز وقواد الجيش أو معارضيه .فهناك معان مستحدثة ، وألفاظ مفردة مشتقة من الدعوات التي ينشرونها فقد كان للفقهاء والأمراء وقواد الجيش ألفاظا مشتقة من كلام العرب.

وعند إشارتنا إلى المفاهيم المذهبية للشيعة مثلا ،فإننا وجدنا للمصطلح الواحد أكثر من مدلول ،فما وجدناه عند السنة وعند العامة بمدلول كان عند الشيعة بمدلول آخر، كما أن المفاهيم والمصطلحات التي تدور على ألسنة الخطباء والأدباء، تساعدنا على إلحاق النصوص النثرية أو المصنفات إلى صاحبه، ومعرفة مذاهب أصحابها، ذلك لأن لغة هؤلاء الأدباء تتسم بالجهوزية، والألفاظ المتعارف عليها بينهم تتكرر في جملهم بل في كل مؤلفاتهم ،و في كل مجالسهم العلمية.

ومن خلال هذا نستطيع إذا قرانا كتابا أو نصا يعالج قضية ما وكنا نعلم سماته الفكرية ومنطلقاته العلمية ،أن نصنفه في مذهب من مذاهب البحث اللغوي في تلك الفترة .وألفاظ والمصطلحات والفنون النثرية في إطارها المذهبي (الشيعي ، الخارجي ، السني) والتي لا يشك أحد في أصالة مادتها اللغوية ، ولا في موافقتها لسنن العربية فأصبح لكل مذهب كلام وألفاظ ،بعد أن عجزت الأسماء المتداولة والمأثورة عن اتساع المعاني المذهبية أو الكلامية ،أو غيرها من المعاني الأخرى .وإن حروف هذه الألفاظ وأشكالها وتراكيب عباراتها عربية صحيحة سليمة،فهي متداولة أو منقولة لمعان جديدة ، اقتضتها الحياة الثقافية والفكرية ، فهي رموز لا يفهمها إلا من هو في مثل حال المتكلمين من لطف الطبع ، ومن هو مهيأ لفهم تلك الإشارات اللفظية.

كما أننا نجد أن هناك بعض المعاني الجديدة والألفاظ والمصطلحات يستعملها أصحاب العلوم والمذاهب المختلفة بعينها على معان أخرى مختلفة ،وكذلك نجد بعض ألفاظ المتكلمين يستعملها أهل النحو للدلالة على معاني أخرى،فإذا كان المتكلم في المذاهب خائضا استعملها للدلالة على ما تعارف عليه أهل صناعته

وإذا كان خائضا في الأدب والنحو استعملها للدلالة على ما عليه الجمهور وهذا التداخل في الدلالات والاشتراك في الألفاظ قد يدخل على المتلقي اللبس وسوء الفهم، وكان الأحسن أن يكون لكل علم ولكل صناعة ألفاظ تخصه.

الفصل الثاني : المستوى الدلالي

أولا:مفهوم الصورة الفنية في النقد العربي

ثانيا:أساليب التصوير :مصادرها و أنماطها

(التشبيه ـ الاستعارة ـالكناية).

ثالثا: الأبعاد الفنية للصورة في النثر المغربي.

أولا: مفهوم الصورة الفنية في النقد العربي:

أجمع الدارسون على أن الأديب يتسامى عما في واقعه إلى برج خاص به يعيد فيه صياغة الواقع بمفهوم ورؤية زمكانية جديدة، وهذه الرؤية الخاصة هي التي تشكل العالم الفني للأديب ،ورغم خصوصياتها إلا أنها تحمل في طياتها دفقات فنية يمكن للقارئ والدارس تلمسها وتحسسها وتذوقها باعتبارها معالم فنية قائمة بذاتها تستهوي القارئ والدارس وكلما تواجدت هذه العناصر بتماسك كلما حقق الأديب ما يتوخاه القارئ من جمال في أدبه. ومن الأدباء من يجول ويصول وينقب في رموز اللغة ولا يجد ما يشفي غليله ويؤدي معانيه لذلك يلجأ إلى المجاز والاستعارة ،والتشبيه والكناية ، وبذلك يستطع نقل أحاسيسه التي تعبر عن نظرته الخاصة للعالم وهذا ما ذهب إليه "شوقي ضيف" بقوله:"فالصورة هي وسيلة الشاعر والأديب في نقل فكرته وعاطفته معا إلى قرائه أو سامعيه ..."[(1)].

إن الصورة الفنية التي ستركز عليها الدراسة تتعلق بـــ:التشبيه والاستعارة والكناية ، آخذين برأي "الجرجاني"حين يتحدث عن الفصاحة والبلاغة كقيمة فنية يقوم عليها فن الأدب حيث يقول: "... من المعلوم أن لا معنى لهذه العبارات "الفصاحة والبلاغة " وسائر ما يجري مجراهما ...غير وصف الكلام بحسن الدلالة وتمامها فيما له كانت دلالة، ثم تبرجها في صورة هي أبها وأزين وأنق وأعجب وأحق بأن تستولي على هوى النفس وتنال الحظ الأوفر من ميل القلوب وأولى بان نطلق لسان الجامد..."[(2)].

ومن هنا يقر بأن العناصر الجمالية التي يشتمل عليها العمل الأدبي هي المؤثرة في النفوس والقلوب ، وهي التي يشيد بها المتذوقون للأدب ، و"الجرجاني" هنا يشير إلى المجاز وكأنه يعني أن المجاز ليس السبيل الوحيد إلى الصورة .أما "ابن الأثير" فيقول : "... أن المجاز أولى بالاستعمال من الحقيقة في باب الفصاحة والبلاغة لأنه لو لم يكن كذلك،لكانت الحقيقة التي هي أصل أولى منه حيث هو فرع عليها ، وليس له كذلك لأنه قد ثبت أن فائدة الكلام الخطابي

---

[1]شوقي ضيف:في النقد الأدبي، مكتبة الدراسات الأدبية، دار المعارف، مصر، ط3، د ت، ص111.
[2]عبد القاهر الجرجاني:دلائل الإعجاز ، ص 35.

هو إثبات الغرض المقصود في نفس السامع بالتخيل والتصوير حتى يكاد ينظر إليها عيانا..."[1].

وقد ذهب "ابن رشيق" إلى الرأي نفسه حين قال: "...والمجاز في كثير من الكلام أبلغ من الحقيقة وأحسن موقعا في القلوب والأسماع ،وما عدا الحقائق من جميع الألفاظ ، ثم لم يكن محالا محضا، فهو مجاز لاحتماله وجوه التأويل،فصار التشبيه والاستعارة وغيرها من محاسن الكلام داخلة تحت المجاز إلا أنهم خصوا به–يعني المجاز–بابا بعينه ..."[2].

وقد اعتنى البلاغيون واللغويون بتفاوت دلالة التعبير وضوحا أو خفاء ، فجاء بحثهم الحثيث حول إثبات المعنى وتأكيده، حسبما يريد المتكلم ويقتضيه المقام؛ وذلك لأن " المعنى الواحد لا يمكن أن يعبر عنه إلا بعبارة واحدة لا يتعداها، فإذا اختلفت العبارة اختلف المعنى بمقدار ما بين العبارتين من الاختلاف، وكل زيادة أو نقص أو تغيير في العبارة لابد أن يتبعه تغيير أو نقص أو زيادة في المعنى ؛ لأن الألفاظ هي صور المعاني وأجسادها، فإذا تعددت الأجساد، كان ذلك حتما مستتبعا تغير الأرواح التي احتلتها وتمثلت فيها"[3].

وقد تجلى هذا الرأي بقوة في نظرية النظم لعبد القاهر الجرجاني والتي أثبت من خلالها أن" لا يكون لإحدى العبارتين مزية على الأخرى، حتى يكون لها في المعنى تأثير لا يكون لصاحبتها. فإن قلت: فإذا أفادت هذه ما لا تفيد تلك، فليستا عبارتين عن معنى واحد، بل هما عبارتان عن معنيين اثنين – قيل لك: إن قولنا " المعنى " في مثل هذا، يراد به الغرض، والذي أراد المتكلم أن يثبته أو ينفيه، نحو أن تقصد تشبيه الرجل بالأسد فتقول زيد كالأسد، ثم تريد هذا المعنى بعينه فتقول: كأن زيدا الأسد، فتفيد تشبيهه أيضا بالأسد، إلا أنك تزيد في معنى تشبيهه به زيادة لم تكن في الأول، وهي أن تجعله من فرط شجاعته وقوة قلبه، وأنه لا يروعه شيء؛ بحيث لا يتميز عن الأسد، ولا يقصر عنه، حتى يتوهم أنه أسد في صورة آدمي... وجملة الأمر أن صور المعاني لا تتغير بنقلها من لفظ إلى لفظ حتى يكون هناك اتساع ومجاز، وحتى لا يراد

---

[1]ابن الأثير:المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر،ص 410.

[2]ابن رشيق:العمدة، ج1، ص266.

[3] بدوي طبانة : علم البيان،مكتبة الأنجلو المصرية،ط4،1977،ص31.

من الألفاظ ظواهر ما وضعت له في اللغة، ولكن يشار بمعانيها إلى معان أخر، واعلم أن هذا كذلك مادام النظم واحدا، فأما إذا تغير النظم فلابد حينئذ من أن يتغير المعنى"[1].

ولهذا فإن الاختلاف بين طرائق التعبير يكون تبعا لما جرى على حقيقته أو ما تجاوزها من جهة أداء المعنى المراد؛ فقد يقتضى المقام الوقوف عند التصوير الحقيقى للمعنى، ويكون كافيا لتحقيق الغاية منه، فالصورة " لا تلتزم ضرورة أن تكون الألفاظ والعبارات مجازية، فقد تكون العبارات حقيقية الاستعمال، وتكون مع ذلك دقيقة التصوير دالة على خيال خصب..."[2]، وقد يقتضى المقام سياقا آخر يتجاوز ذلك إلى التعبير عن المعنى بصورة من صور التشبيه أو الاستعارة أو الكناية بهدف المبالغة في تصوير المشاعر والأحاسيس، ونقل أثرها إلى المتلقي.

فلم يكتف البلاغيون واللغويون بالوقوف عند المعنى والتعبير عن المعنى حقيقية أو مجازا، بل تجاوزوه إلى ما هو أبعد من ذلك وهو البحث الدلالي الذي ينطلق من المفهوم الذي جاء به عبد القاهر الجرجاني حول معنى المعنى من خلال علاقة اللفظ والنظم في حديثه عن المعنى ومعنى المعنى،وهو يقول: " نعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ والذي تصل إليه بغير واسطة، و"بمعنى المعنى" أن تعقل من اللفظ معنى، ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر"[3]. وقد تعرض البلاغيون المتأخرون بعده لمبحث الدلالة كطريقة منهجية في تعريفهم لعلم البيان؛ فالدلالة: لزوم معرفة الشيء العلم بشيء آخر عند وجود علاقة بينهما ، الأول يسمى دالا، والآخر يسمى مدلولا.

وعلى هذا الأساس انطلقوا في التعويل على مفاهيم الدلالة من أجل ضبط أصول البيان وحصر أبوابه وطرائقه في النص الأدبي ذلك أن الناقد يهتم في المجال الدلالي بهيئة توصيل التجربة الأدبية و حسن تبليغها، فيركز على الصورة المقبولة و المعرض الحسن، وهي نظرة بلاغية تضع النص موضع الصورة الحسنة المقبولة لدى القارئ، يستطيع من خلالها

---

[1]عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز ، ص 258 – 265.

[2]محمد غنيمي هلال : النقد الأدبي الحديث، دار العودة ،بيروت، ط 1، 1982م، ص457.

[3]عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز ، ص 265.

توصـــيل التجربة الإبداعية بوسائل ابلاغية جمالية تتمثــل فـــي الاستعارات و التشبيهات و ما شاكلها من الصور البيانية. يقول ديفيد ديتش(Devid Detch):"واجب الناقد هو أن يبين كيف يعيش الأثر الأدبي، و ما هي حقا صورته و مبناه، وحياته الأساسية، وأن يبين ذلك بتبيان خصائص شاهدة موضوعيا في ذلك الأثر"(1).

و قد اهتم النقاد القدامى بهذا النوع من المقاييس النقدية،و يرجع اهتمامهم هذا إلى اعتبار الأدب وخاصة الشعر صورة بيانية فنية، وأن مصدر الجمال فيه هو ما حسن من استعارات وتشابيه وكنايات... ففي حسن التشبيه جاء في كتاب الوساطة للقاضي الجرجاني قوله في بيت المتنبي:

بليت بلى الأطلال إن لم أقف بها* وقوف شحيح ضاع في الترب خاتمه

"إن التشبيه و التمثيل قد يقع تارة بالصورة و الصفة، وأخرى بالحال و الطريقة، فإذا كان الشاعر و هو يريد إطالة وقوفه قد قال: إني أقف وقوف شحيح ضاع خاتمه، فإنه لم يرد التسوية بين الوقوفين في القدر و الزمان و الصورة و إنما يريد: لأقفن وقوفا زائدا على القدر المعتاد خارجا عن حد الاعتدال"(2).

هذا التعليق يقودنا إلى القول إن الصورة هي تعبير صادق ودقيق عما يجري في أعماق الأديب من خواطر وخلجات فتخرج مكللة بحلل جميلة، أصيلة متفردة، ومألوفة في أغلبها مستساغة مؤثرة وهنا يرى "عز الدين إسماعيل":" أن الصورة كما تكون مجموعة من الألفاظ تكون لفظا واحدا "(3).

ويؤكد "جابر عصفور" على أن للصورة أهمية قصوى: " الصورة هي إبداع فني يخاطب الروح والإحساس والخيال معا فما نحصل عليه من التشابه أو سواه ، من عالم المجازاة الإستعارية يكون له تأثيره في إنماء الصورة الجمالية الفنية فيضيق جديدا يشتبه في خيالنا وروحنا، فالعناصر المكونة للعمل الفني هو اتحادا عضويا ، بحيث تتغلغل الفكرة أو العاطفة في

---

[1]أحمد رحماني: "النقد التطبيقي الجمالي و اللغوي في القرن الرابع الهجري،عالم الكتب الحدث،لبنان،2008، ص 33.

[2] محمد مندور:المرجع السابق، ص 387.

[3]أحمد الشايب : المرجع السابق، ص242.

كل جزء من أجزاء العمل الفني وبحيث تعكس كل صورة وكل لفظة فيها تقريبا..."[1]. " والصورة هي التعبير بما فيه من تحسين وتزيين ، أو خصوصية أو تأثير وهذا التحسين أو التزيين قد يسمى إيجازا أو توكيدا أو قصرا أو تقديما أو تأخيرا ،وبالجملة ما نسميه تركيبا ،كما يسمى في أحيان أخرى مجازا أو تشبيها أو استعارة أو كناية وبالجملة ما نسميه نحن بالصورة الفنية" [2].

وهكذا فإن المجاز ينقلنا إلى عالم الفن أفضل من الحقيقة، التي تكون في أغلب الأحيان مقتصرة على الواقع الذي يجعلنا حيث كنا. بحيث يستثار المتلقي فيدرك علاقة الصورة بمغزاها ،ويشعر عندها بالمتعة و الانتصار للفكرة، ولكي نبلغ المستوى الراقي في الفن وتفهمه ،فلا بد أن نخرج عن نطاق الصورة الجزئية المنعزلة، والتركيز أكثر على خصائص الأسلوب النثري كله، لأن العمل الفني كل متماسك تتحدد من خلاله العناصر المكونة له اتحادا فنيا بحيث تتغلغل الفكرة في كل جزء من أجزائه ، وبحيث تعكس كل لفظة ، وكل صورة رؤية الأديب.

ويكون ذلك من باب الاهتمام بالصورة من حيث هي نتيجة لعمل الذهن الإنساني في تأثره بالعمل الفني وفهمه له،وتصنف الصورة بحسب مادتها إلى صور بصرية وسمعية وشمية،وذوقية و لمسية وهي تشكيلات مستمدة من عمل الحواس الخمس، ويضاف إليها الصورة الحركية العضوية وقد تغلب حاسة منها على صورة ما فتنسب إليها،وقد تشترك أكثر من حاسة في تكوين صورة أخرى مما يسمى بالصورة المتكاملة المكررة.

من خلال كل هذا نرى أن النص الأدبي يعتمد على عالم خاص ينسجم فيه إبداع الأديب مع الفن عموما ويتحقق بواسطة الصورة الفنية التي يلجأ إليها الأدباء والكتاب لنقل إحساساتهم وأفكارهم إلى الآخرين عن طريق أساليب فنية جميلة مؤثرة ومقنعة ، ولعل الهدف الأسمى منها هو أن تثير إعجاب المتلقي ورضاه وحسن تذوقه لها ، بما تشمل عليه من وسائل أهمها التشبيه والاستعارة والكناية ، وأنواع المجاز الأخرى ودور الدارس للأدب يتمثل في تذوق هذه الجماليات والكشف عنها وإيصالها إلى الآخرين بطريقة سلسة سهلة تعين على إبراز المآثر الفنية الخالدة.

---

[1] جابر عصفور:الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي،دار المعارف،مصر،ط2 ،1980، ص336.

[2] نفسه، ص35.

والبحث الدلالي حول الاستخدامات البيانية يلزم الدارس الاستقصاء عن المدلولات بتتبع جذور التداول اللغوي للألفاظ التي استخدمها المبدع في نصه، أو الاستقصاء عن معاني لغة الشاعر؛ لمعرفة دلالاتها. أو عن صحة هذا الاستخدام اللغوي للفظة بالرجوع إلى مصادر اللغة العربية الصحيحة.

ثانيا- أساليب التصوير : مصادرها وأنماطها :

أخذ الكتاب العرب في الاكثار من مناهج الزخرفة والتنميق ، وغواني التعابير المجازية وغالوا في استخدام التشابيه والاستعارات ، وأبعدوا فيها وأغربوا حتى اشتغل منهم كل ذلك وعد مع غيره من المحسنات ،مسئولا عن التدهور الذي أصاب الفن الأدبي ، والخمول الذي شمل مختلف أغراضه طوال قرون من الزمن، وإذا جئنا إلى الحديث عن بعض مظاهره في الأشكال النثرية في الفترة الزمنية التي بين أيدينا ،وجدناه متعلقا أساسا بالخيال، كثيرا شائعا في بعضها، يسيرا خافتا في أشكال أخرى،ومنه أنواع مختلفة فيها البسيط ،وفيها المركب وفيها الحسن وفيها المصطنع.

على أننا هنا نتوقف عند بعض نماذجه ، وخاصة ما تعلق منه بما ارتبط بين التشابيه و الاستعارات لما في ذلك من قيمة كبيرة في إبداع الصور وتكثيفها.

و الذي يذكر هنا ، أن المصدر الأساس الذي استقى منه المغاربة صورهم ما يحيط بهم من مظاهر البيئة المغربية الممثلة في جبالها وسهولها، تلالها وصحاريها.... فطبيعة بلاد شمال إفريقيا أخذت لها مكانا في النثر المغربي واستخدمها الكتاب والخطباء والمناظرون في شتى أغراضهم ،وهذا ما كان عليه الحال عند إخوانهم في الأندلس حيث كان شغفهم بالطبيعة واستحضارها في شتى المجالس وفي الكثير من النصوص، ومن هنا استخدمت الطبيعة كأداة تصويرية ووسيلة من وسائل التنميق والتزيين.

وعند استعراضنا للصورة التي وردت في مختلف الفنون النثرية المغربية- خلال تلك الحقبة من تاريخ المغرب-، وجدنا أنها لم تخرج من الخصوصية المغربية المتعلقة بالطبيعة الغناء التي خصها الله تعالى بها ،مع الإشارة الواضحة إلى أن العهد العبيدي -وبما شهده من حروب وفتن وصراع فكري مذهبي -، حصر مثل هذه الصور في حدود بسيطة.

وحتى نبرز هذا الاختلاف بين الاستخدام المنحسر أو المبالغ فيه نقف عند نماذج هذا العصر من مختلف النصوص المتعلقة بمختلف التشكيلات والضروب التي جاء وفقها التصوير الفني البياني.

والملفت في تلك النماذج –أنه على الرغم مما أصاب النثر العربي من تجديد في مضامينه وصيغه– ،إلا أن أكثر كتاب وأدباء العهد العبيدي لم يستطيعوا أن يقطعوا صلتهم بالقديم ،مما يدل على الارتباط الشديد بكل ما هو موروث،وكل ما هو سلفي الطبع،وكل ما تعلق بخيالات الموروث هذا الذي استحال التخلص منه بسهولة ، بالرغم من تجاوز الزمن لها .

و إذا ما جئنا إلى حصر هذه الصور، من خلال تواجدها وتوزعها وحظ كل شكل نثري منها نجدها متفاوتة ومختلفة بين شكل وآخر ،حيث نجد حظ التشبيه والاستعارة والكناية ، متفاوتة من أديب لأخر ومن شكل أدبي نثري إلى آخر.

فقد كانت معظم خطب ورسائل البلاط العبيدي– الموجهة للرعية– بسيطة في استخدام الاستعارات والتشبيهات، والكنايات، فالصراع المتواصل مع خصومهم، وسيطرة هذا الصراع يجـــبر الأدباء على البساطة في القول، والتركيز على الحجة لإرسال المعلومات والنصائح ،والتعاليم المختلفة التي تخدم القضية والمذهب ،إلا أن استخدام هذه الصور تحول في أوقات الصحو بعد الكدر والأمن بعد الحرب إلى نوع من العمليات الذهنية العميقة ،مما يضفي على الخطابات نوعا من الاسترسال في المجاز، وهذا ما يجعل استجابة المتلقي مزودة بانفعال وتقبل ذهني وعاطفي. وهذا يدل على التكوين الجيد للأديب وسعة أفقه ومدى تمكنه الفني.

وإذا أردنا الوقوف عند الصور بشكل أكثر تدقيقا،لما لهذه الأنماط من اختلاف،وحتى في النص الواحد ،وما يحتويه من التعبير عن حالات الأخوة والتضامن إلى التنافر والتقاطع ، ومن المسرة إلى الإساءة ، ومن الأمل إلى الألم ومن الذل إلى العز، يبدو من الصعب أن نجد الصور منفصلة ، فقد نجدها في فقرات قصيرة محدودة متلاحمة، وهنا نشير إلى أن الأدباء في هذا العهد اختلفوا في تفصيل هذه الصور تفصيلا مطلقا تاما بل اعتمدوا على الحواس في اختلاطها وتداخلها،من أجل نقل الأحاسيس و الإدراكات المختلفة... "والحواس التي تدرك الفن ،وتتذوق الجمال ،هما العين والأذن ،وللعين المحل الأول في هذا المجال فهي التي تنقل على النفس

الألوان والصور ، والأشكال والحركات والإشارات،ولأذن المحل الثاني إذ أنها تسمع مختلف الأصوات ، وتنقل إلى النفس حسيسها وإيقاعها وموسيقاها "(1).

فكثيرا ما تأتي الطبيعة وعناصرها أداة بيانية ووسيلة من وسائل التنميق والتحسين.ومن هذه الصور تلك الصيحة المدوية التي أطلقها الأمير العبيدي"المعز"،خاصة حينما نظر إلى أهل إقريطش من خلال رسالتهم ،فإذا هم يصرخون بأعلى صوتهم طالبين التأييد والنصرة فيوجه رسالة النصرة" للإخشيدي" القريب من مكان الحدث ليبين له ما لأهـــل إقريـــطش من حقوق دينية لنصرتهم على أعداء الدين "الروم" يقول على لسان الأهالي:"...نكف أيدي الكفرة عما تطاولت إليه من حرب هذا الصقع والإيقاع بأهله....فهم يستصرخون ويقولون استنصر الدين بكم فاستقدموا، فإنكم إن تسلموه يسلم، لا تسلموا الإسلام وأسرجوا لنصرته ...لاذت بكم إقريطش برحم الدين ونعم الرحم...ففي تضافر المسلمين على عدوهم واجتماع كلمتهم إعزاز لدين الله وكبت لأعدائه.فقد سهلنا لك السبيل، والله على ما نقول وكيل..." (2).

فنراه يجسم الإسلام ويجعله شيئا يتناول بالأيدي ويسلم للآخرين .أما بلاد الإقريطش فهي رقعة من الأمة الإسلامية شردت وذلت لا لشيء سوى لأنها مسلمة ،وهاهي تنشد من لها فيؤويها ، لكن لا أحد إلا الذي من دمها .

أما عن تصوير الشيء المعنوي فمثل ذلك ما جاء في خطبة "المنصور" في عيد الأضحى سنة يقول فيها:" اللهم صلى على من بدا ضياؤه ، ساطعا سناؤه ، بحر علوم زاخر الغوارب ، وبدر سماء .زاهر الكواكب ،منور الظلم ،كاشف البهم ، محيى السنن، ومميت الفتن ...أشرقت شمس الأنوار المهداوية على الأعيان ، وافتر ثغر السرور في كل الأحيان ،وأرغم بفخره الفاخر أنف المفاخر... "(3).

والملاحظ أن (الأنوار ،الضياء، السطوع، منور ،زاهر، الفرح...) كلها ألفاظ دالة على أشياء معنوية ندركها بعقولنا، ولا نحسها بحواسنا ، لكن إن أردنا تقريبها من حواسنا فإننا نلجأ عندئذ إلى التشخيص أو التجسيد، وهذا بإدخالها في جمل وتراكيب.

---

[1] صلاح عبد الفتاح الخالدي: نظرية التصوير عند سيد قطب، شركة الشهاب،الجزائر، ط1،1988م ،ص79.

[2] القاضي النعمان : المجالس والمسايرات، ص445 – 446.

[3] محمد اليعلاوي: الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي، ص182.

أ -**التشبيه:**

أدرك اللغويون في تبيانهم لمباحث البيان أنهم قد أدركوا نوعين من أنواع العلاقات بين الكلمات: الرأسية، و الأفقية كما يسميها رومان جاكبسون (Roman Jackopson) ،علاقات التشابه والتجاور ويعتبر التشبيه والاستعارة أصل بناء الصورة البيانية في ذلك.

والتشبيه علاقة مقارنة تجمع بين طرفين، لاتحادهما أو اشتراكهما في صفة أو حالة، أو مجموعة من الصفات والأحوال...والتشبيه يفيد الغيرية ولا يفيد العينية ويوقع الائتلاف بين المختلفات ولا يوقع الاتحاد.وهذا هو أهم ما يميزه عن الاستعارة. ولاشك في أن تشبيه الشيء بغيره يهدف إلى تقرير المشبه في النفس بصورة المشبه به أو بمعناه...فبلاغة التشبيه إذا في تحقيق ما أريد به، من التحقيق بين الشيئين أو الوقوف على مدى التقريب بينهما؛ إذ أنه كلما كان التشبيه محققا للغرض الذي اجتلب من أجله كان أبلغ وأعلى، ويزيده بلاغة من طرافة وإبداع"[(1)]

التشبيه عند القدماء هو المقياس البياني الذي تعرف به بلاغة وشاعرية المبدع ، وهو دليل الفطنة والبراعة في قول الشعر، وهو بيان الحذق والتحكم في فنون السحر البياني، وأحسن التشبيه "ما وقع بين شيئين اشتراكهما في الصفات أكثر من انفرادهما ، حتى يدني بهما إلى حال الاتحاد"[2]. واشتراك الشيئين في معنى يكون بأدوات معلومة، وله أربعة أركان: المشبه والمشبه به ويسميان طرفي التشبيه، ووجه الشبه وأداة التشبيه ظاهرة أو غائبة.

ومثال هذا التواجد التصويري ظاهر بشكل واضح عند أدباء البلاط العبيدي ،خلافا لأدباء السنة وهذا في بداية القرن الرابع الهجري، فخطبة "القائم" أثناء حصار المهدية والتي قرأها "المروزي" "نزل بإزائكم دجال لعين في شرذمة ضالة مضلة لم يستضيئوا بنور هداية: فهم كالأنعام المجفلة ، والصور الممثلة والخشب المسندة ،والحمر المستنفرة "[(1)]. يشكل فيها التشبيه حيزا واسعا،وهذا ما يدل على الثراء الفني لهذه الخطبة.

---

[1]صلاح الدين عبد التواب :الصورة الأدبية في القرآن الكريم، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، ط1 ، 1995م، ص 44-45.

[2]ابن رشيق، العمدة، ج1 ، ص289 .

[1]محمد اليعلاوي: الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي،ص102.

و صور التشبيه في أغلبها حسية، والغرض منها تقريب المشبه وهو الخارجي "ابن كداد" صاحب الحمار" إلى الحس وتبيان بعض خصائصه سواء كانت خفية أو ظاهرة ، ومعظم هذه الصور جزئية تكون للمستمع والقارئ الصورة الكلية.

ومنه قول "القائم" في رسالته إلى"مؤنس المظفري":" ...ثم بنو العباس،رضوان الله على العباس، من بعدهم فأطفئوا نور الله وبدلوا الحق بالباطل ،وكانوا مثل الملوك الذين عتوا في الأرض من قديم الدهر ، وجعلوا الملك بينهم ميراثا... "[1] .

فبعد أن يذكر "بني العباس" ،ويستثني العباس بن عبد المطلب"رضي الله عنه"عم النبي صل الله عله وسلم ،فيذكر ما فعلوه بعد استلائهم على الخلافة الإسلامية ، وما فعلوه للعلويين من بعد استوائهم على سدة الحكم،ومنه أيضا: خـطبة "القائـم" أثناء حصـار المهديـة" ،التي يقـول فـيها:" نزل بإزائكم دجال لعين في شرذمة ضالة مضلة لم يستضيئوا بنور هداية ، فهم كالأنعام المجفلة ، والصور الممثلة ، والخشب المسندة ،والحمر المستنفرة ...فقاتلوا رحمكم الله، أحزاب الضلال، وذئاب الطمع، وفراش النار... "[2].

استطاع "القائم" أن ينقل إلينا صورة منافسه والثائر عليه بكل ما تحمله الكلمة من عداء وحقد وحتى ظلم ، واستطاع أن ينتقي الألفاظ السيئة المصورة للخارجي وأتباعه ، فاعتمد في ذلك على التشبيه الذي يفيد التحقير " كالأنعام المجفلة ، والصور الممثلة ، والخشب المسندة والحمر المستنفرة"، فهو يصفه وأتباعه بأنعت الأوصاف .

ومثل هذه التشبيهات مألوفة للحط من قيمة الخصم بغض النظر عن مدى صدقها من زيفها، ولعل الجديد هو اقتباسه لمثل هذه التشبيهات من القرآن الكريم وتضمينها لها في سياق حديثه ، فهو يزدري ويحط من خصومه بهذه التشبيهات ،وهذه الفقرة قد لا تكون ذات قيمة فنية عالية ، بالنظر إلى قيمتها الحضارية والنفسية،ثم يقدم لنا صورة مغايرة في نفس الخطبة لأتباعه من "كتامة" "...وقد علمتم يا معشر كتامة ...فانتم كحواريي عيسى وأنصار محمد صل الله

[1] نفسه، ص86 .

[2]نفسه ،ص102.

عليهما...يا أبناء المهاجرين والأنصار، والسابقين المقربين ،أليس بكم أزال الله دول الظالمين ..."[1].

فيقدمهم بصور تجعلهم يبلغون مصف أتباع وتلامذة "عيسى بن مريم"(عليه السلام)فيلجأ إلى تكرار التشبيهات المتوالية طمعا في جلب مودتهم وشحنهم لقتال الخارجي ونحن علمنا قبل هذا أن الخارجي هدد مصير ومستقبل الدول العبيدية في عهد القائم ،وكاد أن يطيح بها ،لولا صبره وحشده لأتباعه من كتامة ،الذين أثر فيهم من خلال خطاباته العاطفية القيمة التي بها فاستمال القلوب والعقول،وهب الكتاميون يدافعون عنه بالنفس والنفيس لينقذوا الكيان العبيدي من سقوط حتمي، فهو بهذه التشبيهات"كحواريي عيسى وأنصار "محمد صل الله عليه وسلم" التي استقاها من التراث الإسلامي والتي تفيد رفع همم الحليف والنصير.ويقول أيضا: "...ففلق مصابيحها وأضاء شمسها وأنار قمرها وفجر ينابيعها..."[2]هذه صورة متكاملة انطلقت من عناصر الطبيعة الفلكية،وخرجت عنها في حركات اتساع وانتشار مستمرة ، وهو تصوير مركب ذو أبعاد متباينة، تظافرت مشكلة الملامح الدقيقة.

ومن التشابيه الحسنة ما أكثر فيها الأديب التقرب إلى الممدوح من أجل كسب الرضا ووصول المكانة المرموقة، وقد عرف مثل ذلك في نثر ابن شرف القيرواني، من خلال رسالة بعث بها إلى وزير يقول فيها : " أطال الله بقاء الوزير، وأعلى مرتقاه في رفعة العز ومنعة الحرز ، الوزير الأجل كالمطر الجود يملأ الحياض، وينبت الرياض ، بل كالقمر يقذف بالنور، ويذهب بالديجور ..."[3].

وهذا المقطع من الرسالة يوحي بالإيغال في استخدام التشبيه والإبحار في معانيه وهو الوجه الذي بدت عليه النصوص النثرية عند أصحاب الصنعة الأدبية وبخاصة في العهد الصنهاجي والحمادي.

---

[1]محمد اليعلاوي: المرجع السابق ،ص103.

[2] نفسه، ص88.

[3]العماد الأصفهاني : المصدر السابق، ج 2، ص 175.

ب-الاستعارة:

الاستعارة هي " استعمال اللفظ في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة بين المعنى المنقول عنه والمعنى المستعمل فيه، مع قرينة صارفة عن إرادة المعنى الأصلي، والإستعارة ليست إلا تشبيها مختصرا لكنها أبلغ منه. وأركانها ثلاث: مستعار منه وهو المشبه به ومستعار له وهو المشبه ويقال لهما الطرفان ومستعار وهو اللفظ المنقول "[1]

فهي علاقة لغوية تقوم على المقارنة، شأنها في ذلك شأن التشبيه، لكنها تتمايز عنه بأنها تعتمد على الاستبدال أو الانتقال بين الدلالات الثابتة للكلمات المختلفة...فإذا كنا نواجه في التشبيه طرفين يجتمعان معا، فإننا في الاستعارة نواجه طرفا واحدا يحل محل طرف آخر ويقوم مقامه، لعلاقة اشتراك شبيهة بتلك التي يقوم عليها التشبيه[2]

تتعدى الاستعارة جوانب الواقع، وتلغي الحدود العملية بين الأشياء، على نحو لا يستطيعه التشبيه .والدليل البين على ذلك هو حذف الأداة والمشبه في الاستعارة ايهاما بأن المستعار له قد أصبح عين المستعار منه ، وللاستعارة تركيب يحمل على تخيل صورة جديدة، وروعتها فيما تضمنته من تشبيه خفي مستور...فإنا نرى الاستعارة خطوة أبعد في التخيل، الذي يعبر عن تأثرنا بمظاهر الحياة والأحياء تعبيرا حافلا بمختلف المشاعر والأحاسيس"[3].

وتصح الاستعارة ـــ حسب رأي ابن رشيق ـــ إذا وقعت موقعها من الكلام ونزلت موضعها. وكي يقع للشاعر صحيح الاستعارات ؛ عليه ألا"يبعد الاستعارة جدا حتى ينافر ، ولا أن يقربها كثيرا حتى يحقق ، ولكن خير الأمور أوساطها"[4].

ولا تكاد تخلو النصوص النثرية المغربية خاصة ما تعلق منها بالأشكال السردية و النثر التألفي الأدبي من الاستعارة المكنية أو التصريحية ، وهذا يدل على أن الأديب يعيش تجربة

---

[1] السيد أحمد الهاشمي : جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، دار ابن خلدون، الاسكندرية،مصر، دط، دت ، ص 240-241.

[2] جابر عصفور :الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، ص201 .

[3] صلاح الدين عبد التواب :المرجع السابق، ص59 .

[4] ابن رشيق : العمدة ، ج1 ، ص 271.

أرفع بكثير من الوقائع التي تحدث في نطاق عمله، إذ يأخذنا إلى عالم فني رحب مليء بجماليات الصور المختلفة،والتي تدل على تمكنه الفني ومستواه الراقي وذوقه الرفيع وحسه الرهيف.

ولعل الوقوف عند الصور الاستعارية سيوضح عمق هذه الخيالات الموروثة ،والمتداولة لما تتمتع به بلاد المغرب من بيئة طبيعية خلابة ، تشغل كل الكتاب والخطباء.

ومن الاستعارات ما جاء في خطبة "المنصور" حيث يقول فيها: اللهم صلى على من بدا ضياؤه ، ساطعا سناؤه ، بحر علوم زاخر الغوارب ، وبدر سماء زاهر الكواكب ،منور الظلم ،كاشف البهم ، محيى السنن، ومميت الفتن ...أشرقت شمس الأنوار المهداوية على الأعيان ، وافتر ثغر السرور في كل الأحيان ،وأرغم بفخره الفاخر أنف المفاخر... "[1].

لجأ الأديب إلى إضافة لفظ الأنوار إلى لفظ الشمس، وهو شيء محسوس ، وكذلك السرور إلى الفم وهو أيضا محسوس، وهو نفس الحال إلى بقية الألفاظ ، والملاحظ أن لفظ شمس جاء مجازيا بإضافته إلى الأنوار التي قد يقصد بها المسرات والأفراح ، كما أنه قد جاء باستعارة مكنية ، فهو يقدم صورة شروق الشمس على الكون ، فقام بحذف المشبه به وأبقى على شيء من لوازمه وهو "أشرقت". بذلك استطاع أن يحقق الصورة المناسبة في خطبته وأن يحقق التجسيد.

ومثال التصوير الاستعاري ما نجده في خطبة "المعز":" اللهم أخصص الإمام الفاضل ، والوصي العادل ، والبر الفاضل ، والغيث الوابل ، ذا الآيات المعجزات ، والعزائم النافذات ، الباذل نفسه الكريمة في حين الأزل والكربات ،الصابر في البأساء والضراء ، حتى طهر الأرض من جبابرة الأعداء ،عبدك ووليك ، ونجيك ووصيك ، أبا الطاهر المنصور بك ، الذي فجعتنا بفقده..."[2]. فإذا فرغ من ذلك توجه بالحديث إلى جمهور الأولياء يدعوهم إلى الطاعة ، وقد قرن الله طاعة أئمة الهدى بطاعة الرسل ، وطاعة الرسل بطاعته " .

ثم يضيف :"النور ــ أيها الناس ــ فينا مصون ، وعطاء ربك لنا غير منون ، فأين تذهبون ، وفي أي أرض تتيهون ، هيهات هيهات لما توعدون . فأطيعونا تهتدوا ، وتمسكوا

---

[1]محمد اليعلاوي: الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي، ص182.

[2]محمد اليعلاوي، السابق،ص259.

بحبلنا ترشدوا ، واعملوا بما تفوزون به في أخراكم تسعدوا"(1). إلى أن يختم الخطبة بالتوجه إلى الله بالدعاء ، في مثل تلك الصياغة التي تحرص على السجع في غير تكلف ظاهر .

وقد عرض "القاضي النعمان" لخطبة من خطب "المعز" المرتجلة ، كان قد سبقها حديث له معه، أفاض فيه القول في الإمامة ، في قديمها وحديثها ، وقد جعل يعبر عما كان لكل منهما في صدره من هيبة وجلالة . فإذا فرغ "القاضي النعمان" من أداء ذلك الحديث ،قال:" ثم حضر وقت الصلاة ، فقام وصار إلى المسجد ،ورقي النبر ،فخطب بخطبة بليغة ، جاء فيها بفصول ما سمعنا قبلها مثلها ،واحتجاج في الإمامة ،وإبانة لظلم الظالمين المتغلبين" (2).

كما أشار بعد ذلك إلى أن استحسان الناس لهذه الخطبة ظل موضع حديثهم، ومثار تلذذهم واستمتاعهم. وكأنما ضاعف من قوتها وبلاغة عبارتها، وما تضمنته من فصول مبتكرة في الإمامة ما كان يغمر الجو العقلي والوجداني الذي سبقها من استغراق في الحديث عنـــها واستحضار لصور ماضيها و حاضرها ، وما كان يجد لدى مستمعيه ، ومنهم النعمان ، من إقبال عليه ، وتشوق له ، وإصغاء إليه ، مما جعله يفيض في الحديث ويتدفق به . فكان من ذلك أن جاءت الخطبة التي ألقاها بعد على تلك الصفة التي وصفها بها "النعمان" ، وكان لها ذلك التأثير الذي ظل حديث الناس .

وهذه الخطبة التي نعرف فيها ذلك النمط من الفن الخطابي الذي يتهيأ له الخطيب من قبل هي الخطبة التي ألقاها في عيد الأضحى. وهي أول خطبة له بعد توليه الخلافة . نعى فيها أباه "المنصور"،وكان قد توفي قبل ذلك بشهر وبعض شهر وظل خبر وفاته، لأمر ما، مكتوما ، إلى أن أعلنه ذلك اليوم أو قبله بقليل . وفيها من مظاهر الصنعة أكثر مما تعبر عنه من الحزن واللوعة.

وهي، كما هو الشأن في خطبة العيد ــ فالخطبة الأولى قد التزم فيها موضوعات بعينها هي موضوعات المناسبة التي قيلت فيها، وهي عيد الأضحى، وما يتم فيه من حج بيت الله الحرام.

---

[1] نفسه ،ص262.

[2] القاضي النعمان:المجالس والمسايرات،ص286.

فإذا كانت الخطبة الثانية جعلها في الحديث عن الأئمة الذين أتاحوا له هذا المكان الذي يتبوؤه،والموقف الذي يقفه ، منذ أفضل الوصيين إلى أميري المؤمنين : المهدي بالله والقائم بأمر الله . ثم ينتقل من ذلك إلى ذكر أبيه بقوله ، مما نؤثر أن نورده بنصه ، ليكون مثالا من أمثلة التلوين في الفن الخطابي عنده: "...وعلى الأئمة المهديين من عترته الكرام الأبرين الذين اختارهم للخلافة ، وارتضاهم للإمامة ، وأكد بوصية الرسول حجتهم وأوجب في التنزيل طاعتهم ، بعد تفضيله إياهم على العالمين بأبوة محمد سيد المرسلين ، وعلي أفضل الوصيين ،من أمهم سيدة النساء، وعلى أميري المؤمنين المهدي بالله ،والقائم بأمر الله،سيدي الورى وإمامي الهدى...وإن القلق ، وشدة الحرق، عليك يا أبتاه !،يا سيداه !يا إسماعيلاه !يا أبا الطاهر ! يا بحر علوم الأئمة الطاهرين !الهداة المهديين، يا بقية أبناء الرسول ! وأبناء الوصي والطاهرة البتول !يا إمام الأمة ومفتاح باب الرحمة ،يا سراج الهدى و شمس الورى ، ومجلي الطخياء(1) ،يا مخصوصا من الله بتعجيل الكرامة..."(2) .

ومن الاستعارات قول "ابن شرف" في رسالته إلى الوزير : " أطال الله بقاء الوزير وأعلى مرتقاه في رفعة العز ومنعة الحر، الوزير الأجل ... فلله أياديه ما أنزلها بكل فناء واسمعها لكل نداء ، حين رعى قصدي وهو مجفي، ووعى صوتي وهو خفي ، فالآن أضرب بحسام اعتناؤك جرده، وآوي إلى ذمام علاؤك أكده ..." (3) ففي قوله " أضرب بحسام اعتناؤك جرده" استعارة مكنية بحيث استعار فعل التجريد الذي يقوم به الإنسان اتجاه شيء ملموس وألحقه بصفة معنوية لا تقوم بفعل التجريد حقيقة وهي العناية أو الاعتناء للدلالة على المكانة التي حضي بها الأديب لدى الوزير مما جعله ينصاع له ويتجرد من كل احساس بالحقد أو الكره اتجاهه، وذلك يحيلنا إلى ما كان يتمتع به ابن شرف من مكانة لائقة في بلاط المعز وما كان يلقاه من حسن معاملة واستجابة لاحتياجاته، بل وإغراقه بالعطايا والهبات .

ومنها أيضا ما جاء في رسالة "لابن شرف" نفسه وهو يثني على أحدهم فيقول: " توسل الهمم، أعزك الله، كتوسل الذمم. ورب راق بوسيلة ذي اشتياق فاستباق رصد فقصد واحتشد

---

[1]الطخياء:الطخواء والطخياء:الليلة الشديدة الظلمة. (ينظر: الفيروز آبادي: المصدر السابق،ص652).

[2] محمد اليعلاوي: المرجع السابق، ص259.

[3] العماد الأصفهاني:المصدر السابق، ص 175.

فتحرى الراشد. ولما طلع بك المجد من معالمه واينع لك الحمد في كمائمه فلاح محياك قمرا زاهرا، وفاحت سجاياك زهرا عاطرا ، وأنار بأفقك منار الانوار، ودار على قطبك مدار الفخار ..." ففي الفقرة استعارة مكنية في قوله " طلع بك المجد" وهنا استعار فعل الطلوع الخاص بالشمس والقمر في اكتماله وألحقه بالمجد الذي لا يمكن أن يطلع إلا برفعة الشخص الذي حقق غاياته وامجاده والغاية من ذلك إبراز همة شخص ممدوحه وسرعته إلى تحقيق أمجاده بدنوه إلى معام المجد وأصوله فدنا له المجد فرفعه، وكذلك في قوله " أينع لك الحمد" فصفة الينعان تكون للثمار الناضجة بعد خروجها من الأكمام، فاستعارها للحمد الذي يقصد به شكر الناس له، فلا يكون لشكر الناس وجود(خروج) إلا بعد أن يقوم الشخص بفعل يؤدي إلى الشكر، لكنه هنا يجعل شكر الناس له قبل قيامه بالفعل وهو دلالة على أن القائم بالفعل قد عرف به ومن فرط ما قام به فإنه سيشكر عليه قبل أن يقوم به مجددا .

وأما قوله " فلاح محياك قمرا زاهرا" و " فاحت سجاياك زهرا عاطرا" فهي استعارة تصريحية أريد بها تشبيه الممدوح في ملامح وجهه بالقمر الذي يشع منه النور فيبدو زاهرا وهو ما يبدو لحاسة البصر التي استعان بها في التوصل إلى معالم وجهه التي تضيء لمن فطن سمو شخصه ورفعته ، وكذلك الشأن في تشبيه سجاياه بالزهر العطر فتفوح رائحته الندية فيتلقاها من فطن لرقة نفسه وسموها ، وقد استعان هنا بحاسة الشم للوصول إلى ذاته العطرة التي يتنبه لعطرها كل من اقترب منها .

ولعل هذه النماذج توحي بقوة صاحبها في التصوير ومقدرته على تلبيس المعنى بالحلل التخييلية ، و ظروف العصر الذي وجد فيه "ابن شرف" ومكانته في بلاط المعز كانت من العوامل الأساسية في هذا الارتحال التخييلي التصويري . ولقد أشار "ابن رشيق" في كتابه "الأنموذج"إلى ذلك حينما صرح بأن أدباء عصره عندهم من الصنعة الأدبية ما إن لو أرسلوها على سجاياهم لجرت جري الماء ورقة رقة الهواء من فرط حبهم للتصوير الفني ومثال ذلك ما قاله عن الحصري في ترجمته:" كان شاعرا نقادا، عالما بتنزيل الكلام، وتفصيل النظام، يحب المجانسة والمطابقة، ويرغب في الاستعارة ..."[1] .

---

[1] ابن رشيق: أنموذج الزمان ، ص46.

فقد اعتنى "الحصري" في كتابه "المصون في سر الهوى الكنون" بالتصوير الاستعاري في الكثير من نصوصه ومنها قوله في سبب تأليف الكتاب: " قال من رقت حواشي فهمه، ودقت معاني علمه، وأنجبت بنات فكره، واتسعت موارد صدره لتوليد عقائل الكلام الرقيق، وتنضيد فواضل النظام الأنيق، فوشى ديباج هذا النمط المصون في سر الهوى المكنون ببدائع الأوصاف وروائع الإتصاف "[1]

ج_ الكناية:

إذا كان التشبيه والاستعارة أصل بناء الصورة البيانية وأهم أساليب الإبداع الأدبي في التعبير،وأسرار البلاغة العربية في الكلام، فإن الكناية من تلك الأساليب التي توفر للنظم بلاغة التعبير وفصاحة القول ، فتبعده عن قبح المعاني ، وسفاسف التصريح والمباشرة، وبساطة التخييل ، فترسله غلى غايات،معنوية ولفظية سامية تصل بالنثر إلى غايات شعرية.

والكناية في مفهومها الاصطلاحي الذي جاء به عبد القاهر الجرجاني " أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيومي به إليه ويجعله دليلا عليه "[2]. وهي صورة أدبية لطيفة " تأتي بالفكرة مصحوبة بدليلها والقضية وفي طيها برهان... لا يصل إليها إلا من لطف طبعه وصفت قريحته، ولها من أسباب البلاغة في ميدان التصوير الأدبي ما يجعلها في مكانة متقدمة في وجوه البيان وهي واضحة المعالم دقيقة التعبير والتصوير"[3].

ومن هنا يكون الغرض من الكناية إيصال المعنى وفق سياق التراكيب البيانية المتجددة ، و الصور الخيالية المبتدعة ، التي تـــخفي معاني إنسانية عميقة ، وجماليات فنية راقية ، تذكي الأذهان وتنبه شوق القارئ، مما يكون دليلا على المقدرة الأدبية ، وتفاوت الموهبة الإبداعية ، وتجاوز المتداول المبتذل،وهنا يكمن سر تفوق الأديب وتفرده.

والوصول إلى هذا الهدف التصويري في عمق صياغته البلاغية ، يحتاج إلى قدرات خيالية في إبداع السياق والتصوير، تجتمع فيها الموهبة الأدبية، والثقافة المعرفية والتكوين

---

[1]الحصري: المصون في سر الهوى المكنون، ص29.

[2]عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز ، ص 66 .

[3]السيد أحمد الهاشمي :المرجع السابق، ص 200.

النفسي للأديب في معايشته للتجربة الفنية بصدق وهو ما ينتج تلك البراعة الغير مفهومة في اختيار التعبير الذي يتميز في كليته بالتكثيف الدلالي و الإيجاز الأسلوبي ، والعمق المعنوي ، وهي خصوصية التعبير الفني التي ترتبط بنفس القائل وفكره واحساسه أو موقفه الانفعالي ذلك أن خصوصية التعبير في مثل ذلك مقرونة باختلاجات النفس وما تحمله من معان وتداعيات وأحاسيس خاصة ، لذلك يكون هذا التعبير عرض لتلك الانفعالات الذاتية والمعاني النفسية والعقلية في دقة وإبداع فني .

والناظر في بحث البلاغيين العرب القدامى عن الكناية يجد اختلافا في اصطلاحهم لهذا الفن التصويري، ومن هذه الاصطلاحات " الإرداف" وهو ما أورده قدامة بن جعفر للكناية في معرض حديثه عن ائتلاف اللفظ والمعنى ، فيقول :" أن يريد الشاعر دلالة على معنى من المعاني، فلا يأتي باللفظ الدال على ذلك المعنى، بل بلفظ يدل على معنى ردف له وتابع له، فإذا دل على التابع أبان عن المتبوع"(1)، فهي ، على ذلك، انتقال بالمعنى من ظاهر اللفظ إلى مضمره، ملازمه في المعنى فثمة تحول عن المعنى القريب ، الذي يشير إليه اللفظ إشارة مباشرة، إلى معنى بعيد يتوصل إليه بواسطة المعنى الناتج عن اللفظ المذكور، فالكناية إذا تقوم على البراعة الأسلوبية في عرض المعنى الصريح ، الذي يجمع في تركيبه بين الحقيقة والخيال ؛ حقيقته في إثبات دلالة الردف على الغرض ، وخياله في نسق صياغاته للمعاني النفسية والعقلية في النصوص الأدبية ، فـــ" حد الكناية الجامع لها هو أنها كل لفظة دلت على معنى يجوز حمله على جانبي الحقيقة والمجاز بوصف جامع بين الحقيقة والمجاز"(2).

ويأتي الجرجاني في تعريفه للكناية بما جاء به قدامة فيقول:" أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود، فيومئ به إليه، ويجعله دليلا عليه"(3) ، إذن هي تلازم بين معنيين،يدل أحدهما على

---

[1] قدامة ابن جعفر: نقد الشعر، ت: محمد خفاجي، مكتبة الكليات الأزهرية: القاهرة، ط1، 1978 ،ص 157.

[2] ابن الأثير،المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ،ج2 ، ص 182 .

[3] عبد القاهر الجرجاني:دلائل الإعجاز،ص 66.

الآخر وهذا ما أشار إليه العلوي صاحب الطراز في قوله :"أن يقال : هي اللفظ الدال على معنيين مختلفين، حقيقة ومجاز،من غير واسطة لا على جهة التصريح".[1]

أما السكاكي فيقول عنها : " ترك التصريح بذكر الشيء إلى ذكر ما يلزمه، لينتقل من المذكور إلى المتروك كما نقول: " فلان طويل النجاد، لينتقل منه إلى ما هو ملزومه،وهو طول القامة، وسمي هذا النوع (كناية) لما فيه من إخفاء وجه التصريح"[2].

ويظهر من ذلك ارتباط الدال بمدلولين مختلفين من حيث حقيقة أحدهما، ومجازية الآخر، ولكنهما –على ذلك – متساويان من حيث احتمال اللفظ لهما في القصدية،" فإذا كانت الكناية معنى المعنى فإن لفظها محتمل للمعنى ، ومعنى المعنى في الوقت ذاته ، فمن وقف على المعنى فهو في إطار الحقيقة ومحيطها ، ومن انتهى إلى معنى المعنى فقد تجاوز الحقيقة والتعبير المباشر" [3].

تمثل الكناية في جانب من جوانبها عمق نظرة الشاعر لأدق التفاصيل ، وقدرته على إدراك العلاقات الخفيةــ وسعة آفاقه الخيالية ، والتعبير بها عن معانيه ، في جمال تصويري فني ، و تمثل من جانب آخر حدود ثقافة المتلقي في تلك المرحلة من مراحل إنتاج النص النثري المغربي، وحسه البلاغي والفطري ،و قدرته على فهم هذا الإدراك الخاص للعلاقات المثبتة في النص، وبالتالي تحقيق غاية الأديب في السعي وراء هذا التصوير، ولعل اختيار الكناية كأسلوب تصويري يطغى على النص المادح يبين مستوى تلقي النص من قبل الممدوح وتذوقه له وتحقيق غايات الأديب المادح المستترة وراء ما أجازه من كنايات.

وأما عن النص الحجة وأنموذجه المناظرات، فالكناية لون بياني على الحجة في الكلام ، لأنها من فنون البلاغة والأصل في البلاغة هو حسن إيصال المعنى وتبليغه، والمراد بأساليبه " ومنها الكناية" إقناع المتلقي بالعقل أو بالإحساس والتذوق عن المعنى المراد إيصاله ، فالمؤكد " أن إثبات الصفة بإثبات دليلها وإيجابها بما هو شاهد في وجودها ، آكد وأبلغ في الدعوى

---

[1]يحيى بن حمزة العلوي: الطراز كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الأعجاز، دار الكتب العلمية، بيروت، ج1، 1982، ص 373.

[2]السكاكي: مفتاح العلوم، ت: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1987،2، ص 402.

[3]محمد جابر فياض:الكناية : دار المنار للنشر و التوزيع، السعودية ، ط1 ، 1409هــ ، ص 84 .

من أن تجيء إليها فتثبتها هكذا ساذجا غفلا وذلك أنك لا تدعي شاهد الصفة ، ودليلها إلا والأمر ظاهر معروف ، وبحيث لا يشك فيه ولا يظن بالمخبر التجوز والغلط " [(1)]،لذلك لم يخرج عن نطاقها أدباء المناظرات والخطب والرسائل على وجه الخصوص على اعتبارها فن الاقناع والحجة والبرهان .

ومن ذلك خطبة "القائم" إلى اتباعه من قبيلة كتامة يستميلهم إليه في التمكين لدولة أجداده السالفين وحثهم على مواصلة الدعم والمضي قدما في الوفاء بالعهد فيقول: "... يا أبناء المهاجرين والأنصار، والسابقين الأولين المقربين أليس بكم أزال الله دول الظالمين ، التي مضت لها أحقاب السنين ، حتى جعلهم حصيدا خامدين ؟ وأورثكم أرضهم وديارهم ، فصرتم تغزون بعد أن كنتم تغزون

نزل بإزائكم دجال لعين في شرذمة ضالة مضلة لم يستضيئوا بنور هداية : فهم كالأنعام المجفلة ، والصور الممثلة ،والخشب المسندة،والحمر المستنفرة.إن أقاموا هلكوا ، وإن طولبوا أدركوا فلا تنكصوا بعد الإقدام .وأنتم حزب الله وهم حزب الشيطان، وقتيلكم في الجنة، وقتيلهم في النار، فأي حق بعد هذا الحق تطلبون، ومع أي إمام بعد إمامكم تقاتلون ؟ فقاتلوا رحمكم الله ، أحزاب الضلال ،وذئاب الطمع ، وفراش النار، واطلبوهم في نواحي الأرض وأقاصي البلدان ،وجميع الآفاق ،حتى يحق الله الحق ويبطل الباطل ولو كره المشركون "[(2)].ففي قوله " نزل بإزائكم دجال لعين" يشير إلى "ابن كداد " الذي خرج عن ملة التشيع وحارب العبيديين وفي العبارة كناية عن إحلال الفتنة وانتشارها، فنزول الدجال يعني نزول الفتنة وخراب الأرض وتفرقة الناس بين ضال ومهتد ، وكذلك فعل ابن كداد حينما نزل ومكث بين أهل التشيع ليثير الفتنة ويضل عن الهداية التي في معناها: البقاء على أمر أسلاف الشيعة، وهذا ما تؤكده عبارة " لم يستضيئوا بنور الهداية"، وهي كناية عن بقائهم في عتمة الضلال والكفر بما جاء به المتشيعون من نور الاستقامة. وفي نعتهم ب " حزب الشيطان" كناية عن العدول عن أمر الله؛ فلما عصى الشيطان ربه كان خارجا عن الهداية والاستقامة، فكذلك شأن أتباع "ابن كداد" شأن

[1]عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز ، ص 72 .

[2]محمد اليعلاوي: الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي ، ص103.

الشيطان لما في نفوسهم من كفر الشياطين وخروجهم عن الملة الصحيحة وعصيانهم لأوامر الأنبياء والأسلاف .

ومثال الكناية أيضا ما جاء في رسالة بعث بها الأديب ابن شرف القيرواني إلى الوزير يتقرب بها إليه، فيقول:" ... وقد ألحفني من سناه، وسقاني من سقياه، بما أنار فأضوى، وجاد فأروى ...والله بفضله يديم نعماه ، ويعلي ارتقاءه، حتى أظهر بسمائه وأشتهر بأرفع أسمائه..."[(1)]، فقوله "ألحفني من سناه" كناية عن الحماية والأمن الذي اكتنفه تحت جناح هذا الوزير كدلالة على اهتمامه به ورعايته له على اعتبار أن أصحاب السلطة والمناصب العليا في العهد الصنهاجي كانت لهم عناية خاصة بالأدباء كتاب وشعراء فأدبهم كان سلاحهم في السيطرة على أوضاع الحكم وتوجيه الرعية واستمالتهم إلى أغراضهم السياسية ... وهي الدلالة التي تؤديها وتؤكدها كنايته عن السمو والرفعة والوصول إلى مقدار عال في الدولة حين قال " حتى أظهر بسمائه وأشتهر بأرفع أسمائه " .

هذه النماذج وغيرها ، لم تخرج عما هو متعارف عليه في النظام البياني العربي، بحيث يستمد استخدام الكنايات معطياته من البنية المعرفية لمصدر الذهن العربي، لكنه وتبعا للمقام الجديد يتجاوز الأديب ذلك التقارب البسيط بين الدوال ومدلولاتها في أصلها المتداول، ويعيد صياغتها وفق سياق جديد يكسبها دلالات مختلفة مناسبة للموقف والحال الجديد، ومن هنا تتحرر الدلالات عما توارثه الأدباء المغاربة عن المشارقة الأوائل، فتنتج دلالات جديدة نابعة عن شخص مختلف وفي بيئة مختلفة وبثقافة مختلفة أيضا، وهو ما يزيد في خصوصيات النص المغربي.

من خلال دراستنا للتشكيل التصويري في عمومه كشفنا عن سمات كانت تتقارب وتتشابه مع الأدب العربي عموما ، هي في نهاية الأمر امتداد طبيعي لجغرافية الأدب العربي، كما هو امتداد طبيعي للجغرافية الطبيعية ، لذلك فالعمل لم يخرج عن نطاق استنباط مجموعة من الظواهر الفنية التي يكثر ورودها في نصوصهم النثرية، والتي في مجملها تشكل لنا مجموعة من الخصائص المتعلقة بالتصوير البياني .

---

[1] العماد الأصفهاني:المصدر السابق، ص 175.

والحقيقة أن هذه النصوص،فيها تلك السهولة والبساطة اللتين تبعثان على التأثر الهادي،وأن كل عبارة في هذه الفقرات تحمل قدرا من الإيحاء بقوة قائلها ،وأخذه في التلاعب بالألفاظ المتأتية ،التي تؤدي إلى معاني تحدث الشعور بالجمال ، وتحقق التأثر المنشود من وراء وصف للمشاهد،وفي ذلك تأتي التراكيب، في بساطة بنائها ،وسهولة مفرداتها ، وهي تحمل في طياتها ما يحقق غايتها .

كما أننا نجد أغلب الأشكال النثرية ،تتميز بقوة الفصاحة والإكثار من أساليب الإبانة وكلماتها تخلو من الوحشية والغرابة وتتجلي معها البساطة في التصوير ، فتتدفق وتسيل وتتيح لقارئها، الاسترسال دون الشعور بالالتواء والعسر .

فهذه الشواهد تفيدنا في معرفة الخصائص الجديدة التي اكتسبها النثر في هذه الحقبة ، وهي خصائص صبغت بصبغة الصراع المذهبي والفكري بين المذاهب ،هذه الصراعات التي طبعت النثر في العهد العبيدي ، لتشكل لنا ما يمكن أن نسميه بصراع الصورة مع الفكرة.

لقد خاض المغاربة في أنماط التشكيل البياني بتحفظ في العهد العبيدي،،فالوضع لم يسمح بالاستخدام المكثف للصور الفنية والابحار الجمالي في الإبداع البياني، وما جاء منها كان تلبية لحاجات الأمراء والخطباء في الدعوة وتوسيع نطاق الدولة ومناظرة الخصم بالحجة الدامغة والبيان الواضح ، وأما عن الاستعمال الجمالي الذي أبرز تفوق المغاربة وعلو شأنهم في طرق التبليغ ما جاء بعد هذه الفترة عند أصحاب الصنعة من خطباء ومترسلين من أمثال الحصري وابن شرف القيرواني وغيرهما ممن سمحت لهم ظروف العيش الهادئ وصفاء الجو الأدبي فتمكنوا من ناصية الإبداع وأبحروا في التنويع والتخييل والتنميق.

الفصل الثالث : المستوى الصوتي

أولا: التشكيل الموسيقي في النثر

ثانيا: الأبعاد الفنية للتشكيل الموسيقي

أ-السجع

ب- الجناس

ج- التكرار

د- التضاد

-أولا: التشكيل الموسيقي في النثر:

تحدث النقاد قديما وحديثا عن موسيقى النص الأدبي وجرس الكلمات وأصواتها، فقد تنبه القدماء إلى أثر البديع في التشكيل الموسيقي للنص النثري، كما أثروا بطرحهم لقضايا التشكيل الموسيقي للنثر في التوجهات الموسيقية الجديدة التي تبناها المحدثون في نصوصهم ،يقول "الباقلاني": "يعني بالنثر القول الخلو من الوزن،و القافيه ،على أي صورة من الصور،فهو يخرج من السجع والخطب والشعر بطبيعة الحال ، ويرى أن أسرع هذه الفنون إلى النفس النثر ..."[1] . ويرى "ابن الأثير":" أن النثر يختلف عن الشعر في الأسلوب لا في مجرد الشكل فلغته تختلف عن لغة النثر لما يلتزم فيها الشعر من أشياء لا يلتزمها الناثر والكاتب العادي،وليس كل ما يسوغ استعماله في الكلام المنظوم يسوغ استعماله في الكلام المنثور،وذلك شـــــيء استنبطته واطلعت عليه لكثرة ممارستي لهذا الفن، ولأن الذوق الذي عندي دلني عليه "[2].

ولما كانت الموسيقى مرتبطة بالألفاظ، تخرج من حناياها بعد تأليفها مشكلة إيقاعا خاصا مشبعا بالعواطف والانفعالات، وهذه العلاقة بين اللفظ والنغم الموسيقي تناولها القدماء بالدراسة وفي هذا يوضح ابن "الأثير"في قوله:"...ومن له أدنى بصيرة يعلم أن للألفاظ في الأذن نغمة لذيذة كنغمة أوتار ، وصوت منكرا كصوت حمار وأن لها في الفم حلاوة كحلاوة العسل ومريرة كمرارة الحنظل ، وهي على ذلك تجري مجرى النغمات والطعوم "[3] .

وقد عرض الدارسون لظاهرة موسيقى الألفاظ بالتحليل والكشف، و سلطوا الضوء على ما تضفيه على التصوير من أبعاد جديدة تقوي إيحائه، وتعطيه مذاقا خاصا، ولونا متميزا لا يتوفر للغة بدون هذا العنصر. ف"حين تجتمع الكلمات في الجمل وفي العبارات ، تكتسب جرسا موسيقيا آخر زيادة على ما كان لها من موسيقى فردية ، وذلك مثل تشابه بعض الكلمات في الوزن، وفي المكان من الجملة أو تعاقب كلمتين متشابهتين في الوزن والرنين، أوفي تجانس فقرتين أو جملتين في عدد الكلمات،وفي وزن كل منها، أو في التجانس في الكلمتين الأخيرتين

---

[1] الباقلاني: إعجاز القرآن، تحقيق: أحمد صقر، دار المعارف، مصر ،ج2 ، ط5، 1997 ، ص 414.

[2] ابن الأثير:المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر،ج 1 ، ص 186.

[3] نفسه ،ص220.

في جملتين،أو في التشابه الذي يبرز في فترات متكافئة أو في التدرج المتعادل،أوفي التتابع المقرون بسرعة الجرس..." [1].

والبحث في هذه الظاهرة جعل مسائلها موزعة على خمسة علوم: "أربعة منها لغوية:منها العروض والقوافي المختصة بالشعر، يضاف إليها علم البديع الذي يدرس في النثر والشعر.والرابع علم الأصوات، وفيه يدرس كل أثر مسموع من أصوات بسيطة أو مركبة .والخامس علم الموسيقى، وهو علم غير لغوي ، لأنه في الأصل لا يرتكز على الكلام "[2].

وعلى مثل ذلك تفنن العرب في ترديد الأصوات حتى يكون لها نغم وموسيقى يسترعي الآذان بألفاظه ، والقلوب والعقول بمعانيه، مما يبين مهارتهم ويبرزها في نسج الكلمات، وبراعتهم في ترتيبها وتنسيقها ، والهدف من وراء ذلك هو العناية بحسن الجرس ، ووقع الألفاظ في الأسماع بحيث تصبح الجملة من الكلام أشبه بفاصلة موسيقية متعددة النغم مختلفة الألوان ، يستمتع بها من له دراية بهذا الفن ويرى فيها دليل المهارة والقدرة الفنية.

وهذا ما نحاول إبرازه من خلال هذه الدراسة الباحثة في التشكيل الموسيقي الذي سلكه الكتاب والخطباء و الأدباء و المؤلفين في هذه المرحلة الزمنية و الكشف عن الظواهر الإيقاعية المنتشرة عبر نصوصهم النثرية المختلفة من خطب ورسائل، ومناظرات، ووصايا و توقيعات...وغرها.

فإذا كان الوزن والقافية هما أهم مصادر الإيقاع الخارجي في الشعر العربي وفي إطارهما يشتد الشاعر انحانه، فإن النثر الأدبي يستطيع أيضا أن يتجلى بأغنى أنواع الإيقاع، وأعذب الأنغام الموسيقية من خلال الطرائق الصوتية المناسبة لطبيعته،والتي هي بشكل خاص السجع والجناس...

---

[1] نفسه،ص221 .

[2] محمد الهادي الطرابلسي:خصائص الأسلوب في الشوقيات،منشورات الجامعة التونسية ،د ط،1981،ص19-20.

ثانيا-الأبعاد الفنية للتشكيل الموسيقي:

أ-السجـــــع:

السجع أو التسجيع عند البيانيين العرب هو "تواطؤ الفواصل في الكلام المنثور على حرف واحد"[1] وهو" ذلك الكلام المقفى غير الموزون أو هو القول المعدل المسجع"[2] فالنفس الإنسانية ترغب فيه بطبيعتها لما فيه من إيقاع صوتي ودبيب داخلي يزيد المعنى فاعلية وحيوية.

ولما كان القارئ ينتشي ويتلذذ بالنسيج الداخلي للنص الأدبي، فان السجع لا ينبغي أن يتجاوز بعده الوظيفي،باعتباره أداة وضوح للمعنى، فكلما كان السجع متجانسا مع المعنى ،متميزا بالسلاسة والسهولة،إلا وكانت النفس أميل إليه.ولذلك،اعتبر بعض النقاد القدماء،فواصل الآيات القرآنية نمطا من السجع،رغم إيمانهم العميق،بالبعد الإعجازي للقرآن الكريم،وتميزه عن سائر الكلام البشري.فلو كان السجع مذموما بطبعه"لما ورد في القرآن الكريم.

والسجع قديم عند العرب، "فالعربي سجاع بطبعه" [3]، وقد كان يلهج به الكهان وخطباء الجاهلية. وكان الخطباء والبلغاء يجنحون إليه في خطبهم ومكاتباتهم تارة، ويعزفون عنه تارة أخرى، واستمر هذا دأبهم حتى منتصف القرن الثالث الهجري، أو لنقل حتى أواخره، ثم شاع في القرن الرابع شيوعا مفرطا، والتزمه عامة الكتاب.

وفي العصر العباسي اعتبر البرامكة "من أهم العوامل في شيوع السجع في الكتابة الديوانية، وحقا أنه لا يطرد دائما في كتاباتهم، ولكن نحس ميلهم الواضح له، هم وبعض كتابهم ومن كانوا يكتبون إليهم" [4]. وبذلك أصبح قصد الفنان المتمرس بصنعته، غير المتكلف لها، فكان قريبا من الطبع، يمتاز بالخفة والرشاقة، وعذوبة اللفظ، وجمال الإيقاع، وحلاوة النغم.

---

[1] ابن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ،ص193.

[2] الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص 484.

[3] محمد نبيه حجاب :بلاغة الكتاب في العصر العباسي، ، المطبعة الفنية الحديثة، ط1، 1965م، ص 170.

[4] شوقي ضيف:الفن ومذاهبه في النثر العربي، ص 198.

لقد عاد الأدباء إلى السجع بعد أن تركوه ردحا من الزمن واتخذ طريقه إلى الكتابة والخطابة فأصبح كتاب القرن الرابع والخامس للهجرة في بلاد المغرب يوجهون إليه اهتماما خاصا واتخذوه حلة رسائلهم حيث أبدعوا فيه أيما إبداع ، " ولكن على غير حساب المعنى فسار السجع إلى جانب المعنى يزينه ولا يشينه ،ويبرز محاسنه وتحليه في أبدع حلية،واشتهر باتخاذ السجع طريقة جماعة من المشهورين أمثال ابن العميد ،الخوارزمي ،الهمذاني ،ابن نباته وغيرهم "[1]. فقد استعمل في بعض الكلام لا في جميعه، لأن السجع في الكلام كمثل القافية في الشعر، وإن كانت القافية غير مستغنى عنها، والسجع مستغنى عنه. فأما أن يلزمه الإنسان في جميع قوله ورسائله، وخطبه وناقلاته، فذلك جهل من فاعله، وعي من قائله" [2].

ورغم تلك المواضيع الطارئة إلا أننا نجدها ،استمرارا للأساليب السابقة ،مع تطور للمعاني والتعابير، لذلك نجد فيها جزالة اللفظ ورصانة التراكيب،ووضوح في المعنى،وحرص على التأنق في الأسلوب،ورغبة واضحة في تنميقه بالزركشة اللفظية والمعنوية على اختلافهما والصناعة البديعية ،فالكتاب أو الأدباء يركزون على التراث،وذلك بقدرتهم على توليد المعاني الجزلة و الفخمة والاستسقاء من البلاغة العربية،وزادوا في تحسين المحتوى والمضمون في الأسلوب والأداء ، وبها الواقعية والانفعالية.

وهكذا أصبح السجع طريقة للكتابة، فصنفه علماء البلاغة ووضعوا له القواعد والأصول.ومما يشترطه " ابن الأثير" لحسن السجع: " ألا تكون فقراته متكررة،فإذا أوردت سجعتان تدلان على معنى واحد ،كانت إحداهما كافية للدلالة عليه،وينبغي لذلك كي يتوفر له الحسن أن يجمع بين أربعة شروط هي :

-اختيار الألفاظ حسب المعنى.

-واختيار التركيب المناسب.

-أن يكون اللفظ في الكلام مناسبا للمعنى.

---

[1] ابن الأثير:المثل السائر، ج1 ، ص 254.

[2] ابن وهب: المصدر السابق، ص 209.

-وأن تكون كل فقرة مستقلة بمعنى لا يتكرر في السابقة أو اللاحقة"(1).

ويقسم "ابن الأثير" السجع من حيث طول فقراته وقصرها إلى ثلاثة أنواع: " معتدل الفقرات. أو ما فيه زيادة الفقرة الأولى عن الثانية، أو زيادة الثانية عن الأولى ويرى أن الثالث أحسنها والثاني أقلها لعلة جمالية، هي أن يصبح كالشيء المبتور فيبقى الإنسان عند سماعه كمن يريد الانتهاء إلى غاية فبعثر دونها "(2).وعلى ذلك يكون السجع كما يراه "ابن الأثير" :" فنا أسلوبيا ،على طريقة العرب في الزخرفة له أوله ، وله غاياته الجمالية ،في تناسق النغم ،وترابط الوحدات مع عدم الإخلال بالسياق،إذ العد التكرار في المعنى الواحد،وجانب اتباع المعنى اللفظ ، أو إخضاعه له" (3).وكذلك راعى فيه حقيقة تعبيرية قد ينطلي على كثيرين ولا يوافه آخرون .

ولما كان أدباء الدول المغربية شديدي الاهتمام بالنثر عامة،من حيث اعتنائهم بترتيب المعاني وتنسيق الألفاظ ،وتنميق العبارات،كانت طريقة السجع والعناية بالمحسنات البديعية من جناس وطباق... وغيرها، هي الطريقة الجمالية التي تكمل الجانب الفني في نصوصهم، فقد أسبغ الكتاب والخطباء على تلك الرسائل والخطب حلة من الأناقة البديعية متوخين الجـــمال والتأثير.

كما اختلفت أساليب الأدباء حسب تفكيرهم وثقافتهم وبيئتهم، وقد يتفاوتون قوة وضعفا أو بعدا أو قربا، كل حسب استعداداته الفطرية والطبيعية، وهذا ما نراه من خلال البناء الفني لخطاباتهم من حيث الجمل والتراكيب وأنواع مجازاتها واستعاراتها وكناياتها كما بينا سالفا.

واللجوء إلى السجع عند المغاربة لم يكن بالمستوى الذي وجدناه في بلاد المشرق والأندلس، ففي هذه الفترة -أي مابين القرنين الرابع والخامس الهجريين-، أفرط المشارقة في استخدام المحسنات البديعية واللفظية بينما توخى المغاربة، وعلى رأسهم ابن رشيق القيرواني،الاعتدال وعدم الإكثار ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، من أجل تغليب الفكرة وقد كانوا إلى ذلك أحوج ، وبذلك ساروا على طريقة القدامى من إيثار جزل الألفاظ،وصحيح المعاني،من غير التفات إلى الأسجاع التي أحدثها المتأخرون .

1ابن وهب:المصدر السابق، ص286.

2ابن الأثير:المصدر السابق،ج1 ،ص289.

3نفسه ، ص 264.

ومن المغاربة المعتدلين في استخدام السجع أبوالحسن علي القابسي في رسالته المفصلة التي يقول فيها: "قد سألني سائل ، و ألح علي أن أجيبه عن مسائل كتبها و شرط فيها شروطا ، واعتذر من إلحاحه علي ، أنه مضطر إليها و راغب في فهم ما تعذر عليه من فهمها ، إذ هي تحل عليه وتنزل به فيرهبها ، ويخشى القدوم عليها ،ويخاف ضيق الإمساك عنها ،لبعده ممن يصلح أن يستعان به فيها ، فعذرته بعذره ، و أشفقت من التوقف عنه ، على وجل مني في مجاوبته عن كل ما سأل عنه " [1].

وأما قولنا في الاعتدال فهو على سبيل التغليب لا على سبيل التعميم، فقد وجدنا بعض الأدباء من اتخذ الحلة اللفظية والصنعة السجعية سبيلا للكتابة النثرية في بعض أشكالها المتعلقة بضروب الخيال الأدبي وقصص العجائبيات...مما يضفي طرافة في الإبداع، وقد تزعم هذا التوجه أبو الحسن علي الحصري الذي أبحر في السجع وتكلف فيه حتى أعابه ابن بسام في ذلك فقال: " ...وله سجع يمج أكثره السمع لم يسمح نقدي أن أكتبه، ولا راقني أن أرويه..."[2]. من ذلك رسائله الخاصة في مدح الأصدقاء وهجاء الأعداء التي أبدع فيها أيما ابداع ، يقول من رسالة إلى صديق : "السلام عليك أيها القلب الثاني، والبعيد الداني، الراقي في سماء المعالي،الواقي من داء الليالي، اول من عددت، وافضل من أعددت، ومن لا يزال النسيم في البكر والعشيات، يهدي إليه طيب التحيات، ومن جعلت وقاءه،ولا عدمت لقاءه، فإذا كان الكريم سالما، كان الزمان مسالما... "[3] ،والقول بمثل هذه الترتيبات الصوتية لا يمكن أن تتأتى إلا عقب ألوان من المجهودات ، وكثير من أنواع المعاناة ،أو تبرهن على قدراته العالية.

والملفت للنظر في استعمال السجع هو ما اختص به أمراء العهد العبيدي وتفردوا به عن سواهم خاصة ما كان من"المعز".وهذا من اصطناع الأسلوب المسجوع،المفعم بالألفاظ الموسيقية الرنانة، في جل ما جاء من خطبه ومناظراته ورسائله خاصة مع شيوع الدعة و الاطمئنان والاستقرار في عهده نوعا ما.

---

[1] القابسي :المصدر السابق ، ص 58.

[2] محمد المرزوقي : المرجع السابق،ص 131.

[3]نفسه، ص133.

واعتبر السجع –في يد كتاب، وعلى لسان خطباء البلاط العبيدي من أمراء وأتباع–،أداة تعبيرية صادقة عن أحوال الألم والأسى ومظاهر العنف والغضب ورموز الحب و التودد إلى الأتباع ،إذ كانت جميعها تجرهم إلى استخدام السجع الذي يجدون فيه متنفسا رحبا عن ما تجود به قريحتهم ومن مثال ذلك قول "المعز"في إحدى خطبه: "...وأشهد أن محمدا خيرته من عباده،ونجيبه من بريته، وصفوته من المتطهرين،ورسوله على كافة العالمين،وبعيثه بالإمامة إلى الثقلين، ليبلغ حجة الرب، ويوضح محجة الحق ، فأدى رسالة الله ورحم ورأف بعباد الله ، وصبر على الكبار ، من مكر الكفار،إلى أن أدال للحق على الباطل ، والهدى على الأضالل[1]،و ألهب فيه المجاهل..."[2].

فأسجاعه متباعدة بين السجعة والأخرى جملة طويلة ، ثم إنها ليست غنية النغمات ،لا تحدث في الآذان ذلك الإيقاع المتواتر،وإنما هي أقرب إلى المقاطع الموسيقية التي تحدث الطرب والاهتزاز.

والذي يبدو جليا في هذه الفقرة أنها وليدة صنعة متأنية لاشك فيها. وكل ما في الأمر أن إقامة الأسجاع لم تكن وحدها الشغل الشاغل "للمعز"وهو بدا هذه الفقرة بداية من لا رغبة له في السجع، فالفواصل تنتهي بكلمات لا تقفية فيها من مثل(عباده، بريته المتطهرين العالميين، الرب، الحق...).ثم يقبل على السجع، فيبدو وكأنه لا يقلع عنه أبدا فيسوق ما يستطيع منه من مثل(الكبار –الكفار ،الأضالل–المجاهل ،أنماها –أبقاها،الخلافة –الإمامة...).

وبعد أن يأتي بمثل هذه الفواصل من السجع يظن القارئ أن 'المعز' ركب مطية السجع ليفاجئه بإهماله ،والتفريط فيه ،ثم لا يطول منه ذاك فيعود إلى السجع وفواصله،وهكذا دواليك.ليشكل لنا مدا وجزرا في مسايرة أسجاعه و الانصراف عنها دون أن يسأم القارئ من هذا الانتقال الفني الرائع ،وإنما يطلبه المنشئ حينا ،ثم يتركه حينا آخر حتى إذا آنس إمكانية جلبه،أتاح له فرصة الظهور.

---

[1]عند النظر إلى كلمة "الأضائل" والتي لا وجود لها في المعاجم ، واختار ناشر الخطبة كلمة أضالل من الضلال لمقابلتها للهدى،رغم أن جمع أضلولة هو أضاليل ، ولكن الخطيب اختصر المد لموافقة السجع.

[2]محمد اليعلاوي : الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي،ص258.

وهناك أيضا سجع آخر ، خفيف النبرات ، سريع الحركات ، لما فيه من تعابير قصيرة تنتهي بفواصل موسيقية كثيرة النبرات من مثل العبارات التالية: " الحمد لله المبدىء المعيد الكريم المجيد ، الفعال لما يريد ، خالق الخلق ، وباسط الرزق ، ومنزل القطر، ومدبر الأمر، وارث السماوات والأرض وما عليها ... "[1] فهذه القوافي المتقاربة تأتي مع سرعتها أزواجا أزواجا، تتعاقب فيها السجعات في خفة، تترجم نبرة الخطيب المتمرسة العارفة لما تقول دون تكلف ،فهي مما لاشك فيها من عفو الخاطر ما يدل على قدرته اللغوية ومعرفته اللامتناهية ، ويوقف هذا المد بعبارة تطول فيها المسافة ، لتتيح له فرصة التنفس.

والكلمات و السجعات تنزلق على اللسان في خفة إذ كانت ملكة الأديب الأدبية خصبة فهي ما تزال ترفده بما يريد من الألفاظ التي تروق في السمع لا يسجعها فحسب ، بل أيضا بجرسها وحسن انتخابه لها ،وما يوفره لها من محاسن بديعة بقدر الحاجة .

والواضح أن "المنصور" لا يتكلف في خطبه –خاصة وأن عهده عهد فتنة وحروب مع الخارجي–، وكأنه بحر يتدفق ، وفي تضاعيف تدفقه ينثر الجواهر الحسان ، وهي ثوابت طبيعية ، تارة يطابق وتارة يجانس في سير دون أن يحس عنده بتصنع أو ما يشبه التصنع.

ومن السجع ما يسمى "لزوم ما لا يلزم"[2] ،و هو استخراج موفق لنغمة موسيقية ،وعند تكرره يحدث في القطعة أصداء موسيقية جليلة تكسب الإنشاء جمالا متميزا، لتدلل على براعة صاحبه من ذلك مقطع من خطبة "المنصور": "...صلاة تزيده بها كرامة وعلاء وشرفا وسناء ، سامية القدر، عالية الفخر، نامية الذكر ، باقية على الدهر ،ثائرة وفائرة..."[3].فهذه السجعات تمثل مقطوعة موسيقية ، أحسن الخطيب توزيع أنغامها ، وكل لفظة تناسب اللفظة التي تليها ، وهذا كله لأحداث سلسلة من الأصوات المنسجمة التي تنقل السامع إلى التركيز على بقية المعزوفة إلى النهاية دون كلل أو ملل رغم طولها .

---

[1]محمد اليعلاوي: المصدر السابق،ص 170.

[2]أن يلتزم الناثر في نثره حرفا فصاعدا على قدر قوته وحسب طاقته ، فالأديب يلتزم ما لا يلزم لأنه ليس من الأحرف التي يجب المحافظة عليها في الشعر أو النثر كما أن السجع يتم بدونه. (ينظر:عبد القادر حسين: فن البديع، دار الشروق بيروت، ط1، 1983م،ص132).

[3]محمد اليعلاوي: المصدر السابق، ص171.

وأمراء الدولة العبيدية –في بعض الأطوار من سجعهم خاصة "المعز"– كأنهم "الحريري" بعث من جديد ، فأخذوا عنه لسانه وقلمه الذي كان لا يرضى بالسجعة البسيطة التي تتجزأ بالفاصلة المؤلفة من حرف واحد حتى تأتيه مؤلفة من حرفين أو أكثر ، فتمر من دائرة السجع إلى دائرة لزوم ما لا يلزم ، وهذه الخاصية لا تدل على التكلف الأدبي بالضرورة لأنها قد تتعلق ببعض الأقلام أو ببعض الألسنة نتيجة لأدمان القراءات الأدبية في لون من ألوان الأدب العربي القديم ، إذ لم يتعد الحد المعقول.

و كان ذلك من نصيب بعض أمراء الدولة لأنه معروف عنهم الحفظ ورسوخ ما حفظوا وبذلك نجد هذا الضرب من السجع يكاد يكون خاصية ينفرد بها أمراء الدولة دون سواهم.

و هناك نماذج أخرى منتقاة تكتشف عن صورة أخرى من صور الابحار في الصناعة البديعيةومنها قول "المنصور" في رسالته لقبيلة "كتامة": "...بعد نزولنا بالقيروان بجيوشنا المنصورة من أوليائنا وعبيدنا،وقد أعز الله نصرنا ،وأتم وعده لنا، وأعز أولياءنا،وأذل أعداءنا وأظفرنا...وإلحاحهم وضرعهم،وطلبهم منا الإعذار إليكم ،وتأكيد الحجة إليكم ، وتأكيد الحجة عليكم ،رجاء منهم أن تنيبوا إلى ربكم ، وترجعوا التوبة التي هي أولى بكم،وتسارعوا إلى قضاء ما افترضه الله عليكم من الجهاد الذي فيه تمحيص الذنوب،ومحو العيوب، وتفريج الكرب ..."(1). فقد استعمل الكاتب سجعا طويل الفقرات متنوع القافية ، فأسجاعه في هذه الفقرة تتألف من حروف الروي التالية:النون، الميم، والباء...وهذا التقابل في هذه الأسجاع والتلوين في نغماتها الموسيقية يدل على أن الكاتب كان يهدف إلى بيان مهارته في صوغ الأسجاع. وقد وشى هذا السجع ببعض ضروب الصناعة الأخرى من مثل تضمينه لآيات من القرآن الكريم للتمثيل،مما جعل رسالته صورة من صور التصنع والتكلف،وزادها ما كان من توظيفه للغريب ،واستعماله للمصطلحات المذهبية مثل قوله: "وقد تتابعت إليكم ،معاشر كتامة،كتبنا ورسلنا،تحضكم على ما فيه رضى سيدكم ومولاكم ،مولانا أمير المؤمنين،المقرون رضاه برضا رب العالمين "(2).

---

[1]نفسه،ص 149.

[2] نفسه، ص383.

ومنه أيضا قول"المعز " في إحدى خطبه:"...وعلى الأئمة المهديين من عترته الكرام الأبرين الذين اختارهم للخلافة،و ارتضاهم للإمامة... بعد تفضيله إياهم على العالمين بأبوة محمد سيد المرسلين، وعلي أفضل الوصيين، من أمهم سيدة النساء، خامسة أصحاب الكساء... "[1].

وإذا كان السجع وما يتبعه من ضروب الصناعة البديعية من تأثير على المعاني والأفكار بسبب احتفاء الكاتب باللفظ على حساب المعنى ، فإن ذلك لا يحول دون وضوح الأفكار وبيان المقصود خصوصا إذا اعتدل الكاتب والخطيب في توظيفه وابتعد عن الحذقلة والدوران والجري وراء الألفاظ ،كما يتضح من أسلوب بعض الرسائل وبعض الخطب ، من ذلك ما جاء في إحدى خطب ""المنصور" لما كان وليا للعهد في عيد الفطر(334 هـ):"عباد الله . إن يومكم هذا يوم عيد ، شرفه الله وعظمه ، وفضله وكرمه ، ختم به شهر رمضان ، وافتتح به حج بيته الحرام ، فأخلصوا فيه نياتكم ، وارفعوا إلى الله فيه طلباتكم ، واستغفروا لسيئاتكم"[2].

فعلى الرغم من التزام الخطيب بالسجع في أسلوبه،-شأنه في ذلك شأن معاصريه- فإن المطلع على هذه الخطبة ، يلاحظ أنه لا يوجد تعقيد لفظي في عباراتها ولا إشكال في معانيها فعباراتها تنساب بشكل طبيعي ، لم يؤثر عليها احتفاء الخطيب بالسجع وغيره من الزخرفة اللفظية ،ليدلل على مبلغ نفسه وجودة ترسله كغيره من الخطباء حيث جاء في إحدى خطبه أيضا: "... ثم أورثتني مقامهم ، وأحييت بي ذكرهم ، وأتممت في أمرهم ، وقفيت بي على آثارهم ، ونصبتني لما نصبتهم ،... من الاحتجاج بنا على خلقك ، والقيام بأمرك ، ونصرة دينك ، وإعزاز ملة رسولك ، ونصرتني وأظهرتني وأظفرتني ، وأعت بي الأمة (بعد الذلة) ، وكثرتهم بعد القلة ، وجمعتهم بعد الفرقة ، وكشفت عنهم مدلهم الفتنة ،ودياجير الظلمة (ودياجي المحنة)، بدولتي التي أعززتها ونصرتها ، وأيامي التي آثرتها فاخترتها ، وسيوفي التي أمضيتها على الدجال وحزبه ، والنفاق وأهله ، فجعلتهم بها حصيدا خامدين ، فأصبح الحق مشرقا ، والباطل زاهقا ، فضلا منك علي ونعمة جددتها(لدي) إلى نعم قلبها أسبغتها علي وأجزلتها" [3].

---

[1]محمد اليعلاوي: المصدر السابق ، ص383.

[2]نفسه، ص258.

[3] نفسه، ص428 –432.

فقد عدد الخطيب روي أسجاعه في الفقرات السابقة ،وفي الخطبة كلها ،وهو بين حرف الميم ،وحرف الكاف،وحرف النون وغيرها، وهذا ما يؤكد أنه كان يقصـــد ذلــكليظهر مدى تمكنه منه،وتبيان مدى سعة ثقافته الفنية ومقدرته على الدوران والجري وراء الألفاظ وبجانب عنايته بالسجع نرى سيطرت المعاني الإسلامية على مادة الخطبة ،من مثل قوله:"أوصيكم عباد الله بما أوصيت به نفسي قبلكم من تقوى الله ومراقبته،والعمل بما يرضيه ويقربنا وإياكم إليه ، ففي تقواه رضاه ،وبرضاه الفوز بالجنة والنجاة من النار: ﴿فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ﴾ [1]، ﴿وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾ [2] "[3].

فمثل هذه الخطب التي كانت تلقى على جمهور المصلين أيام المناسبات في المساجد تحتم على الخطيب أن يقتبس من القرآن الكريم بعض الآيات ويضمن معناها ليشي بها خطبته وهذا ما نجده في معظم خطب العهد.

أما الرسائل فقد سلمت بعضها من السجع لاتصالها بالمصالح الخارجية، فابتعدت تلك الرسائل عن أناقة البديع وزخارفه إلى حد كبير،لأنها تحتاج لأن تكون عباراتها واضحة الدلالة بينة المعنى،ولا سبيل إلا إلى الأسلوب الطبيعي المرسل ،مثل ما جاء في الرسالة التي بعثها "المعز" إلى "قسطنطين" طاغية الروم ومما جاء فيها:"... ولا ترى أن دعوة أهل أقريطش قبل اليوم إلى غيرنا وقد أنابوا اليوم إلينا واستغاثوا بنا...فإن رأيت أن من احتجز شيئا وتغلب عليه فهو له دون صاحب الحق الذي ملكه،فلم يكن لك ولا لأبيك القيام على رومانس، ولا انتزاع ما صار إليه من بين يديه..."[4].

فنوعية هذه الرسائل تحتاج وتتطلب الدقة والوضوح والابتعاد عن الصناعة التي تؤدي إلى الغموض والتأويل في تفسير بنودها. وهو نفس الحال بالنسبة للرسائل الموجهة للعالم الإسلامي الناطق بالعربية ،فهي رسائل مباشرة خالية من ألوان البديع ، وزخرف اللفظ ومثال على ذلك الرسالة التي بعثها "المعز" إلى "صاحب مصر"الإخشيدي في نصرة أهل أقريطش التي اغتصبها

---

[1] آل عمران : الآية 185.

[2] الحديد : الآية 19.

[3] محمد اليعلاوي: المصدر السابق ،ص428.

[4] القاضي النعمان : المجالس والمسايرات،ص442.

الروم ومما جاء فيها:"...علينا عهد الله وميثاقه أنا لا نكون معهم إلا بسبيل الخير ،وأن نحلهم محل رجالنا ، ونجعل أيديهم مع أيدينا...ومراكبك مقام أساطيلنا حتى يفتح الله لنا إن شاء الله ..." (1).

فهذه الرسالة رغم طولها إلا أنها عباراتها جاءت واضحة المعنى بينة المغزى لا كدر يشوبها ،ولا زخرف لفظي يأولها ، فجاءت دقيقة واضحة وضوح هدفها المرجو من مرسلها وهو مساعدة أهل البلدة ضد أعداء الدين وأعداء الأمة .والملاحظ أن الغالبية الكبرى من الكتاب والخطباء ولعت بالسجع ،لا في المغرب الأوسط فحسب بل في أرجاء المغرب و في البيئة الأدبية بالمشرق .لكن هناك من قام بثورة ضد هذه الموجة العارمة من الصناعة اللفظية في الأشكال النثرية عموما، وفي الكتابة عموما .فهذا "ابن خلدون" :" الذي لم يكن يرى السجع في الكلام جمالا، بل انتقد ذلك في مقدمته وأخذ على معاصريه خاصة من الكتاب أنهم أدخلوا أساليب الشعر وموازينه في المنثور من كثرة الأسجاع والتزام التقفية ، وتقديم بين الأغراض مما جعل المنثور من باب الشعر وفنه ولا يفرق معه إلا في الوزن" (2) .

ولا يكتفي "ابن خلدون" بتحديد مواطن العلة و إبرازها ، بل أعطى علاجا وحلا لذلك فيرى أن: "المحمود في المخاطبات السلطانية الترسل ، وهو إطلاق الكلام وإرساله من غير تسجيع إلا في الأقل النادر ، وحيث الترسل الملكة إرسالا لا من غير تكلف له ثم إعطاء الكلام حقه في مطابقته لمقتضى الحال ، فإن المقدمات مختلفة ، ولكل مقام أسلوب يخصه من إطناب أو إيجاز أو حذف أو إثبات أو تصريح أو إشارة وكناية واستعارة "(3).

ولا يعني أن "ابن خلدون" قد جافى البديع ، بل عابه على كتاب الدواوين لأنهم ابتذلوه ووضعوه في غير موضعه،وخرجوا عن القوانين المرعية والقواعد المحددة ، وما عدا ذلك فالبديع ضرب من التحسين والتزيين ، يعطي الكلام رونقا وجمالا ، ويجعل وقعه على الأسماع شديدا لذيذا.وقد وضع "ابن خلدون" شرطا لاستعمال الألوان البديعية هو:" أن تقع من غير تكلف،

---

[1]نفسه،ص443.

[2]ابن خلدون:المقدمة، ص1094.

[3]نفسه،ص 1094.

لأن تكلفها يصير إلى الغفلة عن التراكيب الأصلية للكلام فتخل بالإفادة من أصلها وتذهب بالبلاغة رأسا،وأصحاب الذوق يستهجنون هذا التكلف.والإقلال منها "[1].

وإذا تخطينا الرسائل والخطب إلى الكتابات، مثل التصانيف التي سبق وأن توقفنا عندها فإننا نجد أن هناك تفاوتا بين الكتاب في استخدامهم للسجع ،بين متخفف منه أو مبالغ فيه، غير أنهم كانوا يتفقون وإلى حد بعيد على استخدامه في عناوين المؤلفات وفي مقدماتها و يكفي تصفح بعضها حتى تتضح الصورة منها:كتاب"الهمة في آداب أتباع الأئمة"و كتاب"المجالس والمسايرات" "المناقب والمثالب".

أما اللجوء إلى السجع في الديباجة، فهو أمر شائع أيضا عند كتاب هذه الفترة الزمنية الذين كانوا يعدون الديباجة وسيلة لإظهار براعتهم بالمفردات والمعاني، ومهارتهم في الصياغة اللفظية ومما جاء في مقدمة "المجالس والمسايرات": " ...ثم رأيت وجوها من الحكم والعلم والآداب والمعرفة تنفجر عن منطقة وتندفع من ألفاظه وتشير عن رمزه وإشارته...وسقط عنه تهمة التحريف والإحالة،وإن سقطت منه فضيلة الفصاحة والجزالة ،ومعجز الألفاظ في المقالة... "[2].

وهكذا عني المؤلفون بمقدمات كتبهم يتأنقون فيها،ويسيرون فيها على نسق الرسائل الفنية فيسجعون ويجانسون،ويطابقون حتى ولو أن المقدمة كانت لغير كتاب أدبي كما فعل "القاضي النعمان" في كتبه وفيما عدا المقدمات ، فإن هناك تباينا بين الكتاب من حيث التزامهم بالسجع في باقي المتن.

فالقاضي "النعمان" في"المجالس والمسايرات"نراه يستعمل سجعا طويل النفس،متساوي الفقرات والفواصل غالبا في معظم متنه،وهذا نظرا لكون كتابه هو نقل لأقوال وخطب ،وحكم الأمير العبيدي"المعز"وجاءت هذه الأسجاع متنوعة القوافي مما يعطي لهذا النص النثري نغمة موسيقية قريبة من الشعر من مثل قول "المعز":"...وكلام أولياء الله كالبنيان يشد بعضه بعضا ويشهد بعضه لبعض،لأنهم بنور الله يستبصرون،ومنه يقتبسون،وبحكمته ينطقون، وعن أسلافهم

---

[1] نفسه، ص 1095.

[2] القاضي النعمان: المجالس والمسايرات،ص47.

يأخذون.. "[1]. والملاحظ على أسجاعه،أنها متباعدة بين السجعة والأخرى،وأنها ليست عفو الخاطر وليست واردة من غير استدعاء، و إنما اقتضى ذوق القائل، وطبيعته.

وقد نجد من الكتاب من ابتعد بكتاباته عن الزخرفة اللفظية، ومن نماذج ذلك الكاتب المؤرخ "أبو العرب" في كتابه"طبقات علماء إفريقية وتونس". فأسلوبه في المتن مرسل تجنب فيه السجع والكثافة البديعية، كما يظهر في ترجمته لأحد علمـــاء المغرب وهو" خالد بن أبي عمران التجيبي"(ت197 هــ) في قوله:" قال أبو العرب: وقد روى عن خالد غير واحد من أهل المشرق، منهم يحيى بن سعيد الأنصاري وحيوة بن شريح وعبد الله بن لهيعة وغيرهم، وروى عنه من أهل المغرب عبد الرحمان بن زياد بن أنعم وعبد المالك بن أبي كريمة وغيرهما .وقد كان أهل إفريقية ، وجهوه إلى يزيد بن عبد المالك ليخبره بقتل يزيد بن أبي مسلم عامله على إفريقية ، فلما وصل إليه قربه وأدنى مجلسه واستشاره فيمن يوليه فأشار عليه، فقبل قوله وولى الذي أشار به "[2].

فالملاحظ في هذا النص تجنب الزخرفة اللفظية والزركشة البديعية ، فأسلوبه أسلوب مؤرخ ، وهذا يحتم عليه عدم الاهتمام والإكثار من العبارات المسجوعة، حتى يستقيم الكلام ، ويكتسب دقة ووضوحا ولا يتسنى له ذلك إلا باللجوء إلى المفردات البسيطة الواضحة التي تعبر عن المضمون ، وعلى هذا اللفظ من الكتابة المرسلة السلسة روى المؤلف جل أخباره .

وأما عن الوصايا الأدبية فالملاحظ عليها غلبة السجع على جملها، من مبتداها إلى منتهاها من غير تكلف ولا قصد، وقد جاء منظما هادئا يشبع الدلالات بإيقاعات متتالية تميل إلى نوع من السكينة والهدوء وكأن الفكرة تستدعيه والمعنى يطلبه،مثال ذلك وصية ابن النحوي:" بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الحفيظ ...الذي خلق الأشياء ، ورزق الأحياء،وملك العالين ، وحفظ السماوات و الأراضين، وأودعه جميع ولد أبيه وأهله وأهل أبيه وأهل أخيه و جميع ما حولهما من نعمه ، وملكها من قسمه ، ظاهرا وباطنا و صبر ذلك إلي أمانته وأسلمه إلى رعايته و استحفظه في ذلك كله ، وتبرأ إليه من حوله وقوته ، ولم يرى سوى فضله وطوله ، هو الحفيظ الذي لا يهمل ، الوكيل الذي لا يغفل، العليم الذي لا يجهل ، الجواد الذي لا يبخل ، الأول الذي ينعم ويتطول، هو

---

[1] القاضي النعمان: المجالس والمسايرات ،ص65.

[2] أبو العرب: المصدر السابق، ص213.

الأخير الذي لا يزال ولا يتحول ، السالم من سلمه والغانم من علمه والمفلح من كرمه قد رضيه مستودعا ووقف به متحفظا، ولم يحتج معه إلى ما يحتاج إليه من الأمانات وتحصيل التقبيضات ، وانتقال المالات ، في الضروب التصريفات ، فإن الكل تحت قبضته،و الخلق عبيد ربوبيته ، فالتبوؤ إليه تعويض و الثقة به تسليم ، والركون إليه إقرار بالملك،والرجاء إيذان بالنجاح وذلك بعد أن ثبتت لديه الشهادات الصادعة، واتضحت لديه البراهين الصادمة على السنة الدلالات ، وفي أمكنة الاحتجاجات بحضرة العدول ، من صحة العقول ،..."، فالملاحظ على الوصية سجع قصير الفواصل يمدها بالاسترسال في اللغة مع شيء من الهدوء في الألفاظ. ومن الندرة ما يقل السجع في الوصايا، لأنها تعتمد عليه اعتمادا كليا لإيضاح المعاني والأفكار.

ولم تخل المؤلفات الأدبية من السجع الذي أصبح على سليقة أصحابه حتى في كتبهم ومصنفاهم، ومثاله ما جاء في كتاب "جمع الجواهر في الملح والنوادر"، الذي وقف فيه صاحبه الحصري عند فن النادرة و الحكايات الطريفة بالمغرب، وقد تجسد السجع البديع في كتابه حتى ختم به خاتمته بقوله: هذا آخر الكتاب والله أعلم بالصواب وبالله المستعان ونعود بالله من الزيادة والنقصان. قد أتممت أكرمك الله لهذا الكتاب جميع شروطه، ولم أخل بتحريره وضبطه، وجعلته كالمسامر الذكي، والمنادر اللوذعي، الذي إذا هزل عزف، وإذا جد رمز، فأمضى بك في العجائب المضحكة، والغرائب المونقة، ثم أصلها ولا أفصلها، من تعلق بأخبار ظريفة، وأشعار شريفة، وقد خفت أن أكلفك نصبا، وأحملك تعبا، فقطعت إذ الزيادة في الحدود نقصان في المحدودة، ورب ربح أدى إلى خسران، وزيادة أفضت إلى نقصان؛ فنعوذ بالله ونستغفره مما جرى به اللسان، ونصلي على سيدنا محمد سيد ولد عدنان، وعلى آله وأصحابه السادة الأخيار والأعيان، صلاة دائمة بدوام الأزمان، آمين"[(1)].

ب- الجنـــاس:

الجناس هو تشابه لفظين في الشكل واختلافهما في المعنى،وهو ظاهرة تكرارية صوتية بحيث قد يصل التشابه إلى حد التطابق الكمي والكيفي كما في قوله تعالى:" ﴿و يوم تقوم الساعة

[1]أبو العرب: المصدر السابق، ص220.

يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون﴾ "[1].فالملاحظ أن لفظ "الساعة" قد تكررت مرتين بمعنيين مختلفين(القيامة–الزمن) رغم تماثلهما في الشكل.وهذا النوع من الجناس يسمى "جناسا تاما".وقد يختل شرط من شروط التطابق،إما على مستوى الحروف، أو في تراتبها أو على مستوى نمط الحركة،فيكون حينئذ جناسا غير تام.

وللجناس أو التجنيس أهمية إيقاعية دلالية في النص الأدبي، إذ إن أسلوب التجنيس يكسب الكلام حسنا ويعود على المعنى بالتمكين في ذهن السامع، فهو من صميم البلاغة ومقاصدها وقد جعلها ابن المعتز الباب الثاني في "البديع".ويتواشج الجناس مع السجع كما يتواشج مع التكرار و التضاد في تشكيل الموسيقى الداخلية للنص الأدبي باعتبار هذه الفنون البلاغية من مشكلات الموسيقى الداخلية في الشعر والنثر ،لكنها في الشعر تترافق وموسيقى الإطار لاتستكمال الوجه الموسيقي الكامل للنص الشعري أما في النثر فهي تنفرد لوحدها إيقاعيا ، وهذا مما يزيد في أهميتها وفعاليتها.

فقد كان الأدباء- كتاب وخطباء- يعنون كثيرا بترديد أصوات تطرب الآذان وتؤثر على الأسماع، فكان الجناس الذي يهتم فيه بالكلمات وأصواتها بما تحدثه من تجاوب وانسجام، يأتون به لغرض إتمام السجعات ، ولجلب الصوت الموسيقى المناسب لها ، ولتبيين مقدرتهم ومهارتهم اللغوية.

من ذلك خطبة المنصور السياسية التي تزامنت مع مناسبة دينية فأصبغها بالتذكير بالعيد ومنزلته عند الله وفضله ، يقول: "..عباد الله إن يومكم هذا يوم عيد ،شرفه الله وعظمه وفضله وكرمه،، ختم به شهر رمضان ،وافتتح به حج بيته الحرام ،فأخلصوا فيه نياتكـــــم وارفعوا إلى الله فيه طلباتكم ، واستغفروا لسيئاتكم ، فإنه يقول جل ثناؤه ، وتقدست أسماؤه: ﴿ استغفروا ربكم إنه كان غفارا﴾ [2].اتقوا الله عباد الله . فبتقواه نجح الطالبون وفاز الفائزون وهي وصية الله في الأولين والآخرين ،وتمسكوا بطاعته ،وحافظوا على ما استحفظكم الله تعالى من دينه

---

[1] الروم: الآية 54.

[2]نوح، الآية 10.

وكتابه ، واسترعاكم من حقوقه وحدوده . فلمثل ما رغبكم الله من جزيل ثوابه وكريم مآبه ، وخوفكم من عقابه وأليم عذابه ، فليعمل العاملون .. "[1].

والجناس أشكال ، أعلاه ما له علاقة بالروي ومن نماذج ذلك قول" المعز" : "يا أيها الناس ، إنكم أصبحتم في عمياء مظلمة ، وسوداء مدلهمة،غامرة بفتنة تنقلكم إلى فتنة، قد أضلتكم بأضاليلها المبتدعة وشملتكم بأكنافها المهلكة .فانتم عائمون في غواشيها مغرقون في مباديها ...فأعلام دينكم طامسة ، وآثار نبيكم دارسة ، والمنكر فيكم ظاهر ، والمعروف فيكم داثر "[2] .وفي النص ضروب من الجناس مختلفة من ناقص وتام،كما نجد في نماذج أخرى ومن تلك الأمثلة ما جاء في خطبة "المعز ":"...وعلى محمد سيد المرسلين الذي رفع ذكره ،وأعلى قدره ، فأكرمه بالوسيلة ، واختصه بكل فضيلة ، وابتعثه هاديا للعباد ، ونورا في البلاد، علم به من الجهل،وهدى به من الضل، وكثر به من القل، وأعز به من الذل، ونور به دياجي الظلمات... "[3].

ويقول أيضا في نفس الخطبة :"...والتمسك بالدليل الأعظم ،وما من ولي سالف، إلا وبعده وصي خالف ،...ولا راد لأمرك، والرضا والتسليم بما قضيت، وبما عجلت أو أجلت..."[4].

وإذا ألقينا نظرة سريعة على هذه الفقرات نجد بها جناسا في كل سجعة ، إلا أن الجناس الظاهر هو الجناس "اللاحق" أو شبيهه المسمى "المضارع" [5]،وهذا ما نجده في جناسات الخطبة المذكورة وهي:(الضل و القل و الذل،ولي ووصي،سالف وخالف،وعجلت و أجلت ونسب وحسب، حليفي و أليفي) وهكذا من نماذج الجناس المضارع واللاحق،وإلى الأنواع الأخرى التي تزخر بها خطبة "المعز"، وهذا من بدايتها إلى نهايتها .

---

[1]محمد اليعلاوي: المصدر السابق، ص149 – 150.

[2]نفسه،ص256.

[3]نفسه،ص260.

[4]من المعروف عند البلاغيين أن الذي يفرق بين الجناسين هو أن المضارع يتقارب حرفاه ويكون في الأول وإما في الوسط ،وإما في الآخر، بينما اللاحق يتباعد حرفاه وهذا من حيث المخرج ويكون أيضا في الأول ،وإما في الوسط وإما في الآخر. (ينظر:عبد الحميد محسن: المرجع السابق، ص121).

[5]محمد اليعلاوي،نفسه،ص261.

أما إذا جئنا إلى ذكر الجناس المضارع فيتمثل في اللفظين "حليفي وأليفي"، "وعجلت وأجلت"،وهذا لتقارب حرفيهما الحاء والألف،والعين والألف في المخرج أي أنهما من نفس المخرج .

أما الجناس اللاحق فيتمثل في كل الألفاظ الباقية من مثل(ولي ووصي)اللذين يختلفان في حرف الصاد واللام، وهما يختلفان في المخرج.و بتقارب مخارج الحروف وتباعدها يمكن لنا التفريق وبكل بساطة بين الجناس المضارع واللاحق، وورود الأنواع الأخرى من الجناس في كل الأشكال النثرية.

وهذه النماذج قليلة، قارنة بما كان عليه الحال في المشرق والأندلس وهذا لطبيعة الوضع السياسي ببلاد المغرب والعلاقة الوثيقة بينه وبين استخدامهم للأشكال النثرية التي استغلوها في خدمة قضيتهم السياسية وتدعيم مذهبهم ضد خصومهم، لذلك التزموا التقليل منها لكي لا تؤثر في المعنى والفكرة،وفي هذا يقول "ابن خلدون"عن شيخه "أبي القاسم السبتي الغرناطي":" وكان شيخنا أبو القسم الشريف السبتي، منفق اللسان العربي بالأندلس لوقته يقول: هذه الفنون البديعية إذا وقعت للشاعر أو الكاتب فيقبح أن يستكثر منها ، لأنها من محسنات الكلام ومزيناتها ، فهي بمثابة الخيلان في الوجه يحسن بالواحد والاثنين منها ، ويقبح بتعدادها "[(1)].

وقد خص هذا الكلام العهد العبيدي، لأن ما جاء بعده كان الانطلاق مجددا بنفس قوية ، ليعود اعتناء المغاربة الكبير بعلم البديع ،كما يخبرنا بذلك "ابن خلدون":"... وإنما اختص بأهل المغرب من أصنافه –علم البيان–علم البديع خاصة، وجعلوه من جملة علوم الأدب الشعرية، وفرعوا له ألقابا، وعددوا أبوابا، ونوعوا أنواعا... "[(2)] .

مثال ذلك ما جاء في رسائل "الحصري" التي عجت بأنواع البديع ومنه الجناس بأنواعه حتى لا تكاد تخلو منه رسالة من رسائله، من ذلك رسالة في هجاء أبي الحسين ابن الطراوة على إثر خصومة شبت بينهما :"ما حياتي بين الحيات، وثباتي في الجميع أو الثبات، وقد حانت وفاة الوفاء، وحانت صفات الصقاء، وأرداني الزمان بأردانه، وأعياني بتقلب أعيانه، الجاهل هو الحاظي، والعالم مبخوس الأحاظي، والغاوي،مقبول الدعاوي، وما أبعد الخير، من العير،

---

[1]ابن خلدون : المصدر السابق،ص1116.
[2]نفسه،ص1120.

والكيس،من التيس، والفضل، من الفسل، إذا كان الجاه للجاهل، والبأس على الياسل، والمنافق، هو النافق،وصوحت المراعي، وقل المساعد والمراعي، فيا دهر ما أسهاك، ويا موت ما أشهاك، المنية هي الأمنية، فالبر بائر، والحر حائر، بين أخون إخوان،وأجور جيران..."(1)

ومن رسائله إلى أصدقائه قوله مشتاقا لصديق: "السلام عليك أيها القلب الثاني، والبعيد الداني،الراقي في سماء المعالي،الواقي من داء اليالي، أول من عددت، وأفضل من أعددت، وما يزال النسيم في البكر والعشيات، يهدي إليه طيب التحيات، ومون جعلت وقاؤه، ولا عدمت لقاؤه، فإذا كان الكريم سالما، كان الزمان مسالما..."2

ولم تخل المؤلفات من أنواع الجناس وتواشجه بفنون البديع الأخرى وعلى رأسها السجع خاصة ما كانت موضوعاتها أدبية، من ذلك كتاب لمح الملح لابن شرف القيرواني الذي أتى فيه بنثر طويل في مدح الشطرنج، منها:حرب سجال ، وخيل عجال ، وفرسان رجال ، قريبة الآجال ، سريعة عودة المجال، تستغرق الفكرة، وتستلب اللب استلاب السكرة، وتترك اللسان و ما أراد ، أسماء أو أجاد .إلا أنها تدنى مجلس الصعلوك ،من أشراف الملوك،حتى لا يكون بينهما في أقرب بقعة ، إلا عرض الرقعة ، وربما التقت ثيابهما في بيت القطعة ولسانهما على بيت القطعة، لعب أصولي ، وغريب صولي،قمر لجاجي، ولعب لجلاجي،مظفر الفئة،يراها عن مائة،بيوته حصينة،وشاهه مصونة،،ودوابه مجتمعة، وشاهه ممتنعة، جيد النظر ، شديد الحذر ، لا يبق و لا يذر .عينه تغلي ،وفكرته تملي ،ويده تبلي"(3).

ج-**التكرار** :

إن التكرار سمة أسلوبية في البلاغة العربية، فهو من أساليب البلاغة والفصاحة ،ينفرد بوظيفة بلاغية صوتية تسهم في دفع العملية الأسلوبية داخل الخطاب الأدبي .ولهذا،فمعاينة التشابهات الصوتية،سواء على مستوى الحروف أو الألفاظ المفردة أو التي تأتي في نسقها التركيبي،تبين مدى مساهمة تلك التشابهات في خلق المعنى وتفجير طاقاته.لذلك كان من الأساسيات التي يقوم عليها الشعر العربي الحديث، وقد عدت بعض صوره لونا من ألوان

1محمد المرزوقي :المرجع السابق، ص 134-135.

2نفسه ،ص 133.

3عبدالعزيز الراجكوتي: ابن رشيق، ،ص93

التجديد[1] . وبفعل هذه الوظيفة التي يكتسبها التكرار،فقد اهتم به الخطاب النقدي العربي القديم اهتماما كبيرا،لكونه ظاهرة صوتية متميزة تعتمد على التنويعات اللغوية التي لها دلالة فنية واحدة قد تأتي من توافق الحروف أو تخالفها أو تأتي من توافق الكلمات أو تخالفها،أو تأتي من توافق الجمل أو تخالفها[2]. وهذه التنويعات تعد مؤثرات لغوية لارتباطها الوثيق بنفسية المبدع والمتلقي. من هنا يكون لتحقيق التناسق الإيقاعي في التكرار دور كبير في إيجاد تنغيم يعمل على شد الوظيفة السمعية، ثم التعرف من خلالها على الأبعاد الدلالية.

ويذهب "محمد مفتاح" إلى: "أن تكرار الأصوات والكلمات والتراكيب ليس ضروريا لتؤدي الجمل وظيفتها المعنوية والتداولية، ولكنه (شرط كمال) أو "محسن" أو "لعب لغوي"[3]ويستدرك مقولته السابقة عن التكرار وأهميته قائلا: "ومع ذلك فإن التكرار يقوم بدور كبير في الخطاب الشعري أو ما يشبهه من أنواع الخطاب الأخرى الإقناعية".[4]

و للتكرار دور كبير في عكس التجربة الانفعالية، التي شكلها، فلا ينظر إلى التكرار غير متصل بالمعنى، أو بالجو العام للنص، بل ينبغي النظر إليه على أنه وثيق الصلة بالمعنى العام، ذلك أن الغرض من التكرار التأكيد والتنبيه وإثارة التوقع لدى السامع للموقف الجديد.

و التكرار هو أحد أهم الأساليب التعبيرية في النثر، يعين الأديب على تأكيد كلامه والتركيز على أفكاره،وقد اكتسب أهميته من توظيفه في النص القرآني والحديث النبوي الشريف بشكل ملفت للانتباه، مما دعا البلاغيين واللغويين إلى ا لوقوف عنده كظاهرة أسلوبية لها دلالاتها في المعنى، والوقوف عند أنواعه وصوره التي يأتي عليها، وأثرها في المعنى العام، بوصفه أداء لغويا له مقصد في الكلام[5].مما يزيد في قوته وترسيخه عند المتلقي، فالتكرار أحد الأدوات

[1]جابر عصفور:مفهوم الشعر،مؤسسة فرح للصحافة والثقافة،مصر،ط4 ،1990،ص189.
[2]حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص269
[3]محمد مفتاح: الخطاب الشعري "استراتيجية التناص"، المركز الثقافي العربي،بيروت، ط3، 1992 ،ص 39.
[4] نفسه،ص39
[5]فهد ناصر عاشور: التكرار في شعر محمود درويش، دار الفارس، الأردن، ط1،2004 ، ص11.

الأسلوبية النثرية التي تغني المعنى وترفعه إلى مرتبة الأصالة، كما يزيد في تكثيف الإيقاع و حركات التردد الصوتي.

ومن أمثلته في النصوص النثرية التي بين أيدينا، مناجاة نثرية" للمعز" يقول فيها:"...إلهي، أنا اسمك ، وموجود اسمك وأنا البشير إليك ، والدال على من دل عليك..."[(1)]. فأسلوب التكرار لا يدع شكا في توحيده المولى عز وجل، فصار تأكيدا على صفته كدليل على الله بما أودعه الله فيه من علم وحدس ثاقب .

وقد استغل العبيديون هذا الأسلوب التعبيري لأجل تأكيد نسبهم الشريف وعلو شأنهم بين العرب والمسلمين من ذلك ما قاله المعز للقاضي النعمان : "...وسيلتنا إلى الله جدنا محمد صلى الله عليه وسلم أفضل الخلق عند الله.فمن ذا يتوسل بمثله؟أم من ذا يحل محلنا منه؟ إن الله أحلنا منه محلا لم يشرك معنا غيرنا...ولم يبق من ذريته غيرنا ...على رغم من أراد أن ينافسنا فيهما ويشاركنا في مثلها ... فنحن صفوته من خلقه وأمناؤه على عباده وأئمتهم وأولوا الأمر فيهم".

وبالمقابل جاءت نصوص أهل السنة من خطب ومناظرات في الذود والدفاع عن الإسلام والهجوم على بني عبيد بالسنان والقوافي التي كانت على بني عبيد أشد من السيوف القواطع. فقد استخدم أهل السنة وسائل الإقناع ولفت الانتباه لشحذ الهمم، ورفع المعنويات فكان من ذلك أسلوب التكرار الذي يجذب الأسماع ويطوع العقول للاقتناع، وهذا ما جاء في خطبة "ابن أبي الوليد" التي يقول فيها:" يا أيها الناس. جاهدوا من كفر بالله وزعم أنه رب من دون الله، وغير أحكام الله، وسب نبيه، وأصحاب نبيه، وأزواج نبيه... "[(1)].فالتركيز على لفظة " الله" و "نبيه" في التكرار يدعو المتلقي إلى إمعان النظر فيما فعله بنوا عبيد بانتهاكهم ربوبية الله وكفرهم به وتغيير أحكامه، و مقام نبي الله محمد صل الله عليه وسلم بسب أزواجه"عائشة وحفصة " رضي الله عنهما، وصحبه وعلى رأسهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه. فهو أعظم ما يمكن أن يفعله إنسان يدعي الإسلام .

---

[1]محمد اليعلاوي: ابن هانئ المغربي الأندلسي ، ص253.

ومن التكرار ما نجده عند الأدباء المتصنعون لتحقيق أغراضهم في تنمية النص فنيا وجماليا من ناحية، وتقوية معناه وشد انتباه متلقيه من ناحية أخرى، وقد برز في هذه الصنعة علي الحصري في رسائله التي بلغت حد التصنع في الصنعة، ومن ذلك رسالته التي أعمل فيها تشكيل البديع بحسب ما يقتضيه مدح الوزير أبي الفضل ابن حسادي والوصول إلى قلبه وهو يشكو إليه صهره ابن عياش اليهودي: " ...سيدي الذي حتمت غليه المنح، فختمت به المدح، حفظ الله علاك حفظ سمائه، وأعاذك من العين بأسمائه، يحسن أوصافك، أحكم بإنصافك، أترضى لصهرك المشرف، بأخلاق البخيل المسرف،قصدت بالرهان للسلف، فعدت بالدهان والصلف، وسألت في الزمان، فأعطيت عطاء الزمان، وأنا شاعر الزمان، فأحط بما رفع وحط..."[1]

وكثيرا ما يعمد الأديب إلى تكرار حروف بعينها إما جهرية أو مهموسة مما يبعث في النص موسيقى داخلية متناسقة تصبغ الجو العام بالهدوء أو الصخب ، ويتم ذلك باستعماله الحروف التي تدل على القوة وتوحي بالشدة والفرح و الانتصار... أو خلافها من الحروف التي تدل على الهدوء والإنكسار والتذلل...

وقد يكرر أدباء القرن الرابع و الخامس للهجرة –خاصة فيما تعلق بالصراع المذهبي– بعض الحروف ذات الوقع الشديد،مما يكسب نصوصهم النثرية،وعلى رأسها الخطب، موسيقى قوية صاخبة تتناسب وعنف الموقف الحربي، أو صخب المناظرات الحادة حول التوجه المذهبي بين الشيعة والسنة أو الرسائل التي يتوجه بها الأمراء إلى العدو الخارجي، وهو تكرار أكسب النص موسيقى خاصة وزاد في إيقاعها الداخلي. فكان الإكثار من الحروف الحلقية كالعين والقاف والهاء... وهو ما يناسب جو القوة والسلطة و عنف الموقف الحربي، وعلى مثل ذلك جاءت معظم خطبهم السياسية والحربية .

ومن بين الأشكال النثرية التي جاء فيها تكرار حروف الصخب والحرب والتهديد رسالة المعز إلى قسطنطين، والتي يورد فيه التهديد والوعيد ومنه قوله: ":"...فإن رأيت أن من احتجز شيئا وتغلب عليه فهو له دون صاحب الحق الذي ملكه ، فلم يكن لك ولا لأبيك القيام على

---

[1]محمد المرزوقي : المرجع السابق، ص 137.

رومانس ولا انتزاع ما صار إليه من بين يديه .فهذه سبيل أهل الحق عندنا ،فإن اعترفت لها فقد أنصفت، وإن جهلتها لم يكن جهلك إياها حجة على من عرفها. وعهدك إن تماديت على حرب من أناب إلينا منبوذ إليك، فانظر لنفسك ولأهل ملتك فإنا منا جزوك وإياهم الحرب بعون الله لنا وتأييده، ولا حول ولا قوة لا به" [1].

ومن أمثلة تكرار الحروف ما جاء في خطبة "القائم" التي قرأها"المروزي" أثناء حصار المهدية في(رجب 333 هـ)وجاء فيها قوله: « أيها الناس.إن هذا اللعين النكاري قد استشرى شره ،و استوبأ مرتعه ، وحملته الأماني الغرارة ،والنفس التي هي بالسوء أمارة ، على أن غمط نعمة الله تعالى عليه ، وسول له الشيطان الذي هو قرينه أن لا غالب له .و إنما أرخى له أمير المؤمنين في زمامه . ليعثر في (فضل) خطامه فلعنه الله لعنا وبيلا ،وأخزاه خزيا طويلا ،وصيره إلى نار تلظى ﴿ لا يصلاها إلا الأشقى﴾[2]"[3]. وقد تكرر فيها حرف السين أكثر من غيره، وهو حرف عالي الصفير، حاد الجرس، حيث إن التشكيل الموسيقي قد اصطبغ بصبغته، فأوحى بحدة الموقف المتعلق بتهيج مشاعر الأمير مع انكسار نفسيته، ورغبته في التركيز على أقبح أوصاف تميز "مخلد بن كداد" صاحب الحمار، زعيم أكبر ثورة وتمرد على الدولة العبيدية. كما يصف جيوشه ومن والاه في هذا الهجوم العنيف والحصار المحكم بقوله: " نزل بإزائكم دجال لعين في شرذمة ضالة مضلة لم يستضيئوا بنور هداية : فهم كالأنعام المجفلة ، والصور الممثلة ، والخشب المسندة ، والحمر المستنفرة . إن أقاموا هلكوا ، وان طولبوا أدركوا"[4] فالتركيز على حرف الزاي إلى جانب حرف السين وهو من الحروف الصفيرية الرقيقة يوحي بنفسيته المتأثرة والمنكسرة إزاء تصدي " ابن كيداد الخارجي " له.

د- التضاد :

يحفل البديع في البلاغة بنسق بارز في التشكيلات الإيقاعية الخاصة بالفنون النثرية ونصوصها الإبداعية، إنه التضاد أو الطباق، فالطباق مكون صوتي مهم في العبارة، لا يستغنى

---

[1] القاضي النعمان: المجالس والمسايرات، ص444.

[2] الليل :الآية 15.

[3] محمد اليعلاوي:الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي،ص102.

[4] نفسه،ص102.

عنه لأنه يشحن النص الأدبي بقيم موجبة وسالبة تتولد منها معان كثيرة، وتخلق منها الحركة.ومن الطباق نتج نوع جديد أصبح من مرادفاته في البلاغة وأنواعه وهو"العكس" وهو أن يكون الكلام المشتمل على جزأين أو أكثر في فقرتين فتجعل في الجزء الأخير منه ما جعلته في الجزء الأول،ومنه قوله تعالى: ﴿لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن﴾[1] ،يقول" أبو هلال العسكري" :" قد أجمع الناس على أن المطابقة في الكلام هي الجمع بين الشيء في جزء من أجزاء الرسالة أو الخطبة أو بيت من بيوت القصيدة مثل الجمع بين السواد والبياض والليل والنهار والحر والبرد"[2].وهو الجمع بين معنيين متضادين متقاربين في الجملة، ومختلفين في المعنى، كالإيراد والإصدار، والليل والنهار، ونحو قوله تعالى :﴿يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل﴾[3]،و المراد بالمتضادين لا أن يكون الأمرين بينهما خلاف معنوي فحسب ، بل أعم من ذلك كأن يكون بينهما تقابل وتناف، أو تقابل الإيجاب أو السلب أو تقابل العدم ...

و يراعى في الطباق عادة التقابل فتأتي باسم يقابله اسم ،وبفعل يقابله فعل، وهكذا لان الطباق هو أن تجمع بين المتضادين مع مراعاة التقابل نحو قوله تعالى :﴿وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود﴾[4]).

فالتضاد عملية إنتاجية جديدة للتعبير،مع مراعاة خصوصياته الصوتية،وتغيير بنياتها الدلالية بهدف خلق المتعة الفنية أي أنه تشكيل لغوي يتميز بخاصية تكرار نمطي متمثل في تركيب الكلمات بصورة مغايرة لما في التركيب السابق،فتتقابل الصورتان شكليا ودلاليا،مما يخلق إيقاعا مزدوجا يرفع من قيمة النص الأدبي .

ومثال التضاد- في النصوص النثرية التي بين أدينا عن هذه الحقبة الزمنية-، قول "المعز":"إنا لنحسن إلى الولي جهدنا ، ونصفح عن العدو ما لم ينصب لحربنا ،و نعتني بالشريف و المشروف ، ونعتد بالقوي و الضعيف فربما عاد العدو لنا وليا ، والضعيف في نصرتنا قويا ، والوضيع شريفا ، والخائن عفيفا ولو عاجلناهم بالعقوبة لما وجدناهم عند الحاجة . ولكل في كل

1الممتحنة : الآية 10.

[2]ابو هلال العسكري: الصناعتين ،ص 316.

[3]الحديد: الآية 6.

[4]الكهف: الآية 18.

حال موضع يحتاج إليه فيه يسده . إن السفينة في البحر ربما احتاجت إلى أدنى حاجة صغيرة ، فلا توجد لها فتعطب من أجل عجزها في الحصول عليها ، وان الفرس الجواد ليعدم أقل أداة من أدوات ركوبه فلا يمكن ركوبه ، وان الجدار لا يقوم بناؤه إلا بالكبار من الحجارة والصغار .ولكل امرئ من الناس ، صغر أو كبر ، شرف أو اتضع ، عندنا – إذا أخلص نيته – موضع نصيره إليه ، ونرفعه ، إذا ارتضيناه ، منه إلى غيره ، حتى يلحقه ، ما لم يضع نفسه ، بأعلى درجات أمثاله ، ويوصله من الفضل إلى ما لم يخطر قط بباله . وما يضع الناس عندنا إلا أنفسهم ، ولو أحسنوا إليها لرفعناهم كلهم"[1] .

ومنه أيضا ما جاء في رسالة هجاء "علي الحصري" لأبي الحسين بن الطراوة على إثر خصومة شبت بينهما ، فقد وقع التضاد في معاني تجسد بعضها في اللفظ في صورة إلتحم فيها الجناس والتكرار والتضاد ليتشكل الإيقاع وفق نمطية خاصة فاقت الصنعة: " ...أيها المموه بجهله، والمدعي العلم وليس من أهله، سكرت فصحوك لا يجديك، اعترف بذنبك، قبل صرعك على جنبك، فيدحظ حجاجك، وتطمس محاجك، إلام تلجأ فتاوي، إذا نفذت فيك الفتاوي. وكأني بمن ضمك قد ضامك، وبمن لمك قد لامك، وبمن حلاك قد خلاك، الحقائق واضحة، والمخارق فاضحة،تشبه بالحصي أما يدرى الفعل من الخصي؟ مثل العالم والجاهل، مثل الناهق والصاهل".(2)

ومن أنواع التضاد ما يأتي في شكل مقابلة من مثل قول ابن شرف من بعض طرائف الأدب في كتابه "أعلام الكلام":"... و أما أبو فراس بن حمدان ففارس هذا الميدان، إن شئت ضربا وطعنا أو شئت لفظا ومعنى، ملك زمانا وملك أوانا، أشعر الناس في المملكة ....، له الفخريات التي لا تعارض والأسريات التي لا تناهض.وأما المتنبي فقد شغلت به الألسن وسهرت في أشعاره الأعين، وكثر الناسخ لشعره، والآخذ لذكره والغائص في بحره والمفتش في قعره عن جمانه ودره وقد طال فيه الخلف وكثر عنه الكشف وله شيعة تغلو في مدحه وعليه خوارج تتغايا في جرحه، والذي أقول إن له حسنات وسيئات، وحسناته أكثر عددا وأقوى مددا، وغرائبه

[1]القاضي النعمان: المجالس والمسايرات، ص301.

[2]محمد المرزوقي :المرجع السابق، ص135-136.

طائرة وأمثاله سائرة، وعلمه فسيح وميزه صحيح، يروم فيقدر ويدري ما يورد ويصدر" (1).
فالمقابلة التضادية تشكلت في تقابل ألفاظ "شيعة وخوارج" و "مدحه و جرحه" و "له وعليه" باعتبارها صيغت ضمن جملتين متواليتين.وإلى جانب المقابلة يأتي الطباق بين كل من "حسنات وسيئات" و"طائرة وسائرة" .ولعل هذا التنويع في التضاد قد أكسب النص طرافة في لغته إلى جانب طرافة محتواه.

هذه ملامح عن بعض صور التشكيل الموسيقي للنثر في القرنين الرابع والخامس الهجريين ، ولعلنا من خلال ما وقفنا عنده رأينا أن الأسلوب البديعي من عذوبة العبارة وجمال الأنغام الموسيقية،والصورة الناجحة ، شديد الصلة بالنفس،وطيد العلاقة بها،واستخدامها الفني يمكن النظر إليه من خلال الظروف التي أنشأ الأدباء نثرهم فيها والأغراض التي يتوخونها لأجل ذلك ،وهي في مجملها لا تنزاح عن الصراع السياسي ـالمطبوع بالصراع المذهبي خاصة في العهد العبيدي ،ولو أن هذه الفترة اتسمت بالهدوء والاطمئنان،لأمكننا أن نجلو الكثير من طوايا النفس ومكنونات الضمير وهو في كامل استقراره ،ولحصلنا على نثر فني أدبي راقي برقي أدبائه ،وبالبيئة المغربية المستفزة للمشاعر و الأحاسيس الشاعرية وبالرغم من ذلك استطاع الأدباء في العهود اللاحقة أن يستدركوا الكتابة الأدبية والصنعة الفنية ، وتدعيم أشكالهم النثرية بالتشكيلات الموسيقية المختلفة ،والتي هي المكمل الأساسي للأدب في خصوصياته الجمالية ولولاها لفقد النص جاذبيته وتأثيره ،وأضحى النثر كلاما عاديا كالذي يستعمله العامة في حياتهم اليومية .

وقد استطاع الأدباء المغاربة في القرنيين الرابع و الخامس للهجرة أن يبينوا ويوضحوا مدى تمكنهم من اللغة من خلال ما رأيناه من نتاج أدبي نثري يقارب ما وصل إليه أدباء المشرق و الأندلس ، بل إن بعضهم تفوق وأبدع ففاق صنعة الأوائل، ومنهم: "أبو الحسن علي الحصري"، و أبو إسحاق إبراهيم الحصري و ابن شرف و ابن رشق...وغيرهم ، وعلى الرغم من تعدد الأمزجة والطباع لأهل المغرب، وتفاوت قدراتهم في البيان والفصاحة من جهة، وعدم وصولنا

---

[1] ابن شرف:أعلام الكلام، ص 25-26.

إلى جل الفنون النثرية المغربية المنتجة في تلك الحقبة الزمنية من جهة ثانية إلا أننا نستطيع القول بأن المغاربة لهم تراث يناظر المشارقة والأندلسيين .

كما كان الأدباء والأمراء والكتاب على معرفة بالتطور اللغوي، ويدركون ما وصلت إليه اللغة من تطور في المشرق، فعرفوا استعمالاتها في شتى الفنون النثرية بما هو متعارف عليه في البيئة العربية.وحسب البيئة المغربية ، وما هو شائع في أوساط المجتمع .

و لم يشأ الأمراء والخطباء أن تكون نصوصهم النثرية مثقلة بالصور و البديعيات التي لا قدرة للمتلقي أو المستمع أو المتأدب من استيعابها بإعطائها أكثر من وجه في الأداء، فقد اعتمدوا الاختيارات اللغوية والتعبيرية الأنسب لمستوى متلقي النص، إلا الدرر منها ، وبات يقينا عندهم أن المنهج السهل يعطي أسبقية الاكتساب لدى المتتبع والمستمع لترسيخ المعنى. فجاءت مهارة التبليغ مرتبطة بتوفر الظروف والملابسات الحقيقية –من قبل هؤلاء الأدباء والأمراء– التي تحيط بمجرى المخاطبات وبتوفير ما تقتضيه هذه الملابسات من الألفاظ والتراكيب المناسبة لها.

بالإضافة إلى الثقافة الدينية القرآنية التي تميز بها مبدعو النصوص النثرية المغربة ساعدتهم على صقل الذوق وتهذيب الطبع والخيال، وصياغة قيم فنية جمالية راقية اهتدى بها أدباء المغرب، و أيقض في المتلقين الإحساس بالجمال ، كما اكتسبوا سليقة لغوية من خلال لغة القرآن والحديث النبوي الشريف، مما ولد استخداما إبداعيا للأساليب والصيغ التعبيرية، ورفع مستوى لغتهم خاصة في القرن الخامس الهجري. كما استخدموا آيات القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف بالتضمين و الاقتباس و الاستشهاد ...لإثارة عواطف المتلقين وكسب ودهم وولائهم ، وتوظيف المعاني والأمثال المتداولة. مع استنطاق حوادث التاريخ.

و جاءت الفنون النثرية في النصف الأول من القرن الرابع الهجري موحدة الاتجاه والهدف والموضوع، ومتعددة الأشكال مترابطة الأجزاء في غير إخلال بأساليب التعبير العربي في لغة سلسة سهلة .كما جاءت لغتها في جملتها مصبوغة بالصراع المذهبي ، لأن الجانب الفكري قد برز وطغى، لذلك بدت لغتهم أقرب ما يكون من لغة العامة ، فلا تجد فيها الفن الجميل بل كانت دعوات وأفكار تؤثر في المتلقي، لكن هذه الألفاظ والمصطلحات المذهبية التي اشتقها الكتاب والأمراء والعلماء و الأدباء من المعاني القديمة في شكل جديد يخدم الصراع المذهبي والدعوات الفكرية.

وقد تعددت أغراض النثر التي عبر عنها الأديب بلغة بعيدة عن الغريب والوحشي من الكلام ، ومترفعة عن السوقي والمبتذل ولم تكن لغة المغاربة في مستوياتها الصوتية والتركيبية والبلاغية خارجة عن نطاق ما ورد عن العرب أو عما يبيحه قياس العربية ،كما كانت سمة لغة المغاربة من خلال كل الأشكال لغة سليمة في نظامها اللغوي خاصة والكلام عامة.و لم يكن الأدباء المغاربة يجهلون نسق التطور اللغوي ، كما أنهم لم يقفوا في وجه التطور اللغوي وهذا ما رأيناه عند أدباء القرن الخامس الهجري ومن خلال مصنفاتهم النقدية و الأدبية.

كما اقتصروا في التعبير عن المعاني المحسوسة المشاهدة يوميا، وهذا ما لا يتطلب كبير عناء في الفهم والإفهام بخلاف المعاني السامية والصور البلاغية المعقدة التي ندرت وتحققت عند بعضهم حينما سمحت لهم ظروف العيش للإبداع والتفنن.ولم يكثر الأدباء من السجع في القرن الرابع الهجري ليستأنف الأدباء العمل به فيما بعد للظفر بالحلية الجوهرية، حلية المعنى الرائع والغرض النبيل، لكن السيادة بقيت للمعاني في فرض ما توجبه الألوان النفسية في مختلف الأطوار والأساليب.

واهتم منتجو النصوص النثرية المغربية، ببسط المعاني وتأكيدها بتكرار الجمل المتفاوتة في مغزاها ومدلولها وهذا ما يعطينا فكرة واضحة عن تصور الكتاب والخطباء لنفسية من يراسلونهم أو يخاطبونهم ، وهو تكرار خفيف مقبول يؤكد المعنى ولا ينقله ، وليس كما ظهر في القرن الرابع بل هو ما شابه القرن الثالث، كما خضعت الاستعمالات اللغوية للمزاج والذوق، والتطور الاجتماعي والثقافي، لذلك وجدنا ألفاظا تبرز وتشيع في الجانب الشيعي ، وتشذ وتغيب عند الطرف الأخر، كما استخدمت بمعاني أخرى، واستخدام القوالب التعبيرية الجاهزة، وتكرار المواقف الحياتية المباشرة مما نجم عنه تكرار العبارة الواحدة، كما أن ألفاظهم اتسمت بالفصاحة، وخلت من تنافر الحروف التي تثقل اللسان، ومن الغرابة، ومن مخالفة القياس الصرفي.

خاتمــــــــــة

حاول البحث رصد جانب مهم من الحياة الفكرية و الأدبية بالمغرب الإسلامي طيلة قرنين من الزمن، واستقصاء حركة النثر التي وإن اندرجت بشكل منسجم ضمن تاريخ الأدب العربي بوجه عام،إلا أنها تميزت بتفردها وخصوصيتها المغربية ، ويمكن أن نعتبرها مدرسة أدبية بما أضافته من مساهمات قيمة وبنماذج راقية كانت ثراء للأدب العربي، و من خلال بحثنا حاولنا الكشف عن النبوغ المغربي في الأدب العربي في شقه النثري ، ووقفنا عند الفنون النثرية التي شكلت المشهد الأدبي النثري المغربي بالدراسة و التحليل ،كما عرفنا ثلة من الأدباء المغاربة وهم من خيرة ما أنجبته الساحة الأدبية المغربية ،ووجدنا أن منهم من ارتاد بعض الفنون النثرية التي كانت وقفا على نظرائهم المشارقة وارتقوا فيها مجددين ومبدعين، تحذوهم رغبة صادقة في إقامة الحجة على أن من بين المغاربة من يوضع مع أعلام النثر المشرقي في كفتي ميزان واحدة.ورغم أنه لم يصل إلينا–حسب علمي وحدود بحثي– إلا القليل من النتاج الأدبي والفكري ،وعدم تدوين كل ما تعلق بالحياة الأدبية والعقلية في القرنيين الرابع والخامس هجريين ورغم هذه الصورة القاتمة إلا أننا حاولنا جاهدين أن نستفيد مما بقي منه.

وهذه الرحلة في رحاب النثر المغربي قادتنا إلى أشكاله المتنوعة.و مكنتنا من رصد بعض النتائج التي توصل إليها بحثنا مع عدم تكرار ما سبق استخلاصه في كل فصل وباب ، و سنعمد إلى التركيز على أهمها و إجمالها فيما يأتي:

–دراسة جزء من هذا التراث الضخم ووضعه في دائرة الضوء وذلك بإفراد البحث في دراسته النظرية والتطبيقية للنظر في نصوص لم تخضع لدراسة مستقلة من قبل حسب علمنا، غاية ما في الأمر أنه قد أشير إليها عرضا في ظل سياقات نقدية من ناحية أو في ظل التناول النقدي من ناحية المقارنة مع أدب المشارقة وبصورة عامة .

–الفضاء الزمني للفترة المدروسة– القرنيين الرابع و الخامس الهجريين– كان حافلا بالنشاط الفكري و الأدبي و التأليفي، وما وصلنا منه إلا النزر اليسير البسيط من نتاجهم على الرغم من إشارات المصادر لعدة أشكال ومؤلفات وأعلام.

–إن العناصر الأساسية الأولى التي شكلت الثقافة العربية وخاصة الأدب العربي في المغرب والمشرق كانت واحدة،وهي: العنصر الديني، والعنصر البشري ،والعنصر السياسي والعنصر اللغوي ، فلا غرابة إذن في ذلك التشابه الموجود بين الثقافة والأدب في المشرق والمغرب ذلك

أن المثال المحتذى كان واحدا هنا وهناك ، فهو بمثابة الشجرة الواحدة فلا يمكن أن تختلف طبيعة ثمارها وإن اختلفت ألوانها .

-إن المصادر التي اهتمت بتاريخ الفترة لا تذكر الإنتاج الأدبي خلال الفترة المدروسة مقتصرة على الجانب السياسي و التاريخي فقط ،والواقع أن الباحث لا يستطيع أن يتحرى الحقائق بدقة حول مدى تقدم العلوم والفنون والآداب في بلاد المغرب بوجه عام ، ذلك أن الفتن المتتالية – وخاصة ما لحق بالتراث – أتلفت كثيرا من المصنفات،وحرمت الناس من تداولهـــــا والانتفاع بها، فقد ضاع جانب مهم من التصانيف التي سجلت الحياة العلمية والأدبية نتيجة لصراع مذهبي الدامي الذي شهدته المنطقة ،وما عرف فيه من اضطرابات سياسية ،وما صاحبها من حروب وفتن عبر العهود، خاصة مع حملات الهلاليين ثم غارات النورمانديين في نهاية القرن الخامس الهجري ثم الأسبان في القرن العاشر وما قام به هؤلاء خاصة من إتلاف لذخائر الكتب ،و التي حرمتنا كثيرا من كنوز المصادر التي خلفها المغاربة.

-كان النثر صاحب السلطان في المغرب ،لأنه هو الأداة الطبيعية لنشر الآراء والمذاهب والعقائد، وهو الذي يحتاج إليه العقل كغذاء وجداني متواتر، لهذا أخذ الريادة من الشعر في القرنيين الرابع و الخامس الهجريين.

-لما كانت المواضيع المتطرق إليها ضمن الصراع المذهبي والفكري متصلة بأعمال العقل والفهم والإدراك كان النثر أوجب، لأن لغته أقدر على الشرح والإيضاح ، والإفهام والتبيين والإقناع ، كما أنه أصح في مجرى الدفاع والمفاخرة مثل الخطب، والمناظرات،والرسائل وهي أبرز وأفضل أدوات التعبير عن الأغراض السياسية والفنية،لذلك توجه الكتاب في الغالب إلى ما فيها من معان وأغراض ، قبل أن يعنوا بالنظر في أساليب الإنشاء .

-الأدب الشيعي العبيدي في صورته النثرية ، هو صورة صادقة للحياة السياسية و الاجتماعية و الفكرية و الفنية في القرن الرابع الهجري حسب ما افادتنا به مصادر العصر التي وصلنا إليه.

-إن أول ظاهرة لاحظناها عند دراستنا للنص النثري المغربي هي أن جميع الأدباء و النثار من خطباء وكتاب ومناظرين وقواد جيوش ،وأمراء، كانت ثقافتهم دينية بالدرجة الأولى،ولا نكاد نجد ناثرا إلا و قد كان فقيها أو محدثا .حيث نهل جميعهم وأخذوا عن الثقافة الفقهية الدينية

كدراسة الحديث والتفسير وما إليها ،وكانت هي الدراسة المرغوب فيها،ولذلك نجد المتفردين للكتابة فقط قلة من دون البلغاء والدارسين للفقه، وخاصة في القرن الرابع الهجري.

–طبع النثر المغربي بالطابع الديني فكان الصفة الغالبة على جميع أشكاله من نثر سردي،ونثر غير سردي،ونثر تأليفي،فقد اصطبغ بهذه الصبغة نظرا لأن أدباء الفترة كانوا أكثر التزاما وحرصا وتشددا وتمسكا بكل الأحكام الدينية أكثر من نظرائهم في المشرق بوجه عام ، ولعل ذلك ما أدى إلى عدم اتساع دائرة الأدب وجعله لا ينطلق إلا في آفاق محدودة.وهو ما أدى أيضا إلى سطحيته،رغم ما في هذا الأدب من جمال ظاهري وديباجة مشرقة ،لكن لم تبرز ملامحه الجمالية كما عند المشارقة الذين أولوا اهتماما لهذا الجانب، فقد كانوا أكثر ليونة وتسامحا ولم يتحاملوا بشدة على مظاهر الترف واللهو بعكس ما كان عليه أدباء المغرب.

– التركيز على الجانب السياسي وما طبعه من صراع من أجل تثبيت أقدام الدويلات المتعاقبة،والذي رافقه هامش من الحرية الفكرية ،تمتع بها كل الأفراد لفترة محدودة ،وازدهرت من خلاله بعض الأشكال النثرية مثل :المناظرات .تبعها سيل من الفتن والصراعات السياسية المطبوعة بالصراع المذهبي متعدد الأطراف،من أجل سيطرة وانتصار فكرة واحدة ،إلا أن هذا الصراع ولد وأفرز إبداعا مغربيا خالصا .

– اختلفت أساليب الأدباء بين أسلوب النثر العادي المنتشر بكثرة ، وبين الأسلوب الأدبي الفني ، فنجد أن أسلوب الفقهاء ورجال الدين –كتاب وخطباء– يتجه إلى ناحية المعنى وهدفه الفكرة و إيصالها إلى المتلقي ،ولا يحتفون بالجمال الفني إلا عرضا .أما الأسلوب الأدبي الفني بما فيه من تصوير دقيق ، وتفنن في العبارات والأخيلة ، وضروب البيان ، فإننا نجده عند بعض خطباء وكتاب الأمراء والأدباء المتفردون بالصنعة الأدبية خاصة ما وجد في القرن الخامس الهجري والذين استطاعوا أن يعبروا عن معان وأحاسيس بفصيح اللفظ، وبلاغة المعنى،وتوليد المعاني وترتيب أجزائها واللجوء إلى الجمل المسجوعة والإكثار من المحسنات البديعية ، وهم في هذا لم يستكثروا السجع إلا ليحققوا أكبر قدر من البلاغة اللفظية في نثرهم .

–أسهم بعض الأمراء بما كانوا عليه من منزلة ثقافية وعلمية في دفع عجلة العلم والفكر والأدب فكان لهم إسهام واضح في رفعة الفكر والأدب خصوصا، كما ذهبت إليه بعض الشواهد

التاريخية التي أكدت أن هؤلاء لم يكونوا بمعزل عن هذه الحركية الثقافية الأدبية بل كانوا منتجين لنصوص رائقة.

-نافح أدباء وفقهاء السنة عن توجههم العقائدي بمختلف الأشكال النثرية، ولكنهم لم يقصدوا في نثرهم الفن والجمال دائما، بل الوصول إلى الإقناع ،وذلك ما دعاهم إلى استخدام العقل لا الخيال والتنميق .

- إن خصوبة حقل الأدب مرتبط بالبيئة الصالحة لذلك والتي لابد أن يسودها الأمن و الاطمئنان والاستقرار، وهو ما لم يحصل في الكثير من الفترات التي سادت فيها الخصومات المذهبية والتي اشغلت الأدباء عن التفرغ إلى الأدب والفن وهذا ما كان في القرن الرابع و النصف الأول من القرن الخامس الهجري،في حين شهد المشهد الأدبي نهضة في العهد الصنهاجي و الحمادي حين استقرت الأوضاع مع نهايات القرن الرابع و القرن الخامس الهجري ،فكان الأدب رفيعا وقام على اتجاهات أدبية مستمدة من حياة راقية زاهية في بيئة مطمئنة هادئة خاصة في فترة حكم "المعز لدين الله العبيدي" و "المعز بن باديس الصنهاجي" فوصل النثر الفني في عهدهما بشكله العام إلى قمة ازدهاره و رقيه .

-عبر النثر تعبيرا شاملا عن كل التغيرات التي أحدثها دخول العبيديين إلى المغرب في جوانب الحياة المختلفة:(السياسية،والاجتماعية، والثقافية والاقتصادية).وقد تحقق للنثر خصوصا وللأدب عموما -منذ بداية القرن الرابع- النهوض والاتساع بل و حتى التطور في كل أشكال التعبيرالنثري، وبهذا يمكن القول أن النثر حقق قدرا من التطور في أغراضه ومضامينه مقارنة بالعهود السابقة. ولحق بمثيله في المشرق والأندلس،بل وتعداه في بعض الأصناف التأليفية كما هو الحال في النقد عند "ابن رشيق" و الحصري، والأشكال التخييلية كما هو الحال عند "ابن شرف" .

-تنوع المؤلفات والمصنفات التعليمية و التربوية و الأدبية و النقدية ...ووفرة النتاج الأدبي في نطاق الانسجام و التناسق بين التقاليد القديمة والأساليب الحديثة .

-محاولة إحصاء النتاج النثري المغربي بغرض تأصيله يبقى أمرا نسبيا وصعبا لقلة ما وصلنا من نصوص و نماذج و العوز الذي اتسمت به مصادرنا في ذلك ، بالإضافة إلى أن ما وصلنا من تلك الأشكال غير مكتمل من مثل المقامات التي أشارت العديد من المصادر إلى تأليفها في

القرن الخامس الهجري إلا أننا لم نصل إلا إلى مقامة واحدة "لابن شرف" ذكرناها في المصنفات الأدبية .

-إن الصراع المذهبي الذي ساد المنطقة منذ بداية القرن الهجري الرابع، أعان الثقافة على الازدهار، فكل فرقة تدافع عن آرائها وتتفنن في أساليب إقناع الخصم، فكثرت الرسائل، والمناظـــرات والخطب....

- بدا ازدهار الثقافة والأدب مع بوادر قيام الدولتين الصنهـــاجية و الحمادية ومع بروز عمالقة الأدب من أمثال: النهشلي، ابن رشيق،ابن شرف، الحصري، القزاز،ابن دفرير،الرقيق القيرواني،ابن العالمي، ابن الربيب...، بحيث اتسعت مجالات النثر اتساعا لم يسبق له نظير بالمغرب الإسلامي وامتدت أغراضه لتشمل كل مناحي التعبير.

- ارتبطت الأشكال النثرية في عمومها بالقيم الجماعية وأيديولوجيتها، وموقع السلطة منها، كما ارتبطت بالتاريخ الحقيقي للإنسان المغربي في ممارسة شؤون حياته ومعتقداته، وبمعنى آخر فهو بكل مكوناته يعكس تميز حسه الحضاري إزاء الآخرين.

-إن النصوص النثرية قد بينت لنا الوقائع والأحداث التاريخية في قالب فني جميل،على اعتبارأن الأدب هو أداة من أدوات المعرفة الإنسانية، وبهذا كان الأدب عندهم حيا بقدر ما كان صادقا في الدلالة عما يعبرون عنه.

-دراسة الفنون النثرية المغربيةهي تفسير للروح العامة الخاصة بالعبقرية المغربية ووقوف على أسس تفكيرها والمنابع الأصلية لها.

-إن أشكال النثر المغربي صورة لغوية للبيئة المغربية ،وما ساد فيها من أحداث وأحوال سواء في مجال السياسة و الملك و الحرب و الصلح ،أو الصراع على السلطة بين الدول أو الأفراد والجماعات، و القبائل على اختلاف انتماءاتها العرقية و المذهبية، ، أو في مجال الحياة الاجتماعية، من مظاهر العيش وسلوكات المجتمع ونكباته و بؤسه ، أو في مجال الفكر و الثقافة و الفن و الحضارة وما سادها من تيارات نابعة مما استحدث في الدول المتعاقبة من قيم عقلية و دينية ومذهبية و عرقية ،وحرية في مناقشة بعض الثوابت المذهبية ، على ضوء العقل و المقاييس العلمية ، وما صاحب ذلك في دنيا الأدب من تراوح بين التحرر في القيم الفنية ،و التقيد في الموضوعات و المضامين ،والاعتناء بالشكل و المضمون ليلقى القبول لدى الحس .

– تنوعت أساليب النثر و أشكاله ، وإن ظل في صورته على ما جرت به أقلام الكتاب و الأدباء ، أو تحدثت به و انطلقت ألسنة الخطباء و المتناظرين و الموصين ، أو جادت به قرائح الأدباء المتفردين للصنعة.

ومن نتائج هذا البحث الأساسية، جمع التراث النثري المغربي وتوثيقه وترتيبه ترتيبا تطوريا بحسب الأصول والاتجاهات والمناهج ،لفتح باب البحث فيه بشكل يخدمه أكثر ،وينأى عنه التفسيرات العقيمة والأحادية ،وبخاصة من جهة الدراسات الأكاديمية.

وأخيرا فإن هذا الجهد المتواضع هو خطوة أولى و دراسة نحسب أنها تأسيسية تأصيلية لهذه الفترة الزمنية وفنونها النثرية المختلفة ، وهي محاولة لنفض ما علق بهذا التراث من إهمال و إخراجه في حلة تليق به كإبداع أسهم إلى جانب النتاج المشرقي، في الحفاظ على مكونات هذه الأمة وتواصلها العلمي والثقافي والحضاري، إحياء لماضينا الأمجد الذي يستحق منا وقفة بل وقفات لإخراجه إلى أجيال المستقبل .

ولا أدعي أني قد أتيت بما لم تأت به الأوائل ولكن حسبي أني فتحت كوة قد تكون قاعدة لدراسات مستقبلية جادة لهذا العصر إن شاء الله.

اللهم أرجو أن أكون قد أوصلت، فبينت، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

قائمة المصادر و المراجع

-القرآن الكريم (رواية ورش).

- **المصـــــادر:**

1-الإدريسي (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس):

-المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق،تحقيق: محمد حاج صادق ،المكتبة الجامعية، الجزائر،د ط، 1983م.

2-الأزهري (أبو منصور محمد بن أحمد):

- تهذيب اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون وآخرين، دار العربي ، القاهرة، ج4،د ت.

3-البخاري(أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري):

-صحيح البخاري، بعناية:مصطفى ديب البغا،دار ابن كثير،اليمامة،ج1،ط 3،1987م.

4-الباقلاني (أبو بكر محمد بن الطيب) :

- البيان عن الفرق بين المعجزات والكرامات والحيل والكهانة والسحر ، تح: الأب رتشارد يوسف مكارثي اليسوعي، المكتبة الشرقية، بيروت ،1958.

-إعجاز القرآن: تحقيق: أحمد صقر، دار المعارف، مصر، ج2، ط5،1997 م.

5-البكري(أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي) :

- المغرب في ذكر بلاد افريقية و المغرب جزء من المسالك و الممالك،دار الغرب

الإسلامي، بيروت، ج1-2،1992 م.

6-ابن الأبار(محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي):

- إعتاب الكتاب، تح:صالح الأشتر ،مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق،ط1،1961م

- التكملة لكتاب الصلة،تح عبد السلام المهراس،دار الفكر للطباعة،بيروت، ج2،1995.

7-ابن أبي الدينار(أبو عبد الله محمد):

-المؤنس في أخبار إفريقيا و تونس، تح: محمد شمام، المكتبة العتيقة ،ط3، 1387 هـ.

8-ابن أبي زيد القيرواني (عبد الله بن عبد الرحمن أبو محمد):

-متن الرسالة، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، د ط، د ت.

09-ابن الجزار القيرواني (أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد):

-سياسة الصبيان وتدبيرهم، تح: محمد حبيب الهيلة، الدار التونسية للنشر، مطبعة المنار، تونس ،1968م.

10-ابن الأثير(عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم):

-الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، م8، د ط،1979 م.

11-ابن الأثير(ضياء الدين الكاتب):

-المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر،تح:أحمد الحوفي، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها القاهرة، ط1، 1979م.

12-ابن بسام(أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني) :

-الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة،تح : إحسان عباس ،دار الغرب الإسلامي،لبنان، ط1،2000.

13-ابن تغرى بردي (جمال الدين أبي المحاسن يوسف الأتابكي):

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة و الطباعة والنشر، مصر، ج4 ،د ط د ت.

14-ابن حجر العسقلاني (شهاب الدين):

- تعجيل المنفعة، تحقيق:إكرام الله إمداد الحق، دار الكتاب العربي، بيروت،ج1 ، د ط، د ت.

-التقريب، تح::محمد عوامة، دار الرشيد، حلب، سوريا، ج1، ط1،1986 م.

15-ابن حزم الأندلسي:

-التقريب لحد المنطق والمدخل إليه، تح: :إحسان عباس، دار مكتبة الحياة،لبنان،دط،

. 1959

-جمهرة أنساب العرب، تح::عبد السلام هارون، ،دار المعارف، القاهرة، ج 1، 1962.

16-ابن حماد الصنهاجي(أبو عبد الله محمد الصنهاجي):

-أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم تحقيق وتعليق :جلول أحمد البدوي ،المؤسسة الوطنية

للكتاب، الجزائر، ط2،1984م.

17-ابن حمديس الصقلي:

-الديوان ،ضبط وعنون قصائده وعلق عليها: يوسف عيد ،دار الفكر العربي، بيروت،

لبنان، ط1، 2005.

18-ابن الخطيب (لسان الدين):

-أعمال الأعلام، تحقيق و تعليق: أحمد مختار العبادي ومحمد الكتاني، نشر و توزيع دار

الكتاب، الدار البيضاء،د ط، ج3، 1964.

19-ابن خلدون(عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي):

-كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر... ، دار الكتاب اللبناني،مكتبة المـــدرسة،بيـــروت ،د ط،1983 م.

-المقدمة، تح:على عبد الواحد وافي، دار القلم، بيروت، ط 5، 1984م.

20-ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر):

-وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس،دار صادر ، بيروت، د ط ،1972.

21-ابن دحية (ذي النسبين أبي الخطاب عمر بن حسن):

المطرب من أشعار أهل المغرب،تحقيق:إبراهيم الابياري وأخرون،مراجعة :طه حسين،دار

العلم للجميع، بيروت،1955.
22–ابن رشيق (أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني):
– أنموذج الزمان في شعراء القيروان ،جمع و تحقيق :محمد العروسي المطوي و بشير
البكوش، الدار التونسية للنشر، تونس،دط،1986.
– الديوان،جمع و ترتيب : عبد الرحمن ياغي، دار الثقافة ،بيروت،دط،دت
– العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده،تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد ، دار السعادة،
مصر، ط3 ،1383هـ.
– قراضة الذهب في نقد أشعار العرب، تحقيق: الشاذلي بويحي، الشركة التونسية للتوزيع،
. 1972
23–ابن السراج(أبو بكر محمد بن عبد الملك الشنتيري الأندلسي):
–جواهر الآداب وذخائر الشعراء و الكتاب، تح :محمد حسن قزقزان ، وزارة الثقافة، الهيئة
السورية العامة للكتاب، دمشق،2008.
24–ابن شرف(أبو عبيد الله محمد بن أبي سعيد الجذامي):
–أعلام الكلام،نشر وتصحيح وضبط:عبد العزيز الخانجي،مكتبة الخانجي ،مصر، ط1،
.1926
– الديوان، تحقيق :حسن ذكرى حسن، مكتبة الكليات الأزهرية، مصر، 1983 م .
25– ابن شاكر الكتبي:
– فوات الوفيات والذيل عليها،تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت،ج 1،دط،1973 م.
26–ابن الصغير المالكي:

- تاريخ الرستميين،تح محمد ناصر وإبراهيم نجار،المطبوعات الجميلة، الجزائر، 1986 م.
27-ابن عبد البر (أبو عمر يوسف بن عبد البر النمري الأندلسي):
-جامع بيان العلم وفضله،تحقق: أبو الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، الدمام،السعودية
، ج2، ط1994،1 م .
28-ابن عبد ربه (أبو عمر أحمد بن محمد الأندلسي):
- العقد الفريد، تح : أحمد أمين،أحمد الزين و أخرون،لجنة التأليف و الترجمة ،
مصر، ج4، ط1965،3 م.
29-ابن عبدوس (محمد الجهشياري):
-الوزراء والكتاب، تح: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، مصطفى
البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، ط1، 1938م.
30-ابن عذارى (أبو عبد الله محمد بن محمد المراكشي):
-البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب،د تحقيق: كوليج الآداب، مكتبة صادر، مطبعة
المناهل ،بيروت،د ط،،د ت.
31-ابن العماد الحنبلي الدمشقي (أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد):
-شذرات الذهب في أخبار من ذهب،تحقيق:لجنة إحياء التراث العربي،دار الأفاق الجديدة،
بيروت ،د ط،د ت.
32-ابن عطاء الله السكندري:
- لطائف المنن، تحقيق: خليل منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 2005 م.
33-ابن فارس(أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي):

-معجم مقايس اللغة،تح :عبد السلام هارون ،دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع،مصر،
ج6،د ط، د ت
34-ابن فرحون(برهان الدين):
-الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، مطبعة السعادة، مصر،دط ، 1999 م.
35-ابن فورك (أبو بكر محمد بن الحسن):
-مقالات الشيخ أبي الحسن الأشعرى، تحقيق:دانيال جيماريه ،المكتبة الشرقية بيروت، د ط،
1987م.
36-ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن عبد المجيد بن مسلم بن قتيبة الدينوري) :
- الشعر و الشعراء ،تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر،دار المعارف ، القاهرة، ج1، دط .1982
37-ابن كثير(إسماعيل بن عمر القرشي أبو الفداء عماد الدين):
-البداية والنهاية، نشر مكتبة المعارف بيروت، ج11، د ط، د ت.
-تفسير القرآن العظيم، تح:سامي بن محمد السلامة، دار طيبة و النشر و التوزيع ،الرياض،د ط،1999م .
38-ابن ماجة(أبو عبد الله محمد بن يزيد القز ويني):
-سنن ابن ماجة، تحقيق:محمد فؤاد الباقي دار الفكر، دمشق،ج1 ، د ط، د ت.
39-ابن منظور(محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري):
-لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، د ت.
40-ابن النديم (محمد بن إسحاق أبو الفرج):
-الفهرست:علق عليه: يوسف علي طويل وصنع فهارسه أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1،1996 م.
41-ابن هانئ الأندلسي(أبو القاسم محمد):

- الديوان ، تحقيق: محمد اليعلاوي: دار الغرب الإسلامي،بيروت، ط1، 1994م.
42- ابن وهب (أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان الكاتب):
البرهان في وجوه البيان: تقديم وتحقيق: حفني محمد شرف، مكتبة الشباب، القاهرة، ط1،
1969.
43-ابن هشام (***الأنصاري)***:
- تهذيب سيرة ابن هشام ، تح:عبد السلام هارون،المجمع العلمي العربي الإسلامي بيروت،د ط،د ت.
- السيرة النبوية. تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض. مكتبة العبيكان،
الرياض، ج4، د ط، 1998م .
44- أبو بكر الصولي :
- أدب الكتاب، تعليق: أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1994 م.
45-أبو تمام:
-الديوان،دار المعارف ، القاهرة، ط4،د ت.
46-أبو حاتم السجستاني:
-المعمرون و الوصايا،تح:عبد المنعم عامر،دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، دط، دت.
47-أبو حيان التوحيدي:
- الإمتاع والمؤانسة،**تصحيح وضبط:أحمد أمين وأحمد الزين، دار ومكتبة الحياة، بيروت،**
ج2، د ط، **د ت.**
48-أبو زكريا (يحي بن أبي بكر) :
كتاب سير الأئمة وأخبارهم ،تحقيق: إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر، ط3،1984 م.

49- أبو الصلت (أمية بن عبد العزيز) :
- الديوان، تحقيق : محمد المرزوقي، دار بوسلامة ،تونس،دط، 1979م.
50-أبو الطاهر التجيبي:
- المختار من شعر بشار، اختيار الخالديين، تح، محمد بدر الدين العلوي،دار المدينة للطباعة والنشر، بيروت،د ط،د ت.
51-أبو العتاهية:
-الديوان،نشر:شكري فيصل،دار بيروت للطباعة والنشر،بيروت، د ط ،د ت.
52-أبو العرب (محمد بن أحمد بن تميم القيرواني):
-طبقات علماء إفريقية وتونس ،تحقيق علي الشابي و نعيم حسن اليافي ،الدار التونسية للنشر، تونس،المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر ط2 ،1985م.
53-أبو علي منصور العزيزي الجوذري :
- سيرة الأستاذ جوذر وبه توقيعات الأئمة الفاطميين،تقديم وتحقيق :محمد كامل حسين
ومحمد عبد الهادي شعيرة،دار الفكر العربي،مصر،دت.
54-أبو فراس:
-الديوان،رواية أبي عبد الله الحسين بن خلويه،دار بيروت للطباعة والنشر،بيروت،د ط،
1979 م.
55-أبو ليلى فرج:
- تاريخ الوصايا، دار الثقافة للطباعة والنشر، الدوحة، 1997.
56-بطرس البستاني:
- محيط المحيط، دار الفكر، بيروت، لبنان، د ط، 1977م.
57-الترميذي(أبو عيسى محمد بن عيسى) :
-سنن الترمذي(الجامع الكبير)،دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1996.
58-الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر):

- البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون. مكتبة الخانجي، القاهرة،ط7، 1998م.
59-الجرجانى (أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني):
-أسرار البلاغة، تحقيق: محمود أحمد شاكر،مطبعة المدني،القاهرة ، د ط،1991 م.
-دلائل الإعجاز،تص:محمد رشيد رضا،دار المعرفة للطباعةوالنشر،بيروت،د ط،1981م.
60-الجرجاني (علي بن محمد بن علي الشريف الحسيني الجرجاني) :
-التعريفات،دار الكتب العلمية، بيروت،ط1، د ت.
61-الجوهري (إسماعيل بن حماد) :
- الصحاح، تحقيق: أحمد عبد الغفور، دار الكتاب العربي، القاهرة، د ط، 1977م.
62-حازم القرطاجني:
-منهاج البلغاء وسراج الأدباء،تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة،دار الغرب الإسلامي، د ط
،1981 م.
63-الحصري (أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني):
- زهر الآداب وثمر الألباب، تح: صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية،صيدا ،لبنان،
ط1، 2001 م.
- المصون في سر الهوى المكنون ،تحقيق:النبوي عبد الواحد شعلان، دار سحنون للنشر
و التوزيع، تونس ،1990م .
-جواهر النوادر ولمح الملح، موقع مكتبة مجالس للكتب العربية،دط ،دت.
64-الخطيب البغدادي(أحمد بن علي بن ثابت أبو بكر):
-تاريخ بغداد،مكتبة الخانجى القاهرة، ج12،د ط،1981م.

- الفقيه والمتفقه،تحقيق : عادل بن يوسف العزازي،دار ابن الجوزي، ج1، ط1، 1996.

65-الخشني(أبو عبد الله محمد بن الحارث بن أسد) :

- قضاة قرطبة وعلماء افريقية ،عنى بنشره وصححه ،وراجع أصله: عزت العطار

الحسني،مكتبة الخانجي ، القاهرة،ط2 ، 1994.

66-الدباغ (عبد الرحمن بن محمد بن ناجي):

-معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان: تكملة أبي القاسم بن عيسى بن ناجي:تحقيق:

محمد ماضور ،مكتبة الخانجى ،مصر-المكتبة العتيقة تونس، ج1-2 ،د ط،د ت.

67-الدرجيني(أبو العباس أحمد بن سعيد):

-طبقات المشائخ بالمغرب، تحقيق: إبراهيم طلاي ،مطبعة البعث،الجزائر،ج2 ،د ط، د ت.

68-الذهبي(شمس الدين):

- سير أعلام النبلاء،تحقيق:شعيب الأرناؤوط،محمد نعيم العرقسوسي ،مؤسسة

الرسالة، بيروت ، ج15-16، ط9، 1413هـ.

69-ذو الرمة(غيلان بن نهيس بن مسعود المضري):

الديوان، شرح :الخطيب التبريزي،كتب مقدمته وهوامشه وفهارسه:مجيد طراد ،دار

الكتاب العربي،بيروت،ط2 ، 1996.

70-الرقيق القيرواني:

-تاريخ إفريقية والمغرب، تح: محمد زينهم ،محمد عزب،دار الفرجاني للنشر و

التوزيع،ط1، 1994.م

-قطب السرور في وصف الأنبذة والخمور، تح: عبد الحفيظ منصور،المطبعة الرسمية،

تونس، 1976.
71-الرازي(محمد بن أبي بكر بن عبد القادر):
-مختار الصحاح،تح: محمود خاطر،طبعة جديدة مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، 1995م.
72-الزركلي (خير الدين):
-الأعلام، دار العالم للملايين، بيروت، ج5، ط5،1980 م.
73-الزمخشري (محمود بن عمر جار الله أبو القاسم):
- أساس البلاغة، تحقيق:محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية ،بيروت، ج1،ط1،
1998م .
74-الزهري (أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الزهري) :
الطبقات الكبرى، ،دار صادر، بيروت،د ط، 1960م.
75-السراج الأندلسي (محمد بن محمد):
-الحلل السندسية في الأخبار التونسية ،تحقيق: محمد الحبيب الهيله،الدار التونسية للنشر،
ج1،ط4،1970.
76-السكاكي(أبو يعقوب):
- مفتاح العلوم، تح: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية: بيروت، ط2،1987.
77-السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن):
-المزهر في علوم اللغة،تح: أحمد جاد المولى،وعلى محمد البجاوى، ومحمد أبو الفضل
إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية،القاهرة، د ط، د ت.
78-الشعراني(أبو المواهب عبد الوهاب بن أحمد بن علي الأنصاري):
- الطبقات الكبرى، تح: عبد الغني محمد علي الفاسي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،

ط2006،2م.
79-الشهرستاني(أبو الفتح) :
-الملل والنحل،تحقيق:أحمد فهمي،دار المعارف،القاهرة، ج1،د ط،1967م.
80-الصفدي(أبو الصفاء) :
- الوافي بالوفيات، تحقيق: س. ديدرينغ، فيسبادن، دار النشر فرانز شتاينز، ج 6، 1972.
81-الأصبهاني(أبو الفرج):
- الأغاني، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت، ج3، 1963 م.
82-العماد الأصفهاني (محمد بن صفي الدين):
- خريدة القصر وجريدة العصر قسم شعراء المغرب،تح: محمد العروسي المطوي الجيلاني
بن الحاج يحي،محمد المرزوقي،الدار التونسية للنشر،تونس،ج 1-2-3،ط3، 1986 م.
83-الغبريني(أبو العباس أحمد بن محمد الغبريني) :
-عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تح: رابح بونار، الشركة
الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، ط1981،2.
84- الغزالي (محمد بن محمد):
- إحياء علوم الدين ، مكتبة عبد الوكيل الدروبي ،دمشق،ج1،د ط،د ت.
85- الفرابي(أبو نصر إسماعيل بن حماد):
- تاج اللغة وصحاح العربية،دار إحياء التراث العربي،بيروت،ط1 ،1999م .
86-الفيروز آبادي (مجد الدين) :
-القاموس المحيط، المكتبة التجارية، القاهرة،ط 5، 1995 م.
87-القابسي(أبو الحسن علي بن محمد بن خلف المعافري):

-الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين والمتعلمين، تح: أحمد خالد، الشركة التونسية للتوزيع،
ط1، 1986م .
88-القشيري (أبو القاسم) :
- الرسالة القشيرية تح: معروف مصطفى زريق، المكتبة العصرية، بيروت،د ط، 2005م.
89-القاضي عياض (عياض بن موسى بن عياض السبتي اليحصبي):
- ترتيب المدارك وتقريب السالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، نشر مكتبة المشكاة، وزارة
الأوقاف المغربية المغرب، ج1-7،د ط ،د ت.
90-القاضي النعمان(أبو حنيفة النعمان بن محمد بن منصور بن حيون):
-افتتاح الدعوة،تحقيق:فرحات الدشراوي ،الشركة التونسية للتوزيع تونس ،ديوان
المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط2، 1986م.
- المجالس والمسايرات،تح:محمد اليعلاوي إبراهيم شبوح،الحبيب الفقي، المطبعة الرسمية
التونسية، د ط، 1978م.
91- قدامة بن جعفر(أبو الفرج):
- نقد الشعر، تح: محمد خفاجي، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ط1 ، 1978 م.
- نقد النثر، دار الكتب العلمية، بيروت ،د ط، 1982م .
92-القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي):
- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، المؤسسة المصرية العامة للطباعة
والنشر، القاهرة، ج1،د ط،د ت.
93- المبرد (أبو العباس):
-التعازي و المراثي و المواعظ و الوصايا ،تح : إبراهيم الجمل،نهضة مصر للطباعة و

النشر، مصر،د ط، د ت.
94-مجمع اللغة العربية(إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات و أخرون):
-المعجم الوسيط ، مكتبة الشروق الدولية، مصر، ط4، 2004 م.
95-القزاز (محمد بن جعفر القيرواني):
- ضرائر الشعر، تحقيق وشرح: محمد زغلول سلام ومحمد مصطفى هدارة، مكتبة
المعارف الإسكندرية،د ط، 1972م .
96-القزويني (زكريا):
-عجائب المخلوقات وغراب الموجودات، مكتبة البابي الحلبي وأولاده،مصر ،ط5، 1980م.
97- المراكشي(عبد الواحد بن علي التميمي):
- المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عهد الموحدين: تحقيق:
صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية صيدا ، بيروت، ط1، 2006 م.
98-مسلم(أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري):
- صحيح مسلم،تحقيق:محمد عوامة ،دار الكتاب العربي ،بيروت ،ط2، 1995 م.
99-المفضل الضبي(أبو العباس):
-المفضليات،تح :أحمد شاكر هارون،دار المعارف القاهرة، ط3،د ت.
100-المقري (شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني):
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. تح: يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر،
بيروت، ط1، 1986.
101-المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي):
- اتعاظ الحنفاء ، تحقيق :جمال الدين الشيال ، طبع دار التحرير، القاهرة، ج1-2-3، دط،1963م.

- المقفى الكبير، تحقيق محمد يعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج 1، 1991م .

102-المالكي(أبو بكر عبد الله بن أبي عبد الله):

-رياض النفوس في طبقات علماء أفريقية، نشر: البشير البكوش ، بيروت ، د ط، ج1-2، 1981م.

103-الميداني(أبو الفضل احمد بن محمد):

-مجمع الأمثال ،تح: محمد محيى الدين عبد الحميد دار المعرفة ،بيروت، ج1 ،د ط،د ت.

104-النابغة الذبياني:

- الديوان،شرح حنا ناصر الحتي، دار الكتاب العربي،بيروت، ط1، 1991.

105- النهشلي عبد الكريم:

-الممتع في صنعة الشعر،تحقيق: محمد زغلول سلام، منشأة المعارف الإسكندرية،دط،دت.

106-النووي(أبو زكريا محي الدين بن شرف):

- شرح صحيح مسلم، طبعة دار الفكر، بيروت، 1981م.

107-النويري(شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب):

- نهاية الإرب في فنون الأدب،تحقيق: مفيد قمحة و أخرون، دار الكتب العلمية، لبنان،

ط1، 2004 م.

108-يحيى بن حمزة العلوي:

-الطراز كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الأعجاز، دار الكتب العلمية، بيروت، ج1، 1982 م .

109-ياقوت الحموي(شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي):

- معجم الأدباء إرشاد الأديب إلى معرفة الأديب، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، ج 1 بيروت، د ط ، د ت.

-معجم البلدان، دار الفكر، بيروت،ج3، د ط، د ت.

- **المراجـــــع:**

110- آدم متز :
-الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، تر:صالح محمد عبد الهادي أبو ريدة ، دار
الكتاب العربي، بيروت، ط 4 ، 1967م .
111-إبراهيم علي أبو الخشب:
- تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني،الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الإسكندرية
، د ط، د ت.
112-إبراهيم السعافين وآخرون:
- أساليب التعبير الأدبي، دار الشروق،عمان، ط1، 1997.
113-إبراهيم علي شـــعوط :
-أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ، دار الشروق،جدة ،المملكة العربية السعودية، د ط،
1403هـــ.
114-أبو القاسم سعد الله :
- تاريخ الجزائر الثقافي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ج1 ، ط2،1985م.
115-أبو القاسم محمد كرو وعبد الله شريط:
-شخصيات أدبية من المشرق والمغرب ،دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ط2 ، 1966م.
116-أبو القاسم محمد كرو:
-عصر القيروان ،دار طلاس للدراسات والنشر و الترجمة،دمشق، ط3، 1989م.
117- أحمد أمين:
-فجر الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، ج1 ،ط10 ،د ت.
-ضحى الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، ج1 ،ط10 ،د ت.

118-إحسان عباس:

-تاريخ الأدب الأندلسي: عصر الطوائف والمرابطين ،دار الثقافة ، بيروت، ط1962،1 م .

- فن السيرة ، دار الشروق عمان، الأردن ، ط5، 1988 م.

119-أحمد رحماني:

-النقد التطبيقي الجمالي و اللغوي في القرن الرابع الهجري،عالم الكتب الحدث،لبنان،2008.

120- أحمد زكي صفوت:

-جمهرة رسائل العرب في العصور العربية الزاهرة،المكتبة العلمية، بيروت،ج2،د ط،1939م.

121-أحمد الزاوي:

-الجواهر الإكليلية في أعيان علماء ليبيا من المالكية، دار البيارق،عمان، بيروت، ط1999،1م.

122-أحمد الشايب:

-الأسلوب، مكتبة النهضة المصرية،القاهرة، ط6، 1966م.

123-أحمد الكاتب:

-تطور الفكر السياسي الشيعي من الشورى إلى ولاية الفقيه،د د ن، بغداد د ط، 1997م.

124-أحمد مختار العبادي:

-التاريخ العباسي والفاطمي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية مصر، د ط، د ت.

125-أحمد يزن:

-النقد الأدبي في القيروان في العهد الصنهاجي، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع ،مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1986.

126-أرسطو:

-الخطابة ،تعريب: إبراهيم سلامة ،طبعة القاهرة ، د ط ،1986 م.

127-اشرف محمد موسى:
-الخطابة وفن الإلقاء ،مطبعة الخانجي،القاهرة، ط1، 1978م.
128-إسماعيل العربي:
-المدن المغربية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.
129- أشرف محمد موسى:
-الخطابة وفن الإلقاء ،مطبعة الخانجي ،القاهرة، د ط، 1978م.
130- بدوي طبانة:
-علم البيان، مكتبة الأنجلو المصرية، ط4، 1977م.
132-برنا رد لويس B.Lewis:
-أصول الإسماعيلية والفاطمية و القرمطية ،دار الحداثة بيروت، ط1،1980 م.
133-بشير خلدون:
-الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي، الشركة الوطنية للطباعة والنشر والتوزيع
الجزائر، 1981م.

134-بكري الشيخ أمين :
- البلاغة العربية في ثوبها الجديد ،علم المعاني، دار العلم،بيروت ،ج1، ط1 ، 1979م.
135-بشير المجدوب:
-حول مفهوم النثر الفني عند العرب القدامى، طبع الدار العربية للكتاب،القاهرة،د ط،1982م.
136-جابر عصفور:
-الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي،دار المعارف،مصر،ط2 ،1980م.
- مفهوم الشعر،مؤسسة فرح للصحافة والثقافة، مصر،ط4 ،1990م.

137-جوايتاين :

- دراسات في التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية،تح: عطية القوصي ،وكالة **المطبوعات**

، الكويت ، 1980م.

138-حاجيات عبد الحميد :

- تاريخ الجزائر في العصر الوسيط منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة

الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954،طبعة خاصة بوزارة المجاهدين ،دت.

139-حسن حسني عبد الوهاب:

- بساط العقيق في حضارة القيروان و شاعرها ابن رشيق،المجمع التونسي للعلوم و الآداب

و الفنون بيت الحكمة،تونس،2009.

-تاريخ الدولة الفاطمية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط4، 1981م .

- خلاصة تاريخ تونس،تحقيق حمادي الساحلي،دار الجنوب للنشر، تونس، 2001م.

- شهيرات تونسيات ،مكتبة المنار ، تونس ، ط2 ،م1965.

- مجمل تاريخ الأدب التونسي(من فجر التح العربي لافريقية إلى العصر الحاضر)،مكتبة

المنار ، تونس،1968م.

- ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية ، القسم الأول والثاني، مكتبة المنار

،تونس ، ط2، 1972 م.

140-حنا الفاخوري:

- الحكم والأمثال، دار المعارف ،مصر، ط 4 ،1980م.

- الجامع في تاريخ الأدب العربي،دار الجيل ، بيروت،ط1، 1986.

141-رابح بونار:

-المغرب العربي تاريخه و ثقافته ، دار الهدى ،عين مليلة ، الجزائر، ط3، 2000 م.
142-الراجكوتي :
- ابن رشيق :المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة،1343هـ.
143-زكي مبارك:
-النثر الفني في القرن الرابع، دار الجيل، بيروت، ج1، د ط، 1975.
144-سليمان بن موسى الكلاعي:
-الاكتفاء في مغازي رسول الله و الثلاثة الخلفاء،تح:مصطفى عبد الواحد،مكتبة الخانجي ،ج1،
1970م.
145-السيد أحمد الهاشمي :
- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، دار ابن خلدون، الاسكندرية،مصر، دط، دت.
146-سيد قطب:
-النقد الأدبي أصوله ومناهجه،د ط ،دار الكتب العربية، بيروت، دت.
147-الشاذلي بويحيى :
- الحياة الأدبية بافريقية في عهد بني زيري،،تعريب:محمد العربي عبد الرزاق، المجمع
التونسي للعلوم و الآداب و الفنون (بيت الحكمة)،تونس،م2،د ط،م1999.
148-شعيب حليفي:
- هوية العلامات في العتابات و بناء التأويل ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء، ط1،
2005 م.
149-شاكر تهاني:
-السيرة الذاتية في الأدب العربي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت،2002.

150-شكري المبخوت:
- سيرة الغائب، سيرة الآتي، دار الجنوب للنشر، تونس،دط، 1992.
151-شوقي ضيف:
-الأدب العربي-عصر الدول و الإمارات-ليبيا تونس صقلية -دار المعارف، مصر 1992م.
- الترجمة الشخصية، دار المعارف، القاهرة،د ط، 1956م.
-تاريخ الأدب العربي -العصر العباسي الأول، دار المعارف ، القاهرة،ط 6 ،1975م .
- فصول في الشعر ونقده ، دار المعرف ، القاهرة ، مصر ، ط3 ،م1988.
- الفن ومذاهبه في النثر العربي، مكتبة الأندلس، بيروت ، د ط، د ت.
-في النقد الأدبي ،مكتبة الدراسات الأدبية،دار المعارف ،مصر، ط3 ،د ت.
152-صلاح الدين عبد التواب:
- الصورة الأدبية في القرآن الكريم، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، ط1 ، 1995م.
153-صلاح عبد الفتاح الخالدي:
-نظرية التصوير الفني عند سـيد قطب، شركة الشهاب الجزائر، ط1 ،1988 م.
154- صالح محمود عبد الرحيم:
- فنون النثر في الأدب العباسي. وزارة الثقافة، الأردن،د ط، 1994م .
155-صفوت أحمد زكي:
- جمهرة رسائل العرب في العصور العربية الزاهرة، ج2، المكتبة العلمية،بيروت، 1939م .
156-الطاهر بونابي:
-التصوف في الجزائر خلال القرنين(6 ه و7ه12 / م و13م)، دار الهدى للطباعة و النشر و التوزيع، الجزائر ،2007 م.

157-الطاهر الزاوي :

-تاريخ الفتح العربي في ليبيا،دار المدار الإسلامي،ط3، 2004 م .

158-الطاهر محمد التوات:

- أدب الرسائل في القرنين السابع والثامن، في المغرب العربي ، ديوان المطبوعات الجامعية

،الجزائر، د ط ، 1993م.

159-عباس محمود العقاد:

-أشتات مجتمعات في اللغة والأدب، دار المعارف،مصر،د ط،1970م.

160-عبد الحليم حسين الهروط :

-النثر الفني عند لسان الدين بن الخطيب ،دار جرير ،عمان،1966 م.

161-عبد الحليم عويس:

- دولة بني حماد صفحة رائعة من التاريخ الجزائري، دار الشروق، بيروت ، ط1،1980م .

162-عبد الحميد يونس:

-الهلالية في التاريخ والأدب الشعبي، مركز الدراسات الشعبية، القاهرة ، 2003 م.

163-عبد الرءوف مخلوف :

- ابن رشيق القيرواني، دار المعارف، مصر،د ط، 1964 م.

164-عبد الرحمن حجازي:

- الخطاب السياسي في الشعر الفاطمي (دراسة أسولبية) المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ط1 ،2005 م.

165-عبد الرحمن الجيلالي:

-تاريخ الجزائرالعام، دار الثقافة، بيروت ، ج1، ط4، 1980 م.

166-عبد الرحمن ياغي :

-حياة القيروان و موقف ابن رشيق منها، دار الثقافة ، بيروت،د ط، دت.

167-عبد العزيز عتيق:

-علم البيان،دار النهضة العربية للنشر والتوزيع،بيروت،ط1 ،1974م.
168- عبد العزيز قلقيلة:
-النقد الأدبي في المغرب العربي، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب،ط2، دت.
169-عبد العزيز المجدوب :
-الصراع المذهبي بإفريقية إلى قيام الدولة الزيرية،الدار التونسية للنشر، تونس ،ط2، 1985م.
170-عبد القادر حسين:
-فـــن البديع، دار الشروق، بيروت، ط1، 1983م.
171-عبد الفتاح مقلد الغنيمي:
-موسوعة تاريخ المغرب العربي، ج2، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط2، 1994م.
172-عبد اللطيف الحريري:
- فن السيرة بين الذاتية والغيرية في ضوء النقد الأدبي، دار السعادة، القاهرة ، 1996 م.
173- عبد النور جبور:
- المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، مصر، ط1 ،1979 م.
174-عثمان بن عبد الرحمن بن الصلاح:
- علوم الحديث ، تح: نور الدين عتر ، المكتبة العلمية ، المدينة المنورة ،1966م .
175-عثمان الكعاك:
-موجز التاريخ العام للجزائر ،ش ت ت، تونس ، د ط ، 1958 م.
176-عادل نويهض:
-معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر ، بيروت ط2 ، 1980م.
177-عز الدين اسماعيل:
-الأدب وفنونه ،دار الفكر العربي،بيروت، ط8،1983م،
178-علي محفوظ:

-فن الخطابة وإعداد الخطيب، دار الاعتصام، بيروت، د ط، د ت.
179-عمار بلحسن :
-الأدب والأيديولوجيا، المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر،د ط ،1984م.
180-عمار هلال:
- العلماء الجزائريون في البلدان العربية فيما بين القرنين (14/3هــ)، د م ج، الجزائر،
د ط،1995 م.
181-عمر فروخ:
- تاريخ الأدب العربي في المغرب والأندلس،دار العلم للملاين،بيروت لبنان،ط 4،1984 م.
182-غازي عبد الرحمن القصيبي:
- سيرة شعرية،تهامة للنشر، جدة،ط3، 1988 م.
183-فؤاد سكيز:
-تاريخ التراث العربي،الهيئة المصرية العامة للكتاب،مصر،ج2،د ط 1978م.
184-فرحات الدشراوي:
-الخلافة الفاطمية بالمغرب،عربه:حمادي الساحلي،دار الغرب بيروت، ط1، 1994م.
185-فندريس جوزيف:
- اللغة ، تر: عبد الحميد الدواخلي، محمد القصاص. مكتبة الأنجلو مصرية، دط، 1950 م.
186-فهد ناصر عاشور:
- التكرار في شعر محمود درويش، دار الفارس، الأردن،ط1، 2004 م.
187-كارل بروكلمان:
- ما صنف العرب من أحوال أنفسهم، المنتقى من دراسات المستشرقين،دط،1955 م.

188-مبارك الميلي:

-تاريخ الجزائر في القديم والحديث، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1976م.

189-مجدي وهبة وكامل المهندس:

-معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، ط2 ، 1984 م.

190-محمد جابر فياض:

-الكناية ، دار المنار للنشر و التوزيع، السعودية ، ط1 ، 1409هـ .

191-محمد تحريشي :

-أدوات النص،منشورات اتحاد الكتاب العرب،دمشق،2000م .

192-محمود التو نجي:

-المعجم المفصل في الأدب، دار الكتب العلمية ، بيروت ،لبنان،ج2،ط1999،2

193-محمد حسن:

-التراجم والسير، دار المعارف، القاهرة، د ت.

194-محمد جمال الدين سرور:

-تاريخ الدولة الفاطمية، دار الفكر العربي، القاهرة، مصـــر ، د ط،د ت.

195-محمد حمدي المناوي:

- الوزارة والوزراء في العهد الفاطمي، دار المعارف ،مصــــــر، د ط،1970 م.

196-محمد رجب النجار:

- النثر العربي القديم، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع، الكويت، ط 2، 2002م.

197-محمد رضا الشبيبي:

- أدب المغاربة والأندلسيين في أصوله المصرية ونصوصه العربية ،دار اقرأ ، بيروت ، ط2 ،1984 م.

198-محمد زغلول سلام:

- الأدب في العصر الفاطمي"الكتابة و الكتاب"، منشاة المعارف، الإسكندرية، 1995 م.

- تاريخ النقد العربي إلى القرن العاشر الهجري، دار المعارف، مصر،ج2. 1990م.

199-محمد الصالح مرمول:

- السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية في بلاد المغرب الإسلامي ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر، د ط ،1983 م.

200-محمد الطمار :

-تاريخ الأدب الجزائري ،الشركة الوطنية للنشر و التوزيع،الجزائر،د ط، 1981 م.

- الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع د ط،1983 م.

201-محمد طه الحاجري:

- مرحلة التشيع في المغرب العربي ــ وأثرها في الحياة الأدبية ــ دار النهضة العربية ،

بيروت ، ط1 ، 1983 م.

202-محمد عبد الغني الشيخ:

-النثر في العصر العباسي الأول، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ج1 ،د ط ،1983م.

203-محمد عبد الغني حسن:

- التراجم والسير، دار المعارف، القاهرة،ط3 ، 1980م.

204-محمد الصلابي:

-الدولة الفاطمية،مكتبة الإيمان، المنصورة ، ط1 ،2005.

- الدولة العبيدية في ليبيا،دار البيارق،عمان،الأردن،ط1،1418 هــ.

205-محمد غنيمي هلال:

-النقد الأدبي الحديث، دار العودة،بيـــــروت، ط 1،1982م.

206–محمد فريد وجدي:
– دائرة معارف القرن العشرين، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت –لبنان، مج8، ط3،1971 م.
207–محمد لطفي اليوسفي :
–في بنية الشعر العربي المعاصر،دار سراس للنشر، تونس، 1985.
208–محمد مرتاض:
–النقد الأدبي القديم في المغرب العربي، نشأته وتطوره ،(دراسة وتطبيق) ، منشورات
مطبعة اتحاد الكتاب العرب ، دمشق، 2000 م.
209–محمد المرزوقي و الجيلاني ابن الحاج يحي :
–علي الحصري القيرواني، تقديم محمد اليعلاوي، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون(بيت الحكمة)،تونس،،د ط، 2009 م.
210–محمد محفوظ:
–تراجم المؤلفين التونسيين، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج 2، 1982م .
211– محمد مفتاح:
– الخطاب الشعري (استراتيجية التناص)، المركز الثقافي العربي،بيروت، ط3، 1992 م.
– دينامية النص(تنظير وإنجاز)،المركز الثقافي العربي،بيروت،الدار البيضاء،ط1990،2
212–محمد مندور:
– أصول النقد الأدبي ، مكتبة نهضة مصر،القاهرة، ط2، 1973م.
213–محمد نبيه حجاب :
–بلاغة الكتاب في العصر العباسي، ، المطبعة الفنية الحديثة، ط1، 1965م .
214–محمد الهادي الطرابلسي:
–خصائص الأسلوب في الشوقيات،منشورات الجامعة التونسية دط،1981م.

215-محمود إسماعيل عبد الرازق:
-الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري، دار الثقافة، بيروت، ط2، 1985م.
216-موسى شاهين لاشين:
-فتح المنعم (شرح صحيح مسلم)،دار الشروق،مصر، ج7، ط1،2002 م .
217- موسى لقبال ورشيد بورويبة وآخرون :
-الجزائر في التاريخ ، المؤسسة الوطنية للكتاب ،الجزائر، ج3، دط، 1984م .
218-موسى لقبال:
-دور كتامة في تاريخ الدولة الفاطمية ،المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، د ط ، 1979 م.
219-محمد اليعلاوي:
-الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي،دار الغرب الإسلامي،بيروت، ط1،1986م.
-ابن هانئ المغربي الأندلسي -شاعر الدولة الفاطمية-،دار الغرب الإسلامي ،بيروت،
د ط،1985م.
- تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب، دار الغرب الإسلامي،بيروت، د ط، 1986م.
220-مصطفى غالب:
-تاريخ الدعوة الإسماعيلية، دار الأندلس، بيـــــروت، ط3،1979 م.
221-معمر حجيج وآخرون:
-فن الإخبار والسرد في التراث النثري المغربي (من القرن الرابع إلى السادس الهجري)،مشروع بحث ،جامعة الحاج لخضر باتنة، 2007.
222-نجم الدين الطوخي:
-تحكم الجدل في علم الجدل.تحقيق فولفهارت هاينريشس ،المكتبة الشرفية،بيروت ، د ط، 1978 م.

223–نجم الدين الهنتاتي:
– المذهب المالكي بالغرب الاسلامي إلى منتصف القرن الخامس الهجري، منشورات تبر
الزمان، تونس، 2004.
224–نصر سلمان:
–من أعلام المذهب المالكي ، دار ابن حزم ، الجزائر، ط1، 2011 م.
225–هادي روجر إدريس:
–الدولة الصنهاجية تاريخ افريقية في عهد بني زيري من القرن 10إلى القرن12م،
ترجمة : حمادي الساحلي،دار الغرب الإسلامي،بيروت،ج1 ،ط1، 1992 م.
226–يحي بوعزيز:
– أعلام الفكر و الثقافة في الجزائر المحروسة، ج1،دار الغرب الإسلامي، بيروت،ط1، 1985م .
227–يوسف بن أحمد حواله:
–الحياة العلمية في إفريقية (منذ إتمام الفتح إلى منصف القرن الخامس الهجري)،
سلسلة بحوث الدراسات الإسلامية، مكة،ج2، 2000م .
228–يوسف محمد يوسف:
–الخطابة، مطبعة الفجر الجديد، بيروت، ط1،1992 م.

فهرس الموضوعات

مقدمة...أ-هـ

- الفصل التمهيدي

توطئة...10-8

أولا-الروافد المشكلة للبنية الفكرية و الثقافية و الأدبية في القرنيين الرابع و الخامس للهجرة

1- أمراء الـــدولــة ودورهم في النهضة الفكرية والأدبية..................32-10

2- الحواضر العلمية ودورها في النهضة الفكــرية والأدبية................44-32

3- الرافد المذهبي ودوره في النهضة الفكـــرية والأدبية................48-44

4- الرافد اللغوي ودوره في النهضة الفكـــرية والأدبية................51-48

ثانيا- جوانب من الحياة الفكرية و الثقافية و الأدبية في القرنيين الرابع و الخامس للهجرة

1- في عهد الدولة العبيديـــة..55-51

2-في عهد الدولة الصنهاجية...58-55

3-في عهد الدولة الحماديـــة...64-59

-الباب الأول: الأشكال النثرية غير السردية

توطئة...68-66

- النثر المغربي وإشكالية الدراسة.......................................71-68

- البنيات المشكلة للنثر المغربي في القرنيين الرابع و الخامس الهجريين...71-76

-الفصـــل الأول: الخــــــطابة

1- الخطابة لغة و اصطلاحا...81-79

2- الخطابة في المــغرب 82-81

2-1-الخطابة الدينية..86-82

2-2-الخطابة السياسية..91-86

2-3-الخطابة الاجتماعية 93-91

2-4-الخطابة الأدبية.... 97-93

3- الخطابة البناء و الشكل...101-97

-الفصــل الثاني: المنـــــــــــاظرات

1- المناظرات لغة واصطلاحا..107-104

2- أسس المناظرة..108-107

3- المناظرات في المغرب..111-108

4- المناظرة أنواعها ومجالسها.............................. 114-111

5- المناظرات المذهبية..................................... 131-114

6- المناظرات الأدبية...................................... 135-132

-الفصــل الثالث: الوصايا

1- الوصايا لغة و اصطلاحا..141-139

2- أنواع الوصايا.. 144-142

3- فن الوصايا في المغرب...145-144

4- الوصايا الدينيـــة...145-144

5- الوصايا السياسية..149-147

6- الوصايا الاجتماعية..151-149

-الفصل الرابع: التوقيعات

1- التوقيعات لغة واصطلاحا.. .157-154

2- التوقيعات في المغرب..158-157

3- أنواع التوقيعات المغربية وموضوعاتها..............................167-158

4- خصائص التوقيعات المغربية...171-167

-الباب الثاني: الأشكال النثرية السردية

توطئة...175-173

-الفصــل الأول: الرسائل

1- **الترسل لغة واصطلاحا**.. .179-178

2- فن الترسل في بلاد المغرب...................................... ..179-183

3- **أنواع الرسائل وموضوعاتها** 183-209

4- بنية الرسائـــل:..209-215

-الفصـــل الثاني: السير و التراجم

1- **السير و التراجم لغة واصطلاحا**... ...218-223

2- السير و التراجم في المغرب.. 223-247

3- تقنيات السرد في السير و التراجم................................ ...247-255

-الفصل الثالث: حكايات الكرامات

1- **الكرامات لغة واصطلاحا**... .258-260

2- قصص الكرامات المغربية... 260-264

3- الحكايات المغربية التصنيف و المضمون 264-265

4- نماذج من حكايات الكرامات المغربية 265-275

5- تقنيات السرد في قصص الكرامات.................................... ...275-279

6- السياق المرجعي لنصوص الكرامات.................................. 279-282

-الباب الثالث: النثر التأليفي

توطئة...284

1- **التأليف لغة واصطلاحا**... 285

2- **التأليف في المغرب**... 285-290

-الفصـــل الأول: الكتابات الفكرية والتعليمية والفقهية و التاريخية

1- مؤلفات القاضي النعمـــــان.. 297-301

2- طبقات علماء إفريقية وتونس لأبي العرب........................... 301-304

3- تاريخ القيروان لابن الرقيق القيرواني................................. 304-308

4- الرسالة المفصلة للقابسي... 308-316

-الفصـــل الثاني: الكتابات النقدية

1- **مؤلفـــات نقديـــــة تنظيريـــــة**...318-325

1-1- العمـــدة لابن رشيـــــــــــــــــــق...............325-327
1-2- قراضة الذهب في نقد أشعار العرب لابن رشيق..............327-329
1-3- الممتع في علم الشعر وعمله" للنهشلـــــــي..............329-331
1-4- ضرائر الشعر للقزاز القيروانـــــــــــــي............ 331-333
2- **مؤلفـات نقدية تحليليـة نصيـــــة**..........................333
2-1- أنموذج الزمان في شعراء القيروان لابن رشيــق............ 333-337
2-2- المختار من شعر بشار للتجيبـــــــــــــي............ 337-333
2-3- زهر الآداب وثمر الألباب للحصـــــــــري.............343-345
2-4- مسائل الانتقاد لابن شـــــــــــــــرف............345-349
-الفصل الثالث: الكتابات الأدبية العامة
1- سيرة الأستاذ جوذر...354-358
2- المصون في سر الهوى المكنون للحصري............................358-365
3- جمع الجواهر في الملح والنوادر للحصري..........................365-372
4- إعلام الكلام لابن شرف...372-377
5- وصف الأنبذة و الخمور لرقيق القيروانـــي.........................377-386
-الباب الرابع: البناء الفني للنثر المغربي
توطئة...388-390
-الفصـــل الأول: المستوى المعجمي التركيبي
1- المستوى المعجمي..390-311
2- المستوى التركبي.. 315-319
-الفصـــل الثاني: المستوى الدلالـــي
1- مفهوم الصورة الفنية في النقد العربي.................................321-325
2- أساليب التصوير مصادرها و أنماطها................................325-340

-الفصل الثالث: المستوى الصوتي

1- التشكيل الموسيقي في النثر..340-341

2- الأبعاد الفنية للتشكيل الموسيقي....................................342-362

-الخـــــــاتمة..363-394

-قائمة المصادر و الـــمراجع..395-403

-فهرس المحتويات...403-411